

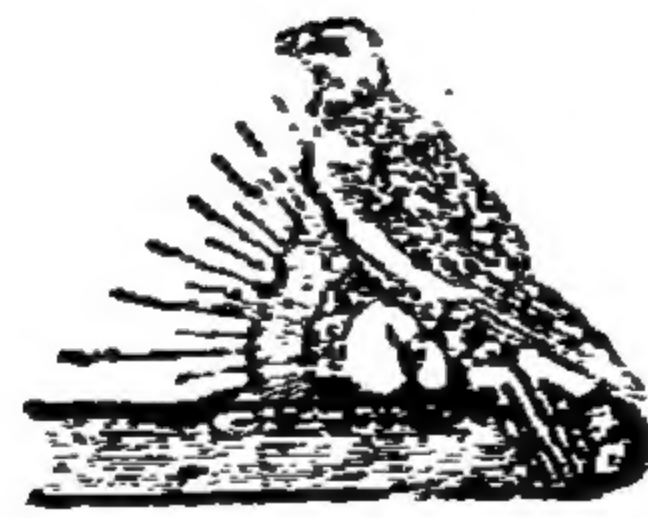
الشِّقَّةُ الْأَسْلَامِيَّةُ

فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ

تأليف

حَسَنُ مَوْلَانِ

درجة ماجستير في التاريخ بمرتبة الشرف



يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

مُطْبَعَةُ حَجَّازِي بِالْقَاهِرَةِ

تليفون ٥٥٤٨٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى : مايو سنة ١٩٣٥

الطبعة الثانية : مارس سنة ١٩٣٨

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مقدمة

بقلم المؤرخ الجليل الأستاذ محمد شفيق غربال
أستاذ للتاريخ الحديث بكلية الآداب بالقاهرة

في القرن العاشر الهجري أو السادس عشر الميلادي بلغ ملك السلاطين من آل عثمان ما قدّر له من كمال النمو ، وأصبح أهل البلقان من يونان ورومانين وبلغار وصقالبة وألبانيين من رعايا الدولة العثمانية ، ولم يقف اتساع الدولة في أوروبا عند ذلك الحد ، فقد ملك العثمانيون بلاد المجر ووصلت جيوشهم عند فينا ، ولولا فشلها في الاستيلاء على هذه المدينة لكان لتاريخ أوروبا الوسطى شأن آخر ، أما في آسيا فقد تم في ذلك العصر اندماج الإمارات التركية الأناضولية في العالم العثماني ، وهي الإمارات التي كشف لنا ابن بطوطة في رحلته عن جوانب طريفة من عيشة أهلها ، وفي آسيا أيضاً كان الكفاح الحربي بين العثمانيين وخصومهم من الصفويين والمماليك ، وقد دارت الدائرة على المماليك فتمزق ملكهم وامتد حكم سلاطين القسطنطينية إلى الشام ومصر وورثوا ما كان للغوري وأسلافه من نفوذ في الحجاز وفي ساحلي البحر الأحمر اليمني والأفريقي ومن حقوق وواجبات

في الأرض المقدسة . أما الصفويون فكان أمرهم على غير ذلك ، فقد استطاع اسمعيل الصفوي وخلفاؤه أن يثبتوا للعثمانيين - ولم يقابلوهم بمجد السلاح فقط كما فعل الغوري وطومان باي - بل واجهوهم بنهضة قومية دينية كانت أمضى من السيف ، حقيقة استطاع خلفاء سليم الأول أن يخضعوا الجزيرة والعراق ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحولوا دون قيام إيران الحديثة .

ويختلف المؤرخون في الكشف عن سر هذا الفتح العظيم وعما أدى إلى إقامة هذه الدولة الإسلامية الجديدة على انقاض دول الممالك والروم والصقالبة وما خلفته إغارات التتار والصليبيين من مختلف الممالك والأمارات ، وعما دعا السلاطين الواحد بعد الآخر إلى الامعان في شن الحروب في البر والبحر ، في أوروبا وأفريقية وآسيا . والداعي إلى هذا كله - فيما أرى - هو نصرة الاسلام ونشر بنوده في الأرضين والذب عن يرضته : لنصرة الاسلام نشأت أماره عثمان ولاجلها خلق أرخان أداة النصر - العسكر الجديد - ، وفي سبيلها استشهد مراد في ساحة قوصوة وفتح محمد القسطنطينية وتطلع إلى كرسي المسيحية الآخر - روميه - ولصون الاسلام سلك جيش سليم أوعر المسالك - الجبال إلى تبريز والصحراء إلى القاهرة - ولحفظ هذا التراث أنفق سليمان أحسن العمر في ميادين القتال ، وحال دون امتداد النفوذ الأوروبي إلى سواحل البحر المتوسط وجزره واعترض تقدم الأوروبيين في اتجاه البحار العريية . فلا عجب إذن أن أصبح العالم الاسلامي والدولة العثمانية في نظر الأوروبيين اسمين لشيء واحد .

وليس من شك في أن ذلك العالم الاسلامي قد تطور بموجب الفتح العثماني تطوراً جديداً ، كما أنه ليس من شك في أن ذلك الفتح يبدأ عهداً جديداً في تاريخ أمم أوروبا الشرقية ، وبحق للمؤرخ أن يجعل منه أساس التاريخ الحديث للشرق العربي وللشرق الأوروبي - وأما ما ذهب إليه بعض الباحثين من الغرض من شأن هذا الحادث فأمر لا يقوم على نظر قويم : فالقول مثلاً بأن المصريين

وغيرهم قد خضعوا لحكام من الترك قبل خضوعهم للترك العثمانيين ، وأن كل ماجرى في القرن العاشر هو استبدال ترك بترك يغفل فروقا جوهرية بين النوعين من حكم الترك ، ولا يستطيع أى مستقص لأحوال المصريين أو العراقيين إلا أن يدرك مقدار اختلاف طبيعة الحكم السلجوقي في بغداد والخلافة العباسية قائمة ، والحكم المملوكى فى القاهرة ، وتقاليد الفاطميين والأيوبيين مستمرة ، عن حكم السلاطين العثمانيين للمصريين وللعراقيين على يد نوابهم من الباشوات ، تؤيد هؤلاء أو تعرقلهم جماعات من أجلاف الجند وأخلاط الناس : وأين هؤلاء الباشوات من سلاطين بغداد وسلاطين القاهرة ؟ وأين ادارتهم العابثة من تلك الدواوين العربية اللسان الجامعة لكل ذى بيان ولكل صاحب فضل ؟ والحق ان العرب شقوا بالعثمانيين والعثمانيين شقوا بالعرب شقاء يدركه كل من قرأ تاريخ الشام والعراق واليمن فى القرون الأربعة الأخيرة ؛ ومثل هذا يقال (وأولى به أن يقال) عن خضوع الصقالبة واليونان لحكومة غربية عنهم فى كل شىء .

وذلك أن الأمم الشرقية - الأوروبية والعربية - التى خضعت لتلك الحكومة خيم عليها نوع من الركود زهاء ثلاثة قرون ، وأنها تعرضت بسبب هذا الخضوع لأحداث واحدة أ كسبتها لونا من الوحدة التاريخية هى الظاهرة فى هذا الكتاب .

ولا يحق لنا أن ننسب هذا الركود لكون الحكام العثمانيين من شعب يميل إلى المحافظة بسليقته ، فالعثمانيون لم يكونوا من شعب واحد ، ولم تكن العثمانية إلا دلالة على الاتماء لطائفة الحاكمين . هذا إلى أن نظم العثمانيين الأولى وما اختطه سلاطينهم الأول لشئون الحرب والسياسة كان على جانب عظيم من المرونة والمقدرة .

قد يرجع الركود إلى أن القوة العثمانية حالت بلا شك دون اتصال أمم الدولة بالحضارات الأجنبية عموما وبالحضارة الأوروبية الناهضة خصوصا .

ولكن الباحث المنصف لا يستطيع أن يسلم بأن الأوروبيين في القرن السادس عشر وما تلاه من الأزمنة كانوا على استعداد لأن يقدموا للشرقيين المسيحيين والمسلمين من رعايا السلطان ثمرات نهوضهم العلمي هدية خالصة ، كما أن الباحث لا يستطيع أن يجهل أن تقدم الحضارة الأوروبية كان في أغلب الأحيان اسماً مرادفاً لما كانت تقوم به الأسرات المالككة في أوروبا من الحروب في سبيل المجد ، ويشدأزر الملوك - ولكن في سبيل المجد الأعلى - رجال الدين وفي سبيل الاستقلال رجال المال ، أما والامر كذلك فلا سبيل إلى القول بأن الشرقي العثماني كان يستطيع الاستفادة من النهضة الأوروبية دون أن ينزل عن رجولته وحرية .

والصحيح في مسألة الركود هو أن الدولة العثمانية تولت أمر أمم كانت على نوع من الاعياء لم يكن الحكم العثماني قادراً على أن يزيله عنها . فالعثمانيون كانوا قوماً يأخذون ولا يعطون ، تشهد بذلك خططهم وفنهم وآدابهم ، فلم يكن منهم إلا أن نظموا ما وقع تحت سلطانهم في ملك عريض ، وعملوا على ألا يتطرق اليه تغير وتعديل ، شأنهم في هذا شأن الدول الكبرى المتعددة الأجناس والأديان تهددها دول كبرى أخرى معادية .

ولم يقم الملك العثماني إذن على فكرة سياسية أو اجتماعية جديدة ، ولم يفتح لرعاياه العديدين المختلفين باباً لتنظيم علاقاتهم المختلفة على غير ما عرفوا من المبادئ ، فضاعت عليهم بذلك الاستفادة مما كان لهذا الملك من موقع جغرافي فريد في نوعه ، ومن ميزات اشتماله على أمم لها ما لها من نصيب وافر في تقدم الإنسانية ، ولا أدل على ما أصاب أمم الدولة العثمانية من سوء أن أصبح تخلصها من حكم الدولة شرط خروجها من شقائها وسلوكها طريق العزة والرفاهية .

وتاريخ هذا التخلص هو تاريخ الشرق الأوروبي والشرق العربي في القرنين الحالى والسابق ، وقد سبقهما عصر تعرضت فيه أمم الشرقين لآفات

— ز —

واحدة من سوء الحكم والاختلال والاضطراب وعبث الأقوياء بالمستضعفين
وكان مصير هذه الأمم عبارة عن « مسألة » هي المسألة الشرقية ! واكتسبت
بذلك وحدة هي التي عبر عنها شوقي في قوله

* ولكن كلنا في الهم شرق *

ولم تتحقق لنا وحدة غير هذه ، فإن النهضة القومية والتدخل الأوربي
وتحول العثمانية إلى عصية تركية منعت تحول الوحدة من وحدة في الهم -
حسب قول شوقي - إلى وحدة أساسها المساواة وتبادل المنافع والاحتفاظ
بمقومات الحياة القومية مع الاعتراف بما للغير من حقوق
هذا شرح بجمل لتطور تاريخ أمم الشرقيين في العصر الحديث وقد تولى
حسين مؤنس - من خيرة أبناء مدرسة التاريخ بكلية الآداب - تفصيل عرضه
في هذا الكتاب ، وقد صرف في وصفه وترتيب مسأله الشيء الكثير من
الفكر والدرس ، ويسرني أكبر السرور أن أنهو بجهد وأن أقرر أن الكتاب
جدير بعناية المؤرخين من أبناء الأمم العربية

مفتي غريال

كلية الآداب

ابريل سنة ١٩٣٨

موضوعات الكتاب

١ - ز
ح - ن
ق - ر

مقدمة
فهرس
تمهيد

القسم الأول

مقدمات العصر الحديث

ص
٩ ١

١ - الشرق الأدنى :

ظروفه الجغرافية وأثرها في تاريخه ١-٣ ، أهمية تاريخه القديم - ٤ ، الوحدة التاريخية لشعوب الشرق الأدنى - ٥ ، وحدة الحضارة - ٦ ، سكان الشرق الأدنى ٧ - مقامهم في الحضارة - ٨

٩ ١١

ب - الاسلام وتاريخ الشرق الأدنى :

طبيعة الاسلام - الوطن الاسلامي - ٩ ، الشرق الاسلامي - ١٠ ، الشرق الاسلامي يحى الحضارة من غزوات البدو وأثر ذلك في تاريخه - ١١ .

١٥ ١١

ج - الوحدات المتميزة داخل المجموعة الاسلامية

أهمية دراسة مميزات كل وحدة - ١١ ، وحدة الحضارة الاسلامية - ١٢ ، القوميات الاسلامية ١٣ - ١٥ .

٢٠ ١٥

د - ظهور العناصر التركية على مسرح السياسة الاسلامية

الفتح الاسلامي وطريقها - ١٥ ، دائرة العمران - ١٦ ، مناقشة نظرية ابن خلدون ١٧ ، اضمحلال الدولة العباسية - ١٧ ، أصل العناصر التركية وتدفق الاثراك الى الشرق الأدنى وظهورهم على مسرح السياسة - ١٨ ، ظهور الدول التركية - الدولة السامانية . السلاجقة ١٩ - نهوض الاثراك العثمانيين - ٢٠

٣٢ ٢٠

هـ - العالم الاسلامي قبيل الفتح العثماني

أولا : فارس : نهضة الشعب الفارسي في ظل الاسلام - ٢١ نهضة فارس الفكرية خلال لقرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر - ٢٢ ، نهضة فارس السياسية والدينية في ظل الصفويين - ٢٣ ، اسماعيل الصفوي وجهوده - ٢٣ ، بدء العداء مع تركيا ٢٤

١ ، أوروبا تسعى لمخالفة الصفويين ومعاونتهم - ٢٤ ، الشاه عباس الأكبر - ٢٥ - النهضة

الشيعية - طرد الأتراك من فارس وبدء التاريخ الفارسي الحديث ٢٦

ثانيا : العراق : اضمحلاله عقب غارة المغول ٢٦ ، فتح الصفويين له ونهضة الشيعة

في العراق ٢٧ ، الفتح العثماني ٢٧ ، العراق ولاية عثمانية ٢٨ .

ثالثا : مصر : اضمحلال مصر عقب الحروب الصليبية ٢٨ ، دولة المماليك البرجية

٢٩ ، المماليك والمغول . اعادة الخلافة . صفهم البلاد . ٣٠ ، المماليك الشراكمة . التجارة

الهندية ٣٠ ، الفتح العثماني ٣١ - ٤

رابعا : الشام : اضمحلال الشام عقب الحروب الصليبية - تنفق القبائل العربية -

الهدوز والموارنة . موقف المماليك منهم . بدء العلاقات التجارية مع أوروبا . نهضة بيروت

انتعاش الموازنة . بدء العلاقات بينهم وبين أوروبا . اضمحلال داخل البلاد ٣١ و ٣٢

و — الدولة العثمانية

٣٣ ٣٤

الأتراك يعيدون وحدة العالم الاسلامي ٣٣ ، التنظيم العثماني ٣٣ ، مواطن الضعف فيها ٣٤

اضمحلال الشرق الاسلامي ٣٥

ز — نهضة أوروبا

٣٥ ٤١

مقارنة بين الشرق والغرب ابان النهضة - ٣٥ - طيبة النهضة الأوروبية - لتقدم الفكري

والعلمي - ٣٦ ، النهضة والروح الصليبية - ٣٧ ، عودة الصراع بين الشرق والغرب - ٣٨

انتقال الصراع الى البحار - ٣٩ ، نهضة الامم البحرية - ٤٠

ح — حركة الكشف الجغرافي

٤١ ٤٥

طلائع التقدم البحري ٤٢ ، لتقدم البرتغالي - ٤٣ ، موقعة ديو ومحاولات الأتراك لرد

البرتغاليين - ٤٤

ط — النمسا وتركيا

٤٥ ٤٩

التقدم العثماني في أوروبا - ٤٥ ، بدء العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية - البندقية

٤٦ - الكنيسة ودعوتها لصد الأتراك - ٤٧ ، سان جوثارد ٤٧ - معاهدة فاسفار - ٤٨

صلح كارلوفتس . ٤٩ .

ي — آسيا الوسطى

٤٩ ٥٤

نهوض روسيا وفتح تركستان . ٤٩ ، التقدم الروسي نحو فارس - ٥٠ ، النزاع بين

روسيا وتركيا - ٥١ ، نهضة الافغان ومير محمد - ٥٢ ، أوروبا تغزو الهند اقتصاديا - ٥٣

بلاسي - ٥٤

- ك — مصر ٥٤ ٥٩
- بدء ظهور القومية المصرية - ٥٥ ، الممالك - ٥٧ و مزيجهم أمنم الفرسيين ٥٨ .
- موقعة امبابه ٥٩
- ل — اثر اللقاء الاول في نفوس المسلمين ٥٩ ٦٣
- فزع الشعوب الشرقية - ٦٠ ، ظهور قوة القناصل - ٦١ ، هجرة الاوروبيين الى بلاد الشرق الاسلام - ٦٢ نهوض السريخ - القومية والصية ٦٣ .

القسم الثاني

نشأة المسألة الشرقية

- ا — المطامع الفرنسية في بلاد الشرق الادنى ٦٥ ٧٣
- الاسباب الحقيقية لخوف المسلمين من أوروبا ٦٧ ، نزاع دول أوروبا على بلاد الشرق الادنى ٦٩ ، تفوق فرنسا - المركز فيليب ٧٠ ، الامتيازات ٧١ ، نابليون ومشاربه الشرقية ٧٢ .
- ب — الحملة الفرنسية على مصر ٧٣ ٨٠
- مطامع فرنسا في مصر - ٧٣ ، الرحالون الفرنسيون - ٧٤ ، العلاقات بين فرنسا وتركيا قبل الحملة - ٧٦ ، اوير دويوايه - ٧٧ ، التفكير في انقاذ الحملة - ٧٨ ، موقف انجلترا منها - ٧٩ ، نزول الحملة في مصر ٨٠
- ج — الفرنسيون في مصر ٨٠ ٩٣
- جهودهم العلمية والزراعية والهندسية - ٨١ ، كتاب وصف مصر - ٨٢ ، حملة نابليون على الشام - ٨٣ ، رحيل نابليون - ٨٤ ، مفاوضات اتفاق العريش - ٨٤ ، موقعة عين شمس - ٨٦ ، مينو وخروج الفرنسيين من مصر - ٨٧ ، آثار الحملة : بدء عهد جديد لمصر - ٨٩
- د — مصر من خروج الفرنسيين إلى نهوض محمد علي ٩٤ ١٠٠
- اضمحلال البلاد - ٩٥ ، ظهور المصريين على مسرح السياسة - ٩٦ ، بأس المصريين من الاتراك - ٩٧ ، نهوض فكرة الاستقلال - ٩٨ ، العلماء ونهوضهم السياسي - ١٠٠

ه — السيد عمر مكرم ١٠٠ — ١٠٨

نشأته وشخصيته - أفكاره وميوله - ١٠٢ ، موقفه من القرنين ١٠٣ ، هل تأثر تفكير السيد عمر بالآراء الفرنسية - ١٠٤ ، السيد عمر والأتراك - ١٠٥ ، السيد عمر يتزعم النهضة المصرية ١٠٨

و — تنازع البقاء في مصر ١٠٨ — ١٢٧

الأتراك - ١٠٩ ، المماليك ١١٠ ، الإنجليز - ١١١ ، الفرنسيون ١١٢ ، البرديسي ١١٢ ، تقاوم الحالة وشعور عمر بضرورة العمل - ١١٥ ، اتحاد عمر ومحمد علي - ١١٦ ، حركات محمد علي الأولى - ١١٨ ، هل لفرنسا يد في ولاية محمد علي ١٢٥

ز — الثورة المصرية ١٢٨ — ١٤٦

طبيعة الثورة المصرية - ١٢٨ ، حالة المصريين المعنوية - ١٢٩ ، زمامة السيد عمر مكرم - ١٣٠ ، مقدمات الثورة المصرية - ١٣١ ، مزعة المماليك - ١٣٢ ، تولية محمد علي - ١٣٤ ، دفاع المصريين عن محمد علي - ١٣٥ ، عمر يقود الثورة - ١٣٦ ، خاتمة المماليك - ١٤١ ، محمد علي ينحى المصريين من الميدان - ١٤٢ ، قفى عمر مكرم - ١٤٣ ، محمد علي والمصريون - ١٤٦

ح — محمد علي ينهض بمصر ١٤٦ — ١٦٠

شخصية محمد علي - ١٤٦ ، علاقته بفرنسا - ١٤٧ ، وسائله وغاياته - ١٤٨ ، اقتراحه بالعمل - ١٤٩ ، موقف المصريين من نهضة محمد علي - ١٥١ ، طبيعة إصلاحات محمد علي - ١٥٣ ، الإنجليز يتخوفونه ويعملون للقضاء عليه ١٥٦ ، موقف الفرنسيين منه - ١٥٨ ، محمد علي والدولة العلية - ١٥٩

ط — محمد علي ومراميه السياسية ١٦٠ — ١٧٣

هل كان مجددا غالبا في التجديد - ١٦١ ، محمد علي ورعيه ١٦٣ ، أسراعه في العمل - ١٦٥ ، اهتمامه بالجيش - ١٦٦ ، نظريته في الاستقلال الاقتصادي للدولة - ١٦٦ ، دراسة تحليلية لمراميه السياسية ورغبته في إنشاء دولة اسلامية ١٦٧ ، ١٧٣ - أسباب فشله - ١٧٣

ي — الاتراك يحاولون النهوض ١٧٣ — ١٧٨

أثر الهجوم الأوروبي في نفوس الاتراك - ١٧٣ ، احساس اوروبا بقرب انهيار الدولة العثمانية - ١٧٤ ، نشأة المسألة الشرقية - ١٧٤ ، نابليون والمسألة الشرقية - ١٧٥ ، بدء الإصلاح في تركيا - ١٧٧ ، موجز اجمالى لمحاولة الإصلاح وفشلها - ١٧٨

ك — لمحة عن بقية البلاد الاسلامية في اوائل القرن التاسع عشر ١٧٨ — ١٨١

فارس والروسيا - ١٧٩ ، للعاهل فتح علي - ١٧٩ ، الفرس يحاولون الاستعانة

بالفرسيتين — ١٨٠ ٤ معاهدة فنكتشتين — الشعوب الاسلامية تحاول الخلاص — الثورة
على الدولة العثمانية ١٨١

القسم الثالث

تفكك الوحدة الاسلامية

١ — الثورة على الدولة العثمانية

١٨٨—١٨١

سخط الشعوب الاسلامية على حكوماتها ١٨٥ - الحضارة الاوروبية تساعد على ظهور
ضعف الحكومات ١٨٦ - بدء الثورات الدينية والسياسية والاجتماعية ١٨٧ .

ب — الوهايون . ثورة على النظام الديني للدولة العثمانية

١٩٨ - ١٨٨

مقدمات الحركة الوهاية - ابن تيمية ١٨٨ - محمد بن عبد الوهاب ١٩٠ - نهوضه وظهور
قوته ١٩١ - أهمية بلاد العرب للدولة العثمانية ١٩٢ - الدولة تستعين بمحمد علي ١٩٣ -
النتائج السياسية لفتح المصريين لبلاد العرب ١٩٥ - التفات الانجليز نحو اليمن وبقية الامارات
العربية الساحلية ١٩٨ .

ح — فتح السودان

٢٠٣—١٩٨

أسبابه ١٩٨ - محاولة تحضير البلاد ٢٠٠ - محاولة إدخال أساليب الزراعة المصرية ٢٠١ -
فتح باب السودان للعالم وتنظيمه اداريا وتحديد ٢٠٢ ٤ امتداد حدود مصر إلى أعالي النيل ٢٠٣

د — ثورات البلقان

٢١٥—٢٠٣

شعوب البلقان ٢٠٤ - سيريل لو كاريس ٢٠٥ - الشاعر كوريس ٢٠٦ - مبادئ الثورة
اليونانية - أصبح روسيا فيها ٢٠٧ - المذابح ٢٠٨ - تدخل النمسا ٢٠٩ - تدخل مصر ٢٠٩ -
تدخل انجلترا ٢١١ - سعى روسيا وانجلترا لاستقلال اليونان - نواين ٢١٢ - انسحاب
مصر من بلاد اليونان ٢١٣ - موقف تركيا بعد انسحاب مصر ٢١٤ - معاهدة ادرنه ٢١٥

هـ — الصراع بين مصر وتركيا

٢٤٠—٢١٥

حقيقة شعور محمد علي نحو الدولة العثمانية ٢١٥ - بدء النزاع ٢١٧ - موقف الدول :
انجلترا وفرنسا ٢١٨ - حال الشام قبل الفتح المصري ٢٢٠ - روسيا تتدخل وتحول النزاع
الى مسألة دولية ٢٢٣ - بلمرستون ومحمد علي ٢٢٤ - باترك كامبل ٢٢٥ - مركز فرنسا
في الليفانت ٢٢٦ - صلح كوتاهية ٢٢٨ - معاهدة هتكارسكلى ٢٣٩ - انجلترا تعمل للقضاء
على محمد علي - بنسبى ٢٣١ - انجلترا تثير حرب الشام الثانية - ٢٣٢ فرنسا تقتصر لمحمد علي ٢٣٣
نايير في مياه الشام ٢٣٦ - ثورة الشام - تراجع فرنسا ٢٣٧ - فرمان ٢٢ مايو سنة ١٨٤١ - ٢٣٨

ص
٢٤٠ — ٢٦٤

و — حركة الاصلاح في تركيا

مقدمات الاصلاح ٢٤١ — حركة كتنشيك ٢٤٢ — التفكير في ادخال الانظمة الاوروبية
٢٤٣ — العقبات التي حالت بين السلطان والاصلاح ٢٤٦ — سليم الثالث ومحاولاته ٢٤٧ —
محمود الثاني وجهوده ٢٥٠ — رشيد باشا ٢٥٣ ، خطه شرقه خلجه ٢٥٣ — السلطان عبد المجيد -
رضا باشا ٢٥٥ — انتصار الرجعية ٢٥٦ — اسباب فشل حركة الاصلاح ٢٥٩ — موقف -
الدول الاوروبية من الاصلاح في تركيا ٢٦١ — عزل السلطان عبد المجيد ٢٦٢ — السلطان
عبد العزيز ٢٦٣ — العودة الى القديم ٢٦٤

٢٨٥ — ٢٦٤

ز — الشام

نظام الشام الادارى ٢٦٥ — اثر الاتصال بأوروبا ٢٦٧ — انجلاء الدول نحو الشام ونهضة
عكا ٢٦٨ — عبد الله الجزائر ٢٦٨ ٢٦٩ — لبنان ٢٧١ — فرنسا والموارنة ٢٧٢ — أمراء الدروز
٢٧٢ — الأمير بشير شهاب — الدولة العثمانية توقع الفتنة بين الدروز والموارنة ٢٧٣ — مقدمات
حرب الشام الثانية ٢٧٤ — الفتح المصرى للشام وحكومة مصرفيه ٢٧٥ — الانجليز يثيرون
أهل الشام على حكومة مصر ٢٧٦ — ثورة الشام ٢٧٧ — فكرة الدولة العربية ٢٧٨ — حودة
الشام للاتراك ٢٧٩ — انجلترا تتوغل اقتصاديا ٢٨٠ — فرنسا ومطامعها الدينية ٢٨١ —
مطامع الروس ٢٨١ — تطور الامتيازات الى حقوق سياسية ٢٨٢ — انجلترا تنشر دعاية بروتستنتيه
٢٨٣ — الدول الأوروبية تحتل الشام معنويا واقتصاديا ٢٨٤

٢٨٩ — ٢٨٥

ح — حرب القرم

اسبابها ٢٨٥ — اصبح انجلترا في اثارها — بدء الحرب ٢٨٦ — مستقبل ٢٨٦ —
دور الاتراك في الحرب ٢٨٧ — دور الانجليز والفرنسيين ٢٨٨ — مؤتمر باريس
سنة ١٨٥٦ ، ٢٨٩ — فرصة طيبة للاتراك ٢٨٩

٢٢٢ — ٢٨٩

ط — المغرب

الحرب الدينية في المغرب ٢٨٩ — تقدم الاسبان والبرتغاليين فيه ٢٩١ — أثر سقوط
الاندلس في المغرب ٢٩١ — مسلمو المغرب ينهضون لانقاذ مسلمي الاندلس ٢٩٢ —
القرصنة لوتنن الجهاد الدينى ٢٩٣ — الحرب بين المغاربة والاوربيين ٢٩٤ — بدروثافارو
٢٩٥ — المغرب يدخل المجموعة الاسلامية ٢٩٥ — الاخوان ببروسا ٢٩٦ — نظام
الحكم العثماني في المغرب ٢٩٧ — النزاع على السلطان في تونس والجزائر ٢٩٨ — ازدهار
البلاد واتساع أعمال القرصنة ٢٩٩ — اضمحلال اسبانيا ٣٠٢ — ظهور فرنسا وبدء
اتصالها بالمغرب ٣٠٢ — سانسون نابليون ٣٠٢ — رأى العام في أوروبا يثور على المغرب
٣٠٤ — الانجليز يهاجمون الجزائر ٣٠٥ — تدخل الفرنسيين في شئون المغرب ٣٠٦ —
اضمحلال البلاد ٣٠٧ — مؤتمر اكس لاشابل لبحث مسألة القرصنة ٣٠٩ — الداي حسين
٣١١ — بولنيك يفكر جدياً في فتح الجزائر ٣١٢ — ديون البكرى ٣١٣ — ديفال
٣١٤ — حادث المروحة ٣١٦ — فرنسا تفتح الجزر ٣١٧ -

٣٢٢—٣٩٢

ي — العراق وما يليه شرقاً

طبيعة بلاد العراق وأثرها في تاريخها ٣٢٣ — تأثر العراق بجوار إيران ٣٢١ —
العلاقات بين العراق وما يليه غرباً ٣٢٥ — العراق بين الفرس والعرب ٣٢٥ — مزارات
الشيعية في العراق ٣٢٦ — الفتح العثماني يبدأ عصرًا جديدًا ٣٢٧ — حكومة الاتراك
في العراق ٣٢٨ — التنافس عليه بين تركيا وفرنسا ٣٢٩ — ظهور البرتغاليين في الخليج
الفارسي ٣٣٠ — الصراع بينهم وبين الاتراك والعرب ٣٣٠ و ٣٣١ — ولاية الترك
ونظام الاقطاع ٣٣٢ — بدء استقرار القبائل في العراق ٣٣٤ — بغداد في القرن السابع
عشر ٣٣٦ — استقلال الموصل ٣٣٧ — انفصال البصرة وأسر أفراسياب ٣٣٨ —
الانجليز والهولنديون يدخلون الخليج ٣٣٩ — فارس تحاول الاستيلاء على البصرة ٣٤٠
الانجليز والهولنديون يرثون البرتغاليين ٣٤١ — البصرة خلال القرن السابع عشر ٣٤٢
القضاء على استقلال البصرة ٣٤٣ — حسن باشا ينشئ حكومة وراثية بالعراق ٣٤٤ —
ثورة القبائل العربية ٣٤٥ — نهضة أفغانستان ٣٤٦ — الحرب بين الافغان والترك ٣٤٦
تادر قول ٣٤٧ — تادر يغزو العراق ٣٤٨ — معاهدة سنة ١٧٣٦ بين الفرس والاتراك
٣٤٨ — أسرة الجلبي في الموصل ٣٤٩ — بدء ظهور سلطان للمالك في الجراكسة في
العراق ٣٤٩ — سليمان باشا ٣٥٠ — الاتراك يحكمون للمالك ٣٥٢ — استقلال
الممالك بالعراق ٣٥٤ — سليمان الكبير ٣٥٦ — الوهابيون يهددون العراق ٣٥٨ —
داود باشا ٣٦٢ — المطامع الأوروبية في العراق ٣٦٥ — نمو نفوذ الانجليز البلاد
٣٦٦ — العراق طريق الهند ٣٦٨ — المستكشفون : كسني ٣٦٩ — بدء اضمحلال
الممالك ٣٧٠ — القضاء على الانكشارية في العراق ٣٧١ — داود يعمل للإصلاح ٣٧٢
نكبات العراق ٣٧٤ — عزل داود ٣٧٧ — نهاية ممالك العراق ٣٧٧ — عودة العراق
الى سلطان الاتراك ٣٧٨ — جهود الاتراك في تجميعه وتوحيده ٣٨٠ — طرق
للمواصلات ٣٨٩

٣٩٢—٤٤٠

مراجع عامة

- ١ - مراجع عربية ٣٩٣
- ب - مراجع أجنبية ٤٠١

كشاف

٤٤١—٤٦٨

تعريف بموضوع الكتاب ونظامه

موضوع هذا الكتاب دراسة العلاقات السياسية والحضارية بين الشعوب الإسلامية والدول الأوروبية ، وتبوع جهاد الأمم الإسلامية للنهوض واللاحاق بالأمم الغربية فيما وصلت إليه في مضامير الرقي والقوة والعرفان ، وقد انصرف الاهتمام بوجه خاص إلى تتبع يقظة الروح الشرقية الإسلامية واتعاشها وميلادها الجديد في ظل الحضارة الراهنة

لهذا بدأ الكتاب بوصف للبيئة الجغرافية وأثرها في تاريخ سكان الشرق الأدنى ، وأشار إلى وحدة أهله وعوامل هذه الوحدة ، ثم أجمل تاريخ الأمم الإسلامية من ختام الحروب الصليبية إلى ظهور الأتراك العثمانيين ، وصور حال هذه الأمم في ظل الأتراك ، ووقف طويلا عند الخود والأعياء اللذين شتملا العالم الإسلامي في أوائل العصر الحديث ، ثم أشار إلى نهوض أوربا وتقدمها نحو الشرق ، ووصف اللقاء الأول بين العالمين الشرقي والغربي .

فاذا تم اللقاء بين الشرق والغرب فقد كان لابد من دراسة الآثار التي ترتبت على ذلك بالتفصيل ، ولما كان من العسير دراسة ذلك في كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي على حدة ، ولما كان أعظم نتائج هذا الاتصال هو نهوض مصر وظهور الأمة المصرية الحديثة ، فقد جعلنا دراسة اللقاء بين العالمين في مصر موضوع القسم الثاني : وصفنا هذا اللقاء ونتائجه القرية ثم تتبعنا نتيجته البعيدة وهي نهضة مصر بزعامة محمد علي ، فاذا فرغنا من ذلك مررنا مسرعين ببقية نواحي العالم الإسلامي

وأردنا بعد ذلك أن ندرس تطور الشعوب الإسلامية بعد هذا الاتصال ، وكفاحها للتحضر بالحضارة الغربية ، ومحاولتها بناء نفسها من جديد على أسس هذه الحضارة ، ولكتنا رأينا أن ذلك لن يتأتى إلا إذا وضعنا أمام

القارىء. موجزاً لتاريخ كل من هذه الأمم من ختام الحروب الصليبية إلى أن أصبحت أمام الحضارة الغربية وجهاً لوجه ، فخصصنا لذلك القسم الثالث ، وقسمناه فصولاً صغاراً .

ورأينا أن نرجى. بقية الفصول إلى جزء ثان ، وانقطف بالقارىء عند هذا الحد فى هذا الجزء ، لأننا وصلنا بالشعوب الشرقية إلى دور اليقظة ، فخرجت من ظلمات العصر الوسيط وطفقت تتلمس سبيلها إلى عصر جديد ، وقفنا عند هذا الحد ليحاول القارىء أن يدرس الفترة الماضية على مهل ، فقد منا له ثبنا وإفيا جداً من المراجع العربية والافرنجية حتى تكون الدراسة وافية وقائمة على أساس على دقيق .

وسندرس فى الأجزاء التالية باذن الله بقية تاريخ الأمم الإسلامية الى ما بعد الحرب الكبرى على هذا النظام وبذلك الفكرة .

* * *

واننى لا أقدم بأخلص آيات الشكر الى أستاذى الأجل محمد شفيق غربال أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية على ما تفضل به من حسن الرعاية وفضل التوجيه والارشاد وشرف التقديم إلى جمهور القارئ . وأشكر الأستاذ محمود كامل حسن مدرس مادة الخرائط بكلية الآداب بالجامعة المصرية . فقد تفضل برسم خريطة الكتاب فكانت خير مكمل لموضوعه ولا أنسى فضل الأديب محمد سعيد عامر افندى الموظف بدار الكتب المصرية الذى تفضل بمراجعة تجارب الطبع ، والأخ جبريل ابراهيم افندى الصحفي الذى بذل جهداً مشكوراً فى عمل كشف الكتاب .

وليتقبل القراء هذه المحاولة الثانية بحسن الرعاية ، فمارجوننا من القيام بها إلا أن نصل وإياهم إلى القول الحق فى ماضينا ، والرأى الصواب فى حاضرنا ، والنبا الهادى عن غدنا ، والحمد لله أولاً وآخراً .

المؤلف

تحريراً فى القاهرة (صفر سنة ١٣٥٧
ابريل سنة ١٩٣٨)

مقدمات العصر الحديث

في موقع الشرق الاسلامي تفسير لمقامه في التاريخ ، وفي ماضيه
بيان لمكانه بين بناء الحضارات ، وفي حاضره نبأ عن كثير مما يحدث
على وجه الأرض في مقبل الأيام .

فأما الموقع فواضح الخطر لا يحتاج إلى زيادة البيان أو التفصيل ،
فهو مجاز بين أوروبا وآسيا ، لا يكاد يسلم من عادية الأولى أو شر الثانية ،
وهو في المنطقة المعتدلة ومعظمه يقع فيما يسمى منطقة البحر
الأيض المتوسط ، ذات الصيف الطويل الجاف والشتاء القصير
القليل المطر ، فالجوه للحرارة والجفاف ، وغلب على جهاته المناخ
الصحراوي ، وأصبحت خريطته مجموعة من الصحاري الواسعة التي
لا يقطع اتصالها إلا ما يكون من الخصب الطاري . على ضفاف نهر
كالنيل أو واحة كواحات بلاد العرب ، وغلب عليه تبعاً لذلك
الفقر الاقتصادي لقلة موارد الخير ، وأصبحت مواقع الخصب فيه
مقصد سكانه ومنتجه آمالهم من فجر التاريخ ، تهب عليها بين الحين
والحين زوابع الرمال المهلكة تدفعها الرياح ، وعواصف البدو المخربة
يحركها الفقر ، وسواحل هذه البلاد منبسطة رملية لاتعين على الملاحة
فقلت صلة أهلها بالبحار وأصبحوا برين صحراويين ، وصعبت عليهم
الهجرة والرحلة ، وظل عددهم ينمو بتوالي السنين ، فاشتد الضغط على
الجهات الخصبة وكثر التنازع عليها وتعاقب عليها الغزاة ، لا يكاد
يستقيم الأمر فيها لقوم حتى يغلبهم عليها قوم آخرون ، وتلك
هي دائرة العمران التي يحدثنا عنها ابن خلدون في مقدمته ، استخرجها
من ملاحظاته في تاريخ الدول الإسلامية وحدها ، لاتناعلم غير ذلك
عن سير الحضارات في غير بلاد الشرق الأدنى .

وأما ماضيه ، فما رأيت من سلسلة كثيرة الحلقات من الزوابع
البشرية تهب من الصحاري إلى مواقع الخصب ، فلا يكون لدولة من

الشرق الاسلامي

الظروف الجغرافية

أثر ذلك في تاريخه

نظرية ابن خلدون

دوله من طول الأجل ما يمكنها من انشاء حضارة لها شخصيتها وميزاتها ،
وانما يكون قصارى ما تستطيعه احداها أن تحسن استعمال ما تجد من
معالم الحضارة أو تصقله بعض الصقل ، ثم تتركه مسرعة ليتولاه
الغزاة الجدد الذين يغلبونها على الأودية ومنابع الثروة ، وهذا ما يقال
عن الدول الإسلامية التي كثر ظهورها على مسرح السياسة
الشرقية . لم تخلف احداها لونا قائماً بذاته من الحضارة ، ولم تتذكر
لونا أصيلاً منها ، وانما استعملت ما وصل اليها بدرجات متفاوتة من
الحذق والمهارة ، فبعضها استطاع أن يوفق إلى شأو بعيد في صقلها
وتهذيبها حتى أخذت طابعاً يظهر للرأى أنه جديد ، كالدولة العربية ،
وبعضها لم يتقدم بما وجدته من معالم الحضارة بل تركه كما وجدته أو هبط
به بعض الشيء ، كالدول التركية ، ولعل هذا لا يرجع إلى طبيعة في
الشعوب نفسها ، بقدر ما يرجع إلى الظروف التي وجدت فيها ، ويتوقف
إلى حد كبير كذلك على عمر الدولة وما يتاح لها من الهدوء والطمأنينة
التي تنمو في اعطافها الحضارات .

لهذا كانت أجد الدول التي ظهرت في بلاد الشرق الأدنى وأفرها
سهما في بناء الحضارة العالمية ، هي أمم القديمة ، التي سكنت أوديته في فجر
أمية تاريخه القديم التاريخ ، فأتيج لها الوقت الطويل فتمت حضاراتها نمو أمم معقولا ، ولما كانت
هذه الأمم قد أقبلت والشرق خلا ، لم يسبقها إلى الإقامة فيه سابق فقد سلبت
حضاراتها من التأثير الخارجى فكانت مبتكرة أصلية لها مميزات وشخصيتها .
ولما كانت طويلة العمر فقد تأصلت الأسس التي وضعتها في طبيعة الشرق
الأدنى وأصبحت طابعا من طوابعه التي لا تخفى ، والتي لا تسلم منها دولة
تظهر في مجرى تاريخه ، ولعل القارىء قد عرف أنى أريد بذلك
الحضارتين المصرية والآشورية القديمتين اللتين وضعتا الأسس المادية
والسياسية للحضارة العالمية ، ثم الدولة الاسرائيلية التي وضعت أسس
دولة بني اسرائيل

مصر وآشور

دولة بني اسرائيل

الحضارة الفكرية العالمية من دين وفلسفة وما إلى ذلك ، وهذا هو نصيب بلاد الشرق الأدنى في بناء الحضارة العالمية ، أما ما عدا ذلك فهذيب لموروث ، أوزيادة على قائم موجود ، وقد يظن نفر من الناس ان هذا الدور بسيط لا خطر له في تاريخ الانسانية ، ولكن الحقيقة أنه على جانب عظيم جداً من الخطر ، ويكفى أن نعلم أنه انتقل بالانسان من البداوة إلى الدول القائمة ، ذوات المقومات والسياسات والجيوش والبحريات والمدن العامرة بالمباني الحجرية الجميلة ، والمعابد التي يبدأ عندها تاريخ الفن العالمى وتاريخ التفكير الانسانى .

وأما حاضره فمجموعة من الوحدات الناشئة لا تزال آخذة بأسباب النهوض ، شديدة الاعتماد على حضارة أوروبا ، شديدة الصلة كذلك بماضيها وطبيعتها الخاصة ، بما سينتهى بها آخر الأمر إلى لون من الحضارة يختلف في كثير عن الحضارة القائمة اليوم ، بل ربما يكون له أثر بعيد في اتجاه الحوادث في مقبل الأيام .

وعلى الذين يريدون دراسة تاريخ الشرق الأدنى في أى دور من أدواره أن يلاحظوا أربع حقائق هي بمثابة الأصول التي يقوم عليها تاريخه وتفسر على ضوءها مظاهر هذا التاريخ .

أولها أن وحدة الشرق الأدنى ليست جغرافية فقط ، وإنما هي تاريخية في الغالب ، ففي داخل الحدود الجغرافية التي تضم هذه الأقاليم المترامية ، التي تبدأ من حدود المحيط الأطلسى وتنتهى في قلب آسيا ، تجد حدوداً أخرى من الحضارة ذات اللون الخاص والشخصية المتقاربة ، هناك صلة من التفكير وأسلوب الحياة والنشاط الذهني تربط العراقى بالعربى والعربى بالسورى والسورى بالمصرى ، وهناك اتفاق إلى حد ما فى الآمانى والأخلاق والآمال ، وليس مرد هذه الوحدة إلى الاسلام

١ - وحدة الشرق
الاسلامى التاريخية

والحضارة الاسلامية وحدهما ، بل هي أقدم من ذلك بكثير ، وضع
أساسها ملوك مصر القديمة بغزواتهم الواسعة التي جعلت منه - للمرة
الأولى في التاريخ - وحدة سياسية ، ومن مصر القديمة أخذت تصدر
طول العصر القديم هذه الحضارة القوية التي انتشرت مع الزمن في كل
بلاد الشرق الأدنى فزادت روابط أقاليم رابطة عمرانية فأصبحت تشترك
في أساليب الحياة والبناء والرى وسياسة الدولة وأنظمة الحكومة ، وكلما
انقضى زمن أضافت الأيام إلى الروابط التي تضم أقاليم الشرق الأدنى
رابطة جديدة تزيدها قوة واتصالا ، حتى كانت غزوة الاسكندر قبل
الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، فأضفت على بلاده وحدة فكرية ، إذ كان
الغزو المقدوني فتحاً من فتوح الحضارة لانصرأ من انتصارات السياسة ،
لأن الكيان السيامي للإمبراطورية الاسكندرية تهدم عشية موته ،
وبقيت بذور الحضارة التي خلفتها جيوش الاسكندر حيثما سارت ،
ووجدت البذور تربة صالحة في العقليّة الشرقية ، فما هو إلا قرن من
الزمان حتى بدأت تنمو في بلاد الشرق حضارة جديدة ، بعيدة بعض
الشيء من الحضارة اليونانية بفنها وفلسفتها ، قريبة الشبه بالروحية
الشرقية وتفكيرها العميق وعرفها المؤرخون بالحضارة الشبيهة
بالحيلينية تميزاً لها عن الهيلينية ، وأصبحت هذه الحضارة وأسايلها
ومميزاتا ، طابع الشرق القريب ورباطه الذي لا يضعف ولا يخفى ،
وأخذت هذه الحضارة تتطور تطوراً عميقاً شاملاً ، وأخذت تمدد رواقها
حتى ضمت بلاد الشرق الأدنى من قلب فارس إلى الاسكندرية ،
وأخذت تنجم في نواحيه المدن الاغريقية العمارة والحكومة ، الشرقية
الحضارة والتفكير ، وأخذت تنشأ في هذه المدن المدارس الفلسفية
المعروفة المتهيزة ، بل يغالى نفر من المؤرخين فيذهب إلى أن الحركات
الدينية التي صدرت عن بلاد الشرق الأدنى بعد ذلك ، إنما هي تطور

غزوة الاسكندر

الحضارة الشبيهة

بالحيلينية

هكرى طبيعى للحضارة الشبيهة بالهيلينية ، ولسنا على هذا الرأى طبعاً .
 فاذا ظهر الاسلام بعد ذلك فقد أضاف إلى بلاد الشرق الأدنى
 وحدة دينية ، وذابت في حرارته القوية ، المذاهب الفلسفية والفكرية
 التى كانت قد بدأت تضعحل يوم ظهر الاسلام ، ومن هنا كانت
 الحضارة الاسلامية ذات طابع اغريقى لا ينجفى ولا ينكر خطره ،
 واختفت الفروق القائمة بين مدنية ومدنية ومدرسة ومدرسة ، وظهرت
 دولة واحدة متجانسة في الحضارة والتفكير والسياسة ، هي الدولة
 الاسلامية التى أصبحت بمرور الزمن مظهر وحدة الشرق وطابعه المميز
 وثانى هذه الأسس : أن قوام الحضارة والعمران في الشرق
 الأدنى ليسوا هم الغزاة الفاتحون الذين ينشئون الدول ، ويسيطرون
 الجيوش ، ويكثر ظهورهم واختفاؤهم ، وإنما قوامها أهل المدن الذين
 يعمرون بلادهم ، وأهل الريف الذين يزرعون مزارعهم وأهل المراعى
 الذين يسكنون سفوحهم وهضابهم ، هؤلاء هم الأساس الثابت الذى
 يختزن الحضارة ويعطى الشرق الأدنى لونه المميز ، وهؤلاء لا نسمع
 بهم في الحروب ولا نراهم في القيادة أو الزعامة (١) ؛ وإنما تراهم في العمائر
 الباقية والصناعات الدقيقة وغير الدقيقة ، وفي هذه الخبرة الزراعية التى
 يمتاز بها سكان مواقع الخصبة كسكان النيل أو سكان الجزيرة العراقية ،
 وهذا العنصر قابل للتأثر بما يستجد عليه من ألوان الحضارات التى
 يحملها اليه الفاتحون ، وهو يبدو أول الأمر ضعيفاً محكوماً ، ولكنه
 يبدأ في الظهور إذا استقرت الأحوال وهدأت نيران الحرب ، فيبدأ
 يؤثر على الحاكين أنفسهم ، ويغمرهم ويطبعهم بطابعه الخاص ، وعلى
 هذا البساط يتقارب الحاكم والمحكوم حتى يمتزجان آخر الأمر امتزاجاً
 قوياً ، تزول معه معالم العنصر الغازي ، ويرثه في صفاته وحضارته هذا
 العنصر الثابت الذى نتحدث عنه ، والذي رأيت أنه يحتفظ بحيوية

الاسلام يزيد وحدة
 للشرق الأدنى قوة
 وظهوراً

٢ - سكان الشرق
 الاسلامي

(١) طول القرون الوسطى على الأقل ، وسنرى ان تقدم هذه الطبقة الى الزعامة سيكون

عنى من مبادئ العصر الحديث .

البلاد ويكن فيه طابعها المميز، قتراه بوضوح في أدوار الاضمحلال التي
تصيب الدول الغازية السريعة الزوال ، وعلى يديه يكون رقي الحضارة
وثباتها ، ولكنه ظل طول النصف الثاني من العصر القديم والعصر
الوسيط هدفا للغزوات والفتوح ، لا يكاد يتنفس الصعداء من حاكم زال
حتى ترزاه الأيام بفتح جديد يثقل على صدره زمانا طويلا . وهكذا .
لهذا أصبح أهله مدنيين ، وانصرفوا إلى الشؤون المدنية واحتفظوا
بكل ما وصل إلى أيديهم من المستحدثات التي يحملها الغزاة ، فصار
بأسهم قويا وإن سكنوا ، وصار استعدادهم عظيما لتقبل مظاهر
الحضارة وإساعتها ، واشتدت قوتهم الكامنة ، التي سنرى خطرها في
العصر الحديث حينما يؤتون الهدوء والاطمئنان الكافين .

تزاوج الحضارات

ولنشر في سياق هذا الحديث إلى النظرية التي يسميها المؤرخون
تزاوج الحضارات ، إذ يرون أن كل نهضة قوية من نهضات التاريخ ،
تكون وليدة المزاجية بين حضارة قائمة أدركها الفتور وكنيت في أهل
البلاد ، وبين شعب متوفر فاتح يحدد نشاطها ويبعث فيها الحياة ، فحضارة
الاسلام وليدة المزاجية بين الاسلام ومن اتصل به من القبائل
المتبدية ، وحضارة القرون الوسطى وليدة المزاجية بين الحضارة الرومانية
والقبائل المتبربرة ، وحضارة العباسيين وليدة المزاجية بين الحضارة
الفارسية والقبائل العربية . وهكذا ، وهم يذهبون كذلك إلى أن هذا
التزاوج ينتج في الغالب لونا جديداً من الحضارة ، وأن هذا اللون
الجديد يزدهر مع الأيام حتى يبلغ أوجه ثم يأخذ في الانحدار ، لأن القوم
الذين أقاموه ، يدركهم ترف الحضارة ولين الانغماس فيها ، فيضمحل
سلطانهم ويختفون من التاريخ مخلفين بعدهم ذلك العنصر الاصيل الذي
أضاف اليهم الفكر والروح : وهو الحضارة ، كما بقي الاسلام والحضارة
الاسلامية بعد العرب والسلاجقة ، وكما بقيت المسيحية بعد زوال العصر
الوسيط ، أما الذين يحتفظون بهذه الحضارة ويحولون بينها وبين التبدد

فهم هؤلاء السكان المدينون الزراعة أو الصناعات أو الرعاة أو أهل العلم
الذين أشرنا اليهم

وثالث هذه الأسس التي لا يصح فهم تاريخ الشرق الأدنى ٣ - طيبة الاسلام
الا بادراكها ، هو أن الاسلام ليس ديناً خالصاً وإنما هو نظام
اجتماعي كامل ، وأنه ليس مجموعاً من الطقوس والعبادات يتقرب بها
الانسان لربه ، وإنما هو مجموع من القواعد والأنظمة التي يستطيع الناس
أن يعيشوا بمقتضاها ، ومن هنا كان الاسلام حضارة كاملة ونظاماً
جامعاً استطاع أن يمد بلاد الشرق بكل مقومات الدول وأساليب
السياسة والحياة والتشريع والحضارة مدى بضعة قرون ، فالامام المسلم
حاكم مدني ، والخليفة في العرف الاسلامي هو الامبراطور . وقد أوتى
المسلمون قدرة طيبة على تفسير مبادئ الاسلام وقواعده واستخرجوا
منها كل ما يلزم المجتمع الصالح الكامل من مقومات ، حتى أن المؤمن
لا يجد في الاسلام حلاً لمسألة الآخرة فقط بل سبيلاً للعيش في الدنيا .
ومن هنا كان للدولة الاسلامية كيان اسلامي سياسي داخل الكيان
الديني ، وكان اسلام أهلها عماداً يعتمدون عليه كثيراً في بناء دولتهم ،
بل كان الكيان السياسي الاسلامي حصناً ووقاية يحفظان قوامها السياسي
بعد ان تهدم الدولة القائمة بالحكم فيها ، لأن قوام هذا الكيان الاسلامي
هو العاطفة الاسلامية ولهذا كانت طويلة البقاء شديدة الحساسية ، يشعر
كل مسلم بأنه مطالب بالدفاع عنها والذود عن حوضها ، وهذه هي الوطنية
كما يفهمها المسلم : دفاع عن الاسلام وجهاد في سبيل الله واستشهاد
لاعلاء كلمة الحق ، ومن هنا حلت الوطنية الاسلامية محل الوطنية
القومية ، وسرى في أول العصر الحديث ان أوروبا تقبل فتصادف
سكوناً مخمياً وشعوباً مطمئنة الى النوم ، ولا تجد دولة سياسية قوية تلقى
اجنادها أو تقاوم تقدمها ، ولكنها تجد الاسلام قائماً في كل مكان ،

وتجد المآذن والمساجد حيثما سارت في العالم الاسلامي من الدار
اليضاء إلى سمرقند وأجرا وجاوه... وتجد أن الدعوة للنهضة والنداء
لليقظة ينبعثان من فم المؤذن الذي يستجيب له المسلمون ، والامام الذي
ينبئهم إلى الخطر ويفتح عيونهم على ما ينتظرهم ، فهي لم تصادف جيشاً
قويًا يلقي اجنادها ، وإنما وجدت الاسلام قائماً كأنه شملة رقيقة يشتمل
فيها المسلمون ..

٤ — موقع الشرق
الاسلامي بينوسط
آسيا وأوروبا

أما رابع هذه الأمور فإن الاقدار جعلت بلاد الشرق الاسلامي
طريقاً بين وسط آسيا وأوروبا . وقد كان وسط آسيا طول العصرين
القديم والوسيط منبعاً من منابع الجنس البشري ، لا يكاد ينقضي قرن
دون أن تخرج منه موجة بشرية وتتجه شرقاً أو غرباً ، فاذا اتجهت
إلى الغرب كان لها أحد سبيلين . إما سبيل الشمال : شمال بحر قزوين والبحر
الاسود ومن ثم تحتاج أوروبا على هيئة قبائل بربرية مخربة هدم ما يكون
قائماً هناك من معالم الحضارة . وإما سبيل الجنوب : فتخترق أفغانستان
وفارس فالعراق فالشام فمصر ، ومن هنا كان على بلاد الشرق القريب
أن تقاوم هذه الموجات وتثبت لها ، فاما غلبتها فارتدت عنها ، وإما انهزمت
أمامها فاجتاحتها ، وخربت بلادها كما نعرف عن غزوة المغول ، وكانت بلاد
الشرق ترد هذه الهجمات بقوتين : قوتها السياسية أولاً ثم حضارتها
الاسلامية ثانياً ، وقد غلبت قوتها السياسية كثيراً ، ولكن قوتها الاسلامية
لم تنهزم أبداً ، وظلت طول العصر الوسيط ، تتسلم البدو والهمج من
هضاب القرش والتركستان ، فتكسر شررتهم وتذيب همجيتهم ، وتصرهم
في بوتقة الاسلام ، وترفعهم إلى مستوى حضارته ، فيصبحون بنعمته دولا
قائمة ذات قوة وحضارة ونظام ، ومثال هذا عماليك مصر والأتراك
العثمانيون والملاحقة ، تسلمهم الاسلام قبائل في الشرق ، وقدمهم
في الغرب دولا ذوات حضارات ، أو ملوكا ذوي سلطان . وتلك

الهجرات البشرية
المنظمة من وسط آسيا

الاسلام في أوروبا
غزوات الهمج
والبدو

أثر ذلك في حياة
الدولة الإسلامية

كانت مهمة الدولة الإسلامية طول العصر الوسيط ، وكان لذلك
أبعد الأثر في مجرى حياتها ، إذ أضاف إليها بين الحين والحين
قوى جديدة تحفظ عليها حياتها ، ثم أجهدتها من ناحية أخرى وحال
بينها وبين بلوغ درجة عظيمة من النضوج والكمال ، وحول جهودها
وجهد حكامها في أحيان كثيرة إلى وجهة عسكرية لم يجدوا معها فراغاً
للاصراف إلى الحضارة أو العمران .

الوحدات المتميزة
داخل المجموعة
الإسلامية

ولنلاحظ إلى ذلك ، أن لكل وحدة من وحدات الشرق الأدنى
ظروفها الجغرافية والجنسية والتاريخية التي جعلت لها — إلى حد ما —
شخصية متميزة في داخل هذه المجموعة ، فعلى الرغم من العوامل
التاريخية والجغرافية التي تجمع مصر والشام مثلاً ، فالتناجد لكل أمة منهما
صفاتها المميزة التي تتجت عن تكوينها الجنسي وظروفها الطبيعية ، كالقرب
من البحر الذي أدى إلى نمو روح البحرية في أهل الشام ، وخصب
الأرض الذي جعل مصر إقليماً زراعياً ، وكون أخلاق المصريين تكويناً
خاصاً ، وصحارى بلاد العرب التي جعلت من أهلها بدواً لا يستريحون
كثيراً إلى الحكومة المركزية ، وكهضاب فارس وسفوحها التي جعلت
منها بلاد رعاة . وإنما ينبغي التفطن إلى تلك الحقائق الجوهرية لأنها
ستكون بعيدة الأثر في تاريخ الجماعة الإسلامية ومستقبلها ؛ ولأنها
ستعمل على مضى الزمن ، على تقسيم الجماعة الإسلامية إلى وطنيات صغيرة
تبتدىء قرية الشبه بعضها ببعض ، ثم تأخذ الفوارق بينها في الاتساع
والظهور ، كلما أتبع لها الزمن الكافي ، لتنمو نمواً طبيعياً يحفظ عليها
طبيعتها وقوميتها ، كأن تنجو من السلطان الأجنبي الذي يهدم قوميتها
ويطفيء روحها .. وكان يقل سلطان الخليفة الديني والسياسي عليها ،
فينمو في أهلها شعور بالاستقلال ، كما نرى في فارس التي حماها بعدها
من الغزوات الطارئة ، وأقامها على قدميها خروجها عن طاعة بني عثمان

فبدأت قوميتها وشخصيتها في الظهور من القرن السادس عشر الميلادي،
 وستجد أن إهمال هذه الفروق والتهوين من شأنها قد اضل
 الكثيرين من الباحثين والمفكرين في تواريخ الامبراطوريات
 الاسلامية وأسباب سقوطها وانحلالها؛ فردوها في أكثر الأحيان
 إلى ضعف الحاكم أو صغر سنه أو سوء سياسته أو انصرافه إلى الملذات،
 كأنما الطبيعي أن تتحد بلاد الشرق الاسلامي إلى لواء واحد.. فإذا
 تفككت وحدتها كان ذلك طارئاً له أسبابه التي ترجع إلى الحاكمين
 لا إلى الأمم المحكومة، وسترى من دراستنا، أن الطبيعي هو أن تتفكك
 وحدات الدولة الاسلامية، وأن تصبح بلاداً متفرقة، فإذا اتحدت كان
 ذلك طارئاً غير طبيعي كوجود حاكم ممتاز جداً أو ظهور خطر عام.
 بل اعلنا لانغالي إذا قلنا إن الدولة الاسلامية الكاملة التي تحكم شعوب
 الاسلام كلها حكماً قوياً محسوساً وتنشر سلطانها على كل بقاعه وطرقه
 لم يكن لها وجود أبداً حتى في أسعد أيام الدولة الاسلامية وفي ظل أعظم
 الحكام المسلمين.

اهمية دراسة مميزات
كل وحدة

وعلى القارىء أن يذكر إلى جانب ذلك أن كثيراً من الوحدات
 التي دخلها الاسلام، كانت ذات حضارات خاصة ممتازة قبل أن تدخل تحت
 رايته، وأن كثيراً منها كان له تاريخ مجيد حافل بالذكريات
 العزيزة والاتصارات الحربية الباقية والفتوح الموفقة في ميادين العلم
 والآداب والتفكير، وأن الاسلام عمل من البدء على القضاء على اطلالها
 الباقية التي وجدها يوم دخلها فاتحاً، ولم يكن هذا لسياسة رسمها الحكام
 المسلمون، وإنما لأن روح الاسلام كانت من القوة بحيث صرفت الناس
 عن ماضيهم صرفاً تاماً، وساعد على هذا أن الاسلام أقبل في زمان كانت
 هذه الحضارات قد أشرفت فيه على الفناء والهدم، ولم يبق من آثارها
 وعلومها وفتونها الا رسوم لا تغنى ولا تستحق رعاية ولا حفظاً، بل

الاسلام يهضم
الحضارات التي كانت
قائمة في بلاد الشرق
القريب قبل ظهوره

انقلبت محاسنها مساوىء ثقيلة التكاليف شديدة الضرر ، ومال الناس إلى الخلاص منها . فلما أقبلت جيوش الاسلام استقبلوها مرحبين وتلصقوا في مقدمها عصر أجديد آمن السلام والطمانينة والرخاء ، وساعدتهم على ذلك ، ما ذكرناه من أن الاسلام ليس ديناً فقط ، بل نظاماً اجتماعياً ، فكان اسلامهم دخولا في نظام جديد يقطع الصلة التي تصلهم بالماضى ، وقد قويت عندهم هذه الفكرة ، لما كان من توفيق الخلفاء الأول في الحكم وغلبة الطهارة والاخلاص على أجيال المسلمين الأولى ، فتحققت ظنونهم وأخذوا يستبدلون بأبطالهم أبطال العرب وبمفاخرهم مفاخر العرب ، فضعفت ذكرى الأجداد في نفوسهم شيئا فشيئا ، بل قضى عليها تماما . فتسبوا المصريون فراغتهم والفرس أكاسرتهم وترك خواقينهم ، وانتسبوا للعرب وأبطالهم . فكان هذا الايمان آصرة من الاواصر التي وثقت الأسباب بين أجزاء الدولة الاسلامية وعملت على التقريب بينها ، إذ حل التفانى في الاسلام ورجاله محل العواطف القومية المحلية ، وقد ظل هذا العامل فعالا ، حافظا على الدولة قوتها ما دامت الحكومة الاسلامية قوية ثابتة نزيهة قريبة من المثل الأعلى للاسلام ، فلما تسرب إليها الاضطراب ونالتها الفوضى بدأ الناس ينصرفون عنها وبدأت ذكرياتهم القديمة المطمورة تعود إليهم ، بل أخذوا يبحثون عنها ويؤمنون بها من جديد فبدأت تظهر القوميات ، وكان في نشوءها معنى القضاء على الوحدة الاسلامية والدولة الاسلامية العامة .

القوميات الاسلامية

وقد درج المؤرخون الاسلاميون على أن ينظروا إلى تفكك الدولة الاسلامية وانقسامها إلى دويلات صغيرة ، كمظهر من مظاهر الاضمحلال والقناء ، والواقع — كما رأيت — غير ذلك ، إذ أن هذا التفكك ، يكون في غالب الأحيان دورا من الأدوار التي لا مفر للدول الكبيرة من المرور به ، ولا يكون معناه دائما أن السلطة المركزية قد

وهنت أو أن عصرها قد انقضى ، وإنما يكون معناه أن الأَطراف قد قويت واشتدت ونمت شخصياتها واحساساتها القومية في ظلال الحكومة العليا ، وكلما نمت شعورها بالقوة ، نمت إلى جانبه رغبة في الاستقلال ، وكرهية الخضوع للسلطة المركزية ، وهذا دور يؤدي بطبيعة الحال إلى تطور هذه القوميات إلى دول محلية تأخذ بأسباب القوة والنهوض شيئاً فشيئاً ، حتى تستوى وحدات سياسية صحيحة التكوين سليمة المقومات ، كما حدث في أوروبا من انحلال الدولة الرومانية المقدسة إلى أقطاعات متفرقة ، أخذت تتجمع شيئاً فشيئاً حتى اتحد كل فريق منها وصار دولة قوية ، ولعل الذي جعل مؤرخي الشرق يتشائمون من هذا التفرق ، هو أن هذه الوحدات الصغيرة الناشئة ، لم يسمح لها مرة من المرات أن تتطور تطوراً طبيعياً هادئاً ينتهي بها إلى القوة والثبات ، بل كانت تفاجأ وهي تخطو نحو التوحد بالغزوات الطارئة التي توقف تقدمها وتقضي عليها ، وليس أدل على مافي هذا الانحلال من خير ، من أن فتراته كانت في الغالب فترات من النشاط الفني والفكري المنقطع النظير ، فالعصر العباسي الثاني هو عصر التقدم المشهود في بناء الحصون والمدن وهو عصر المتنبى وأبي العلاء وعصر الفلاسفة الأفاذا والمؤرخين الموفقين ، وهو عصر الحضارة الإسلامية الزاهية ومجتمع آثارها الباقية إلى اليوم . ويخطئ المؤرخون كذلك حين يقولون أن الذهن يكسب على حساب السياسة لأن الأمراء يتنافسون على العلماء والمهندسين والأطباء ومن إلى هؤلاء ، إذ الحقيقة أن الذين يتنافسون ليسوا هم الأمراء وإنما هي الوحدات القائمة الناهضة والقوميات الناشئة الآخذة بأسباب الحياة ، فتدوين الشهامة أول مظهر للشخصية الفارسية ، والمتنبى أبين الناس منطقاً عن الشخصية العربية وأشدّهم اعتزازاً بها وتقديراً لها وسعيّاً لانهاضها (١)

(١) نظرية الأستاذ محمود شاكر عن المتنبى في عدد المقتطف الخاص به

والدولة الفاطمية حجر الأساس في بناء القومية المصرية بمميزاتهما المعروفة وهكذا .

الفتوح الإسلامية

يعرف المطلعون على تاريخ الإسلام ، أن الفتوح الإسلامية ، لم تكن سلسلة متصلة الحلقات من الحروب ، بل اتخذت هيئة وثبات سريعة ، ويعرفون كذلك أن كل وثبة من هذه الوثبات ، كانت عقب دخول عنصر جديد في الإسلام ، فلا تكاد الدعوة الإسلامية تنتشر في قطر من الأقطار ، أو بين قبيل من الناس ، حتى يستجيبون لندائه القوى ، ويعتد الإيمان في نفوسهم روحاً جديداً ، وينهضون للغزو والفتح ، رافعين راية الإسلام في يد والسيف في اليد الأخرى ، ويبدأون سلسلة من الغزوات ، يمدون بها لواء الإسلام على أقطار جديدة .

الوثبة الأولى

كانت الوثبة الأولى بين سنتي ٦٣٠ و ٧٥٠ ميلادية . إذ لم تكد القبائل العربية تنطوي تحت راية الإسلام ، حتى وثبت وثبة سريعة فتحت فيها العراق وفارس والشام ومصر وشمال إفريقيا والأندلس . وكانت الوثبة الثانية بين سنتي ١٠٠٠ و ١١٠٠ ميلادية ، وكانت نتيجة طبيعية لدخول السلاجقة والبربر في الإسلام ، اتسعت فيها رقعة الدولة الإسلامية ، فأعادت آسيا الصغرى إلى الدولة الإسلامية نهائياً ، وفتحت غرب إفريقيا ، ويضيف المؤرخون إلى هذا الدور ، وثبة إسلامية أخرى نحو الشرق ، قام بها السلطان محمود الغوري في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، دخل بها الإسلام شمال الهند بمجد السيف .

الوثبة الثالثة

أما الوثبة الثالثة ، فتقرن بدخول الأتراك العثمانيين في الإسلام ، وفيها قضى الإسلام على الدولة البيزنطية ، وورثها في البلقان وجنوب

الروسيا ، وتمت فيها سيادة المسلمين على البحر الأبيض ، فأصبح بحيرة اسلامية ، تقوم فيه أساطيل المغرب من الغرب ، وأساطيل الدولة العثمانية من الشرق .

تفسير هذه الظاهرة

ومعنى هذا : أن الاسلام إذا صادف جماعة من البدو الذين يتأهبون للاستقرار ، أثار فيهم روحاً حربية دينية ، تدفعهم إلى الفتح والغزو ، هي صدى طبيعي للحرارة المنبثة في آيات القرآن ، والرجولة التي هي العنصر المميز للعقيدة الاسلامية .

أما إذا صادف الاسلام بلداً من ذوات الحضارات القديمة ، فلا يلبث أهله أن ينصرفوا إلى التفكير في أصول الاسلام ، وتفسيرها وتقريرها والتفقه فيها ، ويفضى بهم الأمر إلى نهضة واسعة النطاق في العلوم والفلسفة والفنون ، كما نعرف من الحركات الفكرية القوية التي أعقبت دخول الفرس والشائمين والمصريين والاندلسيين في الاسلام ، وكانت نتيجة الفتوح الاسلامية المعروفة في ميادين الفكر والعلم . ويفسر ابن خلدون هذه الظاهرة في مقدمته^(١) ، بما نستطيع أن

دائرة العمران

نسميه « دائرة العمران » أي أن النشاط الاسلامي ، يبدأ حين يهجم قبيل من البدو ويغيرون على بلد متحضر ، فيثير ذلك في العالم الاسلامي ، فورة من النشاط في السياسة والفكر ، ولا يكاد يستقر الرحل ، ويتناولون الزراعة والصناعة ، حتى تهدأ فيهم الثورة ، ولا يكاد يمضي على ذلك زمان طويل ، حتى تشيع فيهم الحضارة لنا وترقا ، فلا يلبثون أن ينحط أمرهم ، فيكون هذا حافزاً لطائفة أخرى من أهل الريف ، لغزو الحضر من جديد ، أي أن الصحارى هي مهد الحركات الاسلامية ، وأن سكانها هم عوامل النهوض والحركة والحياة في المجتمع الاسلامي .

مناقشة نظرية
ابن خلدون

هنا لم يكن ابن خلدون دقيقاً في الملاحظة ، إذ الحقيقة أن هذه الغزوات التي يشنها البدو على مواقع الخصب ومهاد العمران ليست عاملاً من عوامل البناء ، وإنما هي عامل الهدم والتخريب ، ولا تزيد على أن تقيم ملكاً واسعاً أو ضيقاً ، وتصرف الأمور ردحاً من الزمن ثم تنحدر تاركة مكانها لغيرها الذي يعيد نفس الدور وهكذا ، من غير أن يكون لاحدى هذه الدول أثر بعيد في رقي الحضارة ، أو ترك في البلاد طابعاً خاصاً ، أو تضفي عليها لوناً ممتازاً ، والغالب على هذه الدول التي يقيمها الغزاة أن تكون كثيرة التشابه ، مترفعة عن الأهالي ، قليلة الاختلاط بهم ، فلا تتأثر بهم ولا يؤثرون فيها ، والغالب كذلك أن يكون برنامجهما عسكرياً فلا تفتن لاصلاح اجتماعي أولهوض بناحية من نواحي الانتاج .

تفكك الوحدة
الاسلامية

نهضة العناصر الفارسية

ظلت الشعوب الاسلامية مجموعة إلى لواء الخلافة زهاء قرنين ونصف من الزمان ، ثم بدأت الخلافة المركزية في الضعف وأخذت أجزاؤها تتفرق عنها واحدة بعد واحدة ، ولم يكن هذا التفرق نتيجة لضعف الخلافة العباسية وحده ، وإنما يرجع في بعض أسبابه إلى تطور الوحدات والشعوب الاسلامية تطوراً جعل بقاء الوحدة الشاملة أمراً غير ميسور ؛ ونعني بهذا التطور نهوض بعض الأجناس الاسلامية واتجاهها نحو القوة وميلها إلى بدء حياة قومية جديدة ، ويبدو ذلك جلياً في نهضة العناصر الفارسية التي سادت الدولة الاسلامية سيادة فعلية خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، ويبدو بشكل أوضح في نهوض العناصر التركية والمغولية والجركسية

للنصارى التركية وزعامتها في نواحي العالم الاسلامي من منتصف القرن الثالث الهجري تقريبا

اصل العناصر التركية منذ أحقاب سحيقة في القدم ، كانت العناصر التركية والمغولية تعمر الأقاليم الشاسعة الواقعة بين حدود فارس والصين القديمتين ، ولم يكن في استطاعتها أن تتخطى أسوار إحدى هاتين القيصريتين العظيمتين ، ولكنها ظلت تنقل الحضارة بينهما ، وتعلم من الاتصال بهما أساليب الحكم والادارة والحضارة والحرب ، مما أورثها استعدادا لإنشاء الدول القوية والقيام بفتوحات واسعة المدى .

وفي النصف الأول من القرن السابع الميلادي طرق العرب أبواب فارس ، وكان الاضطراب قد طرق أبوابها قبل ذلك بسنوات فسهل على العرب فتحها والقضاء على كسروية الساسانيين التي كانت قائمة بالحكم فيها على شيء من الضعف ، فكان لهذا الحادث أبعد الأثر في مستقبل الأتراك الذين كانت فارس تحول بينهم وبين التدفق إلى بلاد الشرق الأدنى ، إذ افضت جيوش العرب الفاتحة إلى مواطن الترك فيما وراء النهر ونواحي خوارزم وما إليها حاملة الاسلام اليهم ، فأقبلوا يدخلون رحابه أفواجا ، وبهذا أصبحوا أعضاء مواطنين في المجموعة الاسلامية الكبرى

فنهضت العناصر التركية وأخذت الدولة العباسية في الضعف وأخذت الشعوب الاسلامية في التفرق ، وأحست العناصر التركية فيما وراء النهر بضعف السلطة المركزية ، فأخذت تحاول انشاء دول تركية اسلامية على انقاض الدولة العباسية المنحلة ، وساعدتهم صفاتهم الجسمانية وثقافتهم الحربية والسياسية التي ورثوها عن الدول التي اتصلوا بها ، فأصبحوا أصحاب القوة الفعلية في دولة الخلافة الاسلامية ، ثم تمكنوا من إنشاء أول دولة تركية وهي الدولة الساسانية التي سيطرت على الجماعات الاسلامية فيما يلي

دجلة والفرات شرقا ، والتي كان قيامها حافزا للقبائل التركية على مغادرة مواطنها والاسراع إلى بلاد الشرق الأدنى ، ومن ثم بدأت من أوائل القرن العاشر الميلادي حركة هجرة تركية واسعة النطاق ^{هجرة العناصر التركية السلاجقة} كان أظهر عناصرها القبائل السلجوقية ، التي استقرت على أطراف البلاد الاسلامية في شمالي العراق وآسيا الصغرى ، وأخذ سلاطينها يوسعون ملكهم حتى وحدوا البلاد الاسلامية وردوا عنها عدوان البيزنطيين - الذين كانوا قد تقدموا حتى عبروا الفرات وخطوا في إقليم جورجيا وماجاورته - وإلى هذا الجهد السلجوقي في التوحيد يرجع الفضل في تمكن المسلمين من مقاومة الموجات الصليبية : لأنهم - أي السلاجقة - أورثوا خلفاءهم الأيوبيين وحدة اسلامية قوية البنيان .

وتفرقت دولة السلاجقة واتجهت القبائل التركية التي كانت خاضعة لها تبحث عن مواطن جديدة لها ، فتخيرت قبيلة عثمان نواحي وسط آسيا الصغرى فخطت فيها ، وبدأت تتوسع نحو الشمال والغرب ، ودفعها إلى ذلك قيام الدويلات الاسلامية إلى جنوبها من جهة وضعف الدولة البيزنطية من جهة أخرى . وواتاها الحظ وساعفتها خصال رجالها فتقدموا في الأناضول وعبروا الأرخيل ونزلوا البلقان وفتحوا نواحيه وأزالوا القسطنطينية واتخذوها عاصمة لهم ، وبهذا تقدموا إلى العالم في أواخر القرن الخامس عشر بدولة قوية تضم ^{الامبراطورية العثمانية} الأناضول والبلقان ونواحي شاسعة في حوض الدانوب ، وبدءوا بعد ذلك يلقون أبصارهم نحو الشرق ، ويضعون خطة سريعة لفتح البلاد الاسلامية وتوحيدها تحت لوأتهم من جديد ، واعانهم على ذلك أن مصر والشام والعراق كانت قد أخذت تنحدر ، وتطلبت أحوالها العامة فتحا جديدا ينقذها مما صارت اليه من ضعف واضمحلال ، ولنستثن من ذلك فارس التي أخذت هي الأخرى في اهداب نهضة قوية ابتداء من

القرن العاشر الهجرى فلنمر مسرعين خلال البلاد الاسلامية لتنظر
حالتها قبيل الفتح العثمانى .

* * *

نهضة فارس

حينما أخذت الدولة العربية فى الاضمحلال كانت فارس
فى طريق نهضة كبرى ، فقد انتقل النشاط السياسى من بلاد الجزيرة
إلى هضاب إيران ، وأخذت تظهر هناك دول جديدة عربية المظهر
فارسية الروح ، وأخذت جهود الفرس تنصرف نحو بلادهم وتتحول
نحو إيقاظها والسمو بها من جديد ، ولكن هذه النهضة لم يكتب لها
النجاح فى ذلك الحين إذ أخذ الأتراك والمغول يطرقون أبواب البلاد
ويرعونها عابرين إلى نواحي الشرق الأدنى أو مقيمين فى نواحيها ،
فأوقفت هذه التيارات التركية والمغولية حركة النهوض ، وكان على الفرس
أن ينتظروا حوالى ثلاثة قرون حتى تنجاب عنهم غمرات الترك والمغول ،
ثم يأخذوا فى النهوض من جديد فى أوائل القرن السادس عشر .

النهضة الأدبية
والفكرية

يبد أن جذوة النهضة لم تخبأ تماما طوال القرون التى حكم الترك
والمغول خلالها بلاد فارس ، فقد تحول النشاط السياسى إلى نشاط
ذهنى ، وظهرت النزعات الوطنية الحبيسة نبوغا فكريا فنيا ملاء هذه
القرون كلها ، فأخذت الآداب الفارسية تنتعش وتهض ، وأثمر المزاج
بين الثقافتين الفارسية والاسلامية ثمرة فأخذ يظهر فى ربوع فارس
أدباء وشعراء ومؤرخون نابهون من أمثال البيرونى صاحب « الآثار
الباقية » والفيلسوف ابن سينا والفردوسى الشاعر الذى أيقظ الآمال
الفارسية بملحمته الكبرى « الشاهنامة »

لهذا ليس بغريب أن نجد فارس تهض نهضة سياسية قوية بعد أن
زال عنها كابوس من المغول ، لأن الروح الفارسية كانت تتوفز
للنهوض ولا يعوقها إلا سلطان المغول ، الذى أخذ يضعف ويتفرق

النهضة السياسية

خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر

بشر بهذه النهضة أحد شيوخ أردبيل المسمى صفى الدين ، إذ أخذ يدعو الفرس إلى المذهب الشيعى فلقبت دعوته القبول وتوافدت عليه القبائل تعلن ولائها ، حتى أصبح إقليم جيلان مركز النهضة الفارسية ، وأتصلت الأسباب بين صفى الدين وأوزون حسن شيخ قبيلة « الآق قيونلو » اتصالاً انتهى بامتزاج المذهب الشيعى بالقوة العسكرية ، وتوافدت القبائل تشد أزر صفى الدين ، فلما مات خلف لابنه - الشاه اسماعيل - أساساً قوياً استطاع به أن يقيم دولة عظيمة ضم إليها بغداد وديار بكر والموصل وامتدت من باكوشمالاً إلى ششتر جنوباً .

وكانت الدولة العثمانية إذ ذاك فى عنفوان نهوضها ، فلم يرض سلطانها سليم عن هذا العداء الذى صارحته به الشيعة الفارسية باستيلائها على بغداد ، فلم يلبث أن شن عليها الحرب . وهزم اسماعيل عند شالديران ، فكان هذا أول العداء بين فارس وتركيا ، هذا العداء الذى سيصبح محورا من محاور التاريخ الاسلامى خلال العصر الحديث ، والذى سيكون له أثر بليغ فى كل من فارس وتركيا والعالم الاسلامى

وبلغت النهضة الفارسية أوجها فى عهد الشاه عباس الاكبر (٩٨٥ - ١٠٣٨ هـ ، ١٥٨٧ - ١٦٢٩ م) إذ أنه بذل الوسع فى انعاش الحماس الشيعى ، فجعل مشهد مركزا للشيعة الفارسية وحج إليها ، فهفت إليه قلوب الفرس وارتفعوا به إلى مقام القديسين ، فحفزه ذلك إلى الجدة فى انهاض دولته ، ولحق سائحو الاوروبيين فيه بوادى القوة فمضوا إليه يشدون أزره ليستطيع مقاومة الأتراك ، وفطن هو إلى الخير الذى يجنيه من الاستفادة من أساليبهم ، فاستعان بالآخوة الانجليز شيرلى على انشاء جيش جديد مسلح بالمشاة والفرسان المدربين والمدفعية القوية

مما مكنته من طرد الأتراك من بلاده والانتصار عليهم قرب بحيرة أرميا فاسترد آذربيجان وكردستان وبغداد والموصل وديار بكر .
 بهذا نهضت فارس وأوجدت لنفسها شخصية مستقلة في العالم الاسلامي ، وأصبح لها جيش قوى منظم بالأساليب الأوروبية في أوائل القرن السابع عشر ، فتوافد اليها الرحالة وذاع صيتها في الآداب الأوروبية ؛ بيد أن هذا الصيت جلب اليها قوما آخرين من الشمال ، هم الروس الذين كانوا قد نهضوا نهضتهم وجددوا دولتهم برعاية قيصرهم بطرس الكبير ، واقبلوا بجيوشهم منحدرين إلى فارس وبلاد النهرين : وبهذا أصبح لزاما على فارس أن تدفع ثمن هذا النهوض والاتصال بأوروبا ، تدفعه بالصراع مع الروس من شمال والبرتغاليين من جنوب ، وهو صراع شديد تهدد فارس بشر مستطير وأصبح مدار سياستها . وارتعن بنتيجته مستقبلها وتاريخها الحديث



وكان العراق شريكا لفارس في كل ماضى من الاحداث :
 منى مثلها بغارة المغول ، وظل يرزح تحت نير خاناتهم ثمانين عاما ، ثم استقل به تابع من أتباعهم وأنشأ به حكومة شبه مستقلة ظلت مدى سبعين عاما لم تكن خيرا من الثمانين الماضية ، وأعقب ذلك فترة من الفوضى كان العراق اثناءها فريسة يتنازعها أمراء التركمان ، وظل على ذلك حتى وضع قيام الصفويين للاضطراب حدا ، بادخالهم البلاد في دولتهم سنة ١٥٠٨ م فبدأت إلى حين

العراق

الصفويون يستولون
على العراق

بدأ الفتح الفارسي عصرًا جديدًا للبلاد ، فأمنها من غزوات التركمان ومنافسة الأمراء ، وأعاد الرخاء في ربوعها بعد عصر طويل من الفوضى والاضطراب ، وفي ظل الشاه أخذ تجار الفرس يخفون إلى

اتماش العراق

نهضة الشيعة في العراق

سليم يفكر في
غزو العراق

الفتح الثاني الثاني

البلاد ليعيدوا الحياة في مدنها والنشاط إلى أسواقها ، وفي ظل
الصفويين أخذت الشيعة تنفّس في نواحي البلاد وتؤسس لنفسها
مكائنا بين أهلها : فقد اشتد اسماعيل شدة ظاهرة مع السنيين وقتل منهم
نقرا عظيمًا ، وأعاد انشاء مرا كز الشيعة في البلاد ، فأقام عند قبر
موسى الكاظم مسجداً ، وعلى الجملة أصبحت البلاد جزء من فارس الصفوية
وكان هذا مبرراً كافياً للسلطان سليم لغزو العراق ، فما هو بمطبق
— لخليفة المسلمين — اضطهاد السنة في بلاد العراق ، ولا هو بمطبق —
كسلطان الدولة العثمانية — خروج العراق من يده ، فلم يلبث أن حشد
حشوده وهوى بقواته على رأس فارس عند شالديران فكسر جيوش
اسماعيل ورده من الشمال والعراق جريحاً ، ففتح بذلك ميدان الصراع
بين الصفويين والعثمانيين على أرض العراق وما يتاخمه من ولايات ،
وهو صراع طويل سيستمرّ بين الجانبين إلى منتصف القرن التاسع عشر .
ثم عادت البلاد إلى احضان فارس بعد عودة سليم بعد مناورة
قصيرة قام بها ذو الفقار أحد شيوخ القبائل اللورية النازلة بين فارس
والعراق ، ولكن الأتراك لم يلبثوا أن فتحوها فتحاً عظيماً ثانياً بقيادة سليمان
القانوني سنة ١٥٢٥ م ، الذي لم يكتف بمجرد الفتح واقامة حاكم من أهل
البلاد كما فعل سليم ، بل قسمها وأقام عليها ولاية الأتراك وآمنها من
أن يغدر بها الفرس الصفويون مرة أخرى ، وأعلى بها منار السنة من
جديد فأقام مسجدي أبي حنيفة النعمان وعبد القادر الجيلاني معا ، ولم
يضطهد الشيعة كما فعل سليم بل آمنهم وعنى بمزاراتهم في كربلاء
والنجف ، وعاد بعد أن خلف في البلاد سليمان باشا أول سلسلة طويلة
من الباشاوات الأتراك سيتناوبون حكم العراق حتى الحرب الكبرى

أثر الحروب الصليبية
في مصر

دارت رحى الحروب الصليبية في ميادين الشام ، ولكن مصر هي
التي حملت معظم عبئها واضطلعت بأكثر نفقاتها ، ففي مصر كانت تعد

الجيش وتزود بآلات الحرب ، ومنها كانت تصل المؤن والامداد
والافراد وكل ما كانت تحتاج اليه الجيوش إذ ذاك ، وفي ربوعها ومن
خيرها كان جنود الحرب وفرسانها يربون ويعلمون ، فلا غرابة أن وقعت
البلاد في أزمات مالية حادة عقب الحروب الصليبية

الآزمات المالية
القاسية

لهذا لا ينبغي أن يقال إن حكومة المماليك هي التي هبطت بالبلاد
إلى الخضيض وقضت على كل أمل في إصلاحها ، لأنها كانت في الخضيض
فعلا حينما قتل توران شاه آخر الأيوبيين وتولى سيطتها عز الدين
أيبك أول المماليك حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي .
وليس من الصواب أن يقال إن المماليك كانوا طغمة من الأشرار
والمرتزقة حلت بالبلاد فامتصت دماءها وقضت على كل رخائها ، لأن
الكثيرين من هؤلاء المماليك كانوا على درجة عظيمة من القدرة
واتساع الذهن ونية الخير ، ولا نزاع في أن أمثال قطز وبيبرس
وقلاوون والناصر ابنه ولاشين وبارسباي يعدون من أعظم حكام
المسلمين وأقدرهم وأوفرهم نصيبا في بناء مجده وحضارته ، ويضاف إلى
هذا أنهم كانوا جميعا من أشد المسلمين إخلاصا للإسلام وأكثرم
تضحية في سبيله ودفاعا عن حوزته .

حكومة المماليك

سلاطين المماليك

وكان ضعف الرعية وهبوطها نفسه دافعا بالمماليك إلى الاستبداد وما نعا
اياهم من التحرج منه أو إثارة العدل عليه . ويكفى أن يقال إن الرعية
كانت ترجو الانصاف ولكنها لم تجرؤ على المطالبة به ، وكانت تكره
الحكام ولكنها كانت تعلن الحب والولاء لهم ، وكان رجال الدين
في هذه الأيام أضيق المسلمين عقلا وأبعدهم عن فكرة الانصاف
والعدل والحكم الصالح . ولم يكن العصر — في الشرق على الأقل — عصر
إصلاح أو نهوض ، ولا عصر نهضة فكرية ، بل كان نهاية عصر طويل من
الاضمحلال والاضطراب ، ولهذا اتصف بما تتصف به نهايات العصور
وخواتم الدولات من الاضطراب والفوضى والركود وهبوط المههم .

ضعف الروح المضرة
عند المصريين آنذاك

وكان الكثير من سلاطين الممالك أندادا لمعاصريهم من ملوك الشرق والغرب : يحالفونهم ويعثون السفارات إليهم فلا يقصرون في شيء من ذلك ، بل كانوا يظهرون براعات تفوق ما كان يقوم به سلاسل بيوت الملك في ذلك الزمان ، مما رفع مركز مصر الدولي إلى أوج لم تبلغه في أي عصر بعد ذلك ، حتى أصبحت مصر بفضلهم محورا من محاور السياسة العالمية إذ ذاك ، فاذا أضفنا إلى ذلك أن سلاطينهم كانوا يحكمون مصر والشام فعلا ، ويسيطون سلطانهم على الحجاز واليمن وطرابلس وأرمينية والنوبة عرفنا مدى سلطة هؤلاء الممالك وقدرتهم على الحكم ، وعرفنا كذلك نسبتهم إلى معاصريهم من الملوك في الشرق والغرب على السواء ولعل أعظم ما أداه الممالك لمصر والشام هو حربيهم للغول واقتدارهم على هزيمتهم أربع مرات متواليات ، أثبت الممالك في كل منها أنهم أقدر الناس على الحرب وأثبتهم جنانا ، وأكثرهم قدرة على احتمال الهجمات ، فقد كان المغول جماعات زاحفة تتدفق على الشام بين الحين والحين على هيئة موجات مخربة شديدة الهجوم لا يثبت في وجهها أحد ، ويكفي أن نذكر ما أحدثوه ببغداد ودمشق وحلب حين دخلوها حتى ندرك مدى الخدمة التي أسداها الممالك لمصر والشام والحضارة الإسلامية عامة بهذا العمل .

الممالك والغول

وإلى الممالك كذلك يرجع الفضل في إعادة منارة الخلافة الإسلامية ، إذ أن بيرس أحب أن يعوض الإسلام ما تهدم من خلافته بقضاء هولاكو على خلافة بغداد ، فاستقدم أحد سلاسل بني العباس وأقامه خليفة ولقبه المستنصر ، وتسلم منه الخلع الخليفة ، ثم أرسله إلى بغداد مع قوة مكنت له من دخولها ، ثم عاد فقرر نقل مركز الخلافة إلى القاهرة حذرا من وقوع الخليفة تحت سلطان أحد غيره من أمراء المسلمين ، وبهذا انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة ، وعادت

إعادة الخلافة

للاسلام خلافته ولو صوريا فقط ، وظلت قائمة بها حتى تسليها السلطان سليم سنة ١٥١٧ فانتقل مركزها إلى الاستانة .

الممالك يرهقون
البلاد

لكي يستطيع الممالك القيام بنفقات هذا كله كان لابد أن يرهقوا البلاد التي كانت مرهقة فعلا حين بدأ سلاطينهم يتعاقبون على عرشها ، ولكي ينعم الممالك بهذا المظهر الخلاب كان لابد أن يكتفى بقية أهل مصر بالقفار والاطمار ، وكان عليهم أن يجتهدوا في اعداد معدات الجيوش دون أن ينالوا أقل الجزاء ، ومن ثم حرم المصريون من مغائم الحرب وطرائف السلطان ، واقتصر عملهم على تقديم نفقات الحروب وصناعة معداتها وولاية مسائل الدين في البلاد ، فأخذت قواهم تضمحل وشخصيتهم تضعف ، وكلما انقضى عصر زاد الممالك قوة وزاد المصريون ضعفا ، حتى إذا انتهت أيام الممالك الأول كانت النسبة تكاد تكون معدومة بين الحاكمين والمحكومين . بيد أننا لابد أن نذكر أنهم - أي المصريين - قد قاموا في هذه العزلة بأخذ ما يذكرون هذه الأيام ، فبنوا العمائر الفخمة ، وصنعوا الطرف الثمينة وحملوا لواء الحضارة المادية ورفعوه عاليا رفيعا ، وجعلوا من ذلك العصر المملوكي أوج الفن الاسلامي في الصناعة والهندسة والتصميم والزخرفة والنسيج

اضمحلال الممالك

وحوالي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي انتهى عصر الممالك العظام وخلفهم ممالك ضعاف لا يقتدرون على ما اقتدر عليه الرعيل الأول منهم ، ولم يستطع أحدهم أن يوقف جنده عند حده فبدأ جنودهم يعبثون بالبلاد ويركبونها بكل مساءة ، من غير أن يكون عليهم حرج من سلطان ، فاشتد الضعف بالبلاد ووصلت في أواخر القرن الرابع عشر إلى حال من الضعف والاضطراب لم تعهد عليها في أسود أيامها ، واقرن هذا الهبوط التام بظهور فئة جديدة من الممالك

عرفت باسم الممالك الجراكسة ، غصبت الامر من آخر البحرية واستبدت بالامر استبدادا عظيما . ولا محل لتقسيم الممالك إلى بحرية وشراكسة ، فليست الطائفة الاولى كلها من ممالك قلعة الروضة ، وليست الطائفة الثانية جراكسة اطلاقا ، وإنما هم جميعا طائفة واحدة ذات أصول مختلفة وأسلوب واحد من الحكم .

وفي أواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر الميلاديين انتظمت تجارة الهند عن طريق مصر والشام ، وتفتن بارسباى إلى ماتغله هذه التجارة من الربح ، فاهتم بتيسير سبلها وتمكينها من المرور ببلاده حتى يفوز من أرباحها بأوفر نصيب ومن هنا كان اهتمامه باعادة سلطانه في اليمن وبلاد الحجاز ، وكان أصحاب اليمن يعسفون السفن المارة بالبحر الأحمر عسفا يمنع التجار من التقدم شمالا إلى الموانئ المصرية كالسويس وعيذاب ، وكان أشرف مكة يتبعون التجار بمثل هذا الأذى مما اضطرهم إلى الاكتفاء بالصعود في البحر الأحمر إلى سواكن وبيع بضائعهم هناك ، فأمر بارسباى عماله في جدة وينبع بالتدخل في ذلك الأمر ، فكان من نتيجة ذلك حماية التجار الهنود من عسف اليمنيين والحجازيين ، ولهذا أخذت المتاجر الهندية تصعد آمنة إلى جدة وينبع من حوالى سنة ١٤٢٥ م وربحت خزائن بارسباى منها حوالى سبعين ألف دينار في العام ، وكانت المتاجر تمر بعد ذلك في أراض وبحار كلها خاضعة لسلطان الممالك فتبعوها بالضرائب من ميناء ميناء ومن سوق لسوق حتى أصبح ما يجي عليها من المال أضعاف ثمنها الأصلي ، فامتنع تجار البنادقة عن شرائها في أسواق القاهرة أو الاسكندرية ورشيد ودمياط ، وفضل تجار الهند أن يبيعوا بضائعهم في أسواق عدن وسواكن ، وأرسل البنادقة سفينة لتقل تجارهم من الاسكندرية إيثانا بقطع العلاقات التجارية ،

أرباح التجارة الهندية

فلما لمح بارسباى الخطر يهدد موارده بسبب ذلك كف عن الاحتكار وخفض المكوس وأطلق التجارة ، ولكنه عاد فاشتد مما أدى إلى توتر العلاقات واضطراب مجرى التجارة مرة أخرى ، وقد حاول جقمق وبنال أن يعالجا الأمر فلم يفلحا ، وأخذ إيراد الممالك من التجارة في الهبوط مما أضعف سلطانهم وزادهم عسفا للرعية وفسادا للحكم في البلاد ، وكان من نتائج ذلك العسف أن توجهت همم البرتغاليين إلى كشف طريق جديد للتجارة بعيدا عن احتكار الممالك والبنادقة ، بما انتهى بكشف طريق رأس الرجاء

البرتغاليون يحاولون
كشف طريق رأس الرجاء

وكان نجم الأتراك العثمانيين في صعود في هذه الأيام ، وكانت فتوحاتهم في البلقان قد بلغت مبلغا مكنهم من الالتفات للشرق ، فآخذوا يمدون حدودهم في أعالي الفرات وشمال الشام ، وهناك بدأ الاحتكاك بينهم وبين الممالك ، إذ كان أمراء ذى القدر وغيرهم يتوجهون بالولاء لسلطنة مصر ، فأخذت العلاقات بين الجانبين تسوء ، ولم يهتم سلطان الممالك إذ ذاك - قايتباى - بأن يصانع العثمانيين ، بل صارحهم بالعداء ، فاوى الأمير جم أخا بايزيد الثانى وعدوه ، ثم تورط في العداء أكثر من ذلك فباع هذا الأمير إلى البابا يعة جلبت عليه العار وأثارت غضب بايزيد وألمه .

بدء الاحتكاك بين
الممالك والأتراك

ولم تزل الأمور تتعقد بين الامتانة والقاهرة حتى انتهت بالفتح العثمانى لمصر ، على ما هو معروف ، بيد أنه من الواجب أن نقول ان هزيمة مرج دابق لم تكن قاضية على سلطان الممالك في هذه الديار ، بل كانت إيذانا بعصر ثالث من حكمهم تحت سيطرة آل عثمان بدأ من صيف سنة ١٥١٦ .

مقدمات الفتح
العثمانى



كانت البلاد الشامية ميدان الحروب الصليبية ، فكانت أحفلها

الشام

بمصائب تلك الحروب وأشدّها تأذيا من عقايلها ، فقد انتهت الحملات الصليبية في النصف الثاني من القرن الحادى عشر ، ولكن الاسلام والنصرانية ظلا يتساجلان في أرض الشام بعد ذلك إلى نهاية القرن الخامس عشر ، فاستمر بمالك مصر يواترون الحملات على ما بقى للصليبيين من محارس في الشام حتى استولوا على آخر معاقلهم - عكا - في حدود سنة ١٢٩١ ميلادية ، وبهذا بارح أرض الشام آخر امراء الصليبيين إلى قبرص واستقروا بها على أمل العود القريب . ترك الصليبيون أرض الشام ولكنهم أقاموا في بحار الشام ، وظلوا يهددون الساحل الشامى ويهاجمونه وينزلون بأهله الاذى بين الحين والحين . ولو قد اقتصرت نكبات الشام بعد الحروب الصليبية على عقايل هذه الحروب لكان في صلاح الحال رجاء ، ولكن حكومته صارت بعد هذه الحروب إلى بمالك مصر فحكموه من القاهرة حكما سيئا زاد حاله سوء وأضاف إلى علله علة جديدة : هى انتشار المظالم وزيادة الجبايات ودوام المنازعات بين نواب الأقسام

وكانت نتيجة ذلك هبوط بلاد الشام هبوطا تاما خلال القرون التى تلت الحروب الصليبية ، استمر إلى أواخر القرن الثامن عشر ، فلما فاجأها الفتح العثمانى فى أوائل القرن السابع عشر ألغى بها رمقا من الحياة يضطرب فى تجارة الساحل وبعض المدائن ، فقضى عليه وهوى بالبلاد إلى حال من الركود والفساد لم تعهد عليها خلال تاريخها الطويل جميعه .

يد أن الحروب الصليبية خلقت بين المسلمين والأوربيين لونا آخر من العلاقات غير الحرب والعداوة ، وهو التجارة وتبادل المنافع والحضارة ، فقد فطن الكثير من تجار الفرنج إلى خيرات الشرق وما يعود عليهم من الربح من المتاجرة فيها ، فواصلوا جهودهم بعد خروج الصليبيين ، ولما كان الممالك قد تابعوا حملاتهم على بلاد الشام فقد

مقووظ عكا

هبوط البلاد

العلاقات التجارية بين الشرق والغرب

سوق قيليقية

انتقل تجار الفرنج والاطاليين إلى قيليقيا بآسيا الصغرى ، وهناك
أنشأوا سوقا واسعة للتاجر توافد اليها التجار من نواحي الشام وآسيا
الصغرى يبيعون للفرنجة ويشتررون منهم . ولكن تلك السوق لم يطل
بها الامد زمنا طويلا إذ لم يلبث الممالك أن فطنوا لها فهاجمها
الناصر بن قلاوون سنة ١٣٤٧ م واستولى عليها وخرب سوقها . فحمل
تجار الاوروبيون متاجرهم إلى جزائر الارخبيل : وخطوا فيها ، معتمدين
على أساطيلهم وتفوقهم في البحار في تأمين متاجرهم وايصال بضائعهم
إلى سواحل الشام ، ومن ثم كثر نزول الاوربيين بالساحل واقامتهم
أسواقا سريعة لا تلبث أكثر من بضعة أيام : يهرع اليهم خلالها تجار
المسلمين فيتبادلون السلع ثم يطوى التجار متاجرهم ويعودون إلى سفنهم
ليخطوا في مكان آخر ، وهكذا حذرا من الحكم . وأخذ الممالك
في الانحلال وأخذ سلطانهم على البلاد في الضعف تبعا لذلك ، فجعل
التجار يطيلون مكثهم ويحتالون لذلك بالقوة حينا والرشي حينا آخر ،
حتى نشأ في كثير من ثغور الشام مثل بيروت وصيدا والاسكندرية
أسواق تجارية نافقة ، واعتاد الناس المتاجرة مع الاوربيين ، ولم يلبث
الحكام أن تبنوا ما يعود عليهم من الربح إذا سمحوا بقيام هذه
التجارة وفرضوا عليها المكوس والجمارك ، فأخذوا يسمحون باقامتها
ويشجعون أسواقها في ثغور الشام

نهرض بيروت

وكانت بيروت أكبر هذه الثغور وأكثرها تجارة ، لأنها مقابلة
لقبرص ملجأ الافرنج وأقرب الثغور لتجار الايطاليين من آل البندقية
وجنوه وبيزه ، فكانت قبرص مخزن المتاجر الاوربية اليها يخف تجار
أوروبا من قطالونيا وبروفانس وليون ومرسيليا والبندقية واليونان ،
ومنها تنصرف التجارة إلى بيروت حيث يتسلها عمالهم من الفرنج
وعملأؤهم من المسلمين وبمرور الزمن أخذت حكومات الجمهوريات

القضايات

الايطالية تنشىء قنصليات فى بيروت وغيرها من ثغور الشام ومدنه .
وبهذا أخذت العلاقات السلمية التجارية بين الشرق والغرب تنمو
وتشتد ، وفطن المماليك إلى ما يعود عليهم من الضرائب والجمارك
التي كانوا يجبرونها على هذه المتاجر والقنصليات فشجعوها ، ولهذا
أصبحت الجامعات التي كانوا يجبرونها موددا لا ينضب من الربح لهم ،
وكانت نتيجة ذلك انتعاش الموارد واتصال الامور بينهم وبين المجموعة
المسيحية في أوربا ، مما أدى إلى اهتمام دول أوربا - وفرنسا خاصة - بالشام
أما داخل البلاد فقد كانت الامور تسير فيه من سيء إلى أسوأ ،
فقد اشتد بالأهلين عسف المماليك وثقلت عليهم المجاعات وغارات
البدو ووافدات الأوبئة ونوازل الجراد وغزوات المغول . وكان
نواب الأقاليم لا ينفكون يتدابرون ويتنازعون فيصيب البلاد من جراء
ذلك أذى بالغ ، وزادت الأحوال سوء حين انتقل ملك مصر من
المماليك البرجية إلى المماليك البحرية حوالى سنة ١٣٨١ م

اضطلال البلاد

سوء العلاقات بين
المماليك والأتراك

وكانت العلاقة في هذه السنوات آخذة في السوء بين المماليك والأتراك
الذين كان ساعدهم قد اشتد في آسيا الصغرى ، مما جعل الأتراك
ينظرون للشام بعين الطمع ويرجئون الضربة إلى حين ، حتى اذا سنحت
الفرصة سنة ١٥١٧ فقد أسرعوا فغزوا الشام

* * *

الأتراك يعيدون
الوحدة الإسلامية

بهذا أعاد الأتراك الوحدة الإسلامية ، وجمعوا بلاد الشرق
الإسلامى إلى لواء الخلافة من جديد ، ووجدت الشعوب الإسلامية
قوة تحميها وترد عنها أذى الغزوات المفاجئة والغارات الطارئة التي
ظلت تروعها قرونا طويلة . وبدأ العثمانيون يضعون لهذا العالم الغفير
الذى صار إليهم نظاما ثابتا للحكم والادارة والدفاع ، فأقروا كل ناحية
على نظامها مع تعديل في تقسيمها اقتضاه نظام الدولة العام ، وأقيم على
كل ناحية حاكم تركى يرسل من الاستانة ويبقى في مركزه ثلاث سنوات
تعززه قوة من الجيش العثمانى تقيم معه فى عاصمة البلاد أو على حدودها ،

وما عدا ذلك كان يترك لأهل البلد أنفسهم ينظمونه على النحو الذى يريدون ، فظل بمالك مصر مثلاً يقومون بحكم البلاد كما كانوا قبل مجيء العثمانيين ، وظل أمراء الشام ورؤساء قبائله يصرفون الأمر على النحو الذى اعتادوه قبل مجيء العثمانيين ، أى الحكم العثمانى الجديد لم يزد على أن ضرب نطاقاً عسكرياً حول البلاد ، وفرض عليها جبايات منظمة تؤدى كل عام ، وتركها بعد ذلك حرة تصرف أمورها على النحو الذى اعتادت أن تصرفها به قبل الفتح ، ولهذا لم تكسب الوحدات الإسلامية شيئاً كثيراً بهذا الفتح الجديد ، حتى الأمن الذى شملها فى السنوات الأولى منه ، لم يلبث أن اضطرب حبله وعاد الأمر فوضى كما كان

الدولة العثمانية

فالقول بان الدولة العثمانية كانت وحدة تجوز يراد به التبسيط والابحاز لا التدقيق والتحديد ، اذ أن كل ناحيه استمرت بعد الفتح على نظامها قبله ، والقول بان الدولة العثمانية كانت حكومة عامة خطأ ظاهر لأن رجال الدولة ما كانوا يقتدرون على وضع نظام جامع مانع للدولة كلها وظلت الفوضى على حالها وان سكنت حيناً قصيراً ، وكانت الدولة إلى ذلك غاصة بالهيئات والأقليات التى تعيش بانظمتها وقوانينها بل فى رعاية ملوكها لا يكاد السلطان يملك من أمرها شيئاً ، حتى القول بان قيام الدولة العثمانية كان يقظة للعالم الإسلامى لا يخلو من خطأ ، اذا استمر الركود بل استحالة خمودا ، وزادت الهمم هبوطاً والعقول جهلاً ، وتضاءلت فى نواحي الدولة بوارق النهوض الأدبى أو الفنى التى كانت تنبئ بالخير فى بعض نواحي مصر والشام ، فسكن كل شئ وركد فى ظل هذه الوحدة الظاهرة التى عرفت بالدولة العثمانية . وانقطعت الصلات التجارية والحضارية بين الشرق والغرب بعد ان كانت قائمة ماضية فى سبيل القوة فى أواخر أيام المماليك كما سبق بيانه ، فكان انقطاع الصلات هذا أكبر العوامل فى تفوق أوربا على العالم الإسلامى إذانه وقف مكانه ومضت أوربا فى سبيلها قدماً كما سيجى .

انقطاع الصلات بين الشرق والغرب دائرة

وكانت الأمم التي تكون هذه الوحدة ، قد أدركها شيء من الأعياء والفتور من فرط ما جاهدت تحت راية الاسلام . ولعلها الشيخوخة أدركتها بعد أن اطمأنت إلى الجنة التي فتح الاسلام أبوابها للمتقين ، فأخذت تنسحب من ميدان السياسة والتاريخ واحدة فواحدة : ارتد العرب إلى جزيرتهم ، وصاروا أعراباً لا يملكون من أمر الاسلام والمسلمين شيئاً ، واضمحل الشام عشية بارحته الخلافة إلى بغداد ، وانتهى أمر العراق غداة غزوة السار .

ولم يكن في مقدور العثمانيين — لقتلهم — أن ينهضوا بأمر هذا العالم الغفير ، ففعلوا ما يفعله الرعاة حينما يروضون الغنم ، فيستعينون بالكلاب على حراستها . واتخذت الشعوب الاسلامية حياة قطعان من الماشية ، ترعى في كنف السلطان ، وتطمئن في حماية الانكشارية والممالك وأصبح حالها أشبه بهذه الضفادع التي حدثنا « لافوتشين » أنها عجزت عن أن ترد الأعداء عن أرضها ، فأقامت على نفسها بجماً حاكماً ، فكان يأكل من الرعية أكثر مما يأكل من الأعداء !

اضمحلال الشرق
الاسلامى فى حكم
الانراك

بهذا نستطيع أن نفهم كيف كانت سيادة العثمانيين شراً على العالم الاسلامى ، فبدأ يضمحل من الناحية المعنوية ، حتى أصبح وقطعان الماشية قريبا من قريب ، يؤدي للراعى ما عساه يريد منه . وإذا كانت هذه هي كل مهمته في الحياة ، فلم تعد به حاجة إلى التفكير أو العلم ، فبدأ يطغى عليه الجهل والجمود ، حتى أصبحت ظلمات بعضها فوق بعض ، وما هي إلا سنون ، حتى بدأ النوم يداعب أجفان الراعى ، ومال به غناه إلى الترف والراحة ، فوكل للانكشارية أمر الرعية ، وأقبل على النوم ، فاستولى عليه سبات عميق .

وكانت أوروبا قد بدأت تفيق من غفوة القرون الوسطى ، وكان
(٢)

ارتدادها إلى حضارة الاغريق والرومان ، قد أفضى بها إلى رحاب واسعة من الحرية . وبدأت الحياة تتكشف أمام أهلها عن أفاق جديدة ، فتفطن بعض علمائهم إلى استدارة الأرض ، وزاد آخرون فاستتجوا أنهم يستطيعون أن ينفذوا إلى الشرق دون أن تكون بهم حاجة إلى المرور بأرض الأتراك الذين كانوا يؤذونهم أذى شديداً ، وذلك بأن يسلكوا طريق الجنوب فيدورون حول أفريقيا ، ومن هنا كانت العزلة التي ضربت على العالم الاسلامي . فلم يعد أحد يطرق له باباً . أقفلت الثغور وطويت الأشرع ، وانقطعت التجارة التي كانت تتيح لأهله ربحاً وفيراً ، فزادت عليه علة جديدة هي الفقر الذي بدأ يعم ويشعل ، حتى بات الحكم يشكونه قبل الرعية ، فاذا زاد بهم ألم الحاجة فقد انقلبوا على الرعية وبدأوا يرهقونها حتى زالت معالم الغنى وأضرب الناس والحكام ، فلم يعودوا يقيمون المساجد والأبنية ، وسكنت ریح الشرق ، وساد عليه ظلام رهيب ، لا تكاد تلح فيه غير أشعة ضئيلة ، تضطرب في صحون الأزهر وغيره من المساجد .

بهذا ساد الانكشارية والماليك ، فأما الأولون فقد استهواهم النوم الذي استولى على سيدهم ، وبدأ الكسل يطغى عليهم ، حتى أصبحوا كذكور النحل تؤذى ولا تفيد ، وأصبح لزاماً على الناس أن يفعلوا بهم ما تفعله عاملات النحل حين يهجمن على الذكور فيقتلنها ، ذفعة واحدة ، وأما الآخرون — أي الماليك — فلم يكن ممكناً أن يهدأ أمرهم ، إذ أنهم لم يكونوا كالأنكشارية خدماً لسيد واحد ، يرفع منهم من يشاء وينخفض من يشاء ، وإنما كانوا عبيد سيوفهم ترفعهم إلى مراتب الأحرار وعروش الملوك ، فكانوا يحاذرون النوم مخافة أن يؤخذوا على غرة ، وقامت بينهم المنازعات واتخذوا المزارع والأسواق ميادين لها فانقطعت عن الرعية موارد الرزق ، ولم يبق أمامها إلا أن تقنع من العيش بالكفاف

وبدأت الأمراض والطواعين تقتك بها ، وانهى بها الأمر إلى حال من السوء ما عليها من مزيد .

للهضة
الأوروية

في هذا الحين ، كان قد استقام لاوروبا لون من الحضارة جديد ، نستطيع أن نميزه عن غيره من ألوان الحضارات ، إذا قلنا أنه لم يكن حضارة ملوك أو أحبار ، وإنما كان حضارة شعوب ، تحرر الناس في ظلها من آثار القرون وأعراف الزمان ، وأصبحوا أحراراً فيما يأتون من أمر ، وما يعلنون من فكر ، وأصبحت الشعوب تسير الملوك فإذا أبى الملوك طاعة الرعية ، ردوا إلى حدودهم أو خلعوا .

تطور المجتمع
الأوروي
للشركات

وكان العلم قد فتح للأوروبيين رحاب الأرض ، فانطلقوا يجوبون للقارات والمحيطات طلباً للرزق ، وهداهم العقل إلى الطبيعة ، فسخروها لأنفسهم فحملتهم إذا ازمعوا الرحيل ، وحاربت في صفوفهم إذا جاربوا . وعرفت الثروة طريقها إلى خزائن المصارف والبلديات ومحال التجار ، وظهر في ربوع أوروبا ، من أفراد الشعب ، من هم أغنى من ذوى التيجان ، وأخذت الشعوب تجند من صفوفها جيوشاً تساهم بالمال والعمل ، وتنشئ الشركات ، التي وفقت إلى الفتوح توفيقاً لم تدركه الجيوش ، فما يعبأ المحارب إذا تززع نفوذ مملكته ، مادام يتقاضى أجره ، وإنما يفزع المساهم في الشركة ، إذا مس ماله الأذى . كذلك حل رجال الفكر والعلماء والشعراء ، محل القسوس والرهبان في قيادة الناس ، وأصبح الأوروبيون أكثر صلة بالطبيعة وأمس رحماً بالحياة ؛ ولم يتخرجوا في سبيل العيش ، من أن يعلنوا ثورتهم على الدين ، وأن يهملوا حدوده وشعائره التي كانت همهم في القرون الوسطى ، بل استدعى نضالهم في الحياة أن يتحد كل فريق ، ويعتز بوطنه ، فصارت الوطنية عندهم إلى مقام يشبه مقام الدين

التقدم
الفكري
والعلمي

المضارة الغربية
جوانب خيرها

بهذا هاجم الغرب الشرق بثلاثة أسلحة لا قبل للأخير بها ، هي الحرية والعلم والفكر .

كل هذا ، ولا زال الراعي وكلابه في نومهم الهادئ ، ولا تزال زعائمه في مرعاهما ، وقد أحالها الفقر والمرض والجهل إلى حال من الجمود لم تعد تحس معها شيئاً مما حولها . وكانت أوروبا لا تزال تحفظ للشرق الاسلامي الشيء الكثير من الاحترام لأنها لم تنس بعد ، بأسه الشديد في الحروب الصليبية وفتوحات الأتراك ، ولكن نفرا من السائحين ، بدأ يدخل الشرق ، ويطوف به ، ويتأمل أحواله فيزداد عجباً ، ثم يمضي إلى قومه ، فيتحدث إليهم عما رأى من انحطاط المجموعة الاسلامية وضعفها البالغ ، فبدأ الأوروبيون يشكون في قوة الشرق الاسلامي وبدأت هيئته تسقط من أعينهم وفكروا في استعمال طريق البحر الأبيض من جديد ، وكانت سفنهم وأساطيلهم قد أحاطت بالمجموعة الاسلامية من الشرق — في المحيط الهندي ، وكان بعض المجازفين منهم يفضل أن يخترق العالم الاسلامي إلى الشرق ، فيلقى من عنق حكام المسلمين شيئاً كثيراً .

وكان الأوروبيون قد شغلوا بالمنازعات التي استطارت بين قومياتهم الناشئة . شغل آل هابسبرج بالبربون ، وشغل الانجليز بالفرنسيين ، واثارت بينهم منافسة حادة على المستعمرات في الهند وأمريكا .

كذلك قامت البروتستنتية في أوروبا ، ولم يكن بد من أن يقوم النزاع بينها وبين الكاثوليكية ، فاشتدت الخصومة بينهما ودامت زمناً طويلاً ، وظهرت بأجلى صورها في حرب الثلاثين سنة التي اشتركت فيها أوروبا كلها وانتهت بانتصار البروتستنتية الذي تقرر في صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ ، فشغل الأوروبيون خلال ذلك عن عدائهم المسلح للاسلام

على أن أهم تطور حدث في أوروبا في أوائل العصر الحديث ،
هو تطور أساليب الحرب وفنونها وآلاتها ، فقد كانت كفة الشرق
والغرب متعادلة — إلى حد ما — عندما كان سلاح الفريقين واحداً ،
بل كان الشرق هو الأرجح لما لأهله من الحماس والاندفاع في الميدان ،
نرى ذلك واضحاً لا يحتاج لبيان في الحروب الصليبية التي كانت الكفة
الراجحة فيها للشرق دائماً ، فلما كان العصر الحديث وحروبه الكثيرة
ومنازعاته الشديدة وجد الأوروبيون في ذلك مجالاً طيماً للاستزادة من
الخبرة والمران والاختراع فنشأت أساليب جديدة في أعداد الجيوش
وترتيبها ، وأعداد الجنود للميدان ، وفي الحركات الحربية وهندسة الميدان
وما إلى ذلك ، وسنرى أن هذا التقدم الحربي سيكون هو السبب
الأكبر في هزيمة الشرق وانتصار الغرب ، وسنراه واضحاً جلياً في
كل معركة أو نزاع بين الاثنين ، سنرى الشرق جامداً على أساليبه
محاولاً الاستفادة منها على خير وجه ، وسنرى الغرب يفتن ويتدع
في الحركات الحربية وآلات القتال من بنادق ومدافع وآلات حصار
فيكون الفرق بين الاثنين ظاهراً بيناً له نتيجة الحاسمة . وقد أحس
المسلمون الذين تلقوا هجمات الغرب الأولى بهذا الخطر وحاولوا أن
يصلحوا شأنهم من الناحية الحربية ليصدوا تقدم الغزاة ولكنهم
لم يفلحوا ، لأن هذا التطور — ككل تطور غربي في العصر الحديث —
إنما أساسه العلم والتجربة الطويلة ، فقواد نابليون الذين كانوا يستعملون
مربعات الجنود لصد هجومات المماليك الشديد كانوا يطبقون أساليب
درسوها في المدارس الحربية ومرتوا عليها في عشرات المواقع التي
اشتركوا فيها قبل قدومهم إلى مصر ، ومن الغريب أن المماليك لم
يحاولوا أن يقلدوا الفرنسيين في شيء من أساليبهم على رغم أنهم
استبانوا فضلها وقوتها ، وإنما مضوا على ما القوه في حروبهم القديمة

فكانت النتيجة هزيمة ساحقة متوالية انتهت بفنائهم من التاريخ ، ولعلنا لا نعجب كثيرا كيف استمر تفوق الغرب إلى اليوم مع ان الشرق بدأ يتخذ أساليب الغرب منذ زمن بعيد ، ولكن الواقع أن أقوى عناصر الجيش الأوروبي هي روحه المعنوية ، يشعر كل جندي فيه بنفسه وبوطنه ويندمج مع الآخرين في الصفوف فيصبح الجيش قوة معنوية عظيمة لا يكاد يقاس اليها حماس الشرقيين الذي يقوم على الاندفاع ولهذا ستري ان الشرق سيظل مهزوماً مهما يصلح في أساليبه ، وسيخسر المواقع مهما يتقن من عدة في الحرب وآلاتها ، ولا يبدأ ينتصر حتى ترتقي روح جنوده المعنوية فيصل بذلك إلى مستوى العسكرية الأوروبية .

بدأ هذا التقدم الحربي يأخذ شكلا اظاهراً في حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا اذا اكتشف الناس أثاثها قوة المشاة وعرفوا سبل الاستفادة منهم على خير وجه ، ثم حروب شارلكان التي شملت أوروبا كلها واتخذت هيئة صراع بين البروتستنتية والكاثوليكية والتي أيقظت في نفوس المحاربين الأوروبيين روحاً جديداً ، وزادتهم خبرة بأساليب الحرب وأخرجت قادة قادرين من امثال جستاف أودلف واسكندر فارنيز وموريس نساو ومن اليهم ، وأصبحت الحرب علماً له قواعده وأصوله ولم تعد مجرد حماس واندفاع وبهلوانية في استعمال السيوف والقرايينات .

كذلك كانت العقول تتطور في أوروبا بتطوراً شاملاً عميقاً ، وأخذ موقف الاسلام من النصرانية يتبدل تبعاً لتبدل التفكير في بلاد الغرب واليك كلمة ممتعة للاستاذ باركر مؤرخ الحروب الصليبية يفصل فيها هذا التطور أبين تفصيل :

« ولم تجد أوروبا في الحروب الصليبية سبيلاً للاتحاد الداخلي فحسب ومؤثراً جديداً في شتى مرافق حياتها الداخلية ، ولكنها كسبت عن سبلها نظرة جديدة واسعة للحياة ، وقد كان هذا الاتساع في مدى النظر أكبر ما كسبته أوروبا من الحروب الصليبية

إذا أضفنا إليه نمو روح الكشف وتقدم الجغرافيا
بدأ عصر الكشف الآسيوي الزاهر في القرن الثالث عشر ، وهو
يعادل عصر الكشف الأمريكي في القرن السادس عشر — ان
لم يساويه — و انتهى بعد ذلك بقرن من الزمان . وكانت آسيا أثناء
هذه الفترة تجمعها امبراطورية مغولية مفككة العرى تمتد من القرم
وتبريز وبخارى وسمرقند الى كبالوك (بكين) وهنكاو . وكان المغول
الذين احتفظوا بعقيدتهم الشامانية متسامحين مع العقائد الأخرى ،
ولم يكونوا هم أنفسهم مسيحيين ولكن بلادهم ضمت نفراً من هؤلاء
فرجا المتفائلون من المسيحيين تحويلهم إلى النصرانية ، وعزز هذا
الرجاء ميل الأوروبيين التجاري الذي دفع بهم إلى البحث في بلاد
المغول عن مراكز التجارة الآسيوية . وقد كانت البعثات التبشيرية
التي أرسلت إلى بلاد المغول ترجو من وراء رحلتها أن تحقق أمل
الصلبيين وتستعيد بيت المقدس إلى الأبد وقد كان بين أعضاء
هذه البعثات أفراد مثل رايمند لال يقدر أن البعثة التبشيرية أبعد
أثراً من الحملة الحربية ، ومن هنا أصبح تنصير آسيا غاية قائمة بذاتها
يرمى من وراءها أمثال هؤلاء المتفائلين أن يملأوا الدنيا بعلم الله كما هي
مملوءة بماء المحيطات . . . وقد وجدت هذه البعثات عوناً طيباً في تسامح
المغول وفي وجود مدارس النسطوريين في آسيا ، فاستطاع جون مونت
كورفينو — مؤسس الكنيسة اللاتينية في بكين — في أوائل القرن الرابع
عشر أن يصبح اسقفا لبكين وكان معه ثلاثة من الرهبان الفرنسيسكيين
المساعدين . . . وسار التاجر الإيطالي في ظل البعثة التبشيرية كما كان
ملاحو الموانئ الإيطالية يرافقون الحملة الصليبية ، ولم يسفر ذلك عن
رحلات « آل بولو » وحدهم بل استطاعت شركة ملاحية جنوية ان
تمخر مياه بحر قزوين ، واستقر قنصل بندقى في تبريز بيد ان
كل هذا الأمل المعقود قد تهدم عن آخره ، وتلاشى ذلك الحلم الخادع

الذى كان يرسم لأصحابه فى الخيال صورة آسيا وأوروبا المسيحتين،
تحصران بينهما الاسلام ، فلا يصبح بعد ذلك الا عقيدة متضائلة
محصورة فى فئة قليلة من الناس فى ركن أسبانيا وفى جانب من شرق
البحر الأبيض ، ذلك ان خانات فارس دخلوا الاسلام سنة ١٣١٦ ،
وأسلم أهل وسط آسيا فى منتصف القرن الرابع عشر ، وتربعت على
عرش الصين أسرة منج الشهيرة بين سنتى ١٣٦٨ و ١٣٧٠ وأقفلت أبواب
الصين فى وجه التجارة الأجنبية ، فكانت النتيجة انقطاع السيل بالمسيحية
واتساعا بعيدا فى رقعة الاسلام الذى ادرك شأوا بعيدا من الاتساع
بظهور الأتراك العثمانيين ، ولكن أملا جديدا تراءى للغرب
الذى لا يأس ، وكان هذا الأمل الجديد سببا فى أكبر انقلاب عرفه
التاريخ ... تسامل الأوروبيون : إذا كان طريق البر قد أقفل ، فلم
لا تسلك أوروبا طريق البحر ، لماذا لا تبجر إلى الشرق وتهاجم
الاسلام من الخلف وبذلك يستعاد بيت المقدس .. كان هذا أمل
الملاحين الذين حملوا الصليب على صدورهم واعتقدوا أنهم (برحلتهم
إلى بحار الهند) يعملون لتخليص الأراضى المقدسة ، وإذا كان
كولومب قد وجد الجزائر الكاريبية بدلا من الهند .. فانه يمكننا أن
نقول إن المسيحيين الذين قاموا بهذا العمل (أى بالالتفاف حول
الشرق ومهاجمته من بحار الجنوب) قد كسبوا قارة للمسيحيين .. وان
الغرب استطاع أن يعيد ميزان الأمور لما فيه خيره بسيل لم تكن تخطر
له على بال ... »

انتقال الصراع الى
البحار

وهذا حديث فيه بلاغ عما نريد أن نقول ، إذ أن أوروبا لم تكف
عن التفكير فى الاسلام والأخذ بثأرها منه حتى هداها الفكر إلى
حركة الالتفاف الجنوبى ، وقد رأيت محاولاتها العديدة التى قامت بها
فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كيف سعت إلى تنصير المغول
لحصر الاسلام بين دولتين مسيحتيتين ، وكيف اتصلت الأسباب بينهما

وبين الحبشة النصرانية للقضاء على مركز المقاومة الإسلامية في مصر ثم كيف يشتت من طريق الشرق فبدأت تتجه إلى الغرب للوصول إلى الهند والجنوب للوصول إلى بلاد الإسلام .. وهذه هي خطوة الانتقال الكبرى التي تبين عصرًا جديدًا من عصور التاريخ ، عصر البحرية الغربية المتفوقة التي تحطم قوات الإسلام البحرية في لباتو وتزع منه زعامة البحر الأبيض .. ثم تتوغل نحو الجنوب فتغزوه غزواً موفقاً من بحار الشرق ..

من هذا اليوم ، بدأ ميزان الحياة يتغير ، وبدأت وجهة التاريخ تتبدل .. ستضع الأمم البرية السلاح لتنهض الأمم البحرية وينشر الشراع الذي أثبت أنه امضى من السيف .. وستسمع بأمر صغيرة في حساب البر عريضة بحساب ما تملك من شراع وما في طباع أهلها من مواهب بحرية .. ستسمع بالبرتغال وهولندا وإنجلترا ، وسيبدأ العصر الحديث بطابعه البحري السائد

نهضة الأمم البحرية

يكون الهجوم من البحر فتكون أمم الإسلام أول الفرائس . يبدأ التقدم الأوروبي من الشرق ويسير نحو الغرب تسقط الهند وجزائر الملايو .. ثم جنوب فارس .. ثم إمارات جنوب بلاد العرب .. ثم البحر الأحمر .. ثم دول البحر الأبيض ..

الآن أوجزنا للقارئ ما ينبغي أن يعرفه عن الشرق الإسلامي وعن تطور أوروبا من القرون الوسطى إلى العصر الحديث ، وذكرنا ما أصاب العلاقات بين الإسلام وأوروبا من تبدل نتيجة لذلك التطور ، فلنبداً الآن بتتبع العلاقات بينهما ناحية ناحية حتى ننتهي بهما إلى القرن التاسع عشر

١ - حركة الكشف الجغرافي

يرجع تقدم الأوروبيين في البحار ووصولهم ببحر الهند إلى

أسباب كثيرة ، أهمها التقدم البحرى الذى أدركته أوروبا فى ذلك الزمان ، وليس صحيحاً على إطلاقه أن نقول ان بلاد الاسلام أصبحت فى ظل الدولة العثمانية فوضى لا أمان فيها لتاجر ولا طريق فيها لعابر أو ما يذهب اليه الكثيرون من أن التعصب الجاهل دفع بالأتراك إلى الوقوف فى وجه مرور التجارة الغربية ، فأدى ذلك إلى انصراف التجارة الغربية إلى الجنوب ، إذ المعروف أن الأبواب بين تركيا وأوروبا لم تكن مغلقة تماماً بل كانت للاتراك علاقات موصولة مع البندقية وفرنسا ، وكان لهما تين الأخيرتين احتكار التجارة فى بلاد الدولة وبحارها ، للاولى تجارة البر فى بلاد السلطان والشام ، وللثانية احتكار نقل التجارة الشرقية من موانى مصر والشام إلى بلاد أوروبا ، وقد كانت هذه العلاقات نفسها سبباً من أسباب حركة الكشف ، إذ كانت المنافسة بين فرنسا وأسبانيا فى هذا العصر على أشدها ، فاذا احتكر الفرنسيون تجارة الشرق فقد انصرف الأسبان للبحث عن طريق آخر للاستيلاء على هذه التجارة والغلبة على منافستهم فرنسا ، وكذلك ضاقت البرتغال ذرعاً باحتكار البندقية لتجارة البحر الأبيض فتلست سبيلاً أخرى للاستيلاء على هذه التجارة والوصول إلى منابعها فى الهند ، فاتهى بها الأمر إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح

تركيا وأوروبا فى أوائل
العصر الحديث

وكانت طبيعة الحروب الصليبية نفسها وما تلاها من أحداث تدفع بالشرق إلى التفوق فى البر ، وبالغرب إلى التفوق فى البحر ، فقد كانت السفن سبيل الصليبيين الأوربيين إلى الشرق فزاد مران الملاحين الأوربيين ، وعرفوا أساليب أعداد الأساطيل والحملة البحرية الطويلة التى تحمل الناس والجند مسافات شاسعة ، وكان اعتماد الصليبيين فى كثير من الأحيان على الأساطيل فى مهاجمة موانى المسلمين فى الشرق بحيث يندر أن نجد حملة صليبية لا يرافقها اسطول جنوى أو بندقى يساهم فى الحرب وفى الغنيمة ، فمن الغربيون فى أساليب الحرب البحرية فى حين سكنت ريح

حلاخ التقدم
البحرى

الملاحة في الشرق وقلت سفنه وأغلقت ثغوره . . وفهم الغرب ضعف الشرق في هذه الناحية فصار يهاجمه — إذا أراد — من البحار . . ويحصره في المياه إذا أراد أن يصيب منه مغنماً لا يصيبه منه في البر ، وهذه أوروبا كلها تضيق ذرعاً بجند الأتراك الذين يغزون قلب أوروبا حتى يصلون فينا فلا يجد الأوروبيون سيلاً لردهم إلا دفع الدولة إلى حرب بحرية تنجلي عن هزيمة ساحقة للأسطول التركي في ليبانتو سنة ١٥٧١ في عهد سليمان القانوني أي في أوج التفوق الإسلامي البري

التقدم البرتغالي

أشرف البرتغاليون على بلاد الشرق في مطلع القرن السادس عشر ، وقد حفزهم إلى الاجتهاد في التوغل في البحار ما وقعت إليه جارتهم أسبانيا من بناء امبراطورية واسعة في أمريكا فبدأت تثرى وتقوى وتصبح خطراً ساحقاً يهدد البرتغال ، فاتجهت هذه نحو البحار وتركت وجهة الغرب للأسبان واتجه رجالها نحو الجنوب بمحاذاة ساحل افريقية ، وكان يقود البرتغاليين هنري ، ذلك الأمير الذي يذكرنا بأمراء

هنري الملاح

الحروب الصليبية من أمثال آل تولوز ، يعطينا لقب الأمير الذي عرف به فكرة عن الغرض السياسي الذي كان يسيره ، ويكشف لنا الصليب الذي رسمه على ظهره عن الروح الدينية الصليبية التي كانت تسيطر عليه ، ويفسر لنا لقب الملاح الذي عرفه به التاريخ هذه الروح الملاحة التي سيطرت على البرتغال بل على أوروبا كلها في ذلك الزمان .

واتهى البرتغاليون أخيراً إلى المحيط الهندي على يد فاسكودى جاما ،

الاستعمار البرتغالي

واتصلوا بالهند وكاليفوت في أواخر القرن الخامس عشر ، وأنشأوا ينون لأنفسهم ملكاً على يدمستعمرين معروفين ، وقواد ذوي خطر من أمثال الميدا وكبرال والبوكرك . وكانت تلك البحار مقصورة على ملاحى المسلمين من عرب وفرس ينقلون التجارة فيه بين الهند والبحر الأحمر وافريقية أو يسلبون ما يمر به من السفن . فكان طبيعياً أن ثور الخصومة بينهم وبين البرتغاليين المهاجمين ، وكان للبلاحين

المسلمين شركاء آخرون يقاسمونهم هذا الربح الوفير . . هم بمالك مصر الذين كانوا يتسلمون البضاعة عند البحر الأحمر في السويس ثم وينقلونها إلى الإسكندرية وبذلك يربحون منها أعظم الربح ، وهناك يتسلمها منهم شركاء ثالثون هم البنادقة الذين غلبت عليهم الروح التجارية فصالحوا المسلمين على احتكار نقل التجارة في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وتسامع الشركاء بهذا المنافس الخطر الذي أنشأ يسير أشرعتة العريضة في بلاد الهند ، ويتسلم التجارة ويمضى بها إلى الجنوب فيحرمهم من رزقها ، فتداعوا وتسارعوا وجمعوا أساطيلهم وأسرعوا إلى بحر الهند ليقضوا على ذلك الدخيل ، قدمت البندقية أجزاء السفن ونقلها الممالك إلى البحر الأحمر وركبها ملاحو المسلمين ، وساروا بها نحو الجنوب ، بل بلغ الغيظ بسلطان الممالك مبلغاً دفعه إلى الكتابة لبابا أوروبا يهدده ويسبه ويأمره بالكف عن هذا الغي . . والتقى البرتغاليون بالشركاء في واقعة ديوسنة ١٥٠٩ فانجالت عن فوز باهر للبرتغاليين . . وانسحاب تام للمسلمين والممالك من مياه الشرق وتركها للبرتغاليين المنتصرين يفعلون فيها ما يشاءون

موقعة ديوسنة

بعد ثلاثين سنة فقط شعر امبراطور دلهي المسلم أن يد البرتغاليين ثقيلة عليه ؛ وأنهم انفردوا به وأخذوا يهددونته تهديداً خطراً . . فاستنجد بسليم الفاتح سلطان تركيا في ذلك الزمان ، وانضم اليهما أمير مسلم آخر كاد البرتغاليون يتلعون ملكه . هو أمير ججارات . وسار الثلاثة لحرب البرتغاليين فهزموا سنة ١٥٣٨ .

هزيمة الحلف
الإسلامي سنة
١٥٣٨

وبعد عشر سنوات بدأ التوغل البرتغالي يثقل على صدر فارس ، إذ وقع في يد البرتغال كل الخليج الفارسي وسيطرت على التجارة ، بحيث كان حاكم هرمز البرتغالي يتصرف حسبما يريد بتجارة الفرس ، وأحسن الأتراك بذلك فأرسلوا حملة بحرية يقودها يري بك ولكن ذلك لم يغن إذ ارتد الأسطول التركي منهزماً .

حملة يري بك

هكذا قرر التقدم البحرى مصير الاسلام فى بحار الهند ، وأخذ
يمتد شيئاً فشيئاً حتى استولى على الملايو وعلى سواحل الهند بل على
دهلى نفسها كما سترى .

٢ — النمسا وتركيا

فزعت أوروبا كلها من التقدم العثمانى السريع ، وتسامع أهلها
بسقوط عواصم أوروبا الشرقية والوسطى الواحدة بعد الأخرى ،
سقطت أدرنة سنة ١٣٦٦ ، والصرب بعد واقعة كسوف سنة ١٣٨٩ ،
وبلغاريا فى حكم بايزيد الأول بين ١٣٨٩ و ١٤٠٢ ثم المجر بعد موقعة
فارنا سنة ١٤٤٤ ثم القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، ثم الموره بين ١٤٥٨
و ١٤٥٩ ثم بلغراد سنة ١٥٢١ ورودس سنة ١٥٢٢ ، فزعت أوروبا
لهذا التقدم الشديد السريع ، وساورها القلق على مستقبلها ، وبدأ
الملوك والأمراء يفكرون فى بذل المعونة والوقوف فى وجه التقدم
العثمانى الاسلامى ، وأحست به الشعوب إحساساً دينياً بسبب ما كانت
تعلنه الكنيسة هذه الأيام من حرب صليبية عنيفة على المسلمين فى
أسبانيا ، وزاد خطر العثمانيين ظهوراً ما كان من انشغال أوروبا بالحرب
بين الهيسبرج والقالوا بين شرلكان وفرنسوا الأول ، فكان ذلك
فرصة طيبة توغل الأتراك فيها دون أن يلقاهم أحد أو يردهم أمر ..
بل أدى تنافس الأسرتين إلى زيادة سلطان العثمانيين وبعد صيتهم إذ
سقط فرنسوا أسيراً فى يد شارلكان فى سنة ١٥٢٥ فى موقعة بافيا فلم
يتوان هذا الأخير وهو فى حال اليأس عن أن يستنجد بسلطان تركيا
ليغيثه وينقذه من عدوه اللدود . فأرسل السلطان سليمان إلى فرنسوا
خطاباً يفيض نخراً وثقة يعده فيه بالمعونة وينذر شارلكان بالعقاب
الشديد وبعث عمارة بحرية وصلت إلى طولون ووقف الأمر عند ذلك
الحد لانشغال سليمان بأمر آخرى ، وإنما أشرنا إلى هذا الحادث

التقدم العثمانى

بدأ العلاقات بين
فرنسا والدولة
العثمانية

لأنه سيكون مبدءاً للعلاقات القوية بين فرنسا وبلاد الاسلام ، وأصلاً للامتيازات العديدة التي سيحرزها الفرنسيون والتي ستكون منشأ لطائفة من الشرور التي ستصيب الشرق الاسلامي في العصر الحديث ، إذ أن كل فتوح سليمان زالت بعد ذلك بقرن من الزمان بينما بقيت هذه الغلطة السياسية إلى اليوم داء من أدواء الشرق الاسلامي ونكبة من نكباته التي يصعب أن يجد منها مخلصاً ، كذلك كان البنادقة يمتنون أنفسهم من قديم بالاستيلاء على القسطنطينية وكانوا ينتظرون الفرصة المواتية ليعيدوا ما فعلوه سنة ١٢٠٤ م من الاستيلاء على الدولة البيزنطية وإنشاء دولة لاتينية فيها فسادهم قيام الدولة العثمانية ، ولم تلبث الخصومة أن دبّت بينهم وبينها ، ولكنها لم تلبث أن وجدت أساطيل أسبانيا والبرتغال تأخذ عليها طريق الغرب فلم تجد مفرأ من التقرب لآل عثمان حتى يبيحوا لها المتاجرة في بلادهم ، وقد أفلحت في ذلك ، وأصبحت بعد ذلك صديقة للدولة موالية لها .

البندقية

كذلك كانت النمسا ترقب هذا التقدم بعين القلق والفرع ، فلما سقطت بلاد المجر بلغ منها الخوف مبلغه ، وبدأت تستعد لدفع هذه العادية الشديدة ، وتحققت مخاوفها حين توغل الأتراك في الأرض النمساوية وعسكروا في سهل نويهورزل وأخذوا يحومون حول فينا ، ويحاصرونها المرة بعد الأخرى بدون توفيق ، وأدركت أن ما حل بالقسطنطينية سيحل بها يوماً ما . فبدأت تطلب المعونة من دول أوروبا في هذا الظرف العصيب ، وكانت بولنده هي الأخرى تتوقع هذا المصير ، فبدأت تتخذ الإهبة لتلقى الأتراك إذا فكروا في الاتجاه شمالاً . . . وبالجملة فقد انتشرت في أوروبا كلها دعاية واسعة النطاق ضد الأتراك العثمانيين ، وساعدت الكنيسة على ذلك فاتخذ عداها الأوروبيين لتركيا مسحة دينية متزيدة قوة وشدة ، لم

النمسا

بولنده

الكنيسة واثراً
في علاقات أوروبا
بالاسلام

يخطيء النمساويون فيما قدروا ، فهذا هو محمد الرابع ١٦٤٨ — ١٦٨٧
يدبر مع وزيره أحمد كبرلي فتح فينا ، وهما يعدان للأمر عدته ،
ويسيران جيشاً إسلامياً عظيماً نحو فينا ليسقطها جملة . وينزل نويه وزل
ويصبح على أبواب فينا ويبدأ يهاجمها هجوماً عنيفاً . هنالك تفزع أوروبا
كلها . ويسرع لويس الرابع عشر ملك فرنسا فيرسل إلى النمسا ستة
آلاف جندي من خيرة مشاته . وتصل إمدادات من نواحي أخرى .
ويزداد سخط أوروبا على المسلمين فيسرع لينتزع الفيلسوف ويقترح
على لويس الرابع عشر فتح مصر . ويهم هذا بتنفيذ الأمر ولكنه
يكتفي بضرب تونس والجزائر بالمدافع سنة ١٦٦٨ . يلتقي الفريقان
عند سان جوتارد . . ويتأمل الصدر الأعظم الجنود الفرنسيين
المصطفين بنظام محكم ، وعلى رؤوسهم قبعاتهم ذات الريش ويتعجب
من شعورهم المدلاة وملابسهم ذات الألوان فيناله عجب ويسأل
« ما هؤلاء الفتيات ! » . . ويشتبك الجيش ويندفع الانكشارية في
عنف وشدة وتأخذ الجنود الأوربية تتحول بانتظام وترتيب وتتقدم
مشاتها بقوتها الجديدة ومدفعيتها المتحركة . . فتنتهي المعركة عن هزيمة
ساحقة للأتراك .

حاصر فينا

ليستريح لويس
الرابع عشر على
غزو مصر

سان جوتارد

دوى خبر هذه الهزيمة في أوروبا وأصاب من النفوس مكان
الدهشة وأنكره الكثيرون وحسبه الآخرون خدعة ، ولكنه كان
حقيقة مرة بل بدأ لعصر جديد . اذ ستصبح القوات العثمانية بل
الإسلامية من ذلك اليوم رمزاً للهزيمة والفشل ، عرف الأوروبيون
أن النظام والترتيب والرسم المحكم . . أمور تنقص الجنود التركية
والجيش الإسلامي . . ومن هنا سيبدأ الهجوم وتكون الهزيمة . .
بل تنشأ المسألة الشرقية بأسرها في ظلال الهزيمة ، يوقع الأتراك معاهدة
فاسفار ، ويشمل الفرع أوروبا كلها وتنفس شعوب البلقان وأوروبا

معاهدة فاسفار

الصعداء أن بدا الكابوس يزول .. ويتهلل الناس ويزدادون حماساً ..
لأن الأتراك هزموا مرة أخرى عند أبواب فينا وكان الذي هزمهم قائد
سوييسكى ملك بولنده مسيحي آخر هو سوييسكى ملك بولنده ، ارتدت القوات الإسلامية
في تقهقر سريع غير منتظم .. وتقدمت القوات الأوروبية يحدوها
النصر ويتلقاها الناس بالبشر في كل مكان . أخلى الأتراك المجر .. ثم
سقطت بلغراد درة فتوح سليمان فاتفجرت الثورة في البلقان ان
حسب أهله ان قضاء الله قد حم في الاسلام وأن الله قد تاذن بزوال
سلطانه وذهاب قواته وسبحان الباقي العزيز .. وتقدم يوجين أمير
سفوا فاستعاد زفته قرب البحر الأسود ثم اتجه جنوباً .

ثورة البلقان

وهكذا ! .. يكشف الله الستار ! وتهتك الأقدار الحجاب . ويتبين
المدى الواسع الذي يفرق تركيا عن جيوش أوروبا ، هذا الذي
يفصل الشرق الإسلامي عن العصر الحديث ، وستكون الحوادث
المقبلة كلها براهين تؤيد هذا الفارق وتظهر التفوق الغربي بشكل ظاهر
لا يحتاج إلى بيان .. وستزداد أوروبا كل يوم له فهماً .. فتهاجمه بكل
قواها وتشل حركة الشرق وتذهله فلا يدرى أى السبل يسلك ،
وسيقوى شعور الشرق بالضعف فيهبط اليأس على أفئدة المسلمين
ويدفعهم إلى الهاوية مسرعين ..

سينزل البنادق المورة ويستعيدوا كريت ويستوى قائدها توماس
موروسيني على حصون البلقان الواحدة بعد الأخرى حتى تسقط تباعاً
سنة ١٦٨٥ ويشطر أكبر جزء من دلماشيا .

توماس موروسيني
في البلقان

وستسرع الروميا نحو الجنوب ، ويصبح حال تركيا شراً ليس
بعده شر .. وسيبدأ من هنا ليها الطويل الأسود ومرضاها الطويل
الثبات ..

ولكن ربك يتدارك المسلمين بالرحمة ، فها هي حرب الوراثة

النمساوية تناذن بالبدأ ، وهذا هو امبراطور النمسا يسعى ليقفل الباب في الشرق ليفتحه في الغرب . . فيعقد الصلح بين تركيا والروسيا والنمسا ولكن أى صلح . . إنه الموت بعينه ! .

تأخذ النمسا كل المجر وتراقيا ونصف بنات وتامسفار وبلغراد بل أنها تتعهد للسلطان أن تحفظ قبرولى مسلم وقع في يدها . . هو جل بابا أى أبو الزهور . . الزهور القائمة على قبر تركيا ! .

وتأخذ البندقية المورة والروسيا آزوف وحق الملاحة في البحر الاسود . هذا هو صلح كارلوفز ١٦٩٩ م .

صلح كارلوفز
١٦٩٩

٢ - آسيا الوسطى

في مطالع القرن التاسع عشر بدأت روسيا تنهض نهضتها العظيمة يحدوها بطرس الأكبر ، وكانت قد اتجهت إلى توسيع حدودها والاتصال بالبحار فحاربت السويد لتصل إلى البلطيق وحاربت تركيا كما ذكرنا لتصل إلى البحر الاسود ، وصاحب ذلك امتداد عظيم سريع إلى الشرق في آسيا ، استولوا على تمسك ١٦٠٤ وكراسنودسك ١٦٢٨ ويا كتسك ١٦٤٢ واخستك ، وفي سنة ١٧١١ أتموا فتح سيبيريا وصلوا إلى ساحل المحيط الهادى واستولوا على كتشكا وبدأوا ينشئون على ساحل المحيط الهادى ميناءهم العظيم فلاديفستك .

فتح سيبيريا

واتجه تيار روسى آخر نحو الجنوب اخترق هضاب القرغيز وصحاريها ، وتلك بلاد اسلامية يتوارد ذكرها في روايات المسلمين بل كانت في فترات كثيرة مركزاً للحضارة الاسلامية وهكذا طرقت أوروبا أبواب الاسلام من ناحية أخرى : كانت تركستان خلاء قواء فسهل فتحها ووقعها في أيدي الروس ، قم لهم ذلك وتأسست ميناء كراسنودسك على بحر قزوين سنة ١٥١٦ وانحدر الروس كذلك

فتح تركستان

من بين البحرين ، قزوين والاسود وأطلقوا على فارس فألقوا في نفوس
أهلها الرعب والفرع .

فارس ومقامها
في المجموعة الإسلامية

لفارس مقام خاص في المجموعة الإسلامية ، فهي أعرق الدول
الإسلامية حضارة وأطولها تاريخاً ، وهي أول عنصر إسلامي استطاع
أن يستعيد قوامه وينهض على قدميه ، بل يطغى على الدولة العربية
فيغزوهابحضارته ثم بسودها سياسياً في خلافة العباسيين ، وهي من عنصر
آري في وسط المجموعات الحامية والسامية (١) ، ولغتها أقرب إلى لغات
أوروبا إذ أنها من نفس الأصل الآري ، وهي من بين الشعوب
الإسلامية ، ذات حضارة لها طابعها الخاص ، وذات فن معروف
وتصوير قوى وأساطير ذائعة الصيت لا تقل جمالا ورواء عن أساطير
اليونان ، هي بعد هذا كله مجموعة شيعية وسط السنين في الأفغان
والهند والكتلة السنية الغربية : العراق ومصر وتركيا ، هذه الأمور
كلها اتجهت بفارس وجهة خاصة ، وانحرفت بها عن مجرى تاريخ الدولة
الإسلامية .. فأخذت تسلك — في ظل الإسلام — مسلكاً خاصاً
تتضح فيه شخصيتها وميزاتها وضوحاً يينا . . ولا تزال كذلك حتى
يتحول ذلك الانحراف المذهبي الجنسي ويتخذ هيئة شعور قومي ، يبدأ
شعوية تعز على العرب وتتسامى عليهم ، ثم يأخذ شكلاً واضحاً بعض
الوضوح في ظل الدولة الغزنوية ، ويصل إلى درجة طيبة من النضوج
في القرن السادس عشر في حكم الصفويين .

لقدم الروس نحو
فارس الصفويين

كانت فارس في أواخر القرن السادس عشر ومطالع السابع عشر
في فترة زاهرة من تاريخها الطويل المجيد ، كانت تقوم بالأمر فيها
أسرة الصفويين التي أسسها الشاه عباس الأكبر (١٥٨٦ — ١٦٢٨ م)

(١) لم يعد تقسيم الناس إلى حامى وسامى متباعداً علماً . الاجناس لانه تقسيم لغوى وإنما التقسيم اليوم
بحسب مقاييس الجسم والرأس . ولكتاذكرنا السامى والحامى لسهولة فهم هذه الاصطلاحات فقط

وكان هذا أميراً شرقياً ممتازاً ، استطاع أن يوسع امبراطوريته حتى شملت فارس كلها ، فأسس على الخليج الفارسي مدينته بندر عباس ، واستولى على الموصل ، وحارب البرتغاليين واستولى منهم على هرمز ، وفتح في الشرق بلخ وقندهار ، فدخلت أفغانستان تحت لوائه ، وحارب الأتراك واستعاد منهم بغداد .

كان هذا الامتداد ماثراً للنزاع بين فارس وتركيا ، فاستطارت بينهما الخصومة ، اذ أبى مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠ م) أن يدع بغداد في يد الفرس ، فسارع واستردها سنة ١٦٣٨ وقسا في معاملة الفرس حتى قيل إنه قتل ثلاثين ألف فارسي في بغداد ، فكان هذا النزاع الاسلامي من عوامل ضعف المجموعة الاسلامية في هذه الفترة العvisية ، التي كان ينبغي أن توجه جهودهم فيها إلى الوقوف في وجه أوروبا التي بدأت تهاجمهم في كل مكان

وكانت الدولة الصفوية مكونة من خانات (جمع خان) يقومون على النواحي ويخضعون للشاه عباس لما له من المهابة والقوة ، فلما تأذن الله بوفاته ، استقل الخانات وتفرقت الدولة وأصبحت اقطاعيات كبقية الدول الاسلامية وأخذت تضعف شيئاً فشيئاً ، فانهز الروس هذه الفرصة وغزوا القوقاز وبدأوا يمتدون إلى الأراضي الفارسية .

وأسرعت الأفغان لتأثر من جارتها ، فتقدم ملكها مير محمد في أوائل القرن الثامن عشر ، وفتح فارس ، ونزل كرمان ، وأحرز انتصاراً عظيماً في جلباباد قرب اصفهان ، ودخل العاصمة سنة ١٧٢٢ وكذلك انتهت الاسرة الصفوية ، وهبطت المقادير بفارس هبوطاً أضعفها أمام الهجوم الأجنبي ، وسترى بعد قليل ماسي فعله الانجليز في الخليج الفارسي ، ولم يقطع هذا الركود الا مغامر اسمه نادر يظهر ويكون لنفسه امبراطورية واسعة تمتد من الدجلة إلى لاهور ودلهي

النزاع بين تركيا
وفارس

تفرق الدولة الفارسية
بين أيدي الخانات

غزو القوقاز

نهضة الافغان
مير محمد

المغامر نادر

ومن بحر الهند إلى القوقاز وسمرقند ، إذ استطاع أن يهزم الروس ويردهم على أعقابهم . ولكن امبراطوريته انحلت عقب موته مباشرة ولم تدم الا إحدى عشرة سنة بين ١٧٣٦ و ١٧٤٧

الهند الاسلامية

أما الهند فلا حاجة لنا بالتفصيل في شؤونها وما صارت اليه في أواخر القرن السابع عشر ، لأن ذلك تطويل يخرج بنا عن الحدود المرسومة لهذه الرسالة ، ولكتناستطيع أن نشير في اجمال الى ان الاسلام دخل الهند على يد المغول ، وأنه لم يستطع بطبيعة الحال أن يفتح الهند كلها ، بل بقي في الشمال في حوض السند وجزء كبير من حوض الكنج وهضبة الدكن ، وإن مناره ارتفع وقامت له امبراطورية قوية ظلت المجموعة الهندوكية تنظر اليها على الدوام كأنها قلية غازية ، وكذلك لم يستقر الاسلام هناك ويثبت أقدامه الا في القرن الثامن عشر ، حين مد رواقه وشمل سلطانه وأصبح أصلا من أصول الثقافة والمجتمع في الهند ، ولهذا ينبغي أن نلاحظ أن المجموعة الاسلامية الهندية لا تحارب أوروبا وحدها ، بل تحارب المجموعة الهندوكية كذلك ، وسنلاحظ أثر ذلك حينما تبدأ المبادئ الأوروبية تتسرب الى الشرق ، إذ سنجد روح القومية تنشأ عند المجموعة الهندوكية فتتطلع إلى التخلص من الغزاة المسلمين فيكون هذا أشد خطرا على المسلمين من الانجليز الغزاة وعلة من أشد علل الهند واقساها . ونلاحظ كذلك أن مسلمي الهند دخل فيهم من الفرس عدد كبير وأنهم ظلوا محتفظين بكيانهم السياسي مدى طويلا حتى أقبل الانجليز .

اورانج زيب

كان آخر الاباطرة العظام اورانج زيب ابن شاه جهان (١٦٦٠ م - ١٧٠٧ م) ، وكان رجلا شديدا الايمان والتأثر بطبيعة الاسلام ، فكان غازيا فاتحا أثار في الدولة نشاطا محمودا لم يضعف بعد موته مباشرة ، بل استمر على كثير من القوة والمنعة .
وكان يعاصر الامبراطورية الاسلامية امبراطورية هندوكية قوية

اشتد ساعدها بين ١٧٤٨ و ١٧٥٩ واشتدت الخصومة بينها وبين الدولة
الاسلامية

في هذه الفترة : فترة الخلاف والنزاع ، بدأ زحف الفرنسيين
والانجليز ، فكانوا لا يصادفون في طريقهم الا وهنا على وهن وانحلالا
يعقبه انحلال ، فكان الفتح هينا والخطر جارفا .

في قصة سقوط الهند ، ينبغي أن نتفطن إلى معنى جديد من معاني
التدخل الأوربي في شؤون الشرق ، فإن الواقع أن قوى الهند المبعثرة
كانت تستطيع المقاومة بل التغلب لو أنها تصورت الخطر المقبل على
حقيقته ، أو لو أن الأوروبيين سلكوا مع الهنود مسلكا يفهمونه
ويقدرون خطره ، كان الزحف الأوربي في الهند زحفاً اقتصادياً ،
بدأ بمراكز تجارية أصبحت بعد قليل شركات قائمة ، ثم احتاجت
الشركات إلى قوات تحمي متاجرها ومخازنها ، واتسعت تجارة الشركات
وامتدت مخازنها حتى أصبحت مدناً بأسرها . دب الفرنسيون على أرض
الهند في النصف الثاني من القرن السابع عشر . . . وحصل أول قوادهم
سان مارتان على تصريح بإقامة سوق في بندشيرى فأجابه ملوك الهند
إلى ما أراد دون تردد أو توقع للخطر ، وينبغي هنا أن نفهم معنى
« التجارة » في القرن السابع عشر ، فأغلب الظن أن بعض الناس
يحسبون أن سفن الآمس التجارية كانت كسفن اليوم مجموعاً من
الملاحين والمسافرين وهذا غير الواقع ، إذ كان القرن السابع عشر ،
قرن القرصنة ولصوص البحار ، وكان لا بد لأية سفينة تغامر بالتوغل في
المحيطات ، أن تكون قلعة حصينة ملائى بالجنود والمدافع والحراس
حتى يستطيع التجار أن يأمنوا على بضائعهم ، وكانت السفينة اذا رست
على شاطئ مجهول عسكر جنودها حول البضاعة ليردوا عنها أذى
الاهالى . . . وكان التجار يعرفون ذلك فكانوا يدفعون نفقات الجند

أوروبا تغزو الهند
اقتصادياً

سان مارتان

السفن التجارية في
بداية العصر
الحديث

ويعينونهم ، ومن هنا كانت قوة البعثات التجارية وكان بعد أثرها ، ثم ان التوفيق الذى أدركته أسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر من كشف أمريكا وما أفاض عليها هذا الكشف من الغنى والثروة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، أثار فى نفوس الدول غيرة وخوفاً ، ولا سيما الدول البحرية (كإنجلترا والبرتغال) ، فاخذت الدول المتاجر والشركات تحت حمايتها وعضدتها بل أرسلت معها الجنود وتدخلت عن طريق القناصل لحماية مصالح التجار حتى أننا نلاحظ أن البعثات التجارية تتطور بسرعة إلى حملات حرية ومن هنا نفهم السر فى قوتها وكيف أنها انتهت آخر الأمر إلى أن تكون لها فتوح ذات شأن بعيد .

نوجز الأمر فنقول : إن الفرنسيين سبقوا الانجليز ، واتخذوا بندشيرى وشندر ناجوروكاريكال مراكزا للمتاجرهم وأمدوها بالجنود ، وسارع الانجليز فاحتلوا مدراس وبومباى وكلكتا ، وتوغل الاثنان فى الهند واشتدت بينهما الخصومة واستطارت الحرب . ولكن فرنسا شغلت بحروب أوروبا فقلت عنايتها بشؤون الهند ، فانهى الأمر بغلبة الانجليز وطرد الفرنسيين

خلا الجو للانجليز فأخذوا يتقدمون فى البنغالة حتى تخوفهم امبراطور دلهى ، فقبض على نفر منهم وأساء معاملتهم ، فندب الانجليز رجلا اسمه روبرت كليف فسار فى جيش منظم قوى ليحارب سراج دولة امبراطور دلهى سنة ١٧٥٦ ..

التقى الفريقان فى بلاسى .. وهى حلقة ثانية بعد سان جوثارد تلحظ التشابه بينهما قائما ، والفروق بين قوة الشرق وقوة الغرب واضحة فيها لا تحتاج إلى زيادة بيان ، وهى السبب فى هزيمة الجيش الاسلامى الهندى وسرى المأساة تتكرر بعد قليل سنة ١٧٧٤ فى كتشك كينارجى فى أوروبا ، وفى امبابه سنة ١٧٩٨ فى مصر ..

افراد الانجليز
فى الهند

كليف

بلاسى

وتتوالى الهزائم بعد بلاسى كما توالى الهزائم بعد سن جوتارد
وتسقط الهند كما توشك تسقط تركيا على السقوط .

٤ — مصر

بقيت ناحية أخيرة من هذا الصراع ، وهى ميدان لا يختلف فى طبيعته
ولا فى نتائج وجملته . عن كل ما ذكرنا ، ولكن تفاصيله تكشف لنا
عن حقائق أخرى جديدة ، ينبغى أن نلم بها فى هذا الحديث الذى تقدم
به الشرق الاسلامى للعصر الحديث .

كان سبب الهزيمة فى الميدان الأوروبى جمود الدولة الاسلامية
وعدم مسايرتها الأساليب الحربية الحديثة ، وكانت — أى الهزيمة —
راجعة كذلك إلى اتحاد أوروبا ضدها ، وهجومها عليها فى وقت واحد
من نواح متعددة .

وكان سبب الهزيمة فى الميدان الفارسى ، اضمحلال الدولة الاسلامية
وتفرق كلمتها

وكان سبب الهزيمة فى ميدان البحار ضعف الدولة الاسلامية من
الناحية البحرية وجهل المسلمين بشؤون البحار .

وكان سبب الهزيمة فى الميدان الهندى جهل المسلمين بأساليب التجارة
والاقتصاد وانقسام الهند إلى دولتين تحارب إحداهما الأخرى .

أما فى مصر . فنجد شيئاً آخر ، إذاً نأرأينا فى البلاد الأخرى حكومات
وجيوشاً وعرفنا أن الصراع كان بين الحكومات والحضارة الغربية ، فإذا
انهدمت الحكومة تهدم معها كل شىء . أما فى مصر فتحزن نعرف أن
الظروف الجغرافية تنحرف فى هذا الوادى دائماً إلى أن تقوى الرابطة بين
سكانه ، وأن توجد بينهم على مر الزمن شعوراً من التآلف ، والتواد
الذى ينتج القومية والشعور بها ، ولا يقتصر هذا الشعور على أبناء

البلد المولودين فيه ، وانما يشمل الأجانب كذلك ، يتطورون شيئاً فشيئاً ويقترّبون رويداً رويداً من مستوى الناس حتى يأتى زمان يندمجون فيه مع المصريين تماماً ، ونلاحظ ذلك واضحاً طول الفترة التى مررنا فيها ، فنجد شعوراً من الحب لمصر أخذ ينمو فى قلوب المماليك ضئيلاً خائياً أول الأمر . . ثم يأخذ فى الظهور شيئاً فشيئاً حتى نراه واضحاً كل الوضوح فى الفترة التى نزل فيها الفرنسيون مصر فنجد شيئاً يشبه أن يكون شعباً مصرياً إلى جانب قوة المماليك الحرية هذا الشعب يتمثل لنا فى مشايخ الأزهر وأعلامه ممن ثبتوا للفرنسيين وكان لهم دور طويل معهم ، نعم اننا لا نجد عاطفة وطنية صريحة ظاهرة ولكنها ملحوظة على كل حال ، وسنرى هذه القوة تزداد وتنمو باتصال المصريين بالفرنسيين ، حتى تظهر بشكل واضح أشد الوضوح فى هذا الشيخ الشريف الذى لا يرقى إلينا الشك فى صدق وطنيته وصراحة قوميته ، وهو الشريف عمر مكرم الذى سنتحدث عنه فى حينه باذن الله .

بدا ظهور
القومية المصرية

كذلك نلاحظ عند المماليك شعوراً وطنياً يصلهم بأرض مصر ، يأخذ فى الوضوح شيئاً فشيئاً كلما توغل الفرنسيون فى البلاد ، ويظهر فى شكل مقاومة عسكرية طويلة لا تخلو من بطولة وجلال ، وتستطيع أن تقول إن هؤلاء المماليك كانوا ينطوون على كثير من الحب للبلاد والاخلاص لأرضها ، وليس أدل على ذلك من هذه الجملة التى يرونها الجبرتى عن لسان الآلى ، نطق بها قبل وفاته وهى :

بدا ظهور القومية
عند المماليك

« يا مصر ، انظرى إلى أولادك وهم حوالك مشتتين متباعدين مشردين واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرثوود ، وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ويقاثلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك

وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك . ولم يزل يردد هذا الكلام
وأمثاله ، وقد تحرك به خلط دموى وفي الحال تقياً دماً وقال فض الأمر
وخلصت مصر لمحمد على وما ثم من ينازعه ويغالبه وجرى حكمه على
المماليك المصرية فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم .. » (١)

وهى كما نرى حنين خالص لمصر ، وتكاد أن تكون نعمة جديدة لم برا كير القومية المصرية
نسمع مثلها أبدأ في دولة من دول الاسلام ، وهى الطابع المميز الذى
يجعلنا ننظر لمصر فى العصر الحديث نظرة خاصة ونفرد لها عز ميلاتها
فى العروبة والدين ، هذا الشعور نشأ فى قلوب المماليك من طول
ما أقاموا بمصر ، ومن كثرة ما أصابوا من خيرها ، ومن طول ما كانت
عند حسن ظنهم ، فأمدتهم فى كل زمان بما عساهم يريدون من مال وجاه ،
فازدادوا عليها حرصاً ، وبغثت فى نفوسهم شعوراً من الثقة يكاد أن يكون
غروراً ، فقد أعزتهم مصر ونصرتهم على الأتراك ، فازدادت ثقتهم
بأنفسهم أى ازدادت ثقتهم فى البلاد . ودفعهم هذا الشعور الجديد
إلى التعاون مع العلماء الذين هم قادة الشعب ورؤساؤه ومثلو القومية
المصرية فائتمروا بأمرهم وأطاعوهم وخضعوا خضوعاً روحياً لروح
الشعب التى سيرتهم ووجهتهم فى كثير من الأحيان . ويقص علينا
الجبرتي أخبار المجالس التى كان المماليك يعقدونها ويحضرها العلماء ،
فيطلب المماليك المال فيرفض العلماء ويأمرون المماليك بالخروج
والحرب ويتعهدون لهم يذل المال إذا استلزم الأمر

لهذا كله سلاحظ أن مصر لم تهزم أمام ضربة الفرنسيين الأولى .
بل ظل كيانه حياً صحيحاً بعد زوال المماليك ، ونهض الشعب يعاون

(١) الجبرتي ٣٠ فى وفيات سنة ١٢٢١ هجرية والالفى كان رأس المماليك فى مصر بعد ان كبرت
سن ابراهيم ومراد . وخرجا من ميدان السياسة والتزاع بينه وبين البرديسى وبين الاثنين ومحمد على
معروف وسبأنى عليه

الفرنسيين في إدارة الأمور وسياسة الدولة ، مثلاً في مجالس المشايخ التي كان الفرنسيون لا يرمون أمراً إلا برأيها ومشورتها

بل نلاحظ أكثر من ذلك ، أن القومية المصرية كانت قوية الأثر في الفرنسيين ، فأخذوا يقتربون من المصرية شيئاً فشيئاً ؛ وحبب اليهم الظهور بالمظهر الشرقي ، فجلسوا على الأرائك والطنف ، وتناولوا القهوة المصرية ، وتسمى نابليون بصاري عسكر وتسمى ديزيه فاتح الصعيد بالسلطان العادل ، بل أسلم بالفعل ثالث قواد الفرنسيين وتسمى بهذا الاسم الغريب الذي يصور لنا التفاهم والتقارب بين الشعب وأوروبا . بعد زوال الممالك وهو عبد الله مينو

مصر تؤثر في
الفاتحين الفرنسيين

ونلاحظ كذلك أن المصريين كانوا يشعرون في قرارة نفوسهم باحتقار للفرنسيين ، ويخجلون من التعاون معهم في إدارة البلاد ، لا بدافع النفور من الحضارة الغربية بل بشعور وطني نلاحظه عند راوية هذه الأيام ، الشيخ الجبرتي الجليل الذي يخجل من ذكر اسمه بين أعضاء المجلس الذي كونه الفرنسيون من العلماء المصريين

لهذا كله لا نجد المصريين يفقدون رشدهم يوم تطرق أوروبا أبوابهم ، بل هؤلاء هم الممالك المصرية (كما يسميهم الجبرتي) يفرقون في الضحك حين يصلهم نبأ نزول الفرنسيين أرض مصر ، ويتندرون بالفرنج وأبطالهم وعلمائهم ، وإنهم ليؤمنون إيماناً لا يرقى إليه شك في أن هؤلاء « الجنود الكفار كحب الفستق للكسر والأكل ولو كانوا مائة لافيناهم عن آخرهم »

إنهم ليأخذون أهبتهم ، بما أتقنوا من فنون الحرب ، وما مهروا فيه من ضروب الفروسية ؛ إنهم ليخفون سراعاً إلى طريق الإسكندرية يتسابقون إلى الغنيمة التي بعثها الله اليهم باردة لا تكلفهم عناء ولا جهداً . ثم انظر

اليهم منقلبين على أعقابهم بعد أن قابلوا العدو في شبراخيت ، وتأملهم
مهرولين إلى القاهرة ، بهم من ألم الهزيمة شيء كثير ، إن مراداً ليدرك
أن هذه القوة المقبلة ليست شيئاً يسيراً ، وإنه ليسعى جهده في أن يتوقى
القتال ، فيبعث في طلب « كارلو روستي » قنصل البندقية ، ويقول له
في كبرياء محطم أن يعطهم قليلاً من المال ، ويدعهم يذهبون ، لأنه
لا يريد أن يؤذيهم .

وما هي إلا ليال حتى يكون ماخاف منه مراد ، إن الفزع ليدب
إلى قلبه ؛ وإن اليأس ليطغى عليه ويشمل أصحابه ، فهذه مجامعهم
تجتمع لتنفذ ، وتنفض لتجتمع ، يبحثون المسألة ، ويقبلون وجوه
الرأى فيها . فلا ينتهون إلى شيء ، وبيناهم في ذلك ، إذا نبأ يبلغهم -
فتطير له قلوبهم شعاعاً ، لقد أدرك الفرنسيون أمبابه ، فلم يبق من
حربهم مفر .

هنالك سارعوا — وهم أئمة الحرب في العالم الاسلامى — إلى
أمبابه ، تحف بهم أعلامهم ؛ وتتصاعد الدعوات لنصرتهم من القاهريين
الذين نال منهم الفزع كل منال

هي ساعات انقضى فيها كل شيء ، دق الممالك مدافعهم في
الأرض دقا ، وانحرف الفرنسيون عنها يسيراً ، وأخلوا قلب معسكرهم
فانطلقت فرسان الممالك كالسهوم المارقة ، حتى انتهت إلى ضفاف
النيل ، ثم التفتوا إلى الوراء ، فاذا نار الفرنسيين تنصب عليهم حامية ،
هنالك أدركوا وهم يتشهدون أن مصير الشرق الاسلامى في الميزان

نحاول الآن أن نتعرف مدى هذه الهزائم في نفوس الشرقيين ،
وأن نلم بالاحساسات التي أثارها انتصار أوروبا في نفوسهم ، لعل

ذلك أن يكون ذا أثر في مجرى الحوادث التي سترها على مسرح السياسة الشرقية الإسلامية .

* * *

تخوف الشرقيون خوفاً شديداً عقب هذه الهزائم التي ترددت في كل مكان من سهول الهند إلى جبال البلقان . وأصابهم من ذلك فزع لا يوصف ، لم يقبلوا على الحضارة الغربية ولم يثبتوا لها ، وإنما وقفوا منها موقف العاجز الذي لا يعرف أى السبل يسلك . ومن الشواهد على ذلك موقف الأتراك إزاء الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١) فقد كان في استطاعة السلطان أن يفعل شيئاً لو أنه حزم أمره ، ولست أقصد أنه كان يستطيع أن يهزم نابليون ، وإنما أريد أن أقول إنه كان يستطيع أن يتصرف تصرف دولة محترمة ، ولكنه لم يفعل ، فكانت سياسته أقرب إلى العيث . احتج في أول الأمر احتجاجاً شديداً . ثم دبر خطة حرية لم يفلح في تنفيذها ، قرر إرسال جيشين ، واحد بالبحر والثاني بالبر فيصلان إلى مصر في وقت واحد ، ويقضيان على الفرنسيين دفعة واحدة ، ولكن جيش البر تلكأ في الشام ، تخفأ إليه نابليون وقضى عليه ، وجيش البحر تلكأ بالبحر تخفأ إليه نابليون وهزمه في أبي قير وعلى هذا المثال تستطيع أن تقيس سياسات الدول الإسلامية في القرن التاسع عشر

فزع الشرقيين
من هجوم أوروبا
وأثره

استولى على نفوس الشرقيين جزع شديد ، وأصبح الحكام الشرقيون يراقبون الدول وقناصلها وجالياتها فيما يأتون من أمر ، حتى كان الناس يتوسلون بالسائحين الأفرنج ، ليسعوا لهم عند الحكام ، ليردوا عنهم المظالم ، كما سعى كنجليك السائح الإنجليزي ، ليرفع عن طائفة من اليهود من أهل الشام الظلم الذي كان ينزله بهم رجل عربي يدعى النبوة ويسمى نفسه النبي دموور (١)

د. ظهور قوة
القناصل

هذا الفرع الذي استولى على الشرق الاسلامى سهل للأوروبيين مهمتهم كثيراً ، ومهد لهم بلاد الشرق فأقبلوا مطمئنين ، إذ أنه أضعف المقاومة الشرقية ، فجعل الحكام يسلمون بعد مقاومة قصيرة ، أودون مقاومة أصلاً ، وجعلهم يستمعون لنصائح الأوروبيين عن خوف لا عن ثقة ، فسهل خداعهم وسهل العبث برعاياهم .

ولعلنا واجدون لهؤلاء الحكام عذراً فيما أصابهم من خوف ، إذا ذهبنا نترى الموقف وتامله ، فإن الحضارة الغربية التى بدأت مطالعها فى أواخر القرن الثامن عشر ، لم تلبث أن انقضت على الشرق فى سرعة مفاجئة فى أوائل القرن التاسع عشر ، ولم يلبث الحكام الشرقيون أن وجدوا أنفسهم محوطين بالحضارة الغربية من كل جانب ، وكان الأوروبيون قد بدأوا ينزحون إلى بلاد الشرق الاسلامى فى أوائل القرن التاسع عشر زرافات زرافات ، حتى أصبحت مدائن الشرق وتغوره تعج بالآلاف من الأجانب ، الذين سهل عليهم أن يتسلطوا على مرافق الاقتصاد من مال وتجارة ، ثم خفت حكوماتهم لتحفى مصالحهم ، وأسعدهم الحظ بنظام الامتيازات الذى فرض على الشرق الاسلامى من أيام سليمان ، فأفادوا منه خيراً كثيراً ، وأصبحوا يخفون الى الشرق فى رعاية أساطيهم وقناصلهم وقرانينهم ، وازدادوا جرأة وازدادوا طمعاً ، وأنشأت مصالحهم تزداد ، وأعمالهم تكثر ، وأقاموا من المصانع والمتاجر الشيء الكثير واشتروا من الأرض ، وارتهنوا من العقار قدراً وفيراً ، بل تغير الأمر ، وعرف الأوروبيون فى الشرقيين هذه الرهبة وذلك الحذر ، فطفقوا يأتون من الأمر مالا يستطيعونه فى بلادهم ، ويلبسون من الحريات مالا تبيحه حكوماتهم ، وصار من السهل على الكثيرين منهم أن يخدعوا الولاة فى الأعمال ويمكروا بهم ، أو يتهموا الحكومات

هجرة الأوروبيين
إلى بلاد الشرق

أوروبا تستغل
خوف الشرق منها

بأنها سميت لهم خسائر لم تكن ، فيضطر الحكام إلى بذل التعويض كرهاً أو طواعية ، حذراً من الجند والقناصل والاساطيل .

كان هذا الفرع الذي استولى على أمم الشرق علة بالغة ، حالت دون أن ينتفع بالحضارة الغربية على وجهها الصحيح ، ذلك أن الجاليات الأجنبية ، وجدت أنه من الخير لها ، أن يبقى الحال على ما هو عليه ، فصارت تنظر بعين السخط إلى كل حركة يراد بها إيقاظ البلاد ، وصار النزلاء الأجانب بذلك أسوأ الدعاة عن المصلحين ولعلنا نذكر موقفهم عن عرائي وعداءهم له ، والحاحهم على دولهم في القضاء عليه ، وكان من أثر ذلك أيضاً ، ان ساءت سمعة الشرقيين في بلاد أوروبا ، لأن هؤلاء النزلاء كانوا يرون أن توفيقهم في بلاد المشرق ، إنما يرجع إلى تفوقهم وغفلة الشرقيين ، فاذا كان في الشرق نظام وأمان فبعثه قيام القناصل وخدمهم .

اوروبا تقف في
وجه الحركات
الوطنية

أثرت هذه الفكرة أثراً بعيداً في سياسة أوروبا نحو الشرق الاسلامي ، إذ جعلتها تنظر إليه باحتقار وعداوة ، فحينما استطارت الخصومة بين الترك واليونان ، وقفت أوروبا كلها صفاً واحداً ، سياسة وشعوباً وشعراء إلى جانب اليونان وأعلنت على الترك عداوة لا يعرف هوادة ولا لينا .

وثم مسألة أخرى لا يحسن أن نغفلها في سياق هذا الحديث ، فان هذه السرعة التي اقبلت بها الحضارة الغربية ، أيقظت في الشرق الاسلامي نشاطاً سريعاً لم يكن محمود العواقب ، فكان الاندفاع نحو الحضارة الغربية ، أضر بالشرق من الاستغراق في النوم والجمود . شعر الحكام الشرقيون أنهم بحاجة إلى الاصلاح السريع ، فكانت السرعة سبيلهم في كل شيء ، فاذا ساروا عدوا ، وإذا أدبوا قتلوا ، واقتضى هذا أن ينظروا إلى الغاية وحدها دون الاهتمام بالواسطة ،

الشرق ينشط
نشاطاً سريعاً
خطراً

فلم يكن يهم محمد على أن يقضى على الممالك هذا القضاء البشع ، مادام ذلك سيؤدي به إلى الخلاص منهم ، وليس يضير السلطان أن يرمى بالوحشية ، إذا أباد الانكشارية بالمدافع لأن الغاية هي أن يخلص منهم على أى وجه ، وليس يضير اسماعيل أن يستدين ، وأن يضع أرض البلاد فى يد المرايين الأجانب ، مادام المال الذى سيأتيه من هذا السيل ، سيمكّنه من بناء الأوبرا ، والظهور أمام لداته من الحكام ، بمظهر الحاكم الغربى .

كانوا يسرعون فى كل شيء ، كأنهم مدفوعون إلى ذلك دفعا : يعدون فى لحظة خاطفة ماقطعته أوروبا فى قرون ، ويحفظون عن ظهر قلب ماتعلمته بالتجربة ، ولهذا مست أعمالهم السطوح دون الأعماق ، وشملت الفروع دون الأصول .

وطبىعى بعد ذلك أن تنهدم هذه الأعمال أمام الضربة الأولى ، لأنها كانت كأم درمان التى بناها المهديون ، قامت من التراب فى يوم وليلة ، وأصبحت ترابا فى يوم وليلة .

ذلك أن الشعوب كان يدفعها الملوك ، والملوك يدفعهم الفرع ، فكان السير متعثرا مضطربا ، ولم تكن السيل التى يدفع الجميع إليها واضحة كل الوضوح ، فلم يلبثوا أن ضلوا .

جاهدت مصر ماجاهدت ، وجمعت ماجمعت أيام محمد على . جيشت الجيوش واتخذت هيئة الدول الغربية ، ولكن ذلك كله لم يغن عنها قليلا ، حينما وقفت جنود محمد على أمام الانجليز فى الشام ، تبخر كل شيء ، ضاع جهاد أربعين سنة فى بضع ساعات ، فى خطبة ألقاها بالمرستون فى مجلس النواب البريطانى .

شعوب الشرق تفهم
فكرة القومية على
أنها نزاع وصراع
بين الأجناس

لم تكدمبادئ القومية تنتشر فى أنحاء الدولة العثمانية حتى قام بين أجناسها عدااء شديد ، إذ أن الأجناس الخاضعة للدولة ، خيل إليها

أن اعتزاز المرء بقوميته يستدعى عداة القوميات الأخرى ، ومن ثم كانت المذابح المعروفة بين الأتراك والأرمن ، وبين الأتراك واليونان ، والتي ستعيد نفسها بعد قرن من الزمان بعد الحرب الكبرى ، بين الترك والعرب .

وكان للاتصال المفاجيء بأوروبا أثره السيء في الأخلاق ، حمل الفرنسيون الحرية ، فقهها المصريون خطأ ، ومن ثم انطلقوا يعربدون ويأتون من الأمر منكراً ، ويسرفون في هذا إسرافاً يفزع له الجبرتي ، ويشكو منه مر الشكوى ، ويعزو إليه مقدمات ثورة أغسطس سنة ١٧٩٩ .

أثر الاتصال
بأوروبا في
الأخلاق

كان اللقاء الأول بين الشرق والحضارة الغربية . شراً مستطيراً على شعوب الشرق الاسلامي ، وهزيمة ساحقة للملوك وأمراءه ، وضربة شديدة في صرح الوحدة الاسلامية ، زادت العلة بالرجل المريض ، ولم يعد يخفى على أحد أن الأمر خرج من يده . وإن تركته أصبحت رهنا بينه الناشئين : لو أن له بنين . كان البنون صغاراً ، بينهم وبين الرشد سنون طوال ، ترى كيف سترعاهم الأيام .

المسألة الشرقية.

١٨٠٠ — ١٨٤٠

« دامت سنة ثلاثة عشر ومائتين هجرية ، وهي أول سنى
الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة ، والنوازل
المائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الامور ، وتوالى المحن ،
واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ،
وتتابع الاهوال ، واختلاف الاحوال ، وفساد التدبير ،
وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر الاسباب ،
وما كان ربك يهلك القرى وأهلها مصلحون ! »

الجبرنى ج ٣

تدبر هذه الكلمات قليلا ، وقلبا على وجوها لتفهمها على الوجه الذى اراده منها كاتبها يوم كتبها ، تجد فيها بلاغا ينال يعجز القلم عن شرحه شرحا دقيقا وافيا ، فهذا الشيخ يفرع لمقدم عام ١٢١٣ هجرية ، كأنما كانت البلاد آمنة مطمئنة قبله لا يروعها حادث ولا يعكر صفوها معكر ، ويتخوف منه ومن أحداثه مع أننا نعلم أن مصر كانت قبل الاحتلال الفرنسى ، مسرحا للفوضى والانقلابات والمذابح وأنواع الظلم والاضطهاد ، وان المصريين كانوا يقاسون فى ظل الممالك الوانا من العسف والشر لا تكاد تقاس بها ما قاسوه من الفرنسيين . فما الذى أيقظ فى نفس هذا الشيخ كل هذا الخوف وما الذى أقام فى نفسه هذا التشاؤم والتطير ؟ ..

هذا هو سر بلاغة حديث هذا الشيخ الجليل ! . وهذا ما سنفصله الآن لم يفهم الجبرتى الغزو الفرنسى على انه فتح سياسى يرى الفرنسيون من ورائه الى اغراض بعضها اقتصادى وبعضها سياسى ، ولكنه فهمه على أنه — أولا وقبل كل شيء — فتح دينى قام به النصارى ، عادت الى ذهنه (واذهان معاصريه معه) ذكرى الحروب الصليبية النائمة فى أذهانهم واستيقظ فى نفوسهم كل ما يضره الشرق الوسيط للغرب الوسيط وطافت بأذهانهم ذكريات الصراع الطويل بين الاسلام والنصرانية والكره العميق بين المسلم والنصرانى ، وتصوروا أنهم وقعوا اليوم فى يد نصرانى لا يرحمهم ولا يتقى الله فيهم ، فتلقوه بنفوس ملأى بسوء الظن وسوء التقدير ، وتخوفوا منه خوفا بالغا ، ولم يجدوا فى مقدمه الا وقائع نازلة ونوازل هائلة ، وتضاعف شرور وترادف امور ، كان مسلو هذه الأيام يرون أن ميزان الحياة لا يستقيم الا اذا كانت كفة الاسلام هى الراجحة ، وكلمة العليا هى العليا ، ويعتقدون أن سلطان الاتراك سيد السلاطين ورأس الملوك مهما بلغت شكواهم من ورأيهم فيه ، فاذا انهزمت

الجبرتى يبر عن
شعور معاصريه
المسلمين

جيوش السلطان واستباح جند النصارى أرضه فقد اختل ميزان الحياة واضطرب أمرها، كان هذا نذيراً بكل ويل وشر، وكان المعروف عند المسلمين أنهم أقوى عباد الله جنداً وأعزهم نفراً وأكثرهم علماً، وأن الخليفة هو سيد العالمين لا ينازله أحد في ملكه ولا يثبت له عدو في ميدان. كان ذلك هو ميزان الدنيا في حسابهم، وهؤلاء أهل الإسكندرية يسألهم « نلسن » عن الاسطول الفرنسى فيجيبه زعيمهم محمد كريم: « إن هذه أرض السلطان » ليفهم هو من نفسه أن أرض السلطان لا يجزأ أن ينزل بها عدو أو يعذ عليها أحد أصلاً؛ أما اليوم فهؤلاء هم النصارى يجترئون على بلاد السلطان ويملكونها ويحكمونها.. وبهذا يختل نظام الحياة في حسابهم « يختل الزمن وينعكس المطبوع وينقلب الموضوع وتتابع الأهوال ! »

أصبح المصريون المسلمون خاضعين لحاكم مرسل اليهم « من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية » لا من طرف الخليفة المسلم في الاستانة.. وهذا هو الشر الذى لا يوازيه عسف ابراهيم أو ظلم مراد أو شرور المماليك والأتراك كلها مجتمعة بعضها الى بعض، ويفسر لنا الأستاذ الجليل شفيق غربال ذلك الأمر فى رسالته « الجنرال يعقوب » تفسيراً موجزاً حيث يقول « وكانت الانقلابات التى يعرفونها مما يصحبه الشيء الكثير من اختلال الأمن وضروب العنف والتعسف واعادة الطلب عليهم فيما أدوه من الضرائب والمغارم، إلا أن هذه الانقلابات كلها كانت على نمط واحد، لا يأتى واحد منها بجديد ولا يصطدم بمألوف لديهم: فتتغلب على الكبير على خصومه ويحكم البلاد كما حكمها خصومه، ثم يتغلب عليه ابو الذهب ويحكم كما حكم على وهكذا دواليك..... أما الحكم الفرنسى فكان انقلاباً من نوع لم يعرفه المصريون، إذ لما زال حكم مراد و ابراهيم حل محلها بونايرت

اسباب قلق
الجبرى

ولم يكن مسلما ولا مملوكا ، ومنها قيل في تدين الفرنسيين في تلك الايام
فهم غير مسلمين ، قد تصل بهم الضرورة الحرية — أو ما ظنوه
ضرورة حرية — الى انتهاك الحرمات الاسلامية (١) »

المسألة الشرقية
كما فهمها المسلمون
في ذلك الزمان

لا نكاد نخطيء إذا قلنا ان هذا الشعور الذي عبر عنه الجبرتي
كان يساور الشرقيين المسلمين كلهم حين انتهت اليهم أخبار هذه الهزائم
التي حدثتلك عنها في الفصل السابق ، فلا غرابة أن تولاهم الفزع الشديد
فلم يستطيعوا أن يصيخوا اذا فكروا أو يفلحوا اذا حاولوا ، وفهموا
« المسألة الشرقية » هذا الفهم الديني ولم يتفطنوا الى أسبابها ومعانيها
وأسرارها وما ينبت عليها ، فلم يوقفوا الى مقاومة أوروبا بل لم يعرفوا
كيف يقاومونها . فكانت مقاومتهم لها عبثا لا يكثر ثلها
الأوروبيون أو يحفلوا له ، وأصبحوا لهذا — وعلى الرغم مما بذلوه
من جهود للدفاع والنجاة — كتلة جامدة لا يحسب لها حساب عند
ساسة الغرب وأصحاب الشأن فيه ، وأصبح مصيرهم موكولا إلى دول
أوروبا .

المسألة الشرقية
في دورها الاول :
نزاع بين دول أوروبا

لهذا لم تكن المسألة الشرقية في دورها الاول ، نزاعا بين أوروبا
والشرق الاسلامي ، وانما كانت نزاعا بين دول أوروبا على مصير بلاد
الاسلام .

وما دام الامر كذلك فيحسن أن تدرس هذه المسألة في مراكز
السياسة الأوروبية ، في باريس ولندن وفيينا وما إليها ، وتفهمها عن

(١) « الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ، ومشروع استقلال مصر سنة ١٨٠١ » ، للاستاذ
شفيق غريمال استاذ التاريخ الحديث بكلية الاداب بالقاهرة ، وهي رسالة ذات قيمة علمية عظيمة جدا
لا تحويه من صدق النظر وصواب الاستنتاج واستقامة الحجج ووفرة المراجع ، وعلى الرغم من أنها
لا تزيد على ستين صفحة الا أنها تعطي القارئ رأيا مستقلا صائبا في الحقبة الفرنسية على مصر .

ساسة الغرب ومراميمهم وآرائهم من أمثال نابليون وبنت ومترنيخ
واسكندر الأول ومن اليهم ، حتى المسألة المصرية ونهضة محمد علي
نستطيع أن تكون أدق فهماً لها إذا درسناها في لندن أو باريس ،
على الرغم من أن القاهرة أصبحت في هذه الأيام — أى النصف
الأول من القرن التاسع عشر — مركزاً من مراكز السياسة العالمية
يحسب له كل حساب

يبالغ المؤرخون الأوروبيون في تقدير الأدوار التي لعبتها دولهم
في هذه الفترة ، فالفرنسيون يصورون أنفسهم يصرفون السياسة
العالمية ويرسمون للدنيا سبلاً جديدة من العيش ، ويزعمون أنهم كانوا
يجاهدون هذه الأيام ليخلصوا بالدنيا إلى فراديس الحرية والمبادئ الجديدة
والعصر السعيد ، والانجليز ليسوا على هذا الرأي طبعاً، وإنما هم محور
سياسة الدنيا وأصحاب الكلمة الأولى والأخيرة في تاريخ العالم حتى
أيام نابليون نفسه . وكذلك الروس والنسايون وغيرهم ، ولست
تجد في حديث أحد من مؤرخيهم كلمة واحدة تدل على أنهم يشعرون
بوجود أى لون من الحياة في الشرق الاسلامي . فمسألة تركيا نزاع بين
الفرنسيين والروس والانجليز والنسايين ، لا ناقة فيها للأتراك ولا
جمل ، ومسألة مصر نزاع بين الانجليز والفرنسيين ، وهكذا يتخذ كل
مؤرخ ناحية تختلف بحسب جنسيته ، فيرجح كفة دولته ويبالغ —
كثيراً أو قليلاً — في تقدير أثرها والدور الذي قامت به وهذا
أمر يجعل دراسة الاتجاهات الدولية في هذه الفترة معقداً شائكاً
وكان سيئاً في كثير من الأخطاء في فهم اتجاهات هذا العصر على
حقيقتها

المؤرخون الأوروبيون
واختلاف آرائهم

أشرنا في الفصل الماضي إلى صعود نجم الفرنسيين في الشرق وما
وقفوا إليه من امتيازات اقتصادية وسياسية حسدتهم عليها بقية

تفوق فرنسا

الدول ، وقد زاد في مقام الفرنسيين في شرق البحر الأبيض انصراف منافستهم — إنجلترا — في النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى شئونها في البحار والمستعمرات ، ووقوف بقية الدول الأوروبية من تركيا موقف العداء ، فانفرد الفرنسيون بالتقرب من السلطان وكسبوا ثقته ، وأصبحوا أرجح كفة من سواهم

يقترب هذا التوفيق الفرنسي باسم الماركيز فيلنيف Villeneuve وهو أول حلقة من هذه السلسلة الطويلة من السفراء الأوروبيين في
الاستانة أو القاهرة أو الشام الذين سيصبحون أصحاب الكلمة
النافذة واليد العليا في تصريف سياسة الدول الشرقية الإسلامية ؛
استطاع فيلنيف بفضل الظروف الدولية التي أشرنا إليها أن يوفق لدى
السلطان توفيقاً مشكوراً ، فأصبح ناصحه الأمين فيما يعرض له من
مشاكل السياسة وأحوالها ، وقد بدأ نفوذه يظهر بوضوح في الحوادث
التي أدت إلى صلح بلغراد في أول سبتمبر سنة ١٧٣٩ الذي استردت
به الدولة كثيراً من أملاكها فعاد إليها كثير من مقامها وهيبتها بين
الدول الأوروبية ، ثم توسط بين تركيا والسويد فعقد بينهما صلحاً
موفقاً في يولييه سنة ١٧٤٠ فأصبح بذلك موضع ثقة السلطان وصاحب
الرأي النافذ في سياسة الدولة العثمانية ، ولم يجد السلطان — ليؤكد
شكره وتقديره لفيلنيف — إلا أن يحدد الامتيازات التي كانت فرنسا قد
كسبتها قبل ذلك ، وبهذا أصبح الشرق امبراطورية استعمارية عظيمة
لنا (أي للفرنسيين) يستورد بضائعنا ويصدر لنا بضائعه بظروف
طيبة موفقة جداً وأصبحت الأماكن المقدسة في فلسطين خاضعة
لسلطان رجال الدين اللاتين (أي الفرنسيين) على الرغم من المزايم
الأورثوذكسية (أي الروسية) التي كانت ترعاها روسيا ، وأصبحت

تجديد امتيازات
فرنسا في تركيا

امتيازات سنة ١٧٤٠ — مرة أخرى — قانون الفرنسيين الذي يعيشون بمقتضاه في بلاد الدولة (١) ،

ولكن هذا التوفيق الفرنسي لم يدم مداه طويلا ، أذ أراد الفرنسيون بعد ذلك بقليل أن يستغلوا ثقة الدولة فيهم وتقديرها لهم فأحبوا أن يدفعوا بها في تيار السياسة الأوروبية جملة ، وسعى فيلنيف لادخال تركيا في حرب الوراثة النمساوية ، فظن الأتراك إلى ذلك ورفضوا دخول حرب لا مصلحة لهم فيها ، فأحفظ ذلك الفرنسيين عليهم ، وبدأت العلاقات بين الدولتين تفتقر ، وسترى أن السياسة الفرنسية بدأت تأخذ وجهة جديدة ليس فيها من العطف شيء كثير ، ولكن اضطراب أمور فرنسا الداخلية الذي انتهى إلى ثورتها المعروفة في نهاية هذا القرن (الثامن عشر) ثم اشتغالها بالمنافسة الانجليزية على المستعمرات صرفها عن ذلك فلم تأخذ السياسة الجديدة مظهرها الحقيقي إلا في السنين الثلاثة الأخيرة من القرن الثامن عشر ، أي حين سكن غليان الثورة واستقرت الأمور لحكومة الإدارة

توتر العلاقات بين
فرنسا وتركيا

هنا ، يقف المؤرخ الفرنسي وقفة طويلة جدا ، يعدد مشاريع نابليون وخططه التي كان يرسمها لحل المسألة الشرقية . وسياسته ومراميه التي كان يرجو بلوغها ، ومخالفاته العديدة مع الروس وغيرهم لادراك هذه الغاية ، بحيث يقتنع القارئ أن فرنسا كانت محور السياسة العالمية في الشرق والغرب في ذلك الحين ، والحقيقة أن أثر فرنسا في المسألة الشرقية في هذه الفترة لم يبلغ ذلك المبلغ ، إذ أن مشاكلها في غرب أوروبا وقلبها ، حالت دون أن يتمكن نابليون من توجيه سياسة هذه المسألة إلى الناحية التي أراد ، ولم تخرج المسألة في أي دور من أدوارها عن أن تكون محاولات لا أكثر ، لم تؤت من اتساع الوقت والعناية

نابليون
ومعارضه
الشرقية

ما يسمع لها بأن تكون ذات أثر في مجرى الحوادث في الشرق
الاسلامى

حملة نابليون على مصر

ماهى الدوافع الحقيقية التى دفعت بنابليون إلى القيام بحملته
المعروفة على مصر؟ .. وهل هذه الحملة تدل دلالة صادقة على سياسة
مبينة رسمتها الحكومة الفرنسية؟ .. وماذا كان يريد من ورائها؟ لى
نجيب على تلك الاسئلة يحسن أن نقول إننا لانوافق كثيرين من
المؤلفين الذين يذهبون إلى أن حملة نابليون على مصر كانت مغامرة
حرية قام بها هذا الرجل ليشبع رغبة خيالية كانت تضطرم فى رأسه،
أو أن رجال حكومة الادارة دبروا له هذا الامر إبعاداً له عن فرنسا،
كل هذه الفروض والتعليقات غير مقبولة عقلاً، فان تنظيم الحملة
واعدادها والوثائق الخاصة بها تثبت أن الامر كان ثمرة سياسة منظمة
مدبرة وانه كان يرجى من ورائها أمور عديدة، أكثرها تحقيق
لمطامع فرنسا القديمة فى شرق البحر الأبيض المتوسط.

مطامع فرنسا
البعيدة فى شرق
البحر الأبيض
المتوسط

لفرنسا فى شرق البحر الأبيض مطامع بعيدة. موصولة من
أيام الصليبيات، وقد كان الفرنسيون أشد أمم أوروبا كفاحاً فى
الحروب الصليبية وأشدهم اصراراً على مواصلتها، فلما ثبت لديهم أن
الدولة الاسلامية قوية لاتوتى فى سهولة ويسر، كفوا عن المحاولة إلى
حين، فلما بدأت الدولة الاسلامية تضعف، ولما استبانوا ذلك
الضعف تجددت هذه الرغبات وعادت لها حذتها الأولى فنشطوا
يحاولون من جديد ^(١)، ولا عبرة فى هذا لما حصل من تغيير فى

(١) إلى هذا يشير الأستاذ سورل فيقول فى مقدمة الكلام عن فتح مصر :

" Un rêve qui; depuis les croisades, hante les ima-
ginations francaises " Sorel: Bonaparte et Hoche en
1796, p. 37 : أى : حلم يطوف بأذهان الفرنسيين منذ الحروب الصليبية

حكومة فرنسا وسياستها والقائمين بأمرها لأن حكومة الجمهورية لم تفعل أكثر من أن نفذت ما كانت الحكومة الملكية تريده وتحجم عنه (١) ، وتوسعت في هذا التنفيذ لأنها وجدت في الحروب الخارجية

(١) تتبع الاستاذ الجليل محمد رفعت في كتابه القيم « تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة » الجزء الاول ، المحاولات المتكررة التي قامت بها فرنسا لتحقيق حلمها القديم في احتلال مصر ، واليك ايجازها :

(أ) محاولة لويس التاسع (١٢٤٨ — ١٢٥٢ م) التي انتهت بهزيمته وأسره عند المنصورة وفشل الحملة

(ب) معاهدة فرنسوا الاول مع سليمان القانوني سنة ١٥٣٥ الذي أكسب فرنسا في ذلك الوقت في أملاك الدولة مركزا ممتازا ، « . . . » وتعتبر التسهيلات والاعفاءات التي تالها الفرنسيون وغيرهم بفضل هذه المعاهدة أساسا للامتيازات الأجنبية »

(ج) مشروع الفيلسوف ليبير الذي عرضه على لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢ ، وقد أهمل هذا المشروع ولكن الحكومة الفرنسية ماقتت تمردا له بين الحين والحين « وقد عثر تاليران وتالبيون بونابرت عندما فكرا في مشروع الحملة ثما . . . » في سجلات الحكومة على مشروعات وخرائط كثيرة خاصة بالاستيلاء على مصر »

(د) رحلة ليارون دي توت سنة ١٧٧٧ الذي « كان مكلفا بأن يقوم باستطلاعات حرية واختبار حالة السواحل والقلاع الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ومعركة أعماق الماء في الموانئ » وسيشار إلى ذلك بعد قليل

(هـ) آراء الرحالة الفرنسيين الذين كانوا لا ينفكون يسهلون على دولتهم غزو مصر ، وفي مقدمتهم فلي Volney الذي نشر خطبته سنة ١٧٨٧ فكان عاجزا فيها « أنه ليس في المدينة (أي الاسكندرية) سوى أربع مدافع في حالة صالحة ، وليس بين الحامية التي يبلغ عددها خمسمائة من يمكنه أن يصيب المرمى بل جميعهم من العمال القاديين الذين لا يحسنون سوى التدخين » وما قاله أيضا « إن الاستيلاء على مصر يجب أن يكون محور السياسة الفرنسية »

(و) محاولة تالبيون التي كانت حكومة الادارة تمهد لها الأمور منذ زمن طويل ، وحسبت حساب الاستيلاء على مصر في معاهدة كيو فورميو فاستولت على جزائر الأيونيان ، وقد كتب تاليران مدير الشؤون الخارجية في حكومة الادارة الى تالبيون بتاريخ ٢٦ أغسطس يقول « يجب أن تكون علاقاتنا ودية مع البانيا واليونان ومقدونيا وجميع ولايات الدولة العثمانية في الشرق ، بل مع جميع الشعوب التي تلمس سواحلها البحر الأبيض المتوسط وخاصة مثل مصر التي قد تصير يوما ما ذات منفعة عظيمة لفرنسا »

نابليون يدبر الحملة
على مصر

شيئا لأقدامها ورفعها لها في عيون الشعب الذي قامت بين اعجابه وتهليله . وكانت الفترة التي قام فيها نابليون بحملته على مصر مناسبة جدا لتحقيق ذلك الحلم القديم ، كانت تركيا في حالة من الضعف يرثى لها ، وكان ضعفها قد تجلى ولم يعد يخفى على أحد ، فأسرعت الحكومة الفرنسية بالتنفيذ ، ويسر لها الأمر وجود ذلك القائد المغامر الذي كان يتوق في نفسه إلى بناء مجده الحربى العظيم ، فأسرع في التنفيذ . ويظهر أنه كانت لديه تعليمات خاصة بهذا الفتح قبل القيام بالحملة بزمان طويل ، إذ أنه قام بوضعة أعمال أثناء فتح إيطاليا تنبئ أنه يمهّد لأمر ذى بال في شرق البحر الأبيض ، فقد حرص في معاهدة كبر فورميو على أن يكون لفرنسا نصيب موفور من الجزائر والشواطئ ، وكتب إلى حكومة الإدارة ينبئها عن الحالة البحرية في شرق البحر الأبيض وممتلكات الدولة ، ولا شك أن سرعته في تنفيذ مشروع مصر مردودة إلى أنه قد خبر الأمر بنفسه ورأى يصبره الثاقب سهولة الأمر وما ينطوى وراءه من توفيق عظيم

ولم لا نفهم شيئا من رحلة الرحالة فولنى التي قام بها سنة ١٧٨٧ فولنى
ولبت أربع سنوات في مصر والشام ، ثم عاد إلى بلاده يحدث تلاميذه بما رأى من ضعف بلاد الاسلام واضطراب أمرها وسهولة فتحها ، لقد كان هذا الرجل في الفترة التي قامت فيها الحملة عضواً في المجمع الفرنسى (دخل المجمع سنة ١٧٩٥) وكان قبل ذلك أستاذاً للتاريخ في مدرسة المعلمين بباريس ، وكان عضواً في الجمعية العمومية والجمعية التشريعية ؛ لم لا يكون هذا الرجل وأمثاله كثيرون قد صوروا للحكومة الناشئة الحال في مصر والشام فجعلت حكومة الإدارة بالتنفيذ انتهازاً للفرصة السانحة (١) ؟

Constantin Francois Chasseboef. (Comte de Volney)
١٧٥٧ - ١٨٢٠ رحلة ومؤرخ فرنسى ، قام في سنة ١٧٨٧ برحلته إلى مصر وقضى فيها في الشام

يد أن الثابت أن حكومة فرنسا كانت تؤكد لنفسها أن هذه الحملة لن تثير من جانب السلطان هذا الغضب الذي أثارته كله ، كانت تأمل أن يرضى السلطان عنها لحربها المماليك وقضاها عليهم ، وكانت تحسب أن المصريين سيخفون اليها مهلايين لما ثقل عليهم من ظلم المماليك ، ولكنهم نسوا ما أشرنا اليه من أن كل دولة اسلامية لها كيان «اسلامى» داخل الكيان السياسى ، وإن هذا الكيان شديد الحساسية لا يصيبه الوهن ، فلا يكاد يمسسه سوء حتى ينتبه ، لم تكن الحملة انقلابا من نوع ما ألفه المصريون من كثرة الحروب والاضطراب . ولكنها مست عاطفتهم الدينية ولم تعد فى نظرهم إلا عدوان جديد للنصرانية على الاسلام فكرهوا أمرها كرها بالغا ،

لنتبع علاقات فرنسا بتركيا قبيل الحملة عسانا نكشف من أسبابها أمراً مستورا ، عرفنا أن جهود فيلنيف كادت تنتهى إلى الفشل لمحاولة فرنسا الاستفادة من ثقة فرنسا فيها ، ولكن العلاقات عادت بعد قليل إلى ما كانت عليه على يد السفير Aubert Dubyet الذى كسب

أربع سنوات ثم عاد إلى بلاده حيث نشر عن رحلته كتابه الذى أشرنا اليه ، ثم انتخب عضوا فى الجمعية العمومية ثم فى الجمعية التشريعية ، ثم عين أستاذا فى مدرسة المعلمين ، وكتب كتابا آخر عن علاقة الدولتين الروسية والتركية هو *Con siderations sur la guerre des Turcs et de la Russie* وقد أرسلته حكومة فرنسا فى رحلة سياحية سنة ١٧٩٥ إلى الولايات المتحدة لبحث مسألة لوزيانا فلم يخف على حكومة الجمهورية أمره وقبضت عليه ولعل الرجل لم يكن مكلفا رسمياً من الحكومة بالقيام برحلته إلى مصر ولكنه صور الحال للحكومة الإدارة وسهل لها الأمر ، ونلاحظ من منشورات الحملة الفرنسية وتصرفاتها أن القائمين بأمرها كانت لديهم فكرة واضحة جدا عن البلاد قبل أن ينزلوا بها . ولا يبعد أن يكون ذلك من عمل فولتى وغيره من الرحالة والتجار

وقد جاء فى كتابه المسمى : —

Les ruines, ou meditations sur les revolutions des empires « من مصر نستطيع الوصول إلى الهند ، ونرى طريق السويس ونستطيع أن نترك طريق الرجا الصاخ » وقد صدر كتابه هذا قبل قيام الحملة على مصر بسنوات قليلة

خداقة السلطان وحسن ظنه ، واستطاع أن يؤكد امتيازات فرنسا التي كانت كسبتها سنة ١٧٤٠ ، وهذا نصر اقتصادي حاسم لا شك فيه يؤكد ما ذهبنا اليه من مطامع فرنسا في شرق البحر الأبيض في ذلك الزمان .

فرنسا تسعى لتصلح
الدولة العثمانية

فإذا تم لفرنسا ذلك واطمأنت إلى أنها صاحبة الكلمة العليا في الاستانة ، فقد بدأت تعمل على تقوية الدولة العثمانية من الناحية الحرية ، لتقوى على صد الروس ؛ وكان دوباويه رجلاً فرنسياً بارعاً استطاع أن يكسب حب السلطان وتقديره . واستطاع أن يقنعه بضرورة الاصلاح ، فاستمع اليه وطلب منه أن يمدد بالمهندسين والمدافع ثم كلفه بتنظيم الجيش التركي نظاماً جديداً .

بدأ الاصلاح
في تركيا :
الجيش

هكذا تكون نقطة البدء في الاصلاح هي الجيش ، في تركيا ثم في مصر وسنرى خطأ ذلك بعد قليل ، استطاع دوباويه أن يعدد للسلطان ثمانمائة مدفعي وفرقة من الفرسان وفرقة من المشاة منظمين على أحدث الأساليب ، وفعلاً سمي هذا الجيش الجديد الصغير : النظام الجديد

ولكن حكومة الادارة لم يكن لديها من الصبر ما يمكنها من الانتظار لمقطاف الثمر بعد حين طويل (١) ، فما كاد نابليون ينتصر في الحملة الإيطالية ويوقع اتفاق كامبو فورميو حتى خطر له أن هناك سيلاً أخرى لا تقا

التفكير في انقاذ
الحملة

ما ترمى اليه فرنسا ، سبيل سريع لا يكلفها إلا جيش صغير يضرب ضربة حاسمة في مصر ، فتفهم تركيا ويرتد شر انجلترا ويذهل الروس وتبدد السحب ، ولم يكف يخطب رجال الحكومة في الأمر حتى توافقوا في الثناء اليه وهلل تاليران للفكرة وصدق لها ، ومن هنا بدأ

الاستعداد لها

الاستعداد للحملة ، استعداد خارجي واستعداد داخلي ، أما الاستعداد الخارجي فارسال الرسل الى اليونان يحرضونهم على الثورة ، يؤكدون لليونان أنهم « سلاثل الاسبرطيين . الشعب اليوناني الوحيد الذي

(١) اذ كانت ترمى من وراء محاولاتها لاصلاح الدولة الى السيطرة عليها جلة ، وكان سفراؤها يهدون لذلك على مهل .

حافظ على حريته » ، ومخاطبة نابليون لعلى باشا والى يانينا بقوله « أيها الصديق المبجل » وارساله اليه أحد ضباط أركان حربه للتفاهم معه ، ثم العناية بالاستيلاء على ساحل دلماشيا وجزائر البحر الادرياتيكي .. كل هذه مقدمات للحملة على مصر . . كانت فرنسا تدبر — ولا شك — أمراً خطيراً ولكن الظروف وحدها ومعارضة الدول ضيقت حدود البرنامج الفرنسي الى هذه الحملة التي لا تعد أكثر من فشل من الناحية السياسية فاذا تم هذا كله فقد تمت معه المعدات في داخل فرنسا بهذه الحملة المصرية ، وأعد لها الجنود والعلماء والآلات ، ووضع لها برنامج عظيم لا يدل إلا على أن الذين رسموا للحملة نظامها أرادوا بها أن تكون فتحاً واستقراراً واستعماراً « وما يدل على أن فرنسا كانت تريد تأسيس مستعمرة فرنسية بمصر ما أرسلته مع الحملة من علماء وصناع وعدد وآلات ومطابع ومترجمين (١) »

الاستعداد للحملة

كذلك لا نزاع في أن الفرنسيين استبانوا أهمية مصر للتجارة الهندية ، قال تاليران في خطابه الى نابليون في ١٣ سبتمبر سنة ١٧٩٧ « ان مصر كطريق تجارى ستعطينا تجارة الهند ، لأن المعول في التجارة على الوقت ، وبلاستيلاء على مصر نستطيع أن نقوم بخمس رحلات مقابل ثلاث بالطريق المعتاد حول رأس الرجاء الصالح ، وكان الصراع على المستعمرات على أشده بين انجلترا وفرنسا في ذلك الوقت ، وكانت الأخيرة قد فقدت مستعمراتها في الحروب مع انجلترا ، ففكرت في الاستيلاء على مصر لتستطيع ضرب انجلترا في الهند ضربة قاضية ، اما بالتجارة معها كما رأيت من كتاب تاليران واما بالاتصال بأمرائها الوطنيين ودفعهم الى الثورة على الانجليز ومدحهم بما عسى أن يحتاجون اليه من آلات حديثة وتنظيم .

موقف إنجلترا

وكانت إنجلترا في هذه الأيام ترقب بعين القلق تطور فرنسا وازدياد قوتها ، وكانت تخشى أن تثب فرنسا أو روسيا على الدولة العثمانية فيبتلعانها لأن هذا يخل بالتوازن الدولي ويجعل لاحدى الدولتين قوة خطيرة في أوروبا ، فكانت تهتم في هذه الأيام اهتماما خاصا بشئون القارة أى بشئون أوروبا ، لما لها — أى لإنجلترا — من المصالح التجارية العظيمة مع دولها . فكانت تحرص الحرص كله على أن تبقى الدولة العثمانية على ما هي عليه ، لا يهدد سلامتها عدو ولا يفوز بأرضها منافس ، لهذا ستكون سياسة إنجلترا أزاء الدولة العثمانية هي المحافظة عليها من كل خطر يهدد كيائها ، خارجي كالروسيا أو داخلي كالثأرين من أمثال محمد علي وسنعود إلى هذا الأمر بالتفصيل بعد قليل

الحلة الفرنسية من
الناحية الحربية

كان الفتح الفرنسي لمصر كفتح الاسكندر للشرق سواء بسواء ، كان خطوة بالحضارة إلى الامام لانصرأ من انتصار الميادين ، فان وقائع شبراخيت والأهرام وأبي قير وحروب الصعيد وهذا الصراع الطويل الذى استمر بين الفرنسيين والمماليك لا يكاد يعد نصراً للاول ولا يستحق أن نقف عنده طويلا ، فهذه جنود أوروية منظمة على أحدث الأساليب يقودها نابغة من توابغ الحروب . تلقى شرازم من الفرسان لا نظام لها فليس بغريب أن تنتصر الاولى على الثانية ، بل لعل تفاصيل الصراع أن تقلل من جمال « اللوحة » التى يتأنق فى رسمها الفرنسيون عندما يتحدثون عن هذه الفترة من تاريخهم . فقد دافع المماليك دفاعا مجيدا وثبتوا ثباتا جليلا ، وحاربوا عن أرض مصر شبرا شبرا ، وناجزوا الفرنسيين فى أقاصى الصعيد طويلا ، وخف لعونهم مسلمو الحجاز وعبروا اليهم البحر الأحمر وثبتوا معهم ثباتا طيبا ، بل ثبتوا لنابليون نفسه وحاربوه حربا شديدة استحقوا بها .

نطاق المماليك

إعجابه فقال انهم فرسان يخشى بأسهم redoutable بل انهم كادوا
يظفرون به في رمال الصالحية في الوجه البحرى ، لولا أن أنقذه رجاله
فتجامن الهلاك المحقق ، كل هذا الجانب الحربى يسير لا يستأهل الفخر
ولا الذكر وإنما المجيد حقاً هو هذا الجهد العلى العظيم الذى بذله
الفرنسيون في مصر على رغم ما شغلهم من أحداث السياسة وما أحاط
بهم من مخاطر الأعداء

الحملة الفرنسية من
الناحية العلمية

كان جيش نابليون جيشين في واقع الأمر ، أحدهما جيش
المحاربين والآخر جيش العلماء . . فأما الجيش الأول فقد انصرف من
أول الأمر إلى هذا الصراع الطويل الذى لم ينته إلى شيء ، إذ ظلت
القوى الحرية التى أنفقوا جهدهم في قهرها على حالها تقريباً لم تحضد
شوكتها إلى حد محسوس ، ظل الممالك يتحينون الفرص في دنقلة بل
تقدموا في الصعيد واستقر بعضهم في الجيزة والبحيرة ولبث الأتراك
يحمون حول البلاد حتى جلاء الفرنسيين ، وظل الانجليز مسيطرين
على نصير الحملة ورجالها بهذا الحصر البحرى الذى أحكموا حلقاته من
سواحل الاسكندرية الى سواحل الشام

وأما الثانى فجيش العلماء والباحثين ، ما كادت الحملة يستقر بها
المقام حتى بدأت العمل في جد ونشاط وحتى تناولت مصر كلها بدراساتها
وأبحاثها فوفقت في الميادين التى تناولتها توفيقاً محموداً مشكوراً

أنشأ الفرنسيون معهد القاهرة Institut du Caire وتولى
العمل فيه طائفة من أقدر العلماء من أمثال مونج وبرتوليه وفورييه
وجوفرى سانت هيلير وكوتنيه ، وبدأوا يعملون لأحياء مصر من جديد
كما يقول الأستاذ دريو . فاستوفقت أنظارهم آثار مصر القائمة في
نواحيها والتى تتحدث عن ماضيها ، فبدأوا ينصرفون الى دراسة هذه
الآثار ووصفها ورسمها والاعجاب بها ، وتشاء الفرصة المواتية أن يعثر

أحد ضباط الحملة الفرنسية على ذلك الحجر الشهير الذى أزاح الستار
عن ماضى مصر البعيد ، أقصد حجر رشيد الذى نقل الى لندن حتى
يقض الله له العالم الفرنسى شموليون الذى أكب عليه يدرسه بحماس
يقرب من الجنون ، حتى انتهى بعد جهاد عظيم لا يخلو من روعة الى
أن يحل رموز الكتابة الهيروغليفية سنة ١٨٢٢ ، فبدأ بذلك عصر
جديد لمصر ، وانفتح ميدان واسع للعلم ، فكان هذا الكشف فى حسابنا
تخمين المصريين أجل نتائج الحملة الفرنسية وأبعدها أثراً إذ أنار للعالم ناحية
أطبق عليها الظلام وسادها السكون وأخرج الى النور فقرة مفقودة كان
الابد من العثور عليها حتى تستقيم سيرة الحضارة متصلة الحلقات ،
موصولة الفقرات ، وأنار لمصر سبيلها فعرفت نفسها ومقامها بين أمم
التاريخ فلم يخطئ دويو على ذلك حين قال إن هؤلاء العلماء « أحيوا
مصر من جديد »

كوتيه وجهوده فى
الزراعة

وبدأ كوتيه من ناحية أخرى بنشء المصانع ويغرس فى ثرى مصر
هذه البذور التى كانت أولى معالم العصر الحديث ، وعنى بالزراعة فأخذ
يذيع أبحاثه فى الحاصلات وتجاربه فى الزراعة كما يعود الى البلد
رخاؤه الذى انصرف عنه من يوم أسدل الستار على ماضيه البعيد

المشاريع الهندسية

ودرس المهندسون وسائل الاصلاح فاعادوا الى الوجود مشروع
قناة تصل النيل بالبحر الأحمر وأنفقوا جهداً مشكوراً فى دراسة مشروع
قناة السويس ، وكان هذا الأمر الأخير من الأعمال التى كافت بها
الحملة رسمياً ، ومسحوا الأرض وأنشأوا يعيدون تنظيم القاهرة وتنظيفها
مما تراكم عليها طوال العصور الوسطى . . وبدءوا يدخلون اصلاحات
صحية ويضطرون الناس الى الأخذ بأساليب غير مألوفة لديهم ، فحرموا
الدفن فى البيوت والمنازل وأرغموا الناس على كنس الشوارع ورشها
واضاءتها ليلاً .

تنظيم القاهرة

كتاب وصف مصر وكانت خلاصة أعمال هؤلاء العلماء ذلك الكتاب الضخم الجليل الذي كتبوه حين عادوا إلى بلادهم ، ودرسوا فيه مصر دراسة وافية كاملة ، وأثبتوا في أجزائه العديدة خلاصة جهودهم التي أنفقوها طوال إقامتهم بمصر لاعادة الحياة إلى وادي النيل ، وأقصد بذلك كتاب وصف مصر Description d'Egypte

كانت هذه الاصلاحات ايذاناً يبدأ عصر جديد لمصر والمصريين نعم انهم لم يأخذوا بها ولم يعجبوا بها ، وإنما وقفوا منها موقف العدو السكاره وأقدموا عليها اقدام المرغم المضطر ، ولكنها كانت — كما سنرى — حجر الاساس الذي سينى عليه صرح النهضة المصرية

قلنا ان الانجليز حينما نعى اليهم أن الفرنسيين يعدون في الخفاء أمراً جللاً ، وانهم يعدون الاساطيل والجنود والعلماء لحملة ذات بال ، أسرعوا فأرسلوا قائدهم المعروف نلسون ليقف على حقيقة الامر وليحبط مساعي الفرنسيين أيأ كانت ، وصل نلسن الى البحر الأبيض ومرت بالاسكندرية قبل وصول حملة نابليون ثم مضى الى الشام ، ولم يكذب يولى مصر ظهره حتى أقبل الفرنسيون ونزلوا أرض مصر ، ووضعوا أسطولهم في أبي قير ثم بدأوا يغزون البلاد ، كان نلسن لا يدري أين يريد الفرنسيون ، وكان يحثه عنهم صورة لطيفة جداً من النزاع بين الانجليز والفرنسيين في هذه الأيام ، بحث عنهم في صقلية وفي المورة وفي كريت . وأخيراً عثر عليهم في أول أغسطس سنة ١٧٨٩ وهناك أنزل بهم هزيمة ساحقة ، تحطم فيها الأسطول الفرنسي تماماً ومات قائده برويز ودوتى ثوار واستطاع فيلنوف المعروف أن ينجو بسفینتين .. وتلاشت معها آمال الفرنسيين التي كانوا يعلقونها على هذه الحملة ، وأصبح موقفهم في مصر من اليوم

انجلترا والحملة الفرنسية على مصر

واقعة النيل البحرية

أشبه بالأسير الذى يجاهد حتى لا يجمع على نفسه عار الأسر وشنار
التسليم المخجل

تركيا والحلة الفرنسية
على مصر

أقفل الباب على الفرنسيين فى مصر ، وتنفست تركيا الصعداء
وتأكدت أن « بضاعتها مردودة اليها » واستراح الانجليز إلى القضاء
على هذه الحملة التى كانوا يخشونها كثيراً ، وانقلب الفرنسيون الى مصر
وقد وطنوا العزم على اتخاذها وطناً ، وبدأت سياستهم نحو المصريين
تتغير ، ومن هنا بدأوا يوطدون أقدامهم باكمال الفتح من جهة
وبالاصلاح واستقلال البلاد من جهة أخرى ، وهذا هو أصل كل
المشاريع التى نفذها الفرنسيون من جمع على الى دواوين للحكم أو اصلاح
أو تجديد : سياسة تمهيد الى الاستقرار ، أملها اليأس من الاتصال
بيلدهم فرنسا بعد تحطم الاسطول ووقوف الانجليز فى البحر بالمرصاد
نشط السلطان بعض النشاط ، وقد ضرب له الانجليز الضربة
الحاسمة وبقي عليه أن يحجز على الفرنسيين ، وقد كان هذا الاجهاز أمراً
ميسوراً لو أن القائمين بأمره لم يكونوا هم رجال الدولة العثمانية فى ذلك
الحين . دبروا حملتين : احدهما بحرية والاخرى برية لتلقيان فى مصر
وتقضيان على الفرنسيين دفعة واحدة .

حملة الشام

ولكن نابليون لم يمهل الا تراك حتى ينفذوا هذه الخطة ، إذ فضل
- كما هى عادته - الهجوم على الدفاع ، فخف الى الشام بجيشه فى خريف
١٧٩٩ ، وكان السلطان قد أمر واليه على الشام أن يهاجم الفرنسيين
فى مصر . سار نابليون فى البلاد سيراً هيناً ، يشبه الى حد كبير مسيره
فى مصر ، استولى على العريش وغزة ويافا ، وشتت الجيش التركى
البرى الذى أقبل لملاقاته فى موقعتين إحداها فى دمشق والثانية فى
طبرية ، وكان قد أرسل مدافع الحصار بطريق البحر لتوافيه فى الشام
فلم يفوت الانجليز هذه الفرصة ، وكانوا قد أقاموا فى البحر الأبيض .

أمير لايا جديداً هو السير سيدنى سميث ، فاستولوا على مدافع الحصار

سيدنى سميث

حاول نابليون أن يستولى على عكا ، وهى حصن قوى منيع يقع

نابليون أمام عكا

على طرف لسان من الأرض تمتد فى البحر ، فلم يكن فى استطاعة نابليون

الوصول اليها عن طريق البر لوقوف الانجليز فى البحر ، ثم ان الجزار

باشا والى المدينة كان يعينه فى صد الحصار مهندس فرنسى آخر ، من

الأشراف المهاجرين ، اسمه فيليبو استطاع أن يقوى الحصون ويمنعها

من نابليون . وأخيراً .. عاد نابليون الى مصر ، يائساً كل اليأس من

الاستيلاء على الشام وآسيا الصغرى . عاد ليجد جيش الأتراك الثانى

قد وصل بسلامة الله الى مصر ، وأنزل جنوده على شاطئ أبو قير فلم

يكن أسهل عليه من هزيمتهم والقضاء عليهم . عند أبو قير

موقعة أبو قير البحرية

اطمأن الانجليز إذن إلى أن الفرنسيين قد حصروا فى مصر

والأخطار جديد يخشى منهم ، فبدأوا يدبرون أمراً آخر لاجراجهم

من مصر جملة .

كانت الأحوال قد تعقدت فى أوروبا ، وتألبت الدول على فرنسا

الحالة السياسية فى أوروبا

واستولت على ممتلكاتها وهددت بلادها ، وتطلب الأمر قائداً ماهراً

ليرد عادية المتألمين ، وعلم نابليون بذلك فدبر هروبه من مصر وترك

رجل نابليون

مقاليدها بيد كليبر وبارح الاسكندرية فى ٢٢ أغسطس ١٧٨٩ ليحدث

الى فرنسا

انقلاب برومير ويصبح القنصل الاول .

بدأ كليبر يتفاهم مع الانجليز والأتراك ليصل معهم إلى حل معقول

كليبر يبدأ

للمسألة وتشدد الانجليز بادىء الرأى ، ولكنهم ، بعد مفاوضات عديدة

المفاوضات اتفاق العريش

دارت على سفينة السير سيدنى سميث ، انتهوا الى ابرام اتفاق العريش

فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ الذى يقضى بأن تنقل الجنود الفرنسية إلى

فرنسا على سفن انجليزية

ولكن رجال السياسة فى إنجلترا لم ينظروا الى الاعتبارات الكثيرة

التي عرضها سدني سميث ، فلما وصلهم الاتفاق بعند وضعه بقليل
ليدوا رأيهم فيه وليأذتوا للسير سميث في تنفيذه ، رفضوا قبوله
وأرسلوا إلى سميث يقولون إنهم لا يرضون إلا أن يُسلّم الجنود
الفرنسيون كأسرى حرب .

محاولات فرنسا
لاسترجاع جنودها

وكانت الحكومة الفرنسية قد تأكدت أن الحملة المصرية قد
فشلت تماماً ، وأخذت تدبر الوسائل لاسترجاع جنودها من مصر
لإنقاذهم من أسرهم الطويل ، وللإستفادة منهم في حروبها الكثيرة
في أوروبا . فكتبت في مايو سنة ١٧٩٩ إلى نابليون تصف له سوء
الحال وتستقدمه وجنوده إلى أوروبا ، بل شرعت تأخذ الآهبة لإعادة
هؤلاء الجنود فكلفت الاميرال بروي Bruix بأن يخرج من ميناء
برست ومعه ٢٥ سفينة ويشترك مع الأسطول الاسباني ويخترق البحر
الأبيض المتوسط ويصل إلى الاسكندرية ، ولكن هذه الخطة
فشلت لرفض الأسطول الاسباني التعاون مع الفرنسيين على الانجليز .

سأم الجنود للفرنسيين
من مصر

وكان الجنود أنفسهم قد سئموا المقام بمصر ولج بهم الشوق إلى
بلادهم ، فأخذوا يكتبون الخطابات إلى ذويهم في فرنسا يبسطون لهم
سوء حالهم ويستصرخونهم سرعة العمل لإنقاذهم ، ولم يقدر لهذه
الخطابات أن تصل إلى فرنسا لأن الأسطول الانجليزي استولى عليها
فنشرت الحكومة الانجليزية في كتاب خاص ، وبدأ الشقاق يدب بين
القادة — بعد سفر نابليون — ومال بعضهم ميلاً ظاهراً لمبارحة مصر
والعودة إلى فرنسا ، وعلى رأس هؤلاء كليبر الذي أسخطه هروب
نابليون فكتب إلى حكومة الادارة يشكوها إليها ويبسط أخطائه
ويرجوها أن تنظر في أمره ، ومال بعضهم الآخر إلى البقاء حرصاً
على مصلحة فرنسا السياسية والتجارية الآجلة ، وتطرق هذا النزاع
إلى الجنود ، وشابته نزعات شخصية فلم يعتم الجيش كله أن ضج بالشقاق

والمحاكمات العسكرية والعقوبات ، مما هبط بالروح المعنوية هبوطاً شديداً ، وزاد الأمر حرجاً انسحاب الجيش الفرنسي من الصعيد بعد أن أخلاه ديزيه قبيل موقعة أبوقير البحرية ، فتقدم المماليك وأخذوا يرفعون رأسهم من جديد ويهددون البلاد تهديداً شديداً ، فبدأ الأهالي يضجون بالشكوى بل شكوا في قوة الفرنسيين الذين ضعف سلطانهم على البلاد ضعفاً ظاهراً ، وفاضت نفوسهم بالثورة وباتوا يتربصون في انتظار الفرصة المواتية ، وبلغ بهم السخط أن ثاروا بشيوخهم ورموهم بالخيانة والتعاون مع الفرنسيين

انسحاب الجيش
الفرنسي من الصعيد

في هذه الأثناء كان كليبر قد اطمأن إلى أنه مغادر مصر بسلام ، فأخذ يعد المعدات للرحيل ، وسمح للأتراك بأن يعبروا حدود مصر وأن يصلوا إلى قرب القاهرة ، وتسامع المصريون بقرب الأتراك ففرحوا فرحاً بالغاً .. ورحبوا بهم ترحيباً طيباً ، لأنهم الأتراك .. بل لأنهم المسلمون يخلصونهم من النصارى

الفرنسيون يستعدون
للرحيل

فلما وصل رد الحكومة البريطانية إلى السير سدن سميث ، وبلغه إلى كليبر ، أبي هذا إباء شريفاً أن يسلم تسليم أسير ، وقال انه « لا يجيب على هذه الإهانة إلا بالانتصار » وكان الأتراك يومئذ في عين شمس فسار إليهم وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً في ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ وفر من نجا منهم إلى الشام . وصمم الفرنسيون مرة أخرى على البقاء في مصر إلى النهاية ، وبدأ كليبر يتفاهم مع المماليك وصالح مراد بك وأخذ ينظم حكومة مصر تنظيمًا دقيقاً ، ولكنه فوجئ . وهو في حديقة داره بطعنات سليمان الحلبي الذي قتله في ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ خلفه مينو ولم يكن على شاكلة سابقة (١) فبدأ يتفاهم مع الانجليز والأتراك على الخروج من مصر ، ورضى الانجليز بأن ينقل الفرنسيون

رفض الحكومة
الانجليزية

موقعة عين شمس

مينو

(١) كانت حلة بكثير من نوى السلطان في الحكومة هي السبب في وصوله إلى درجة الجنرالية وكان زملاؤه يعرفون ذلك ويكرهون الخضوع لرجل ليس له ماضٍ حربي أو انتصارات سابقة ،

خروج الفرنسيين
من مصر

إلى بلادهم . أما السبب الذي حدا بالانجليز إلى قبول ذلك وكان في استطاعتهم أن يستمروا على حصارهم للفرنسيين فهو ان الحرب بينهم وبين نابليون كانت قد قاربت الانتهاء ، وبدأت طلائع صلح أميان تبدو ، وخافوا أن تبدأ المفاوضات والفرنسيون في مصر فيكونوا مخيرين بين أحد أمرين : إما ابقاؤهم في مصر والاعتراف بحكمهم فيها ، وإما اخراجهم منها وتعويضهم بجزء من الأرض في أوروبا أو فيما وراء البحار ، فأثر الانجليز أن يخلصوا من هذه الورطة وعجلوا بنقل الفرنسيين ، وكانت السياسة الانجليزية قد أتت بتبدل من العداء الشديد إلى التفاهم ، إذ سقطت وزارة بت وجاءت وزارة أدنجتون فبدأ التفاهم ، والتمهيد لصلح أميان ، وأسرع في العمل ثم اخراج الفرنسيين من مصر بالقوة ، إذ سلم بليار القاهرة في ٢٦ يولية سنة ١٨٠١ ، وسلم مينو في ٣ ديسمبر من السنة نفسها

هكذا انتهت هذه الحملة التي لم تنتج شيئاً في عالم الفتوح والتي يبدأ بها تاريخ المسألة المصرية وفي التاريخ (٢) وسنعرض الآن لأهم آثارها وأبقاها ، وهو الروح القومي والنهضة المصرية ، وقد عرضنا قبل ذلك إلى آثارها في الحضارة والعمران ، بقي أن نشير إلى أنها نبهت السياسة الأوروبية إلى مصر ، ولفتت الأذهان إلى ضعفها وسهولة الاستيلاء .

فاخذوا يحتقرونه واحس منهم ذلك فبدأ يخاصمهم ويضطهد كثيرا منهم بل باعدهم وخصمهم وكان لهذا أثره السيء فيما اصاب الحملة في أواخر أيامها .

(٢) أما من الوجهة السياسية الدولية فانه منذ ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ وهو اليوم الذي خرجت فيه الحملة الفرنسية من ميناء طولون قاصدة مصر ، ولدت المسألة المصرية وتأخذت صبغتها السياسية فوراً : لأنه إذا كان الاستحواذ على الهند معناه اقتصاديا هاما . فان الاستيلاء على مصر بعد ان استقر بأرضها نابليون يمثل تلك السهولة أصبح من المسائل السياسية الدولية الأولى التي ما قدت تشغل بال الدول إلى الان . ففرنسا وحدها هي الأولى التي اخترقت بصفق نظرها الحجب السميكة التي أخفت مركز مصر عن انظار الدول في ذلك الوقت »

الاستاذ محمد رفعت في تاريخ مصر السياسي ج ١ ص ٨١

عليها ، وانها نهبت الانجليز إلى ضرورة الاهتمام الشديد بشئون شرق البحر الأبيض وحراسته ، ومن ذلك اليوم يبدأ الانجليز يتقربون من الباب العالي لمنافسة الفرنسيين السائدين هناك ، فلما اقربوا ونظروا الأمر عن قرب لمحوا عدوا آخر يتربص ، واستبانوا أنه أشد خطرا من الفرنسيين : عدوا كان يخفيهم في أواسط الشرق وأقاصيه ، تخفوا اليه سراعا ، وأعدوا العدة لكفاحه والخدم من خطره وحماية الدولة العثمانية المسكينة منه ، ذلك هو الدب الروسى ..

هذه الحملة كانت بعيدة الأثر في مستقبل مصر السياسى والاجتماعى حتى ليسر حصر كل نتائجها حصرا تاما ، ونكاد نحن نحس هذه الآثار باقية إلى اليوم على رغم بعد الشقة وتقادم العهد .

آثار الحملة

بدأت هذه الحملة عصرا جديدا لمصر والمصريين ، وليس هذا لأن المصريين استيقظوا على ضجيجها وفهموا مبادئها وأقبلوا عليها ، وليس لأن أفكار الحرية والمساواة استقرت في أفهامهم وأخذوا يؤمنون بها ، بل ليس ذلك لأن الفرنسيين كشفوا الستر عن تاريخ مصر القديم ومجدها الزاهب فاستيقظت في المصريين آمالهم ، لم يحدث شيء من هذا كله أثناء الحملة ولا بعدها بعشرين أو ثلاثين سنة ، اذ لم تكن الأفكار قد نضجت بعد لتلقى هذه الآراء الحديثة ، وكانت سحب الجهل قائمة جدا لا تخترقها أشعة النور التى كان يحملها الفرنسيون ، بل كان لا يخطر على بال المصرى العادى انه صاحب حق في إدارة شئون البلاد والتصرف فيما يهمه من الأمور ، ولم تكن تربطه بأرض مصر صلة ولا تحفزه إلى حبها عاطفة : كل هذا لم يكن آن أوانه ، وكل الذى حدث هو تهيؤ الظروف لنشوته وقيامه بعد زمن طويل (١)

بدا عهد جديد لمصر

(١) ولا ينافى هذا وجود نفر قليل من الذين كانوا يحسون باطاقة صحيحة نحو البلاد وأهلها كما سنفى ، وإنما تتكلم الآن عن عامة الناس .

كسر شوكة
المماليك

أما هذه الظروف المواتية فأهمها كسر شوكة المماليك واضعافهم بهذه الضربات المتتالية التي لن يعود أمرهم بعدها الى ما كان عليه في سابق الأيام ، كان المماليك قبل ذلك سوطا يلهب ظهور أهل البلاد ، وكان هذا الخوف من المماليك وطول الخضوع لهم قد ذهب بالكثير من شعور المصريين بأنفسهم ووقف بهم عن أى تقدم معنوى أو إنتاج فكري ، فلما هزم المماليك وأخلوا البلاد أمام الفرنسيين وأحس المصريون أنهم نجوا من شرهم ، تنفسوا الصعداء وشعروا بالحرية وبدأوا يثقون في أنفسهم ، وسنلاحظ في سياق حديثنا أنهم ينهضون عقب ذلك نهوضا سريعا ، يكون مظهره الجرأة على المماليك والأتراك ، والمطالبة بأن تكون لهم « ارادة » مسموعة مطاعة ينزل عندها المماليك والأتراك ، ولا شك أن الثورة المقبلة — التي ستكون نتيجتها ولاية محمد علي — هي مظهر من مظاهر هذه الجرأة والشعور بالنفس الذي كان نتيجة طبيعية جدا لما أصاب قوة المماليك من تدهور وانهمزام على يد الفرنسيين

أثر الحملة في
مستقبل الفكر
والعلم في مصر

وكان للجهود التي بذلها العلماء الفرنسيون أبعد الأثر في مستقبل مصر الثقافي والفكري ، إذ أصبحت مصر شديدة الاتصال بفرنسا والتأثر بها في هذين الميدانين ، سيتوجه اليها محمد علي ببعثاته ومطالبه من العلماء الاختصاصيين الذين يريدون ، وستزداد هذه الصلة على مر الأيام حتى يزول كل أثر للعداء بين فرنسا ومصر ، ويحل محل ذلك وئام وصلاح وعلاقة هي أشبه بعلاقة التلميذ للأستاذ ، بل ستشتمهم مصر في كل مناسبة بالميل لفرنسا والعمل لمصلحتها ، وسيشقى محمد علي بذلك كثيرا إذ لا زال بالمرستون يرميه بأنه صنعة الفرنسيين والعوبة في أيديهم ويعارضه في كل مشاريعه لأنه — أى بالمرستون — يعتقد أنه بذلك يقاوم فرنسا نفسها ، ولو أن فرنسا استمرت على حالها من القوة

العلاقة بين فرنسا
ومصر بعد الحملة

أثناء القرن التاسع عشر لأفادت مصر كثيراً من صداقة فرنسا ورعايتها ولكن هذه الأخيرة كانت شديدة الاضطراب حافلة بالمصاعب والنكبات بل هبطت أسهمها هبوطاً شديداً بعد سقوط نابليون ، وليت فرنسا كانت ترعى هذه العاطفة حق الرعاية وتتفطن إلى ما وراء هذا المركز الممتاز في مصر من كسب عظيم ، ولكنها لم تتأخر في أى لحظة من اللحظات عن أن تهوى يديها على رأس مصر مع الأعداء بل قبل الأعداء ، ولو أنها وقفت الى جانب مصر مرة واحدة فقط : سنة ١٨٤٠ مثلاً أو أثناء مشا كل ديون اسماعيل لكان لها من ذلك كل خير ، ولكنها لم تثبت على سياسة واحدة ازاء هذا البلد الذى كان يختصها بالحب ويواليها بالتقدير والاحترام والا كبار

سياسة فرنسا نحو
مصر

أصبحت مصر ميداناً خصباً للثقافة الفرنسية والعلم الفرنسى ، وأصبح الأدب الفرنسى أحب ألوان الآداب إلى المصريين وأقربها إلى نفوسهم ، وأصبح الفلاسفة الفرنسيون أئمة الفلسفة والفكر عند زعماء النهضة والثقافة فى مصر ، وقد بلغ من عمق هذا الأثر أن الانجليز لم يفلحوا فى محاربته والقضاء عليه على الرغم مما بذلوا من جهود منذ احتلالهم لمصر (أى بعد ذلك بنحو ثمانين سنة) فقد فرضوا اللغة الانجليزية فى المدارس وحاولوا أن يجعلوا من مصر هنداً أخرى ، فلم ينتج ذلك إلا أثر قليل ، إذ عادت الثقافة الفرنسية فاحتلت مكانها وغلبت على غيرها ، وهؤلاء أئمة الفكر فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين تغلب أكثرهم الثقافة الفرنسية واللاتينية . ولعل أهم هذه الآثار الثقافية هو القانون الفرنسى ، الذى وُسم القانون المصرى على غرارهِ بل نُقل عنه ، وبذلك كسبت فرنسا التراث التشريعى كسباً عوض عليها كل ما خسرتهُ فى ميدان الحرب والسياسة والمال فى مصر . وإذا علمنا أن المصريين كانوا إلى أمد قريب جداً يرون أن دراسة القانون

الثقافة الفرنسية
فى مصر

القانون الفرنسى

هي الدراسة الوحيدة الجديرة بالتقدير ، وحسب الانسان أن يكون محامياً أو قاضياً أو مستشاراً أو ما إلى ذلك حتى يكون قد بلغ من العلم منتهاه وغايته ، وإن ذلك كان يدفع بالكثير منهم إلى السفر إلى فرنسا لدراسة القانون فكانوا بذلك رسل الثقافة اللاتينية في مصر ودعاتها وأعلامها فأكلوا مافات الفرنسيين ، وبهذا سادت مصر الثقافة اللاتينية ، ولم يتفطن المصريون إلى الثقافة السكسونية (الألمانية والانجليزية) إلا منذ أمد قريب جداً .

وكسبت فرنسا إلى جانب ذلك كسباً اقتصادياً وافراً إذ أصبح للفرنسيين مقام ممتاز عند حكام مصر منذ محمد علي إلى اليوم ، فقالوا من الامتيازات والاحتكارات وحقوق الاستغلال ما لا تزال ترى آثاره في مصر إلى اليوم ، وقد كان الفرنسيون على عكس ما أراد المصريون ، إذ أظهروا جشعاً شديداً لم يجارهم فيه غيرهم ، وأصبح همهم خداع المصريين — حكومة وشعباً — والفوز بأكثر ما يمكن الفوز به ، ولا تزال تذكر موقفهم حيال مصالح مصر في مسألة قناة السويس وديون اسماعيل أو معارضتهم الشديدة في مسألة الامتيازات ، بحيث لا نخطئ إذا قلنا إن الفرنسيين أسلموا مصر للانجليز

وكان لفرنسا مثل هذا المقام الثقافي الممتاز في الشام ، كانت تتدبر بنشر العلم لتبعث البعوث التبشيرية الكاثوليكية ، وتتدبر بالكاثوليكية لزيادة سلطانها السياسي في الشام ، وكانت الحروب الصليبية قد خلفت في الشام أثراً عميقاً من الكاثوليكية ، فرحب نصارى الشام ببعوث الفرنسيين ومبشريهم وعلمائهم ، ومن ثم زكت الثقافة الفرنسية في الشام ولبنان على الخصوص ، وانتشرت اللغة الفرنسية ومال الأهليون إلى الفرنسيين ميلاً ظاهراً

على هذين العمادين القويين — مصر ولبنان — قامت الثقافة

الفرنسية في الشرق الاسلامى قوية العباد لا تكاد تغلبها ثقافة أخرى ،
وسادت اللغة الفرنسية وأقبل الناس على تعلمها حتى أصبحت — دون
غيرها من لغات أوروبا — رمز الثقافة الأوروبية وبرهانها الذى
لا يخطئ . . وفي مصر ولبنان كانت نهضة الفكر الشرقى و احياء العلوم
والآداب ، فغلب على العلوم والآداب لون ثقافى لاتينى قوى ملحوظ
الى يومنا هذا

وهذا — فى حسابنا — هو أعز آثار الحملة الفرنسية وأزكى ثمراتها
وهو فضل ليس بقليل .

ويهمنا أن نقف لحظة عند الآثار العلمية التى خلفتها هذه الحملة .
فهى فى ذاتها أحسن العوض عما أصاب الفرنسيين من فشل سياسى
أو حربى فى هذه الحملة

استقر جيش العلماء — الذى أشرنا اليه فى مصر — وبدأ العلماء
من أمثال كنتيه Conte ومنج Monge وليپر Lépre يوالون جهودهم
تحت اشراف نابليون ، ولكن ظروف الحملة فى سنتها الأولى لم تسمح
لهؤلاء العلماء بالعمل المنتج الصحيح . فلم ينشط الجمع وتنتج جهوده
إلا فى عهدى كليبر ومينو ففى ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٩ كون كليبر لجنة
كبيرة لتنظيم عمل الجمع ووزعت الأعمال على اللجان الآتية :

١ — للتشريع والدين والعادات ٦ — للتجارة والصناعة

٢ — للإدارة ٧ — للزراعة

٣ — لنظام الشرطة ٧ — للتاريخ الطبيعى

٤ — للتاريخ والحكومة ٩ — للآثار القديمة

٥ — للحالة العسكرية ١٠ — للنيل والفيضان

وبذلك بدأ هذا المعهد الجليل Instuti du Caire يوالى أعماله

وبحوثه في شتى نواحي الحياة المصرية ، فألقى أضواء ساطعة على هذه النواحي التي غشيتها الجهل ورائت عليها ظلمات القرون ، وكان الفرنسيون قد بدأوا ينظمون القاهرة ويزيلون سقوف طرقها ويوسعون طرقاتها فوصلت الشمس هذه الطرق والدور ووصلها النور الزكي فأخذت الحياة تتنفس في ربوعها ودب فيها ديب الحياة

ويهمنا من نتائج أعمال هؤلاء العلماء أمران سيكون لهما أبعاد الأثر في مستقبل مصر السياسي والاجتماعي في العصر الحديث

الأول : هو دراسة آثار مصر القديمة وكشف تاريخها ، « وأهم هذه الأبحاث ما قاموا به في دراسة الآثار القديمة في طيبة وأيدوس » وعين شمس « فوصفوا هذه الآثار وصفاً دقيقاً بقدر ما وصل اليه عليهم ونقلوا صورها بأيديهم » (١)

وأعقب ذلك كشف حجر رشيد على يد الضابط بوشار Bochard وحل رموزه بعد ذلك بعشرين سنة ، على يد العالم الشاب شامبليون Champolion ، فاستقامت بذلك سلسلة التاريخ متصلة الحلقات موصولة الفقرات ، وأزيح الستار عن مجد مصر الخالد القديم ، وعرف الناس لهذا الشعب المصري المجيد مقامه في سيرة الحضارة العالمية ، وأخذوا ينظرون اليه بالاكبار والاحلال ، بل بدأ بذلك عهد جديد لمصر والمصريين .



كانت القاهرة تختنق منذ بداية القرن السابع عشر ، كانت تسير نحو الخراب ويئدا ، وكان مقدرها لها أن لا تنجو من المصير السيئ الذي آلت اليه كل العواصم الاسلامية الكبرى التي تقدمتها كبغداد والقيروان ، ينحط أمرها ويهجرها أهلها ، ولا تغدو غير قرية صغيرة لا قيمة لها

(١) الاستاذ محمد رفعت « تاريخ مصر السياسي »

ولاحساب . وكانت — بحكم تأسيسها والظروف التي أحاطت بها — مدينة سيئة الحظ من يوم وضع أساسها جوهر ، كانت بمنأى عن النيل محتضنها الجبل ويردمها شيئا فشيئا بآثرته ورماله ، وتشرف عليها تلك القلعة التي لم يشرفها الله بجند مصر منذ قامت الى يومنا هذا ، والتي كانت طوال تاريخها حصن الغاصب وذل الرعية .

كانت أسوارها قوية محكمة البناء منذ جدد بناءها بدرا الجمالى وجلب أبوابها الضخمة من الرها ، فاصبحت كأنها أيد قوية تضغط عنق هذه المدينة فتموت شيئا فشيئا ، كانت الأحياء تموت وينتقل اليها الخراب ، كل عام ينقضى يحل اليوم محل الناس في ناحية ، وكلها أقبل حاكم جديد أو مملوك شارد حياها بطلب المال وفرض المغارم ، تؤديها له من دمها ولحمها : حتى أفلست متاجرها وأملق صناعها ولم يعد منها في مطالع القرن الثامن عشر ، إلا أشباح من الناس تترى على الأرض كأنها الآهوات ، تبذل العمر في جمع القوت لتدفعه ضريبة أو أتاوة أو فدية أو غرامة ، فلا غرامة أن رآها الفرنسيون عند ما أقبلوا قبرا مظلما يضم طوائف من الناس في أطمار هي أشبه بالأكفان ، وقد انتقل كل ما فيها من خير أو مال الى هذه الطغمة الظالمة من الأجلاف والعييد والأرقاء والجنود ، الذين يعد انتسابهم الى الجندية خطأ من الشرف العسكرى .

وكان لا يصلها بالحياة إلا شيئان ، ترعة صغيرة تشقها من شمالها الى جنوبها ، وخيال زائف من الأزهر : الأولى تصله بالنيل منبع حياة مصر ، والثانى يصلها بالاسلام والثقافة الاسلامية منبع العلم والاسلام في مصر منذ العصر الفاطمى .

وكان كلا الموردين — مورد الماء ومورد العلم — ضئيلا يؤذى أكثر مما يفيد ، خيالا من خيال ، يفيض الخليج بالأمراض والأوبئة ويفيض الأزهر بقشور من العلم هي أقرب الى الجهل .

اضمحلال مصر
من الناحية الزراعية

وكان النيل في هذه السنوات قاسيا شحيحا ، لا يكاد يحمل الماء سنة حتى ينذر بالقحط سنوات ، فبدأت الصحراء تغزو المزارع وأخذ خير البلاد يقل شيئا فشيئا ، حتى إذا كان أواخر القرن السابع عشر أصبحت مصر كلها ظلا نحيلا هزيلا ، لا يكاد أهله يقفون على أقدامهم ، ومن خلفهم الجلادون بالسياط ، ياخذون منهم أولا بأول ما عسى أن يجتمع لهم من أطراف الخير وقات النعم ، وفي وسطها تقوم القاهرة في اسوارها وخرابها كأنها شاهد على قبر عزيز

فقر المصريين

أبصر الناس عوارض جديدة تنذر بالتغير منذ زمن بعيد ، ولكنها كانت ضئيلة خاية لا تكاد تدرك في بادىء الأمر ، كان المصريون قد أفلسوا افلاسا تاما ، لم يعد في طاقتهم أن يدفعوا للمالك او الاتراك مليا واحدا ، وكان طريق التجارة الشرقية قد اوصد فانقطع عن الممالك ما كان يصلهم من الخير من هذا السيل ، فلم يجدوا الا الشعب يؤدى لهم ما يريدون طوعا أو كراهية ، حتى إذا بذل الناس كل ما عندهم ولم يعد لديهم ما يسد جوعهم فقد وصل الأمر الى نهاية المحتومة لا بد أن يكف الناس عن الدفع لأنه ليس لديهم ما يدفعونه ، ولا بد أن يفهم الممالك ذلك فياجأوا الى شيء آخر غير الارهاق ؛ الى الحيلة والمراضاة والالحاح في الطلب ، وعلى مر الأيام أخذوا يلبنون ويضعفون أمام الرعية ، فأخذت — أى الرعية — سبيلها الى النهوض والشعور بالنفس أولا . ، ويكون ذلك مقدمة النهضة الحديثة التي سنراها بعد قليل ولنتفطن قبل ذلك إلى أمر آخر كان له أبعد الأثر في تاريخ مصر فقد يذكر القارىء ما ذكرناه في الفصل السابق من أن قوام الحياة

والحضارة في بلاد الشرق الأدنى إنما هم عامة الناس المقيمون في بلدانه
أو المنتشرون في مزارعه ومراعيه ، وإن هؤلاء يحتفظون بما يصل اليهم
من ألوان الحضارات ويصقلونها ويهذبونها ويوافقون بينها وبين طبيعة
بلادهم ، وإن هؤلاء الناس مُرَزَّؤُون بين الحين والحين بهذه الغزوات
الهدامة التي يقوم بها البدو والآتراك ومن اليهم ، وانهم يظهرون بمظهرهم
الحقيقي اذا اضمحل أمر هؤلاء الغزاة وسكنت ريجهم . هناك يأخذ
أهل البلاد في الظهور ويبدأون نشاطهم العمراني الموروث . . هذه
الظاهرة تنطبق في تلك الفترة التي تتولى درسها الآن . أقبل الفرنسيون
فكان بينهم وبين الممالك صراع عنيف ، انتهى بانهزام الممالك
وخروجهم من مسرح السياسة المصرية ، فلا نعود نراهم إلا ضعافا
لا حول لهم ولا معين ، متفرقين في الصحارى أو في فيافي السودان .

ويشعر أهل مصر بذلك ويخف الضغط عنهم فيأخذون في النهوض
والظهور ، ويفريهم هدوء الحال — نوعا ما — بالعمل والنشاط ،
فتراهم يتقدمون على المسرح في خوف أول الأمر ، يوفقون حيناً ،
وينهزمون أحيانا ، يسودون الممالك يوما ويسودهم الممالك أياماً .
حتى يؤذن الله فيفيقوا ، فاذا الممالك قد انكسرت شوكتهم وتفرقوا
وقضى الله فيهم قضاءه الذي لن تقوم لهم بعده قائمة . هنالك يقفزون
الى الميدان في شيء من الثبات وحسن الاستعداد ويشاركون الفرنسيين
في ادارة شؤون البلاد ويحسنون القيام بنصيبهم من هذه الشركة ،
فتبدأ ارادتهم في الظهور وينبئون عن شيء يشبه الشعور القومي ،
ينفجر بالثورة من حين الى حين ، ويجاهدون الفرنسيين عن حقوقهم
جهادا شديدا ويسبون لهم من المتاعب شيئا كثيرا . ولكنهم يوفقون
الى التأثير في الفرنسيين فيجذبونهم جذبا شديدا ، حتى اننا لنجد
الفرنسيين يذعنون لهم حيناً ويتمردون عليهم أحيانا ولكنهم يعترفون

ظهور المصريين
على مسرح
السياسة

وجودهم وقوتهم في كثير من الأحيان .

بدء شعور المصريين
بأنفسهم

هنالك بدأت الحياة تدب في أهل هذا الوادي ، وكان لابد
لأنهاضهم أن يحال بينهم وبين الاتصال بالأتراك أو الاعتماد عليهم
لأن الاتصال بالأتراك والخضوع لهم يضعف الشخصية المصرية ويجعل
المصري تابعا مطيعا ، وهذا الاعتماد يميل به إلى الاستنامة عن حقوقه
والركون إلى الأتراك في كل ما يهم من الأمور ، ولعلك رأيت المصريين
لا يستحيون أن يقولوا للناس إن هذه الأرض — أي أرض مصر —
هي أرض السلطان لا أرضهم ؛ فكانت الحملة الفرنسية قطعاً لهذه الصلة
وقتل لهذا الاعتماد ، إذ حيل بين الأتراك والمصريين ثلاث سنوات
أو ما حولها . ولا نزاع في أن المصريين حنوا إلى الأتراك حينئذ متصلاً
طول هذا الزمان ، إذ كانوا يشعرون شعور الطفل القاصر الذي يخاف
الحياة وحده ولا يستريح إلا إذا كان إلى جانبه الوصي أو المربي ،
ولو كان كلاهما يؤذيه يشتد عليه . ثم كانت ثورة القاهرة الثانية قضاء
تاماً على ثقة المصريين بالأتراك لأنهم دفعوا بالمصريين إلى الثورة
وأشعلوا نيرانها ثم تركوهم وحدهم يصلون لحييها ويحملون أوزارها ،
وهذا هو السيد السادات يعبر عن شعور المصريين نحو الأتراك بعد
فشل هذه الثورة ، في الكتاب الذي كتبه لعثمان كتحدا الدولة يقول
له فيه : « ألزمت الغنى والفقير والكبير والصغير إطعام عسكركم الذي
أوقع بالمومنين الذل وبلغ في النهب غاية الغايات فكان جهادكم في
أما كن الموبقات والملاهي . أخفتم أهل البلد بعد أمنها ، وأشعلتم نار
الفتنة ثم فررتهم فرار الفيران من السنور » . (١)

يأس المصريين من
الأتراك

(١) الجبتي ج ٣ ص ١٠٨ حوادث شوال وذى القعدة ١٢١٤

والاستاذ شفيق غربال : الجزال يعقوب ، ص ١٦

فاذا خابت آمال المصريين في الأتراك ، ورأوا بعينهم مصارع
الممالك ، فعلى من يكون المعول وقد أحاطت بالبلاد الخطوب ومصر
عرفها كفار الأفرنج ولن يتركوها أبداً كما قال مراد بك

كان لا مفر من أن يعول المصريون على أنفسهم ، مكرهين لا طائعين ..
وقد أحس المصريون أن التبعة ملقاة على عواتقهم وأنهم مطالبون بأن
يعملوا دون خوف ، فليس لهم من الأعداء وقاية من تركي أو حماية من
ملوك وكان لابد أن يغير العلماء — وهم ألسنة الشعب — أسلوبهم في
العمل السياسي ؛ كان لابد أن يشعروا بالمسئولية فيأخذون بنصيب من
العمل أكثر مما قنعوا به فيما مضى ، وهذا تطور في التفكير بعيد الأثر
في مستقبل مصر السياسي في ذلك العهد وما يليه . لن يكتفى الشعب بعد
ذلك بالهياج والاحتجاج ثم الركون إلى الوعود أو الخوف من التهديد .
بل ستتصل جهوده و يعلن غير هباب سخطة على الحاكم ويطلب عزله
متأكداً من أن للرعية خلع الحاكم إذا أساء السيرة ، ولن يقنع
كذلك بالضجيج « والكرنكة » في الشوارع والحارات بل ستراه
يسير إلى القلعة ليرفع ظلامته فاذا لم تجب خلع الوالي التركي وأقام
مقامه والياً آخر يرضاه ويثق في عدله ؛ ولن يكتفى العلماء بالوساطة
بين الحاكم والمحكومين ، بل سسيّزعمون المحكومين ويخاطبون
الحاكمين بلهجة شديدة الجرأة بعيدة المعنى ، وهذا هو البعث الجديد
لمصر ، وهو سر هذه القوة التي بلغت في السنوات الأولى من القرن
التاسع عشر . وهو عماد محمد علي وسبب انتصاراته .

بدأ هذا الشعور يظهر ويتجلى حين تم جلاء الفرنسيين عن مصر
وتقررت رجعة الأتراك إليها فوجد المصريون أنفسهم مسوقين مرة
أخرى إلى السلطان التركي يعيد عليهم سلطانه ويذيقهم عذابه .

نشوء فكرة الاستقلال
عند المصريين

فروعوا من ذلك روعاً شديداً وبدأوا يتحدثون بالاستقلال وللمرة الأولى فكر جماعة من أبناء هذا الوادي في الاستقلال ووضعوا مشروعا لذلك ، ونظموا وفداً محترماً ، خف إلى إنجلترا وإلى فرنسا ليحقق استقلال البلاد .

فلما أدرك المصريون أن أمانهم في الاستقلال قد خابت ، وثبت لهم أنهم مسوقون على رغبتهم إلى طاعة السلطان تفرقت نفوسهم حشرات ، وتجلت لهم ويلات الحكم التركي ظاهرة بينه زادها الشعور بالنفس والوطن اتقاداً وقوة ، فبدأت شكواهم تعلو وأحسن التعبير عنها راوية هذه الأيام الشيخ الجليل الجبرتي .

العلماء في مصر
وازدیاد نفوذهم السياسي

من هنا بدأ المصريون يعملون للخلاص ، ويتلفتون بأعينهم إلى منفذ يخرج بهم من هذا الحظ العاثر الذي أراده لهم القدر ، كانت بلادهم قسمة ظالمة بين أوباش الأتراك وصعاليك المماليك ، وكانت مصر طعنة باردة لأذى هؤلاء ومظالم أولئك ، ولم يجدوا أمامهم إلا هذه الطائفة الطيبة من العلماء التي كانت تتولى قيادة الأمور وسياسة الشعب — في واقع الأمر — من أوائل القرن الثامن عشر ، فأولوها ثقتهم ومدوا لها العون ، فبدأت تنشط وتسعى وتأخذ سبيلها إلى الحياة وكان لسانها الناطق ورمزها الصادق ذلك العالم الجليل السيد عمر مكرم .

نابليون والعلماء

قال نابليون في مذكراته : « لكي نسوس هؤلاء الناس — أي المصريين — لابد من وسطاء يسعون بيننا وبينهم ، كان لابد أن نقيم عليهم رؤساء وإلا أقاموا رؤساءهم بأنفسهم ، وقد فضلت العلماء وفقهاء الشريعة لأنهم (أولاً) كانوا كذلك — أي رؤساء — بطبيعتهم (وثانياً) كانوا مفسري القرآن ، ومعروف أن أكبر العقبات أنها تنشأ عن أفكار

دينية ؛ (وثالثاً) لأن للعلماء خلقاً لنا ولأنهم — دون نزاع — أكثر أهل البلاد فضيلة ، لا يعرفون كيف يركبون حضائنا ولا قبل لهم بأى عمل حربى ، وقد أفدت منهم كثيراً واتخذت منهم سبيلاً للتفاهم مع الشعب ، وألفت منهم ديوان القضاء « (١) .

لم يخطئ القائد العظيم فيما ذهب إليه ، فقد كانت هذه هى صفات العلماء وقائدتهم للفرنسيين فى مصر ، بل كان نابليون مصيباً كل الصواب فى اختيار هذه الفئة لتوسط بينه وبين الشعب لأنها كانت تتزعمه وتتولى شئونه كما قلنا ، وكانت لسانه الناطق الذى يعبر عن شكواه الشعب واحتجاجه وسخطه ، ويملى أوامره على المماليك فيطيعون . وهذا الوصف ينطبق على البارزين من رجال مصر فى هذه الأيام كالمهدى والصابى والسادات والأمير والفيومى ، ومن يقترب منهم من كبار المصريين والتجار كالسيد أحمد المحروقى الذى أوجز مراد بك وصفه حينما قال له « مثلك من يخدم الملوك » .

ولكنه لم يحسب حساب السيد عمر مكرم فى هذا الحديث ، ولو قد ذكره لرأى فيه لونا آخر من العلماء لا يتصف باللين ولا الاستسلام وإنما بشئ تستطيع أن تسميه وطنية ، وبالشعور بالكرامة الاسلامية ولعله أغفل ذكر هذا الرجل لأنه — أى عمر مكرم (٢) — كان طوال العصر الفرنسى شريداً أو معتكفاً ، وكان هدفاً للكثير من المظالم التى لم يعلنها عليه الفرنسيون وحدهم بل زملاؤه

عمر مكرم

(١) Napoléon: Campagne d'Egypte, Vol II. pp. 151 sq.

Correspondance, de Napoléon Vol, XXX. pp. 83-84.

مترجمة عن النص الوارد برسالة الاستاذ غربال : الجنرال يعقوب ، هامش ص ٩

(٢) « والظاهر أن السيد عمر كان على جانب من علو الهمة وقوة الشخصية ، بعنه للعمل

على النفوذ السياسى »

الاستاذ غربال : الجنرال يعقوب ، ص ١٥

العلماء الذى سرهم ابتعاده عن الميدان فعاونوا على اقصائه ليفوزوا
بمكانه وينعموا بمنزلته .

منشؤه

السيد عمر مكرم شريف يتصل نسبه بالامام على كرم الله وجهه ،
ولدى أسيرط وفيها نشأ وتعلم ، ولانعلم كيف ارتقى إلى نقابة الاشراف
ولكننا نفهم من بلوغه هذا المنصب أنه كان واسع المواهب عظيم
الاقدار ، ويؤكد لنا ذلك أن الفرنسيين حين أقبلوا وجدوا عمر
شخصية كبيرة يحسب لها حسابها .

- فى عمر مكرم تمثل الوطنية الاسلامية التى فصلنا أمرها فى الفصل
السابق ، أى أن عاطفته الاسلامية حفزته إلى مناهضة الفرنسيين
والسعى لإخراجهم من مصر . تمثلت الحملة الفرنسية فى خاطره
اعتداء من النصرانية على الاسلام ، فكانت قيادته للناس استنفاراً لهم
للجهاد الدينى وإثارة لعواطفهم الاسلامية ، وهذا ما ينبغى أن تتفطن
إليه فى قيادة هذا الشيخ للحركة المصرية فى ذلك الزمن ، فكان
إذا أراد إلهاب عواطف الناس لأمر من الأمور لجأ إلى الشعور
الدينى فأثارة « وصعد إلى القلعة فأزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة البيرق
النبوى ، فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق ، وأمامه ألوف العامة »
وهذا هو استنفار الناس للجهاد الدينى ودعاؤهم إلى رد الكفار . فلم
يكن العلم الذى حمله علم مصر وإنما علم الاسلام وهو البيرق النبوى الذى
ينبغى أن يهتم المسلمون للدفاع عنه مصريين كانوا أو غير مصريين .

وطنية عمر مكرم

ذلك تحليل شعور عمر مكرم - فيما نرى - ولا صحة لما يبالغ البعض
من وصفه به من وطنية صادقة وشعور قومى صحيح ، إنما سيتطور
شعور عمر مع الأيام نحو هذه الغاية ولكنه لا يصل إليها فى صورة
صافية خالصة . ولكى يصبح عمر كذلك « كان لابد من أن يحال بين
الناس وبين دعوات الجامعة الاسلامية » كما يقول الأستاذ غربال لأن

الوطنية الاسلامية كما ذكرنا — شئ آخر غير الوطنية القومية ، أنهما ، يتعارضان تمام التعارض وقيام إحداهما بتبني وجود الأخرى . . . الوطنية الاسلامية تباعد ما بين الانسان ووطنه وتزهده فيه وتوجه مشاعره وحبه وعواطفه نحو شئ واحد جدير بالحب والحماية والتضحية ، هو الاسلام والدولة الاسلامية . لو تعارضت مصلحة السلطان مع صالح مصر فلتضح مصلحة مصر ولتحقق غاية السلطان . وإذا سأل نلسن أهل الاسكندرية عن بلد هم أجابوا « تلك أرض السلطان » لا أرضهم ، انهم يعيشون عليها فقط . بذلك المعنى الذى أرادته العربى عند ما سئل عن ماله فقال « إنه لله فى يدي » .

استنفر عمر الناس للجهاد والدفاع وتزعم المصريين الذين ظاهروا الممالك على الفرنسيين ساعة دخولهم مصر فاتحين ، وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه ، إذ نسي المصريون مساومات الممالك ووقفوا إلى جانبهم ، لأنهم مسلمون مثلهم يحاربون كفارا .

فاذا انهزم الممالك ووجد عمر أنه مساق على رغبه إلى الخضوع للفرنسيين أبت عليه كرامته الاسلامية أن يقبل هذا الهوان ، فآثر الهجرة وأزمع الرحيل ، وأحب الفرنسيون أن يحببوا اليه الإقامة فاختروه عضوا فى الديوان الاول ، فأبى وشد رحاله إلى الشام وهناك بقى حتى أدركه الفرنسيون فى حملتهم على الشام . فقابلته نابليون فى يافا ، وكبر فيه عاطفته المشبوبة ورأسه المرفوع ، وأمر بارجاعه إلى مصر فأعيد معززا مكرما ، واعتزل فى بيته واعتكف عن الفرنسيين لم يجد لهم يدا ولم يل لهم أمرا .

فى هذا المعتزل ، لابد أن عمر قد أطال التفكير فى أمر البلاد ، وتأمل هؤلاء الفرنسيين ودقق النظر فى أمورهم ، ولا شك أن هذا التفكير أثار فى نفسه بعض الخواطر الجديدة . لا شك أنه

تساءل عن هذا « الجمهور الفرنسي » الذي يطيعه القادة ويفنى في سبيله الأفراد ، ولا شك أنه فهم أن هذا « الجمهور » هو الرعية نفسها ، وأدرك أن لاضير على الرعية إذا حكمت نفسها بنفسها مادام فيها القادرون على ذلك ، ومادامت تحس أن «حكامها» لا يحسنون ولا ية أمورهم لا شك في أن أمثال هذه الخواطر طرقت فكر الشيخ الجليل وخلفت فيه بعض الأثر ، ولا شك في أن هذه الأفكار الجديدة صادفت من نفسه هوى فأخذ يترها ويوزن الأمور بمقتضاها ، يقول هذا والحوادث مصداقنا في قوله ، فنشاط عمر مكرم قبل الحملة الفرنسية يختلف كل الاختلاف عن نشاطه بعدها ، وآراؤه واتجاهاته تختلف في الحالتين اختلاف النقيض عن النقيض

نشاط عمر مكرم قبل
الحملة الفرنسية

فعمر مكرم قبل قدوم الفرنسيين صديق مخلص لابراهيم ومراد : يسفر لهما لدى الحكومة العثمانية ، ويسعى في إقامة سلطانهما ، وينغض عن مساوئهما بل يتصدى للدفاع عنهما ، ولم يكن ذلك لاشتراكه في آثامهما أو لمساهمتهم معهما فيما كانا ينزلانه بالناس . بل لأن مقاييس الحكم وقواعد الحياة العامة في عصره لم تكن لتبيح له الثورة على هذين الطاغيتين رغم كل مساوئهما ، إنما سيفكر عمر في الثورة على الحكم حين يعرف مقاييس جديدة وقواعد أخرى حديثة .

نشاط عمر بعد
خروج الفرنسيين

وعمر بعد خروج الفرنسيين رجل يفكر تفكيراً جديداً جداً : يتحدث عن حق الرعية في عزل حاكمها إذا أساء السيرة فيها ويفسر الآيات القرآنية — التي كانت تعتبر دستور الحكم في هذه الأيام — تفسيراً جديداً : فأولو الأمر الذين يجب طاعتهم هم « العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل » : السلطان العادل فقط لابراهيم ولا مراد ومن شاكلهما من العقاة والطواغيت ، وأصبح يجد الثورة واجبة على الحكم إذا هم « خرجوا على الحق وثاروا على القانون » وهذه آراء إن لم تكن جديدة الجدة كلها على التفكير الاسلامي السياسي فهي — بشهادة

الحوادث — جديدة كل الجدة على تفكير عمر وأسلوبه في النشاط السياسي .

تطور تفكير عمر
ويمكننا أن نلاحظ هذا التطور في تفكير عمر إذا تأملنا أعماله من دخول الفرنسيين إلى رحيلهم . فحينما دخل هؤلاء البلاد ولى عمر هارباً في ركاب المملوك إبراهيم : ولى وترك البلاد تنعى من بناها ، ولو قد كان تركه والبلاد بدافع السعى لدى الأتراك في التعجيل بارسال القوات لآخراج الفرنسيين منها لما أقام في يافا بل لاتجه إلى القسطنطينية وظهر له جهد هناك . ولكنه اطمأن في يافا فأقام فيها لا يبدل في انقاذ البلاد جهداً ولا يبدى ما يبدل على أن ذلك الأمر كان في همه ، بل لو طلب من مبارحة البلاد أمراً آخر غير الفرار لآثر الذهاب مع شعبه المدافعين عنها : شعبة مراد التي اتجهت إلى الوجه القبلي وأخذت تناجز الفرنسيين

عودة عمر
وانزوائه
أقام الرجل في يافا فأخذ الاطمئنان يسرى إلى نفسه من ناحية الفرنسيين ، إذ رأهم يوقرون العلماء ولا يأخذون أحداً بوقية ، فالت نفسه إلى العودة ، ولم يلبث أن عاد بعد دخول نابليون يافا ، عاد ليقبع في عقرداره لا يعترض ولا يتصدى للدفاع على كثرة دواعي الاحتجاج في هذه الأيام

عمر في ثورة
القاهرة العثمانية
ولم يرفع عمر صوته بالشكوى إلا بعد أن رفعها العامة ولم يبق في القاهرة أحداً لم يجرؤ عليها : وذلك في مارس سنة ١٨٠٠ (شوال ١٢١٤هـ) أى بعد أن اطمأن إلى أن نجدة الأتراك على الأبواب وأن خيل المماليك تطوى أرض الصعيد إلى القاهرة . بل لم يقم على هذه الثورة ، ولم ينهض بما كانت تتطلبه منه زعامته لها في مثل هذه الظروف ، إذ أسرع بالفرار حين قضى الفرنسيون على الثورة ودخلوا القاهرة ولكن الواقع أن فكره كان يتطور هذه الأيام ، كانت المدة التي أقامها في

مصر كافية لتمكّنه من تأمل هؤلاء الفرنسيين وتلمس محاسنهم ، وكان اشتراكه في ثورة القاهرة قد فتح أمامه الآمال في الزعامة والعمل وكان الفرنسيون لا يكفون هذه الأيام عن التحدث الى المصريين واذاعه آرائهم بين جمهورهم لاستثارة غضبهم على الاتراك والمماليك ، فلا نزاع في أن بعض المصريين قد تروى هذه الآراء وتأثر بها وكيف يقال ان أذكاء المصريين لم يتأثروا من قول الفرنسيين يخاطبون المصريين : «وقولوا لهم أيضا إن جميع الناس متساوون عند الله ، وإن الذي

الفرنسيون يذيعون
آرائهم بين المصريين

يميز بعضهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم ، وأى شيء في المماليك يميزهم عن غيرهم ويستوجب أن يملكوا مصر وخدمهم ، فحيثما تكون أرض مخصبة فهي للمماليك ، ومثل ذلك أحسن الجوارى وأكرم الخيل وأجمل المساكن . فإن كانت الأرض المصرية الزاماً للمماليك فليظهروا لنا الحجة التي كتبها الله لهم^(١) ... نعم بأى حق ينفرد هؤلاء المماليك بأرض مصر وخدمهم ؟ أين الوثيقة التي تثبت هذه الملكية ؟ بل أين الوثيقة التي يملك بها السلطان أرض مصر ، لماذا يختص نفسه بالحكم والخير ومن دونه رعية تعيش في الأطمار وتأكل القفار .. ألا يكون هذا السلطان غاصباً ظالماً .. ألا يكون مستبدّاً سيئ التدبير جديراً بأن يثب الناس به ويعلموا عليه العصيان ؟

لأنستبعد أن يكون عمر قد بدأ يفكر على هذا الأسلوب ، فتصرفاته بعد ذلك تدل على أن تطوراً شاملاً قد مس جوانب تفكيره ووجهه وجهة جديدة : فبعد أن كان عاملاً من عمال الطواغيت أصبح عدواً لهم ، وبعد أن كان من طبقة الحاكمين نزل إلى الميدان وخالط الناس ونصرهم على الحاكمين ، بل لا مغالاة في القول بأن هذا التطور كان قد أخذ يغزو أذهان غيره من المصريين ويفتح عيونهم : فهذا هو الجبرتي يصور لنا يأس المصريين من الاتراك والمماليك واحتقارهم لهم

تأثر عمر بهذه
الأفكار

(١) من منشور نابليون للمصريين .

وإعجابهم ببعض ما رأوا من امتياز الفرنسيين في السياسة والحرب
وقد كان عمر حين دخول الفرنسيين يوقر المماليك لأنه كان
يحسبهم حماة الاسلام وفرسانه : كان يحسب مرادا وإبراهيم من طراز
بيبرس وقلاوون والناصر الذين سجلت الحوليات الصليبية لهم مجد
الدفاع عن الاسلام ، ولهذا كان لا يأنف من خدمتهم اقتداء منه
بأمثاله من العلماء كعيسى الهكاري وعز الدين بن عبد السلام والقاضي
الفاضل وتاج الدين بن بنت الأعز وابن دقيق العيد وغيرهم من أقطاب
العلماء في دولتي الأيوبيين والمماليك ، ولكن حوادث الأيام أخلفت
ظنه وأثبتت له أن ممالك أيامه لا يشبهون المماليك الأول في شيء : فهم
جبناء عتاة ظالمون لا يثبتون للفرنسيين ولا يكلفون أنفسهم عناء الدفاع
عن المسلمين أمام النصارى : بل إن مرادا لم يأنف من التفاهم مع الفرنسيين
وحكومة الصعيد بأسمهم ، فبتس عمر من المماليك وأنف أن يمضي على
العمل في خدمتهم ، ورأى بعينه بؤس المصري الذي تحمل مساءاتهم
فيما انقضى من الأعوام ثم لم يجد منهم حاميا ، فبدأ - أي عمر - يحس
العطف على مواطنيه ويرق لهم ، وزاده رقة ما وجد من اجتهادهم في
مدافعة الفرنسيين أثناء ثورة القاهرة ، وما أولوه من الثقة أثناءها ، فوقر في
نفسه أن يتصدى للدفاع عن هؤلاء الضحايا الذين لا يجدون انصافا من
أحد . ومن ذلك الحين بدأ يتجه وجهة جديدة بتأثير الأفسكار الجديدة .
وبديهي أن يقال إن عمر كان قد يشك كذلك من أصحابه
العلماء الذين رضيت لهم ضمائرهم خدمة الغاصب الكافر
فأسرفوا في الخضوع له إلى حد كاد يمس شرفهم ، وماذا
يكون هؤلاء العلماء - الذين يتهزون فرصة فرار صاحبهم
«عمر» لينقضوا على ما خلفه كالضباع الكاسرة - إلا طغمة

تغير عمر على
المماليك

عمر يحس آلام
مواطنيه

يأسه من العلماء

باغية لا تقل شراً عن الممالك ولا تكاد تقتدر على رفع راية الاصلاح
واعلاء كلمته (١)

لا بد أن التفكير قد انتهى به الى اليأس من صلاح هذه الهيآت
الثلاثة التي كانت عماد السياسة المصرية في ذلك الوقت في نظر المصريين
على الأقل . لا بد أنه رجا للبلاد خلاصاً من أيديهم ونجاة من شرهم .
هنا بدأ الرجل يفكر في شيء من الجذ في حل للمسألة ، وكان
بطبيعة مركزه وبما ركب في نفسه من الشهامة والوطنية مضطراً الى
أن يطيل التفكير في هذا الأمر حتى يجد مخرجاً من هذا الحرج الذي
انساق اليه البلاد في هذه الفوضى الصارخة التي استمرت من
خروج الحملة الفرنسية الى ولاية محمد علي . وكان انزواءه عن ميدان
السياسة ترفعا منه عن أن يتعامل مع الفرنسيين ، وكان — بلا ريب
— ينتظر الفرصة المواتية حتى يعود الى العمل لينفذ هذه الفكرة التي
خطرت بباله والتي رجا أن يكون للبلاد مخلصاً من الأذى عن سبيلها .
على أن عاطفته الاسلامية كانت أغلب على رأيه من عقله ، وكان
يفضل الأتراك . إذا كانت المسألة مفاضلة بينهم وبين الفرنسيين ،
وهذا طبعي جدا من شيخ أزهرى لاني هذه الأيام وحدها بل في كل
زمان ، فلا يصح أن نستتج من حماسه لعودة الأتراك أيام كليبر
واشتراكه في ثورة القاهرة الثانية أنه كان محباً للأتراك مخلصاً لهم ،
وانما الحقيقة ما أسلفنا ، وهي أنه كان ساخطاً عليهم برما بهم يود
مخلصاً لو خرجت البلاد عن أيديهم ، ولكنه كان يفضلهم على الفرنسيين
على أي حال وبهذا وحده نستطيع أن نعلل مظهرته للأتراك في
ثورة أغسطس سنة ١٧٩٩ .

لماذا اشترك عمر
في ثورة القاهرة
الثانية

(١) اقرأ وصف ما حصل من الفاسد أثناء هذه الفترة ، ومشاركة نفر من المصريين وأعيانهم

للفرنسيين في ذلك في الجبرني : ج ٣ ص ٤٦ ، ٤٧ ، ١٧٠ ، ١٧١

تطور شعور عمر
الى عاطفة وطنية

لا شك أن الرجل بدأ يميل يوماً فيوماً إلى الجمهور المصري ،
ولا نزاع في أنه أحس بالآم هؤلاء المساكين الذين يعود عليهم
كل ضرر ويحفلون بكل بلاء . ولا نصيب لهم في خير أو غم . كان الرجل
أسيوطياً أي مصرياً ، وكان شريفاً فاضلاً صادق العاطفة لا يسعى
لمنفعة ولا يرجو نوالاً وإنما كان يفكر تفكير كل مصري في هذه
الأيام ، وهذا هو الجبرتي يعلن آراء المصريين في هذه الفترة ويعبر
عن ميولهم في صراحة لا تحتل الجدل أو التأويل وهي لا تخرج عما
ذهبنا إليه في تحليل تفكير عمر . فما يمنعنا من القول بأن هذه نفسها كانت
آراء عمر مكرم ، وأنها كانت أحلامه وأمانيه التي ستكون برنامجاً سياسياً
في مقلب الأيام .

وكانت الظروف نفسها تسمح بهذا التفكير بل تغذي الأمل في
شيء من هذا القليل ، كانت كل القوى المسيطرة على السياسة المصرية
في هذه الفترة قد انتهت إلى الضعف ، بحيث لا يرجى من إحداها أن
تغلب الأخريات وينتهي إليها النصر في آخر الأمر .

كانت القاهرة في هذه السنوات (١٨٠٠ — ١٨٠٥) كالرجل
المضطرب ، يشتد فيها النزاع والصراع بين القوى المختلفة التي كانت
تحاول كل منها — عبثاً — أن تصل إلى الزعامة آخر الأمر .

تمازج البقايا في مصر

كان الباشا التركي يدعى السيادة على كل شيء ، ولكن دولته
كانت تخذله ، لم تكن تمده بالجند اللازمين للسيطرة على الحال ، وإذا
أرسلت جنداً لم تمده بما يلزم من المال لدفع أعطياتهم ، فإذا تأخرت
الأعطيات ثاروا به وعزلوه أو قتلوه . حدث هذا مراراً في هذه
الفترة مما انتهى بالباشا التركي إلى أن يصبح عاجزاً تمام العجز عن تنفيذ
ما يريد بل عن التأثير في مجرى الحوادث ، ذلك أنه هبط بسمعته
ومقامه وجعله في حال هي أسوأ مما كان عليه المماليك .

الوالي التركي

وكان الجند الأتراك الذين اختارتهم الدولة لمصر هذه الأيام شيئاً آخر غير الجنود ، سمهم لصوصاً ، سمهم قطاع طرق ، سمهم شحاذين ، قل إنهم مجانين (دلالة) ولا تقل إنهم كانوا جنوداً ، فلم يكونوا يشبهون الجنود في شيء . يصورهم لنا الجبرقى تصويراً دقيقاً وافيّاً ، ويذكر لنا طرفاً من أفعالهم ويعدد لنا مساوئهم ويصف لنا حال القاهرة وأهلها معهم فلا نملك أنفسنا من الاشتعاز من هذه الحال السيئة التي لا مزيد عليها .

كان جنود الوالى فريقين الانكشارية وهم القوة الرسمية ، ثم الأمداد التي كانت ترسل كاللبنانيين والدلاء ، وكان على رأس اللبنانيين قواد كثيرون أشهرهم طاهر باشا ومحمد على ، وكان هذا الأخير يرقب الأمور في هدوء وحذر ، وينتظر الفرصة المواتية ليفعل شيئاً ، كان الجند عامة في ثورة دائمة واضطراب لا ينقضى ، لأن رواتبهم لا تدفع ، وكانوا لا يجدون سبيلاً يحصلون منه على ما يريدون إلا ارهاق المصريين وابتزاز أموالهم ، كان أحدهم يجلس على باب المتجر ويفرض على صاحبه ضريبة ثقيلة جداً ، هي مقاسمته الربح كما لو كان شريكاً له في رأس المال ، وكان التاجر من جهته مضطراً لقبول ذلك . وإلا أصبح محله عرضة لأي جندي تركي يمر به ويستحل ما لديه .

فإذا ازداد الطلب على الوالى كان بين أمرين : إما فرض ضريبة جديدة ، فيثور المصريون ، أو رفض الدفع فيثور الجنود ، وبين هاتين الثورتين ضائع مقام الوالى التركي وضعف أمره ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الولاة الذين اختارتهم الدولة كانوا من نوع سيء جداً ، لا خبرة لهم ولا أخلاق ولا حزم ، استطعنا أن نكون فكرة كاملة عن الأتراك كعامل من العوامل المؤثرة في السياسة المصرية .

أما المماليك فكانوا — بعد حربهم الطويلة مع الفرنسيين — قد

بلغوا مبلغاً من الضعف لا ترجى لهم معه قائمة ، وأصبحوا فئة من المشاغبين ، المتآمرين المشردين الذين لا يجدون لهم مكاناً في البلاد ، فتارة هم في البحيرة ، وأخرى في الصعيد ، لا ينفك الوالى التركى يمكر بهم ويحاول الايقاع بهم فى سلسلة طويلة من المؤامرات نجوا من كثير منها ولكنها أضعفتهم على كل حال ، مؤامرات تركية ، لو استقام هذا التعبير تقوم على دعوتهم إلى وليمة فى منزل أو سفينة ، ثم تصوب اليهم البنادق ويقتلون مقتلة تثير الاشمزاز .

وأزاء هذا رحبوا بالتعاون مع أى حليف ، وصاروا يميلون ميلاً شديداً إلى الانجليز والفرنسيين ، لم تكن لهم سياسة مقررة ثابتة إنما كانوا يلتمسون العون من أى سبيل ، مالوا أول الامر إلى الانجليز ، ورحب بهم هؤلاء وناصروهم علانية وتولوا حمايتهم من كثير مما أريد بهم ك تدخل الجنرال هتشنسون وطلبه أن يطلق سراح من بقى حياً من المماليك ، وأن تسلم جثث الذين قتلوا عند ما بلغه خبر المؤامرة التى دبرها القبطان حسين باشا للقضاء عليهم فى أوائل اكتوبر سنة ١٨٠١ . وكانت الصداقة معقودة فى أغلب هذه الأيام بين الانجليز والمماليك ، كان الأولون يرون فيهم خصوما طبيعيين للفرنسيين ، فمحالفتهم عدااء للسياسة الفرنسية ، ولا نحسب أن الانجليز كانوا يفكرون فى هذه الأيام فى احتلال مصر أو الاستيلاء عليها ، ليس هناك دليل واحد يثبت هذا ، وقد عرض الأستاذ شفيق غربال فى كتابه « نشأة المسألة المصرية » مئات الرسائل الخاصة والمذكرات التى كان يكتبها سفراء انجلترا وقناصلها وليس فى واحدة منها فكرة من هذا القبيل ، إنما كانت انجلترا تريد أن تبعد فرنسا عن مصر ، لأن هذا جانب من سياستها التى أشرنا اليها وهى المحافظة على الدولة العثمانية الضعيفة فى شرق البحر الابيض المتوسط .

ميل المماليك للانجليز

هل كانت انجلترا تريد احتلال مصر فى هذه الأيام

ولكن الممالك كانوا قد وصلوا في هذه الأيام إلى درجة من
الانحطاط المعنوي استحال معها الاعتماد عليهم أو التعويل على
عهدهم ، كانت الدنيا قد اسودت في وجوههم واصطلحت عليهم
الأحداث وكسرت الحملة الفرنسية شرفهم فلم يعد لهم من الحول ولا
المركز ما كان فيما مضى ، وانما أصبح راريشة في مهب الرياح ، لا يكاد
يتوحد اليهم أحد ويعرض عليهم صداقته حتى يستجيبيوا له ، لأن شعورهم
بالضعف كان بالغاً ، فسهل على السياسة الفرنسية أن تجذبهم لصفها في
كثير من الأحيان كما حدث في الأيام الأولى لوصول المسيو « لسبس »
مرسلاً إلى مصر من قبل الحكومة الفرنسية في أغسطس سنة ١٨٠٣ .
إذ جرت بينه وبين ابراهيم بك مقابلة أسف فيها البك أسفاً بالغاً
لجهل الممالك إذ قاوموا الحملة الفرنسية ، لأن معاملاتهم مع الانجليز
والأتراك قد فتحت أعينهم ، وهم الآن مستعدون لإنجاز كل
ما يريده منهم نابليون « ان له أن يأمر وعليهم الطاعة فيفتحوا الشام
وينزلوا له عن مصر ، أو يبقوا في القاهرة ويصبحوا من رعايا
السلطان المخلصين أو يتركون هذا كله ويقنعون بالنفي في
الصعيد » (١) واستقبلوه استقبالا حافلا عند وصوله الى القاهرة حتى
« أحس مندوب انجلترا أن في الأمر مؤامرة مدبرة لتسليم مصر
لفرنسا ، كانت القرائن كلها تدل على ذلك . وبهذا تنبى المشاهدات
الخاصة والعامة ، وإن استقبال دلسبس هذا الاستقبال الحافل ، ومجيئه
إلى مصر على عجل تاركا عائلته وراءه ثم اظهاره خدمة في لباس فرنسي
لينذر بيده التنفيذ » فلم يكذب المندوب الانجليزي — مسّت —
« أن أسرع إلى البرديسي فتحدث إليه في الأمر ، وحاول أن يتجنب

مظاهرة ملوكية
للفرنسيين

إلى أسوأ أحلاف فرنسا سمعة ، ولكن هذا التجب لم يكن كافياً .
كان لابد أن يقدم للبرديسي شيئاً أقيم من النصح . (١)

فقر الممالك

وهذا الشيء الذي كان الممالك بحاجة إليه هو المال ، كانت كثرة
المصائب وتواتر الحروب واجتماع الأعداء قد انتهت بهم إلى الحاجة
الشديدة والعوز البالغ ، وأصبح المال اغراماً مؤثراً في نفوسهم .. ولم
يلبث مسّت . أن فهم هذا ، فأنشأ يوزع المال وينثر الرشى فعاد الممالك
إليه ، فأسخط هذا مندوب فرنسا ، وأراد أن يقلد خصمه ولكن أين
له المال وحكومة الجمهورية مفلسة لا تستطيع أن تمده بالمال اللازم
لهذا الأمر ، فلم يجد أمامه إلا الخمر يقدمها للممالك ليكسب ودهم ! ..
كانت الخمر تدخل البلاد باسمه معفاة من الضرائب وكانت رخيصة الثمن
لا تكلف الحكومة شيئاً كثيراً فاسرف دلسيس في استعمالها ولم يستح
أن يجعل في داره حائلاً كما قال مسّت ، وهناك يتردد عليه الممالك
فيحاول أن يكسب ودهم ويعيدهم إلى حسن الظن به وبفرنسا ، ولكنه
لم يفلح وانتهى به الأمر أخيراً إلى اليأس من الممالك والاحتقار
للبرديسي فوصفه بقوله : مشاغب جشع وعملوك ظالم . (٢)

عثمان بك البرديسي

وكان البرديسي غير مرتاح لهذه المناورات ، كان الجو قد خلا
له بسفر الألفي إلى لندن وكان يريد أن يقوم بنفسه بكل تفاهم أو
تحالف نائباً عن الممالك ، ويظهر أن دلسيس كان يحاول الاتصال
بممالك آخرين ، فلم يلبث أن سخط عليهم وبأدأهم العداء فأعلن
صراحة رأيه في الفرنسيين قائلاً : لقد جردتمونا وطرديمونا .. وهذا
(أى موقف الخداع والعداء) وهو شكرنا لكم ... (٣)

(١) نفس المصدر ص ٢١٥

(٢) من خطاب من دلسيس إلى تاليران — عن نشأة المسألة المصرية ، ص ٢١٦

(٣) نفس المصدر والمضفة

هكذا فشل دلسبس ووجد نفسه في موقف حرج وسأل في حيرة
« إلى أي النواحي يستطيع مندوب دولة أن ينحاز في وسط تلك المذاهب
المتطرفة » ، بل إن اليأس بلغ به حدا لم يطق معه الإقامة في مصر
فألح على الحكومة بعد شهرين أن تنقله منها .

تقام الحالة
في القاهرة

وليت الممالك صدقوا في ودهم للانجليز . كان انتصار مندوب
انجلترا خدعة فقط ، إذ اعترف البرديسي بأنه كان يكرهه ، وتخرج مركز
مست هو الآخر بل مركز الأجانب جميعا ، وأيقنوا أن لا أمل
لهم في نفوذ سياسي وسط ذلك الخصم المضطرب ، وانسحبوا شيئا
فشيئا ، ولم يبق في الميدان غير البرديسي ، بل اعترف مندوب فرنسا بأنهم
لا يطلبون النفوذ السياسي وإنما الأمان ، وتسرب الخوف الى قلب
مست نفسه وتحدث في بعض رسائله بأنه لا بد مهدد بالمقاومة
المسلحة في حالة اقتحام منزله بالقوة ، واعترف بأن الواجب وحده هو
الذي يضطره إلى قبول مثل هذه المعاملة المهينة .

في هذه الظروف العصيبة كان لا بد من رجل يخرج بالبلاد من
هذه الفوضى الضاربة ، وذلك قانون من قوانين التواريخ التي تصدق
في كثير من الأحيان : كل فوضى سياسية وحروب أهلية تنتهي آخر الأمر
الى ظهور رجل قوى يسيطر على الحال ويعيد الهدوء ويعلن الدكتاتورية .
هكذا ظهر قيصر من فوضى الحرب الأهلية بين الأحزاب في روما ،
ونابليون من فوضى الثورة في فرنسا ، وصالح الدين من فوضى الاسلام قبيل
الحروب الصليبية ، ومحمد علي من هذا المرجل الفوار الثائر الذي وصفناه .
في سنة ١٨٠٣ أبدى الكولونل ويلسن دهشته من عدم وجود
مخاطر قوى موهوب طموح ليقود فرقة من الجنود ويقاوم الممالك (١)

الظروف تستدعي
ظهور رجل قوى

(١) Wilson : History of the British Expedition, p. 243

عن نشأة المسألة المصرية ، ص ٢١٠

الاجانب يتوصون
ظهور رجل قوى

وكتب أمريكى كان فى القاهرة سنة ١٨٠٤ يقول « إن مصر من غير رئيس ، ولا بد لها من رئيس جديد ، وأول متقدم سيقابل بالترحيب » (١) والواقع كما يقول الأستاذ غربال « أنه لم يكن هناك مخرج الا باحتلال أجنبى أو ظهور مخاطر على المسرح واستيلائه على السلطة . كان المماليك بأعدادهم القليلة عاجزين تماما عن استرداد ما كان لهم من مقام وعن طرد الأتراك ، ولم يكن فى استطاعتهم أن يجلبوا جنودا جددا من الشرق ، لأن الباب العالى قد حرم إدخال الصبيان إلى مصر . (٢)

لم يخطئ هؤلاء الاجانب فيما ذهبوا إليه ، وكان لابد أن يظهر « البطل » وكانوا على حق فى تساؤلهم لأنهم لم يكونوا يدركون هذا التطور الهادى الذى تناول المصريين وأخذ يعدم شيئاً فشيئاً لليوم الموعود ، وكانوا يجهلون بطبيعة الحال ما انتهى اليه الشيخ الجليل عمر مكرم وهو فى معتزله يتأمل الأحوال ويرقب الحوادث ، ولم يكن عندهم نبأ بأثر ثورة القاهرة الثانية فى نفسه ... وما عليهم بأن هذا الرجل قد ينس من الأتراك ياساً تاماً ، وتجلى له شرهم وسوء حالهم من هذا التصرف السيئ الذى ظهروا به أيام هذه الثورة ، وكيف أقاموا القاهريين وأشعلوا نيرانهم ثم تركوهم يصلون نار الفرنسيين حامية ، وكيف غدروا بهم واستعانوا بقوتهم حتى اذا استتب لهم الأمر لم يكن لهم عمل الا نهب البيوت والاعتداء على الأمنين وفرض الاتاوات واصلاء الناس سوط العذاب .. أين لهم العلم بهذا التطور العظيم الذى شمل هذا الرجل الهادى المطمئن الذى كانت الايام تعده وتصفله ليكون على يده خلاص البلاد حين يعم الطوفان ، وتنذر المقادير بالبلاء العظيم ..

(١) من خطاب رجل أمريكى الى السير الكسندر بول (فصل إنجلترا فى ماله) ٣١ ديسمبر

سنة ١٨٠٤ عن المصدر السابق نفس الصفحة .

(٢) نشأة المسألة المصرية ، ص ١١٢

عمر يشعر بضرورة
العمل

لا شك أن عمر كان يحس احساس المصريين في ذلك الحين ، وكان تواتر الشقاء قد انتهى بهم إلى حال من السخط ليس بعدها زيادة لمستزيد . أصبحوا في فقر بالغ ومع ذلك يزداد عليهم الطلب وتوالي المصائب كل يوم ولا رحمة ولا هوادة . لم يجد الشعب بطبيعة الحال أمامه الا علماء الذين تعود أن يلجأ اليهم كلما اشتد به الضيق وناء صدره بالآلام . وكان عمر رأس هؤلاء العلماء وأشرفهم وأكثرهم إحساساً بالآلام المصريين ، وكان يشعر تمام الشعور بواجبه وما ينبغي عليه عمله ، وكان يحس إحساساً صادقاً بأن الغليان شديد وأن الانفجار بات قريباً . فجمع زمام المصريين في يده ولبث يتحين الظروف ليضرب الضربة القاضية . ولكن . . . أكان في استطاعته الانتظار . ان الظروف تتطور بأسرع مما كان يتوقع ، وهؤلاء المماليك لا يتقون الله في هذا الشعب الأعزل المسكين ، وهؤلاء هم الأتراك لا تأخذهم رحمة ولا يرعون في رعاياهم حرمة الدين وشرع الاسلام . . فما العمل . . لابد من السعي والتعجيل بالعمل .

عمر والسياسة

لم يكن عمر سياسياً وإنما كان شيخاً فقيهاً متديناً لا قبل له بالسياسة ومناوراتها وتقلباتها القرية والبعيدة ، وهو رجل شريف ظاهر لا يريد الا خلاص الناس عن أى سبيل . إنه يقبض على زمام الشعب ويسيطر عليه تماماً ولكن ما عساه أن يفعل . . إنه يرجو الخلاص من ولاية السلطان لا من السلطان نفسه ، إنه يسعى للانتقاذ ولكنه لا يريد أن يكون ملكاً أو أميراً . . فليس هذا من خلق العلماء ولا حماة الشرع ولا رجال الدين ، إن عليهم أن يولوا على الناس أصلحهم ، وأن يشدوا أزر الصالحين ، ويحولوا بينهم وبين الظلم إذا مالت بهم نفوسهم الى الطغيان . كان عمر يائساً من الولاة والباشاوات والبكوات ، وكان يدور بعينه باحثاً عن رجل يعهد اليه بالحكم ، رجل صالح

قادر رحيم .. متدين .. وكان لا بد أن يكون تركيا .. فهذا منطق السياسة في هذه الأيام .. لا مفر من أن يكون الحاكم تركيا حتى لا يغضب السلطان خليفة المسلمين .

كان هذا الرجل يرقب الأمور في هدوء ، وأغلب الظن أنه لم يكن يفكر في الولاية أو السلطان هذه الأيام ، كان على رأس جنوده الألبان يتأمل الأحوال في حذر ، ولاشك في أنه استبان اضطراب الأحوال وود لو كان على يديه الخلاص من هذه الفوضى ، فبدأ يتحرك في حذر شديد .

كان جند الأتراك فريقين ، فريق الانكشارية وفريق الألبان أو الأرناؤود ، وكان محمد علي رأس الطائفة الثانية ، وكان الجميع ساخطين من سوء الحال وانعدام الرواتب ، وكانوا لا يفتأون يصبون غضبهم على المصريين الساكنين ، فيشكوا هؤلاء لعلمائهم ، فيتوسط هؤلاء لدى الوالي ومحمد علي ..

هنا تقابل محمد علي وعمر مكرم ، فأحس محمد علي — بالفطنة الهادية التي هي العنصر المميز للعباقرة — بأن فرصته قد أقبلت وأنه لا بد أن يبدأ العمل ..

بدأ ظهور محمد علي

بدأ فأمر جنوده أن لا يعتدوا على الشعب وأن لا يؤذوا الناس ، وأن يتظاهروا بالغضب على الباشا وجنوده ، وأن يقولوا للناس صراحة « انا معكم ، وأتم الرعاية ونحن العسكر ، ولم نرض بهذه الضريبة ، ورواتبنا على الميرى لاعليكم ! » ، فأى عزاء هذا للمصريين ، وأى عصف يقابلونه بالشكر والعرفان .. هكذا بدأت الأنظار تتجه نحو هذا الرجل ، وتعلق عليه الآمال الكبار وتنظر إليه كمنخلص وحليف ..

حركات محمد علي الأولى

هكذا خرج الألبان ورئيسهم من هذا المعترك الحامي الذي

سينشب بين الجند الأتراك وولاتهم ، وكلما اشتد الضغط على الجنود وزاد تأخر مرتباتهم حاصروا الوالى ، فلا يجد مناصا من الهرب اذا اسعفه الحظ كما فعل خسرو فى أول مارس سنة ١٨٠٣

فاذا هرب الوالى ، فالى من يلجأ الجند الا لهذا الرجل الذى يحرص أشد الحرص على أن يظهر بمظهر العادل الحكيم الذى ينفر من كل هذه الأعمال والتصرفات يذهب الكثيرون الى أن كان يستطيع أن يصبح واليا فى هذه المناسبة ولكنه آثر الزهد فى الولاية .

ولكنه كان أذى من أن يقتحم الأمور هذا الاقتحام ، كان يترث فى أموره ويحكم تديره ، ويحذر الحذر كله من أن يغضب السلطان ورجال السلطان ، فأصر دائما على أن يتنحى عن الميدان ، اما ليهرب من غضب السلطان أو يفر من المسؤولية . فجعل همه أن يوصى بتواية من يكون فى مصر من الباشاوات فيعمل على ولايتهم ثم يدبر لهم ، وكان أعلم الناس بأن القاهرة فى هذه الفترة بركان تائر ، وأن منصب الولاية كان أمام الفوهة ، عليه ينصب غضب الناس الذين اشتد بهم الظلم . . ونحوه تنطلق قنابل الجنود الذين لا تصلهم الأعطيات .

كان هناك قائد آخر للألبان . هو طاهر باشا أحق منه بهذا المنصب لأنه باشا ، ولأنه لا يعرف الخطر الجائم خلف قبول منصب كهذا . كان أسلوبا ماهرا لجأ اليه محمد على ليخلص من طاهر قائد الألبان ، حتى تنتهى إليه قيادة هؤلاء الجنود ، فيصبحوا بعد ذلك آلة فى يده يحقق بها مظامعه . وكان هؤلاء الأتراك هم العماد الثانى الذى ارتكزت عليه قوة محمد على ، والعماد الأول هم المصريون طبعا . . لقد عمل وعاون على ولاية طاهر ورضى عنه ، ثم أنشأ بحفره البئر من خلف .

طاهر باشا

كان على طاهر أن يجيب مطالب الجنود الثائرين ، وكانت عليه كذلك أن يحول بينهم وبين المصريين العزل المساكين ، وأين له أن يجمع بين النقيضين ويرضى الطرفين ، وهو رجل شرير ظل طول حياته وحكمه رمزا للفوضى التي كانت شائعة هذه الأيام ، وبدا شديدة تضغط عنق القاهرة التي أشرفت على الموت و « لو طال عمره أكثر من ذلك لأهلك الحرث والنسل » كما يقول الجبرتي .

ولكن عمره لم يطل .. في ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ (٤ صفر سنة ١٢١٨) دخل عليه موسى أغا وإسماعيل أغا وحدثاه في رفع الظلم وصرف المتأخر من المال فأبى ، فقطعا رأسه ورمياه من الشباك .
وخلا الميدان مرة أخرى .

ونظر محمد علي فاذا باشا ثالث مار بمصر في طريقه إلى المدينة المنورة .. فلم لا يقام واليا .. لم لا يوضع في الآتون حتى يُفرغ من أمره .. وهكذا أقيم أحمد باشا واليا ..

أحمد باشا

لا شك أن محمد علي كان يعمل جادا في هذه الأيام .. كان يعرف عرفان الواثق أنه لا بد لهذه الفوضى من آخر . لا مناص من القضاء على كل عناصرها حتى تهدأ الحال وتعود الأمور إلى مجاريها ؛ فهو لاهم ولاية السلطان وجنوده متروكون لبعضهم ، كلما أكل الجنود باشا قدم إليهم باشا آخر .. فلا يلبثون أن يأكلوه .. لا بد أن ينتهي الباشاوات يوما من الأيام .. فيخلو الجو أمام غيرهم .

بقي المماليك عنصرا قويا مهاب الجانب ، فكان لامفر من اتقاء شرهم والسكيد لهم ، كانت أول الحلقات التي تبدأ بها « سلسلة الحوادث التي انتهت بقبضه على السلطة » هي ثورة الألبانيين التي أشرنا إليها والتي انتهت بمقتل طاهر باشا ، فلم يكد المماليك يتسامعون بذلك حتى قفزوا إلى الميدان ، ووجد محمد علي أنهم سيصبحون أصحاب السلطة

محمد علي والمماليك

وأولى الأمر . فأسرع وبسط لهم يده ، وحالفهم ليتق شرهم من ناحية وليدبر لهم من ناحية أخرى ، « كانت خطوة جريئة ، لأن الممالك كانوا عصاة في نظر الباب العالي وكان الباشا الشرعى (وهو خسرو وكان في ذلك الحين في دمياط منذ هروبه من القاهرة) ما زال في البلاد ، فكان (محمد على) ماهرا كل المهارة في الزهد في كل مظهر غير شرعى والمساهمة بنصيب كبير في النظام الجديد » (١)

وأراد الممالك أن يتهزوا هذه الفرصة ليصبحوا أصحاب الأمر والنهى في البلاد ، ولم يكن يرضيهم بطبيعة الحال أن يظلوا على هذه الحال من النفي خارج القاهرة فدبروا هجوما عليها ، يطردون به الوالى التركى أو يقتلونه فيخلو لهم الجو . ومن ثم دخل الممالك من الجيزة وعلى رأسهم البرديسى و ابراهيم بك فأسرع أحمد باشا بالهرب ، فلم تدم ولايته أكثر من يوم وليلة . وهب الانكشارية لمقاومة الممالك ، فوجد محمد على الفرصة سانحة لتجريد الولاة الأتراك من قوتهم . وهم الانكشارية فعاون الممالك على التخلص منهم ، فطردوا من القاهرة ونادى المنادى في ربوع البلد « بالأمان حسب ما رسم ابراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا محمد على » .

أفندينا محمد على

ولكن محمد على وجد أنه سار في الأمر إلى أبعد مما ينبغي ، لم تكن الخشية من السلطان هى التى حفزته إلى الانزواء بعض الشيء ، وإنما كان يعلم حق العلم أى بركان يكمن تحت قدمى حاكم البلاد ، لقد أعلن إليه صديقه عمر مكرم أن الثورة تغلى في النفوس وأن المصريين قد زاد بهم عبث العابثين . وانهم سيخطون إلى الأمام يوما ما ويفتكون بكل من يجدونه أمامهم والياً كان أو مملوكا . فرأى محمد على أن يتراجع بعض الشيء ، حتى إذا انفجر البركان نجا من ثورته . . ثم خطا مع الداخلين .

الاتفاق بين عمر مكرم ومحمد على

بدأ حكم البكوات بما يبدأ به حكمهم عادة ، بالظلم والضرائب ، وارهاق الناس ، فبدأت بذلك سلسلة الحوادث السريعة المتعاقبة التي انتهت بالثورة المصرية وولاية محمد علي .

هودة الألفي

في هذه الأثناء تسامع البرديسي ومحمد علي بعودة الألفي من رحلته إلى إنجلترا ، « وقد كانت خدعته وعود الانجليز قد ذهب إلى إنجلترا ، وكان منذ زمن بعيد مخلصاً لهم دون تحفظ ، يتبع آراءهم ولا ينصت إلا لنصائحهم (١) » وكانت هذه الرحلة قد انجلت عن معاهدة سرية بينه وبينهم تقتضي بأن يكون لانجلترا الحق في احتلال موانئ البحرين الأيض والأحمر في حالة ما إذا أصبح الممالك أصحاب السلطة في البلاد ، وكانت الوزارة الانجليزية تدافع بقوة عن قضية تابعها « الألفي » أمام الباب العالي (٢) .

الألفي والانجليز

يؤيد الأستاذ الرافعي هذا الرأي وإن كانت الحقائق لا تدل على صدقه فقد كان الألفي موغر الصدر على الانجليز لأنهم « قد عرفوا بلاده ويتمنى لو أعماهم » وكان قد أحس أنهم لا يتوون به الخير الكثير فعاد وفي نفسه سخط عليهم ، ذلك هو رأي السير الكسندر بول مندوب إنجلترا في مالطه ، الذي قال عن الألفي انه « شرير محزون ، ربما أصبح عدواً لانجلترا » ولكن إنجلترا رأت أن تستفيد منه فسعت ليكون بينه وبينها محالفة أو ما يشبه المحالفة لأنها كانت تعرف — إلى حد ما — مدى سلطان هذا الرجل ومقدار ما كان يستطيع من الأعمال .

هودة الألفي من
رحلته إلى إنجلترا

عاد الألفي من زيارته الغربية إلى لندن . وألقت به السفينة الانجليزية على شاطئ مصر بعد أن استراح في إنجلترا فترة قصيرة من الزمن ، وكان قد رحل إليها مع الجنرال ستياوات ، لا بدعوة من الحكومة

(١) Mengin : L'Egypte sous Mohamed Aly' I' 25

عن نشأة المسألة المصرية ، ص ٢١٩

(٢) Naurioz : Histoire de Mohammed Aly' I' 242

عن نفس المصدر السابق ، ص ٢١٩

البريطانية او ترحيب منها ، وكان ستوارت ، قد تخوف من زيارته
فأنزله في مالمطة فترة من الزمن حتى يعرف رأى حكومته في هذه
الزيارة ، ثم سمح له بعد ذلك بالذهاب إلى إنجلترا فوصل لندن في
أكتوبر سنة ١٨٠٣ (١). فاثارت زيارته قلقاً كثيراً في تركيا وإنجلترا ،
فأما الأتراك فقد أوجسوا شراً ، وخافوا أن يكون لهذه الزيارة
معنى سياسى ، فسارع الانجليز وأكدوا لهم أنهم لن يقبلوا من الأتلى
شيئاً فيه ضرر على الدولة العثمانية ، وأكد الأتلى نفسه ذلك ، لأنه كان
يحس بأن الدولة لن ترضى عن زيارته ، ولن تكف ساعة للايقاع به
والخلاص منه ، وكان يبنى نفسه في واقع الامر بكسب ود
الانجليز وحسن ظنهم ، بل استطاع في لحظة ما ، أن يشغل بال نفر من
الساسة الانجليز فوضعوا المسألة المصرية موضع الدرس والتفكير ،
ولكنهم عادوا فقدروا المصاعب التى تعترض تنفيذ أى مشروع
للتدخل فى المسألة المصرية ، وقدروا غضب الفرنسيين وسخط
الأتراك والمشاكل العديدة التى تنشأ عن ذلك . فكفروا عن العناية
بالأتلى ولم يستمعوا له ، ولم يفكروا فى معاوته جدياً ، ولعل
الحكومة الانجليزية لم تكن تعاق عليه ولا على زيارته أملاً كبيراً ،
لأنها لم تكن بحاجة إلى رأى منه أو وعد من ممالكه ، إذ كانت
تعرف تمام المعرفة أنه ان كان هناك خير فى التعاون معه ، فهى قادرة على
الحصول على معاوته وهو فى مصر نفسها ولا حاجة لوجوده بلندن ، أما هو .
فكان يؤمل فى الحكومة البريطانية أملاً عريضاً ، وكان يبنى النفس بجيش
قوى ومال طائل ينفق منه ، حتى يستطيع القضاء على الأتراك والسيادة
على أعدائه من ممالك البرديسى ، فرددت الحكومة البريطانية تردداً
طويلاً فى اجابته إلى مطالبه ، وخيبت آماله فعاد آخر الامر يجر أذيال

خوف الأتراك
من هذه الزيارة

الانجليز والأتلى

الأتلى والانجليز

الحية ، وقد أخطأ كثير من المؤرخين في معنى هذه الزيارة وتأويلها وعلقوا عليها نتائج كثيرة ليس من الانصاف أن تنسب اليها ، اذ « من الواجب علاج هذه المسألة بشيء من التفصيل لأنها كانت أساساً لأغرب الآراء والمذاهب ، فيذهب منجان — وأخذ عنه كل مؤرخي محمد علي الذين أتوا بعد ذلك — إلى أن الألفي « خدعته وعود الانجليز فذهب إلى انجلترا ، وكان منذ حين مخلصاً لهم إلى غير حد ، متبعاً آراءهم عاملاً بنصائحهم » . والواقع أن البك استقبل بالترحاب في بادئ الأمر ، ثم أهمل اهمالاً تاماً ، ولكن الأمر تغير حينما وردت الاخبار بدخول المماليك القاهرة ، فأصبح الألفي مرة أخرى موضع الرعاية وفتحت له الحسابات ... الخ . وأقام الرجل ما أراد الله له المقام في بلاد الانجليز ، ثم عاد منها صفر اليدين لا يعزيه وعد أو أمل ... عاد ليُلقى على شاطئ مصر في سكون كما ذكرنا ، فلا تكاد قدمه تمس ثرى مصر حتى يسرع بالاختفاء « لأن الأوامر بقتله كانت قد انتشرت في كل مكان » كما يقول الجبرتي .

أوجس البرديسي — بل محمد علي — خيفة من هذا القادم الجديد لأنه كان رجلاً ممتازاً شديد الذكاء « وهو آخر من أدركنا من الأمراء المصريين شهامة وصراحة ونظراً في عواقب الأمور ، وكان وحيداً في نفسه فريداً في أبناء جنسه ، وبموته اضمحلت دولتهم وتفرقت جمعيتهم وانكسرت شوكتهم ، وزاد تفرقهم ، وما زالوا في نقص وادبار وذلة وهوان وصغار ، ولم تقم لهم بعده راية وانقرضوا وطردهوا إلى أقصى البلاد في النهاية » كما يقول الجبرتي . وكان الألفي محباً إلى الناس لشهامته وفروسيته وبعدصيته في الشجاعة ولما له من المهابة الشخصية ، وكان الجبرتي يحبه ويقدره تقديراً عظيماً ، وقد اختصه

البرديسي وعودة
الألفي

رأى الجبرتي في
الألفي

برثاء طويل حزين تشعر فيه بحبه لهذا المملوك القوى المهاب ، ولعل ذلك راجع إلى أن الاثنين كانا يكرهان البرديسي أشد الكراهية ويشتركان في الميل إلى علم الفلك كما يقول الأستاذ غربال .

لهذا سارع البرديسي في أنفاذ الرجال لقتل منافسه ، ولعل محمد علي هو الذي دفعه إلى أن يفاجئ "الأتقي بهذه العداوة الشديدة دون تريث أو انذار ، فلم يجد الرجل بداً من أن يهيم على وجهه ويظل مختفياً فترة طويلة من الزمن .

البرديسي حاكم
بأمره

بهذا حسب البرديسي أن الجو قد خلا له وأن أمور مصر انتهت بحمد الله إلى يديه الكريمتين ، وكان إلى جانبه هذا الرجل القوى الواسع الذهن يدبر له نهايته صابراً متشداً ، وكان هو — أي البرديسي — لا يكاد يفتن إلى قوة محمد علي ولا يلقي إلى تديره بالا ، فسهل على محمد علي الايقاع به والخلاص منه .

هنا نبدأ سلسلة الحوادث المتعاقبة التي تنتهي في أقل من عامين بولاية محمد علي واستقرار أمور البلاد ، وخلاصها من هذه المفوضى التي ظلت تسودها طوال الأعوام الماضية ، إذ لم يكن من المعقول أن يصفو الجو إلا إذا زالت عوامل الفساد والاضطراب وهي الممالك والأتراك ، وحلت محلها عناصر جديدة تحسن القيام بالأمور ، وتعمل جادة مخلصه ، لاتساوم ولا تعبت ، ولا تباع البلاد بدراهم معدودات ، هذه العوامل الجديدة هي العنصر المصري الذي تتبعنا تطوره نحو القوة في شيء من التفصيل . ثم محمد علي الذي سيوجه نشاط هذا العنصر ويحسن الاستفادة منه على أحسن وجه يكون . هذه الحوادث التي تنتهي إلى الثورة المصرية ، التي كانت الكسب الوحيد الذي يعزى المسلمين عن الخسائر المتواترة التي تعاقبت على بلاد الشرق الاسلامي في هذا القرن العصيب .

المورد الذي ليه
محمد علي

ونحب أن نعلق هنا على ما تجمع عليه الكثرة الغالبة من أن محمد علي كان روح الحركة وعمادها طوال هذه الأيام، وأن كل خطوة أو حركة لابد أن يكون له فيها أصبع وأثر. تلك مبالغة لا معنى لها ولا تضيف إلى عظمة الرجل شيئاً كثيراً، لأن عظمته الحقيقية إنما تتجلى في سياسته وإدارته بعد أن أصبح والياً لمصر، أما ضراعه للوصول إلى السلطة ومناوراتها التي قام بها لبلوغ هذه الغاية، فأمر متوارد كثير الحدوث في التواريخ الشرقية. وقصارى ما يقال في ذلك أن الرجل أحسن انتهاز الفرص وأحكم سياستها، وحرص أشد الحرص على أن لا تقلت منه الثمرة آخر الأمر. ولكنه لم يكن كل شيء. كانت إلى جانبه قوى أخرى تشد أزره وتعاونوه وإذا كان له أثر محسوس في توجيه الحوادث في هذه الأيام فلم يكن ذلك لأنه كان محمد علي فقط ولا لأنه كان قائد الألبانيين، بل لأنه كان حليف المصريين.

وليس بغريب أنه أصبح والياً لأن خسرو وطاهر واحمد وعلي الجزائرلى ثم خسرو مرة أخرى ثم خور شيد أصبحوا ولاية دون مشقة. لم يبق في البلاد باشا تركي : ماراً في الطريق أو والياً على الاسكندرية أو سنجينا إلا أصبح والياً، فلم لا يصبح محمد علي وهو التركي الوحيد الذي بقي في البلاد، إذا كان كل هؤلاء قد أصبحوا ولاية للدولة على مصر دون أن يحتاجوا لبلوغ هذا المنصب إلى عبقرية خاصة أو تدبير واسع كان يكفي أن يكون المرء تركيا وقائداً لنفر من الأتراك حتى يصبح والياً على مصر في تلك الأيام، فإذا كانت لمحمد علي سياسة خاصة تذكر، فهي حذره الشديد وتريثه الطويل حتى تتم تصفية جميع القوى المؤثرة في القضية المصرية حتى إذا انتهت تقدم في كثير من الثقة والاطمئنان. فإذا كانت ولاية محمد علي أمراً عادياً لا يفترق في كثير عن ولاية غيره من الباشاوات الأتراك. فما ميزته عليهم، ولماذا استطاع الثبات في حيث فروا، والنصر في حيث انهزموا؟

لم يكن هو وحده قائد الجند الألبان ، فقد كان طاهر باشا — وهو أفضل ولاية هذه الفترة — قائداً لهؤلاء الجنود . بل كانت قيادته لهم سبباً في فشله وقلته والقاء رأسه لجنوده ١

هل لفرنسا أثر
في ولاية محمد علي

ولم يكن ذلك لأن فرنسا اصطفت من بين القائمين بالأمر في القاهرة ، لأنها وجدت فيه رجل الساعة . . . أولان المسيو دلسبس ارتأى فيه الرجل القادر على قيادة الأمور والخروج بالبلاد ممأهى فيه ، ليس في هذا الزعم ظل من الحق ، ولا ريب في أن مؤرخ أسرة دلسبس كان مخطئاً حين قال عن مهمة المسيو ماتيو دلسبس حينما وصل القاهرة في سنة ١٨٠٣ :

" Il fut le premier instrument de l'élévation de Mehemet Aly. Il avait pour mission de chercher en Egypte un homme de caractère, capable de rétablir l'ordre en s'élevant (au dessus des Mamélukes contraireo à la politique française). Il avait distingué et singnalé à son gouvernement Mehemet Ali qui était colonel " . (١)

كذب هذه الدعوة

هذا زعم باطل تنفيه المراسلات الرسمية الباقية من هذه الفترة ، إذ في هذا الظرف بالنفس كان تاليران وزير الخارجية الفرنسية يشتد في التنبيه على المواطن دلسبس بأن يتعد عن كل نزاع ويتجنب أى تدخل في شئون البلاد .

فرنسا تأمر
سفيرها بموالاة
الأتراك

" que le citoyen Lesseps apporte dans sa condite et ses demandes auprès du chef délégué par la porte toute la sagesse et la circonspection dont il est capable. Il s'applique à se concilier son estime et sa confiance en évitant toutefois de s'immiscer dans les querelles des deux parties " . (٢)

(١) آثرنا أن نثبت هذا النص كما هو بدون ترجمة لاسميه عن :

Bridier : Une Famille française, p. 129.

عن نشأة المسألة المصرية ، ص ٢١٣ . (٢) نفس المصدر

لم يكن دلسبس إذن مكلفاً بالبحث عن رجل يعهد إليه بشئون البلاد . وإنما كان مكلفاً رسمياً بالتودد إلى الوالى التركى واحترامه ومعاملته المعاملة اللائقة بمقامه السياسى . والبعد عن المنازعات وعدم التدخل فى الأمور . . .

تحالف ماتيو دلسبس
مع الممالك

وكانت تصرفات لسبس كلها لاتدل على أنه كان يسعى - ولو بصفة شخصية - إلى ادراك هذه الغاية ، فقد حالف الممالك غداة وصل القاهرة واحتفلوا به احتفالاً جليلاً ، وقد لبث على هذا فترة عجز بعدها تماماً عن التدخل بأى سبيل . وتساءل فى حيرة : « إلى أى النواحي يستطيع ممثل دولة أجنبية أن ينضم فى وسط هذه المذاهب المتباينة ، بل كان يشكو طول الوقت من قصر باعه وقلة موارده . كان ينظر بحسد إلى المستر مست منسوب انجلترا الذى تمده حكومته بما عسى أن يحتاجه من المال . وبعد أن يئس تماماً من المال ، انشأ يوزع الخمر كما قلنا ، على الألبان والممالك لكى يعترفوا بوجوده على أقل تقدير .

وليت المواطن الماهر وفق فى هذا ، لقد فشل وتخرج موقفه وخارج الأمر من يده تماماً ، وسارت الأمور فى مجراها وهو يرقبها دون أن يكون له أى أثر ، بل لدينا ما يؤيد أنه كان لا يرتاح لمحمد على ولا يرى فيه شيئاً يستحق الذكر ، واليك رأيه فيه من خطاب أرسله لحكومته : « ان محمد على رئيس الألبان يطلب حماية فرنسا وتوسطها لدى الباب العالى (١) وأؤكد لكم مقصداً أن مشروعه ليس أكثر من خيال . وأنه يرجو أن يصبح السيد الأعلى . ولكن على الرغم من أن هذا الرجل أقل وحشية من نظرائه ، فانه منضم لنا فيما يظهر ، ولا

رأى لسبس
فى محمد على

(١) وهذه عبارة لها معناها ودلالاتها على تصرفات محمد على قبل ارتقائه الولاية والوسائل التى كان يتخذها للبرغ ذلك ، وهى - من بصر وجرمها - لا تكاد تختلف عما كان يفعله الممالك من تذبذب بين الفرنسيين والانجليز وحذر دائم من الاتراك .

أعتقد أن لديه القدرة على ترسيم مشروع لهذا السيل واكتشاف
الوسائل لتحقيقه (١) « وهل كان دلسبس في حال تسمح له بالتدبير
ورسم الخطط ، لعنا نظله بهذا الزعم اذا كان الرجل مسكينا لا يكاد
يقف على قدميه ، وقد كاد يعجز تماما عن الدفاع عن نفسه ، وقد اعترف
هو بذلك فقال « إن ما بذلته من التضحيات لاصلاح ما بيني وبين
رؤساء الالبان قد أنقذني الى الآن » الى الان فقط . أما بعد ذلك
فلا قدرة له على المقاومة أو الثبات ، أما التضحيات التي أشار اليها .
فهي — كما يقول الأستاذ غربال — الخمر التي كان ينفقها دون حساب .
بل كان الرجل غيران يأكل قلبه الحسد لما وفق اليه مست مندوب
انجلترا بفضل ما لديه من مال « ليس لدى مع الأسف ما أعطيه وانجلترا
تبعثر الذهب والهدايا ... » (٢)

ليس يأس

بل كلما استعصب الظرف واقتربت الثورة كلما فكر الرجل — أي
مندوب فرنسا الذي أرسل الى مصر لاختيار رجل الساعة في الرحيل —
حتى اذا تخرج الأمر وأنفدت بوادر الأحوال بثورة المصريين على
المماليك — وهي أول موقف حاسم ظهر فيه محمد علي — جمع
الرجل متاعه ورحل الى الاسكندرية تاركاً مرشحاً ينقذ نفسه ان استطاع .
تخرج فرنسا اذن من الميدان ، لم يكن لها في ولاية محمد علي يد بل
لم تكن ترضى بهذا التعيين .

ليس يفر الى
الاسكندرية

إذن لماذا انتصر محمد علي .. ولماذا ثبت . ؟

لأنه كان مرشح المصريين وصديقهم .

واليك التفصيل :

(١) من خطاب لدلسبس الى تاليران بتاريخ ٢٢ فبراير سنة ١٨٠٤

عن نشأة المسألة المصرية ، ص ٢٢٢

(٢) If republican poverty prevented him from scattering gold, republican virtue did not scruple at the use of liquor.

رأى الأستاذ
الرافعى

يبلغ الأستاذ الجليل الرافعى فى تقدير حالة المصريين المعنوية ،
ويذهب الى انهم لم يكونوا أقل من الفرنسيين الذين قاموا بالثورة
المعروفة ، ونسى أن ثورة فرنسا كانت لها مقدمات بعيدة مهدت
الطريق للفرنسيين حتى وصلوا إلى حالة معنوية قوية جداً ، كان
الكتاب والفلاسفة قد ملأوا الأرض بآراء الحرية والمساواة وحقوق
الانسان ، وأفاضوا فى مجد فرنسا ونهوا إليه الأذهان ، ونسى أنه كانت هناك
طوائف كثيرة من المتعلمين تعليماً مدنياً فى القانون والآداب والفلسفة
وما إلى ذلك .. وأولئك هم الذين قادوا الثورة وأشعلوا نيرانها وأفاضوا
عليها هذا التالى الخالد الذى يحيط بها فى صحائف التاريخ .. ثم كان فى الأمة
جيش وطنى ، مهما تكن حالته المعنوية فهو جيش على أى حال ..
ولقيام الجندية فى الشعوب أثر اجتماعى معروف .. وللجنود القدامى
فى الثورة الفرنسية أثرهم الذى لا ينحى .. أما فى مصر فلم يكن هناك
إلا عمر مكرم وطائفة قليلة تفهم الأمور حق الفهم وتجروء على الثورة
والمناهضة ، وهو — أى عمر — بعد ذلك كله ، عالم لا تميل نفسه إلى
السياسة ولا يرجو السلطان ولا المنصب . بل أنه كان إسلامى التفكير
لا يكاد يرى الأمان إلا فى ظلال السلطان ولا يتصور الانفصال
عنه .. بل هو ما زاد فى ثورته على أن خلع والياً تركيا وأقام مقامه
والياً تركيا آخر ، وهذا لا يتنافى مع ما ذهبنا إليه فى تحليل فكره
السياسى ، لأن ما ذكرناه كان يدور فى ذهنه أما عواطفه فقد ظلت
إسلامية إلى النهاية ، وكانت عواطفه — كما ذكرنا — أغلب
من رأيه .

هل ثورة المصرية
تتبع ثورة
فرنسية

لنحذر إذن المبالغة فى هذا التقدير ، ولنعرف أن المصريين لم يكونوا
يطلبون الحرية والاستقلال كما تفهمهما الآن . وإنما رفع المظالم وتخفيض
الضرائب وإبعاد المباليك والألبان وهدوء الأحوال ، بل عمر نفسه

لم يكن يرجو أكثر من ذلك . ولم يكن يعرف الاستقلال والحرية كما تفهما نحن اليوم ، أو ليطوف بخلاده أن يرفع المصريين إلى مراتب الحكم وأصحاب الأمر والنهي في البلاد .

تفكير السيد عمر
السياسي

ولنذكر إلى جانب ذلك أن السيد عمر لم يكن يسعى للرئاسة أو الحكومة وإن استحقهما ، ولم ينفرد وحده بذلك لعفة نفسه بل كان مثله فيه كمثل كل الوجهاء وذوى اليسار والسطوة من أهل البلاد مهما بلغت مقامهم وتراعى طموحهم ، فلم يكن أحد منهم يفكر في أن يتولى بنفسه حكومة البلاد ، بل كان أقصى أمانهم أن يتقربوا إلى أولى الأمر وأن يحظوا منهم بالعطف والقربى والرعاية على أى لون من الألوان . وتلك نتيجة طبيعية للوضع السياسى الذى وجد الشعب المصرى نفسه عليه فى ظل الحكومات التى تواترت عليه من قديم الزمان ، إذ اضعف فيه ثقته بنفسه وجعله يخشى المسئولية ولا يقتدر على إعباء الحكم ، فيكتفى بأن يكله إلى غيره من الأجانب ويتولى هو المعاونة والمساعدة ، وهذا ما سيفعله عمر مكرم ، فلم يكن لينقصه إلا أن يمسك الصولجان كما يقولون . . ولكنه ترك الأمر طواعية لمحمد على وسلمه كل مقومات الحكم ، كأنه كان يشعر فى نفسه أنه غير كفء له ولا قادر عليه . واستمر يعاونه سنوات طويلة ، وهو يعلم العلم كله أن لا بقاء لمحمد على إذا تخلى هو عن نصرته . ولكن نفسه لم تتطلع إلى الحكم أو مركز الولاية .

حالة المصريين
المعنوية

فاختيار المصريين لمحمد على للولاية لا يسمى نضوجاً سياسياً ، ولا يعتبر دليلاً على إحساس الشعب بنفسه أو فهمه أن من حقه أن يتخير حاكمه ويراقب أعماله ، فكل تلك أمور سيدركها الشعب المصرى بعد حين — بعد أن يرتقى تفكيره السياسى ويزداد إحساسه بنفسه — أما فى هذه الأيام فلم يكن المصريون يطلبون إلا حاكماً صالحاً قديراً على

نشر العدل وقطع دابر اللصوص والعابثين بالآمن ، فاذا وجدوه لم يكن لهم بعد ذلك مطمح ولا غاية ، ولا يصح الاعتراض على ذلك بأن المصريين كرهوا حكم نابليون بالرغم من أنه كان أصلح من حكم المماليك ، لأنهم إنما كرهوا نابليون بعواطفهم الدينية لا السياسية ، ولا يعترض عليه كذلك بأنهم كرهوا محمدا عليا بعد حين ، فقد كانت تلك الكراهية لأسباب أخرى سيرد تفصيلها بعد قليل .

يبد أننا ينبغي أن نلاحظ أمراً آخر على جانب من الخطورة والأهمية ، وهو أن الشعب المصرى كان قد وصل فى تلك الأيام إلى حالة من التيقظ الذهنى والاحساس بالنفس جديدة بالتأمل والاعتبار ، ولو قد رزق الشعب رجلاً قادراً يستطيع الاستفادة من تلك اليقظة لأفاد منها فائدة عظيمة ، ولخطت البلاد فى سبيل التقدم السياسى خطوات سريعة واسعة نحو الشعور بالكيان والوطن ، ذلك ان الشعوب والجماعات لحظات من « الاشراق » تتفتح فيها عيونها ونفوسها . فتفهم بوحى البديهة واجبتها وتحس بالغريزة بما يحيط بها من خطر ، وتتصرف من تلقاء نفسها التصرف الواجب ، وتلك هى اللحظات الحاسمة فى تواريخ الأمم ، اللحظات التى لها ما بعدها ، وإنما تصل الشعوب إلى تلك الحالة فى لحظات الحرج والضيق والاحساس العام بالخطر على الأرواح والأرزاق فىكون احساسها بالخطر المقبل منها لعوطفها النائمة : تلك هى الحالة التى أدركها اليونان قبيل سلاميس ، والمسلمون قبيل بدر والمسيحيون قبيل بواتيه والفرنسيون قبيل فالمرى ، لحظات تنسى الشعوب فيها نفسها فتأتى بما لم تكن لتستطيعه فى لحظات أخرى باضعاف العدة وفى قيادة أمهر القواد . ولو قد كان لشعب مصر فى هذه الأيام قادة محسنون توجيهم لجنات البلاد ن ذلك أعظم الخير ، ولأدركت فى ذلك الحين درجة من النضوج السياسى لن تدركها إلا بعد

ذلك بنحو قرن من الزمان ، ويكفى للدلالة على ما أدركه الشعب في ذلك الحين من القوة والاقتدار ، انه أرغم القوى كلها على الخضوع لارادته واحترامها والتسليم له بما أراد (١) .

مقدمات الثورة
المصرية

أدرك السيد عمر أن محمد علي هو أصلح للناس لولاية أمور هذه البلاد ، وسعى محمد علي نفسه جاهداً حتى استطاع أن يؤكد لصاحبه أنه لا يريد إلا الخير ولا يبغي إلا خلاص أهل البلاد مما هم فيه من الاضطراب وسوء الحال ، وكانت النكبات المتوالية والشروا المتوالية قد أيقظت في نفوس العامة شعوراً من الرعب جعل الحرب والسلم في نظرهم ميان ، وأصبحوا - ولا أمل لهم في الحياة - على تمام الإهبة للحرب والاستئساد ، وكان زعيمهم عمر يشعر شعوراً تاماً بأن لا أمان للأتراك ولا صلاح للماليك ولا ضمير عند صاحبه من العلماء ، وأحس بهمته العالية بما كان يعانيه الشعب من الآلام والخرج ، فعول على أن يبذل ما يستطيع من قوة حتى يقيم محمد علي الصالح العادل على هذه البلاد ، فكان هذا إيذاناً ببدء المعركة الحامية التي استمرت شهوراً عدة وتنقلت في ميادين مختلفة حتى انتهت آخر الأمر بانتصار السيد عمر ومن معه من أهل مصر . وكان محمد علي قد يئس تماماً من أن يجعل لنفسه مكاناً - أي مكان - في هذه البلاد : إذ خذله الأتراك وكرهه خسرو وعاداه وتخونه البرديسي وعبث به بعد أن « جرح كل منهما يده وأذاق زميله من دمه علامة على عقد الأمانة والاخلاص » (٢) وبعد

(١) وعلى الرغم من أن محمد علي أوقف تلك الشعور فإنه استطاع أن يستفيد من فزع الشعب المصري في جيوشه التي تمكن من أن يتصر بها على الأتراك بعد حين . وهي انتصارات تدل على حالة معنوية طيبة جداً ، وبغير ذلك لم يكن محمد علي ليستطيع الانتصار على الأتراك بمجهود المصريين الذين لا عهد لهم بالحروب قبل ذلك

(٢) سيرة السيد عمر مكرم للاستاذنا الجليل محمد فريد أبو حديد (طبع القاهرة سنة ١٩٣٧) ص ١١١

أن أحس الغدر والخيانة من جنوده ومواطنيه من الألبان إذ تهددوه بالثورة وتمردوا عليه كثيراً ، فلما أحس أن السيد عمر مرتاح إليه وأنه يرشحه للولاية عرف أن هؤلاء المصريين هم خير من يعول عليهم لأدراك غايته ، وأحس بفطرته الهادية مدى ما يستطيعون من عمل في هذه الأيام .

بدء المعركة :
هزيمة المماليك

بدأت المعركة الحاسمة في أواخر فبراير سنة ١٨٧٤ ، إذ بدأ السيد عمر ومن معه من أهل مصر يزيلون العقبة الأولى التي تعترض محمداً علياً : وهي المماليك الذين كانوا يدعون الحق في حكومة مصر ويسعون لذلك عن أى سبيل : لا يستحيون أن يتوسلوا لذلك بالانجليز أو الفرنسيين . وكانت زعامتهم قد انتهت في ذلك الحين إلى البرديسي الذي أصبح شبه حاكم على مصر بعد أن تخلص من الألفى وشرده في نواحي البلاد . وأراد البرديسي أن يمضى على مثل ما كان عليه سابقوه من فرض الضرائب والاثقال على الناس بها . فلم يكد يفعل ذلك حتى هب الناس في وجهه ، وأعلنوا عليه الثورة والهياج ، وأدركهم من ذلك يأس شامل وكمد مقيم ، فلبسوا السواد وناحت النساء ، كما أنما أصبح الناس حيال ذلك الأمر كأنهم حيال قدر ظالم لا حيلة لهم فيه ، وتحمسوا وساروا إلى دار البرديسي يهتفون به « إيش تاخذ من تفليسي يا برديسي » وأحس جند الألبان حرج الموقف وخافوا على أرزاقهم فوثبوا يعقدون الخناصر مع المصريين ، فوجد البرديسي نفسه بين نارين : نار الجمهور الساخط ونار مدافع الألبان ، فعجل بالهرب من القاهرة ، وتبعه عامة أمراء المماليك في فزع لا يوصف وتفرق جمعه وجمعهم في الصحراء أو الأرياف « وكانت سقطة حكم الأمراء هذه المدة آخر عهدهم بحكم البلاد ، فانهم لم يدخلوا القاهرة بعد ذلك حكماً ، بل مازالوا يحاولون ويعجزون حتى قضى عليهم محمد علي

القضاء الأخير بعد ذلك بسبع سنوات^(١) وبذلك قرر أهل مصر
مصير الممالك وأخرجوهم من الميدان فذلت العقبة الأولى التي كانت
تعترض محمد علي .

المصريون يقررون
حقهم في اختيار
حاكمهم

هنا يبدأ الدور الثاني من المعركة : وكان العدو هذه المرة هم
الأتراك أنفسهم ، فقد استبان الشعب أنه لا صلاح لأمور مصر معهم :
إذ أرادوا من أول الأمر أن يرغموا الوالي التركي على أن يحسن
السيرة فيهم وصبروا لذلك صبراً طويلاً ، فلما يئسوا انعقد عزمهم على
الخلاص منه واستبدال غيره به ، فلم يجدوا الجديد خيراً من القديم .
ومن ثم عولوا على أن يختاروا هم بأنفسهم بعد أن أياسهم السلطان
بسوء الاختيار . كان الوالي في هذه الأيام هو خورشيد باشا وكانت
الآخطار قد أحدثت به من كل جانب ، إذ أحاط الممالك بالقاهرة
وحصروها حصراً شديداً وأنقلب عليه جند الألبان ، فلجأ إلى
القاهريين يطلب اليهم أن يعاونوه على أعدائه فأبوا ورفضوا أن يبذلوا
له المال الذي طلب ، فأسقط في يده وجعل يستصرخ الدولة في أن
تبعث إليه جنداً جديداً يخرج به من الحرج الذي صار إليه ، وازدادت
الأحوال حرجاً بعد حين إذ نفر منه رؤساء الجند من أمثال محمد علي
وصادق أغا وصار يتخوفهم أكثر مما كان يتخوف أمراء الممالك ،
وأصبح أمله معلقاً بالنجدات التي بعث يطلبها من الدولة ، وباليته
ما تنتظر . . فقد كان وصول هذه النجدات ضعفاً على إباله : إذ لم يكونوا
غير شرادم من الأجلاف واللصوص جمعتهم له الدولة من نواحي الشام
وآسيا الصغرى وحسبت بهم مصر فكانوا كالقذى استقر في عينها ، إذ
انصرفوا للسلب والنهب فزادت ثورة الناس واشتد هياجهم وأصبح
العداء بينهم وبين ممثل السلطان عداء واضحاً صريحاً ، وأحسن قواد

(١) سيرة السيد عمر مكرم للأستاذ أبو حديد ص ١١٦

الألبان أن خورشيد لا يريد من هؤلاء الجنود إلا كسر شوكة من تحدته نفسه بالمعارضة منهم ، فاتحدت غايتهم مع غاية المصريين وبدأ الاثنان يعملان متعاونين ، وشعر خورشيد بذلك فأحب أن يفرق شمل الحليفين فسعى لنقل محمد علي من مصر ، واستطاع أن يستصدر من الدولة فرمانا بتعيين محمد علي واليا على جده ، ولكنه خدم محمدا عليا بذلك خدمة كبرى من حيث لا يشعر ، إذ أصبح محمد علي من باشاوات الدولة جديراً بولاية أمور البلاد ، ولم يكن المصريون ليفكروا في إرغام الدولة على إقامته واليا لو لم يتطوع خورشيد بالسعى لرفعه إلى مرتبة الولاية الباشاوات ، اذ « ما دام محمد علي جديراً بحكم جده ، فهو أولى بأن يبقى في مصر ليكون حاكماً عليها » (١)

تعيين محمد علي واليا
على جده

وكان محمد علي لا يرى ضيراً في ذلك ، فهو وال على جده وليس هناك ما يمنع من نقله إلى مصر ، ومن ثم صارح صاحبه عمر مكرم بذلك واتفق الاثنان عليه . وأعلنه السيد عمر لأصحابه واتباعه فلقى من نفوسهم موقع الرضا ، ولم يلبث العامة أن نادوا به حاكماً ، واحتفل الجميع بتعيينه احتفالاً شعبياً جميلاً لا يخلو من مظاهر شتى تدل على سمو الشعب وشعوره بقدر نفسه وفرحه بالانتصار الجزئي على السلطان التركي في ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ .

المصريون يولون
محمد علي حكومته
مصر : ١٣ مايو
سنة ١٨٠٥

أنشأت هذه الحركة في مصر موقفاً شاذاً ، فقد أصبح في البلاد عاملان تركيان : أحدهما معين من قبل السلطان والآخر معين برغبة سواد أهل مصر ، وتلك هي المرة الأولى التي يستطيع أحد الشعوب الإسلامية أن يشور على الخلافة ثورة معقولة منظمة ، فقد جرت العادة قبلاً بقتل الحاكم أو طرده والاعتداء عليه ، فيعد هذا خروجاً صريحاً على السلطان ، أما آل مصر فقد اكتفوا بإقامة حاكمهم الذي

(١) سيرة السيد عمر مكرم للأستاذ أبو حديد ص ١٤٢

ارتضوه وتركوا عامل السلطان يفعل ما يريد متحصنا في القلعة ، ثم بعثوا إلى السلطان يطلبون اليه تثبيت الحاكم الذي ارتضوا . ولم يفعلوا ذلك جبانة ولا خوفا وإنما حكمة وقدرة ، ^(١) وبعثوا ينتظرون رأى السلطان وهم على أحر من الجمر وعلى تمام الأهبة لتثبيت اختيارهم بقوة سواعدهم .

يبدأ أن خورشيد لم يرزق من الصبر مايعينه على انتظار رأى السلطان ، فلم يلبث أن ملكه الغضب وعجب لهول ما رأى : رعية تختار حاكمها وتعزل حاكم السلطان ! وانحاز اليه نفر من جنده وأخذ يستعد للقضاء على هذه الحركة ورأسها السيد عمر ، وهنا يبدأ القسم الثاني من المعركة الحامية التي أثبت فيها آل مصر أنهم مستمسكون برأيهم أشد الاستمساك ، وانهم مستعدون للناخلة دونه ، والبذل في سبيله . « وانه لمن المعجب أن تتصور شعب مصر وقد حمل شتى أنواع الأسلحة من العصي والهرأوى الغليظة (النبايت) والبنادق والسيوف والخناجر ، وهم وقوف جماعات في شبه صفوف الجنود ، وقد أقاموا من بينهم نقباء وعرفاء يأمرون بأمرهم ويطيعونهم ويقومون على انفاذ ما يلقونه إليهم من الخطط ، وهم بين تاجر وصانع ومحترف بحرفة أو صاحب مهنة ونفوسهم مضطربة بالأمل الجديد الذي طلع عليهم ، يعتزون بأنهم يقيمون بناء استقلالهم بأنفسهم ويشترون حريتهم بدمائهم » ^(١) ، وقد وقف جند محمد على إلى جنب المصريين في هذه المعركة ، ولكن أى وقوف : وقوف الأجنبي المتهاون الذي لا يتردد في التخون والتخاذل لأتفه الأسباب ،

استبسال المصريين

(١) والغالب أن ذلك كان من ترسيم محمد على نفسه

(٢) سيرة السيد عمر مكرم : للاستاذ أبو حنيد ص ١٤٥

وقد حدث أن تخونوا قائدهم في هذه اللحظة العصية وأخذوا يهاجمون أحلافهم المصريين حتى كاد يسقط في يد محمد علي ، لولا أن سارع عمر مكرم فشد عزمه وأمر المصريين بقتال الألبان كأنهم أعداء ، ولهذا لا يخطئ من يقول إن آل مصر هم الذين ولوا محمد علي وحموا ظهره وشدوا أزره ، ولو تخلوا عنه لحظة لانهار بنيانه ، ولو وقفوا منه موقف موطنيه الألبان لضاعت أياديه سدى ولقضى عليه في ذلك الحين ، إذ أن السيد عمر : « أقام منهم فرق حلت محل الجنود الذين تخلوا عن أداء واجبهم ، فأصبحت القلعة منذ اليوم السابع عشر من شهر يونيه ، وكل من حولها من المحاصرين من أهل مصر وعامة سكان القاهرة ، ولا ينبغي لنا أن ننسى أسماء بعض زعماء هذا الشعب النبيل ، ولو كان هؤلاء من أفقر الطبقات وأضعفها ، ولترحم عليهم جاعلين إياهم رمزا للجاهيل من أبطال تلك الثورة : فقد خلفت لنا الأخبار أسماء حجاج الحضري وإسماعيل جوده وابن شمعة شيخ الجزائريين (١) »

عمر مكرم يقوم الثورة

وطالت مدة الحصار واستأسد المصريون وأبلوا بلاء طيبا ، وحاول الأتراك أن يأخذوهم بالحيلة والخديعة فلم يوفقوا ، وبدأت على بعض أفراد المصريين مظاهر البطولة والقدره على النضال والصراع ، واقتدر السيد عمر مكرم على قيادة الناس قيادة موفقة طيبة فكان حركة دائمة طوال هذه الأيام ، ينتقل بين أبواب القاهرة ويسرع من جماعة لجماعة يصدر الأوامر ويرسم الخطط ويدبر الأمور تدبير الزعيم الذي مارس الزعامة والقيادة ، واستمر الأمر على ذلك حتى استيأس السلطان من النصر على المصريين ، فلم يلبث أن أرسل إليهم فرمانا يقر اختيارهم ويثبت الباشا الذي طلبوا ، فكان وصوله فرجا من حرج ، وأحس

المصريون يومئذ كيف يؤتى الثبات أكله ، استقبله القاهريون كلهم عن بكرة أبيهم ، وساروا به « حتى بلغ منزل محمد علي باشا في الأزبكية ، وكان حجاج الحضري يسير في طليعة الجماهير وفي يده سيف مسلول وابن شمعة إلى جواره تعلوهم علامات الابتهاج والاعتداد بالنفس ، وفرق المرسوم الذي يحمله الرسول على الناس » (١) فلا مبالغة في القول بأن هذا اليوم العشرين من ربيع الأول سنة ١٢٢٠ هـ . والثامن عشر من يولييه سنة ١٨٠٥ يعتبر فاتحة نهضة الشعب المصري الحديث ، والبشارة الأولى ليقظة الشعوب الإسلامية في العصر الحديث .

وليس إلى الشك سبيل في أن عمر كان يتصرف إذ ذاك عن شعور وثيق بحق الأمم في تقويم الحاكم إذا مال عن الهدى ، وأنه لم يكن يفعل ما فعل جريا وراء جاه أو منصب أو مال ، فسرى أنه كان طوال حياته عزوفا عن المال زاهدا في الجاه منصرفا عن المناصب ، ولكنه كان شديد التعلق بالمبادئ . يفهمها حق فهمها ويرعاها حق رعايتها ، ومصدق ذلك هذا الحديث الذي جرى بينه وبين أحد أتباع خورشيد باشا . إذ قال مندوب الباشا : « كيف تثرون على من ولاه السلطان عليكم . وقد قال الله تعالى : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » : فأجابه السيد عمر جوابا يفهم منه أن الرجل كان يفهم مهمة الحاكم حق الفهم ويعرف حقوق الرعية في الرقابة على الحكام : إذ قال له : « ألا فاعلم أن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل : وهذا الحاكم الذي أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها ، فلقد كان لأهل مصر دائما الحق في أن يعزلوا الوالي إذا أساء ولم يرض الناس عنه ، على أتى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة البلاد منذ الأزمنة القديمة ، بل أذكر لك أن

(١) سيرة السيد عمر مكرم للاستاذ ابو حديد ص ١٥١

السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار في الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه ، وتلك مقالة تدل على فطنة ذلك الرجل وإيمانه بمبدئه وفهمه لحقه وواجبه واستعداده لبذل نفسه في سبيل العدل وصالح الناس ، وهي وحدها دليل على أن السيد عمر لم يكن رجلاً عادياً بل كان زعيماً صادق الفهم عزيز الإرادة ، لا يجبن ولا يخاف ولا يتردد ، وإنه قد قيس الكثير من آراء الفرنسيين وأفاد منها ، فليس في موروث الحكمة الإسلامية السياسية ما يؤيد السيد عمر في موقفه ، ولم يحدث أبداً في أية دولة إسلامية أن خوطب الأحكام بهذه اللهجة الصادقة الواضحة الجديرة بالاعجاب والنظر ، ولم يوجد بين المسلمين من يصارح الخليفة بحق الرعية في عزله إذا استبد أو أساء . لم يفعل ذلك أحد في ظل أعنى الأحكام وفي وجود أعظم العلماء ، فعمر يعبر هنا عن شعور جديد ورأى جديد ونفس متوثبة للحرية ، لا تكاد تحفل للموت أو تطلب العافية على مثال من نعرف من سروات المسلمين قبل ذلك ، فهذا المصري العريق يعد بلا نزاع أول الأحرار المسلمين ، وأولى بشریات البعث الجديد في أرض المؤمنين . وليت عمر اكتفى بذلك فما هو يعلن لمدوب الحاكم - أي مندوب السلطان - استعدادة للثورة قائلاً إننا نقاتلكم لأنكم عصاة قد خرجتم عن الحق وثرتم على القانون ، فهو لا يخشى المجاهرة بالثورة ويصر عليها إصرار المؤمن بما يفعل الواثق من حقه في فعل ما فعل ، العالم بجرائر ما يأتي ، فأين هذا من المملوك المتخون الغادر الذي يكره السلطان ولا يجسر على المجاهرة ، والذي يثور ولا يجسر على المقاتلة إلا في الظلام ، بل أين هذا من وزراء السلطان وعامة السراة والوجهاء في كافة بلاد المسلمين

عمر مكرم
أول الأحرار

بيد أننا نلاحظ أمراً آخر . هو أن عمر لم يقل بحق الأمم في حكومة نفسها ولم يجز لفظ الحرية أو الاستقلال على لسانه بل كان يبحث عن الحاكم

الصالح فقط سواء أ كان تركياً أو شركسياً . وهذا أصدق دليل على أن فكره لم يكن يترامى إلى الآفاق التى نعرفها نحن اليوم ، وأنه كان لا يريد لشعب مصر الاستقلال عن الأتراك أو القيام بشئون بلادهم بل لعل ذلك لم يخطر له على بال .

وكان محمد على يرقب الأمور تجرى بين يديه فلا تفوته العبرة
تضمها ولا السر تطويه ، فهاهو يرى بعينه كيف يقتدر هؤلاء المصريون
على الكفاح والنضال ، وكيف يعيون مكر الأتراك وخديعة المماليك
وقوة الاثنين معا ، وكان يعلم أن النصر نصرهم واليد يدهم ، وكان قد
قبل أن يرفضى منهم رقباء عليه إذا قدر له الوصول إلى الولاية ، فلما تم
له الأمر وأحس أنه أصبح حاكماً بدأ يفكر فى تحديد العلاقة بينه
وبينهم ، وكان رجلاً ذكياً أريباً يلبس حقائق الأمور بفطنته وزكاته ،
فعرف أنه لن يتفق وإياهم إذا بدأ العمل على النظام الذى رسم ،
لأن إفهامهم مراميه كان يستدعى الصبر الطويل وهو معجل لا يستطيع
أن يتأد ، لابد أن يحتج عليه المصريون ويرفضوا المضى وإياه إلى حيث
يطلب من وجوه الإصلاح والتجديد ، وكان يعرف أنهم لن ينظروا
إلى الإصلاح بعينه ولن يقدروه قدره ، فاحب أن ينحيهم عن هذه
الرقابة التى بسطوها عليه لأنها تضرهم ولا تنفعهم ، وكان يرى بعينه
ما لقيه مصطفى الثالث من معارضة الشعب فى إصلاحاته ، فاحب أن
يتخلص من تلك الرقابة حتى يستطيع أن يمضى فى سبيله حراً طليقاً .
وكان يعلم كذلك أن السيد عمر أقرب منه إلى قلوب الناس وأقدر
على قيادتهم فصار يخشاه فى نفسه وإن حمد له يده وأقر بفضله ، على
هذا الأمر عقد محمد على النية حين استوى فى حكم مصر وبدأ العمل
بنشاطه المعروف (١) .

موقف محمد على

(١) ويطلب أن محمد على كان قد أطال التفكير فى ذلك الأمر وأنه كان قد عقد العزم على تحية
المصريين والتخلص من رقابتهم إذا صار له الأمر على هذا يدل الحديث الذى دار بينه وبين الميسر

أما السيد عمر فكان يهيم في واد آخر ، لم يكن يفكر إذ ذاك في المعارضة ولا العداء ولا شيء من ذلك ، فقد كان قد أدرك غايته بتولية الرجل الصالح أمور الناس ، ولم يبق له ما يشغله إلا أن يعتكف كسابق عهده حين يقر بالله وترضى نفسه ، فلا يتحرك إلا لشفاعة أو وساطة أو رد مظلة ، وكان في تفكيره السياسى يعلم أن « أولى الأمر هم العلماء وحمة الشريعة والسلطان العادل » فكان يعتبر نفسه من العلماء وحمة الشرع الذين يشرفون على السلطان العادل ويردونه إلى حدوده إذا حاول الحيد عنها أو يعزلونه إذا اقتضى الأمر لأن لاهل مصر « أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض عنه الناس » وكان مطمئنا تمام الاطمئنان إلى محمد على فترك له الأمور واعتكف راضياً مطمئناً .

وانتظر محمد على الفرصة المواتية ليعلم صاحبه أن واجبه في العمل قد انتهى ، وإن أعباء القيادة قد سقطت عنه منذ الساعة ، ولكنه ظل محافظاً على ولائه له حذراً من غدريكون من جانب السلطان أو المماليك ، وقد أفاد محمد على من وده لعمر فوائد جليلة إذا استطاع أن يستعين به في رد الألفى عن دمنهور ، واستطاع كذلك أن يتخلص من محاولة الدولة نقله إلى سلا نيك بعد قليل ، وكان محمد على يبذل قصارى جهده في هذه الأيام ليظهر بمظهر المصرى الخالص الذى لا ينتمى إلى الأتراك فى شيء فكان « يسير فى طرق القاهرة يحى الناس وهو مرتد لباساً قريباً من لباسهم ، وقد خلع عنه لباس الجنود والأغراب ، واتخذ له عباءة كالبرنس تزيل بعد الشقة التى بين الناس وبينه » (١) وبذل المصريون

فيلكس منجان مؤرخ محمد على ومعاصره إذ قال محمد على بأنه سيحول بين المصريين وبين شئون الحكم والادارة

Felix Mengin, Histoire d'Egypte .

(١) سيرة السيد عمر مكرم : للاستاذ أبو حديد ص ١٦٠

من جانبهم أعظم الجهد في الاستمساك به ، وأظهر السيد عمر مكرم
همة عالية في ذلك السبيل ، فاستطاع أن يحصى دمنهور من الآلئى ويفسد
على الأتراك غايتهم ، وانتهى الأمر باستقرار الأمر لمحمد على وإلغاء
أمر النقل إلى سلاتيك .

خاتمة الممالك

وشهد محمد على بعينه آخر طيف من أطراف الممالك يمضى أمامه
على حافة الصحراء محزوناً كثيراً بعد أن أعجزه المصريون عن
الاستيلاء على دمنهور وخيوا أمله في التعاون مع الأتراك والانجليز ،
رأى محمد الآلئى يمضى في الصحراء من البحيرة إلى الصعيد ، ويتوارى
عنه خلف تلال الصحراء فازداد ثقة وأمناً ، وأيقن أنه آمن بعد ذلك
ما عاش وما بقى هؤلاء المصريون إلى جانبه . ولا بد أن ذلك الأمير
العظيم - محمد الآلئى - كان غارقاً في التفكير وقد ألقى رأسه على صدره
ومضى به الركب إلى الصعيد أيضاً محزوناً ، لا بد أنه عرف خطاه
وخطأ شيعته في معاداة أهل مصر والاشتداد عليهم ومحاولة تخونهم
والغدر بهم ، لا بد أنه أحس جرمه وندم على ما فرط في أمر هذا
الشعب بعد أن رأى ما وصل إليه محمد على بتأييدهم ونصرهم ، ولقد
روى لنا الجبرتي أن الرجل كان شديد الحزن بالغ الآسى وأنه كان
لا يفتأ يبكي مصر وآلها ومصيرها والسكمد يأكل نفسه ، بل لقد أكد
الجبرتي أن الرجل مات كمداً على ماضيه من أمور مصر ، وأسفاً
على ما أصابها يده أو يد غيره من الممالك ، فكانت خاتمة أروع
ختام لقصة الممالك .

المصريون يهزمون

الانجليز سنة ١٨٠٧

استوثق محمد على بذلك من أمر نفسه ، وغدا ينتظر الفرصة
المواتية حتى يخلص من رقابة السيد عمر ويمضى في برنامج الإصلاح
مسرعاً ، وقد سنحت الفرصة حين أرسل الانجليز حملة إلى مصر سنة
١٨٠٧ معظم جندها من المرتزقة لا لتحل مصر بل لترغم السلطان

على الخروج على نابليون والتخلي عنه ، وكانت أنباء هذه الحملة قد روعت المصريين فهموا لردّها ، وكاتبوا السيد عمر فارس لهم يستحثهم إلى المسير إلى رشيد ، فتجمع الناس في بيت القاضي واجتمعت الآلاف وأخذوا يستعدون للخروج لرشيد في حماس وقوة عظيمنتين . » وأخذوا يدبرون الخطة للدفاع عن عاصمتهم ، وعزموا على أن يتبعوا في ذلك خطة الفرنسيين (١) ، وتوافد أهل رشيد والوجه البحري إلى قرية الحماد حيث قابلوا الانجليز وهزموهم هزيمة منكرة ، وعاد محمد علي من الصعيد بعيد ذلك فذهب إليه السيد عمر وأعلمه بما جرى فرضى الرجل واطمأن ولكنه رأى في ذلك ما يهدد سلطانه : لقد كاتب الناس عمر مكرم ولم يكاتبوه هو ، واستوثقوا من أمر أنفسهم وأصبحوا يعتمدون عليها ويشعرون أنهم في غير حاجة إلى الحاكم أو الوالي نفشى محمد علي مغبة ذلك ولم يحدد عقابه على نفسه ، وكان برنامجا يقتضى أن يشرف بنفسه على كل شيء وأن يسكت كل صوت معارض حتى يستطيع المضي في سبيله ، فافهم السيد عمر وأصحابه أنهم لم يعودوا مكلفين بالدفاع عن البلاد بعد أن صار فيها جيش قادر وإن عليهم أن يلزموا حدهم فيدفعوا ما يطلب اليهم لعدة الجند وكفاهم بذلك فضلا . لم يفعل محمد علي بذلك إلا ما جرى به مألوف العادة في كل الدول الإسلامية ، إذ أن الحاكم الشرقي يحس في نفسه أن رعيته بعض من يخشى من العدو ، وإن عليه أن يأخذ نفسه بالتقية منها كما يتوقى أى عدو مخطر في الخارج ، حتى ليندر جدا أن نجد حاكما إسلاميا يجند جيشه من أهل البلد الذى يحكمه خشية أن يسخطوا عليه فيعزلوه ، فكانوا يفضلون الجند المؤجرين ليكونوا ملك يمينهم يضربون بهم الأهلين وغير الأهلين سواء بسواء . وكان هذا حال محمد علي مع

تخوف محمد علي
من تلك

لماذا تصرف محمد
علي على هذا النحو

المصريين ، رأى بعينه قوتهم واقتدارهم ، وكان يعلم - ويعلمون - أنه في الحكم بساعدهم وتأيدهم ، فازداد خوفه وأحب أن ينحيه عن الميدان فكان له ما أراد . وكان يعرف أن السيد عمر هو صديق هؤلاء الناس وملجأهم فأحب أن يبعده عنهم حتى لا يعودون يحتمون به ، وقد أسف عمر أسفا بالغاً لما فاجأ به محمد علي من الرد فأخذ يتباعد عنه ويحافيه . وهنا يبدأ نضال خفي على السلطة : فمحمد علي يرى عمر يقبض على زمام الناس ويحسب أنه يريد أن يحل محله ، وعمر يرى نفسه حقيقياً برقابة الحاكم ورده إلى حدوده إذا بنى أو طغى ، ولكن الفرق بين الرجلين كان عظيماً : فعمر عالم مسلم لا قبل له بالسياسة ولا بتقلباتها ولا بأحوالها ، ولا يرجو غير العدل وهدوء الحال ، ومحمد علي تربي في أحضان السياسة وعرك ألوانها وطال مراسه لأفانينها وتأمله في أحوالها ، فكان الكفاح بين خير وغير خير ، بين مدرب وغير مدرب ، وكان طبعياً أن ينتصر محمد علي وهو المدرب الحبير القادر ويتنحى عمر المسالم الذي لا يرجو الحكومة أو السلطان

نقى عمر مكرم
إلى دمياط

ولا يتسع المقام لتفصيل ما وقع بين الرجلين ، وإنما نجتزئ بالقول بأن محمد علي انتهاز فرصة احتجاج عمر على بعض أعماله ونفاه إلى دمياط وأنه استعان على ذلك بنفر من علماء مصر وسرواتها : بادروا إلى تخون زميلهم ليحظوا بمكانه وأمواله ، فظل الرجل في المنفى حيناً ، وكان محمد علي يحفظ له يده ويعرف له فضله ، فلم ينله بأذى ولم يمسس أمواله بضر كما فعل مع الشيخ الشرقاوى مثلاً ، وحاول محمد علي أن يترضاها بالمال وإن يكسبه بحسن المودة فأبى الرجل أن يتزحزح عما طلب من الإشراف والرقابة . والغالب أن الرجل لم يخضب لسلطة نزعته منه أو حق غصب على رغبته ، وإنما كان يخشى أن يستبد محمد علي بالناس وأن يسئ السيرة فيهم ، ولهذا لم يكدهم يعلم أن محمد علي قد تمكن من فتح

الحجاز حتى أرسل اليه يهنئه ، ففرح محمد علي بتهنئة عمر مكرم فرحا عظيما ، وأرسل اليه خطابا يفيض رقة وعذوبة بدأه بقوله « إلى مطهر الشماثل سنيها حميد الشئون وسميها ، سلالة بيت المجد الأكرم ، والدنا السيد عمر مكرم دام شأنه » (١) مما يدل على ما كان محمد علي يكنه في نفسه من الحب لذلك الرجل والتقدير له والعرفان بلحميله .

عودة عمر من المنفى

وعاد عمر إلى القاهرة ليجد محمداً علياً قوياً مهاباً ينشر على الناس ظلال العدل ويقودهم إلى معارج العز ومراقى السلطان ، فرضيت نفسه وأقام ساكناً مطمئناً ، ينتظر لقاء ربه ، ولكن الأيام لم تهاده حتى أيامه الأخيرة ، إذ ضج الناس بضريبة فرضها محمد علي على المساكن قهاقوا على السيد عمر يرجون وساطته ، فلم يلبث محمد علي أن أمر بنفى السيد إلى طنطا ، فمضى إليها في الخامس من إبريل من سنة ١٨٢٢ . ومات بعد ذلك بقليل . بعد أن وضع الأساس في بناء مصر الحديثة ، وبعد أن خلص بيلاده من الفوضى والاضطراب ، وبعد أن نقض عن شعب مصر أدران القرون ، وأنهضهم على أقدامهم وأعدهم ليلعبوا الدور الخطير الذي سيلعبونه في السياسة العالمية بقيادة محمد علي العظيم .

هل كان محمد علي مصيباً في تنمية المصريين .

أكان محمد علي الحق فيما ارتأى من إبعاد جمهور المصريين عن ميدان السياسة والاستشارة وحده . أكان ذلك ضرورياً له لكي يستطيع المضي في خطته الإصلاحية ؟ يبدو أنه بالغ في التحوط حين سلك هذا السبيل ، إن سبيله كانت تكون أيسر وأهون لو لم يخرج المصريين من الميدان جملة ، فانه بات يشكو بعد خروجهم قلة الرجال وندرة الكفايات معه ، ولو لم يبادر إلى الاستعانة بهم في جيوشه لما استطاع أن ينتصر على الدولة الانتصارات التي أدركها ، نعم كان المصريون بعيدين عن أن يفهموا غاياته ومراميه ، وكانت عامتهم مستعدة للسخط

عليه إذا أجبرها على بعض ما تكره من وجوه التحضر ، ولكن لانزاع
في أن نفرأ منهم كان قديراً على مجاراته ومتابعته بعد صبر قليل ، وإن
بعض أهلها كانوا إذ ذاك في حالة معنوية تمكنهم من مجاراته وفهم مراميه
إذا تفاهم معهم عليها ، لو فعل محمد على ذلك لما شكوا الفقر في الرجال
والكفايات بعد قليل ، فقد كانت نفوس المصريين قد تفتحت في ذلك
الحين وتأهبوا للعمل العظيم ، فكان حالهم كجال الصبي الذي ينفعه
التشجيع والاطراء وإظهار الإعجاب ويقتله التخذيل والاعضاء وإظهار
الاحتقار والازدراء ، فلو قد شجع محمد على المصريين واحتمل منهم
ما يحتمله الأب من الوصب في تربية أبنائه ، لما شكوا الفقر في الرجال
بعد قليل ، ولما أخرجهم من طاعته وحبه وأوقفهم منه موقف العدو
بعد حين ، فقد تحمل المصريون في رفعه وصبا وجهداً بليغاً ، وقد
بذلوا في سبيله بذلاً كريماً ، فكانوا حقيقين لديه بالتربية والتعليم ،
وليس هناك أمة تهذبت وارتقت من غير معلم وليس هناك أمة
تسمو وتعلو مع انصراف حكامها عنها وتخذيلهم إياها .

لو فعل محمد على ذلك لضمن لإصلاحه قوة وثباتاً من روح
الشعب وقوته ، ولوجدت بذوره تربة طيبة تغيب فيها لتثبت نباتات
زكيا ، ولكان إصلاحه مس الأساس دون السطوح .. أما وقد
أبعد أهل البلاد فقد جعل عمله سطحياً زائلاً يقوم بقيامه ويموت
بموته ، ولو قد كان المصريون شركاء له في العمل لما أهدم عمله عن آخره
بعيد وفاته ، ولو قد تمخض جهده كله عن خلق طائفة من المصريين
تفهم الأمور فهمة لها وتحسن سياستها كما كان يحسنها ، ولو قد ربي معه
مدرسة من المصريين يقومون على نواحي العمل من بعده لكان ذلك
أجدي على البلاد من قونه ونصييين ، بل لو وجد لنفسه حصناً آخر
يحتجى به حين ضرب نابيير الاسكندرية .. لو وجد نفس الحصن الذي

حماء من قبطان باشا ولما آل أمره إلى الخاتمة المحزنة التي صار إليها آخر الأمر ، لو فعل ذلك لربح وربحنا ، ولربح الشرق الاسلامي وربحنا خطوات واسعة في ميدان الرقي والنهوض

ينبغي على القارئ أن يلاحظ بعض أمور قبل المضي في دراسة محمد علي والحكم على أعماله ، إذ بغير هذه الملاحظة لا يتأتى فهم الرجل وأعماله على وجهها الصحيح . بل قد يتعرض الباحث للخطأ الشديد في فهم هذا الرجل إذا هو أهمل الالتفات إلى هذه النواحي . فلنعرف أولا أن محمدا عليا كان تركيا شرقيا أولا ثم مصلحا حديثا ثانيا . كان تركيا عثمانيا في تفكيره وتربيته وطبيعته وغاياته ، نلاحظ في تصرفاته الأساليب التركية المعروفة من الخدق في تدبير المؤامرات إلى الميل إلى اتساع السلطان إلى الرغبة في الاستئثار بالسلطة والاستبداد بالرعية ، إلى الالتواء والتعقد ، إلى غير ذلك من الأمور التي نلاحظها بشكل واضح جدا عند غيره من الأتراك ، كان كذلك في أساسه وقبل كل شيء ، وغير ذلك أمور جدت عليه بعد ذلك أدركها بفكره الثاقب ونظره البعيد فحاول أن يستر بها طبيعته فأفلح تارة ولم يفلح تارات .

طبعة محمد علي

ولنذكر أن محمد عليا قام بأعماله في بلد متحضر لأهله ماض قديم في الحضارة والرقي والانتظام ، وأن الحالة التي وجدته عليها يوم بدأ أعماله كانت طارئا لا بد أن يزول ثم تعود البلاد سيرتها الأولى . فالأمة المصرية ليست أمة بدوية ولا همجية ولا طارئة في عالم الدولات ، وإنما كانت شعبا ذكيا متحضرا يفهم واجبه حيال الحكومة ويمهد السبل لمن يريد النظام ، وليست الدول المنتظمة ولا الرخاء الشامل ولا الفتوح الواسعة بالأمر الجديد على بني مصر . فلم يكن على محمد علي

شعبه من قابل للتحضر

أن يعلم بل يوجه ، وكان عليه أن يبدأ فتم الرعية ما بدأ ، بل لعلها لم تكن تطلب اليه أكثر من أن يشعرها بأن هناك حكومة قوية ساهرة تؤمنها على أرزاقها ، حتى تنشأ هي من تلقاء نفسها تعمل وتنشط فتبلغ من الرقي والانتظام مبلغا عظيما

ومن الخطأ أن نظن كذلك أن محمدا عليا كان صنعة دولة من لم يكن محمد علي صنعة فرنسا الدول أو ستارا تختبئ وراءه إحدى القوى الأوروبية ، فلم يكن الرجل آلة في يد فرنسا ولا صنعة من صناعاتها ، لأنه كان أذكى من ذلك بكثير . ودراسة أعماله دراسة دقيقة تدل على أن الرجل لم يكن أقل مراعاة للخواطر الانجليزية من مراعاته لحسن ظن الفرنسيين . بل الظاهر الذي لا نزاع فيه أن الرجل كان أحرص على كسب ود الانجليز منه على إرضاء الفرنسيين ، وقد كان الرجل يحس أن بالمرستون لا يرضى عنه ويسى الظن به ويكيد له . فظل شقيا بذلك مدى طويلا . وبذل الكثير من الجهد ليستعيد حسن ظن الانجليز به وإذا كنا قد أيدنا بالبرهان البليغ أن الفرنسيين لم يكن لهم أى أثر في ولايته ، فمن اليسير جدا نستنتج بعد ذلك أن الدعوى القائلة بأنه كان صنعة فرنسا لا تقل كذبا عن الدعوى الأولى . بل كان الرجل نفسه يشعر بأن ادعاء الفرنسيين صداقته لهم وتقديره إياهم يضره ولا يفيده . فهو يثير عليه غضب إنجلترا ولا يحميه من جرائر هذا الغضب ، ويخيف السلطان منه ولا يمنحه ما يأمن به غضبة السلطان ، ومصدق ذلك أنه أبى أن يفتح الجزائر لحساب فرنسا خوفا من غضب إنجلترا والسلطان ، ولو كان صنعة فرنسا للي طلبها مسرعا دون أن يحسب غيرها حسابا ، بل لعمل على إرضائها لا على إرضاء غيرها كما حدث .

وعسانا لا نتابع غيرنا فيما يسرفون فيه من لوم محمد علي على اهتمامه بشئون الحرب وحدها دون التفات صادق إلى أية ناحية أخرى من

لماذا انصرف محمد علي
لشئون الحرب وحدها

نواحي العمل والنشاط ، وعسانا أن نذكر - قبل أن نوجه اليه اللوم - أن محمدا عليا لم يكن فريدا في هذا الباب ، وأن روح العصر كانت تفرضه فرضا وتمليه إملاء . كان الرجل يعيش في عصر نابليون ، في عصر الحروب والثورات والانتصارات والهزائم ، في عصر انصرفت فيه قوى الدنيا كلها نحو الحروب والجيوش والأساطيل . وماذا فعلت فرنسا في هذه السنوات الأولى من القرن التاسع عشر غير إعداد الجيوش وتنظيمها وتسييرها نحو الميادين . وماذا كانت تعمل انجلترا غير تنظيم الأسطول وإعداد الجنود وإرسالهم يحاربون في نواحي القارة الأوروبية . بل ماذا كان قصر الروس وامبراطور النمسا يعملان ... وماذا كانت الدنيا كلها إلا مجدا حريا ونظاما عسكريا فحمد على إذن يمثل عصره ولا لوم عليه في ذلك . بل لم يكن له عن هذا الاهتمام منصرف وهو سليل أمة حربية لم تعرف الحياة إلا في ظلال السيوف وريش القشاعم . ولم يكن الفكر العالمي قد تعلق بعد بالمثل العليا الاجتماعية ولا النواحي الثقافية التي نعتبرها اليوم أساس حياة الشعوب . بل لم يكن الحاكم ليدخر لأمته من القوة أحسن من جيش قوى يرهب به جيرانه

وسائل محمدي وغاياته

ولنلاحظ كذلك أن خلافا جسيما كان يوجد بين وسائله وغاياته في كثير من الأحيان ، فقد كانت وسائله الحديثة كفيلا بأن تجدى عليه أعظم الجدوى لو طلب منها غايات حديثة ، ولكنها لم تكن لتعين على إدراك الغايات القديمة التي طلبها ، فتتظم البلاد واستصلاح أرضها وتعليم أهلها وتقوية مراقبها شيء . . ومحاولة الفتح والاتساع وإنشاء الامبراطوريات شيء آخر . . والشيطان لا يتوافقان بل يتعارضان ، وكيف كان الرجل ينبغي أن تنتظم الزراعة ويسود الرخاء وهو لا يكاد

يبقى على الأرض مواطنًا قويًا صالحًا إلا قذف به في ميادين القتال ، وكيف كان يدخر المال للاصلاح والمشاريع ومن ورائه جيش عرمرم يحتاج إلى ميزانية تعادل ميزانية مصر عشرات المرات ، ثم كيف كان محمد علي يرجو أن يرقى بنفوس الناس ويرتفع بحالتهم المعنوية وهو يحصد شبابهم حصدا ويلقى بهم في ميادين الحروب ، فينفرهم من الحرب ، ويزرع في قلوبهم كراهية النظام والعسكرية ، كان لابد أن يوجد محمد علي شيئاً من التناسق بين غاياته ووسائله ، وبين غاياته وأحوال بلاده ، وكان لابد أن يجرى على شيء من النظام في أعماله ، فلا يكلف الناس إلا وسعهم ، ولا يهظمهم بأمر ثقيل تنبت بعده قواهم ولا يستطيع أن يفيد منهم شيئاً بعد ذلك

ولنذكر كذلك أن الرجل كان مرغماً في كثير من الأحيان على إتيان كثير من الأمور التي نعيها عليه ونأخذه من أجلها بالملامة ، لنذكر أنه كان مرغماً حين قذف بجنده في صحراء العرب لحرب الوهايين ، فقد كان والياً من ولاية السلطان ليس عليه إلا الطاعة ، وما دام السلطان قد أراده على ذلك فليأته طائعا مسلما . وقد كان الرجل مرغماً كذلك حين دبر للممالك المذبحة المشهورة في القلعة ، فقد تعذر عليه الاعتماد عليهم أو الاطمئنان إلى حل معقول في شأنهم فلم يكن له بد من الخلاص منهم على أي سبيل ، وما داموا لا يثبتون له في ميدان ولا يكاشفونه وجها لوجه ، فلم يكن له بد من الخلاص منهم على هذا السبيل لا على غيره .

محمد علي يعمل
منفردا

تلك أمور لابد من ملاحظتها حتى يصح حكمنا على أعمال محمد علي ويصح تقديرنا له ، فلا نكون معه على محاباة ولا عليه على ظلم واجحاف ولنذكر كذلك أن الرجل كان يعمل بمفرده ، لا يوازره أحد من أهل البلاد ولا من غيرهم ، فأما الأولون فقد كان استبد بالامر من

دونهم وأرغمهم على المضى معه دون أن يوضح لهم غايته فكرهوه من أول الأمر ولم يوازروه إلا على جبر واضطرار ، وأما الآخرون فقد كانوا أعداء له يخادعون ويسامونه ولا يكاد أحدهم يخلص له في قول أو في فعل ، وازاء هذه الحقيقة يهون كل خطأ لمحمد علي ، فلم يكن لفتح له أن ينفذ هذا البرنامج الواسع كله ثم يأمن الخطأ بعد ذلك ، بل كيف نطالبه بعد ذلك بأن تكون أعماله وافية كاملة لا يفرط فيها من شيء...

فكرة الشرفيين عن
الحكومات

بدأ محمد علي إقامة حكومته والناس لا يرون في الحكومات إلا أنها هيآت غاشمة من الظالمين والعباة ، وذلك لكثرة ما تواتر عليهم من عهود الظلم ومساءات الحاكمين ، وما كان الناس ليحسنوا الظن بحكومة ما بعد أن تقلبت عليهم مظالم حكومات الترك والمماليك بضعة قرون . فكان الناس يكرهون الحكومة بأسا من الحاكم الصالح لا عن جهل بفكرتها ، ومن هنا كان طبيعيا أن ينظر الناس بعين الريبة إلى حكومة محمد علي ونظامه ، فهم يتوقعون الشر في كل ما ييدر لهم من أعماله حتى لو بدا لهم جانب الخير منها ، فاذا افتتح لهم مدارس ودعاهم إلى دخولها حسبوا أن تلك مؤامرة يراد من ورائها الشر بابتائهم تخافوا وأجفلوا ، وإذا أقام مستشفى تخوفوا دخولها مخافة أن يكون ورائها شرا ، وإذا كرى ترعة اجتنبوها خشية المغارم التي ربما قدرها على مائها وحذرا من رجال الحكومة والسلطان ، وبهذا حاقت مظالم أسلاف محمد علي به وشقى هو بمرارتها وحده ، ولم يكن على المصريين لوم في ذلك ولا تثريب ، فمن أين لهم أن يحسنوا الظن بهذا الباشا الجديد وقد آذاهم كل باشا قبله ، ومن أين لهم أن يفتنوا إلى الخير البعيد الذي يقر بهم إليه بينما لا يجدون في حاضرهم إلا غصصا وشقاء ، ولا لوم عليه هو الآخر إذا كرههم وأساء الظن بهم وتجنب

أشراكهم معه في أعماله فقد كانت ظروفه تتطلب السرعة ، وكان محتاجاً إلى من يتابعه في غير تردد ولا حذر ، فإذا لقي منهم الخوف وسوء الظن فلا غرابة ينكر ذلك عليهم ولا يراهم يصلحون لشيء إلا لحمل الأثقال وسوق الحمير (١)

وربما بدا لنا موقف المصريين من محمد علي غريباً وأنكرنا عليهم كراهيتهم لأساليبه ونفورهم من مظاهر الإصلاح والتجديد التي استحدثها ، فهذا رجل يسعى لخيرهم فيأبوا عليه ذلك وينفروا ، ويحقق لهم استقلالهم فلا يبالوه ويسخطوا عليه السخط كله ، ولكن الحقيقة أن آل مصر لم يكن يسعهم إلا أن يقفوا من محمد علي هذا الموقف لبضعة أسباب :

أولها أنهم لم يخلصوا من المظالم والمساومات إلا منذ هنية قصيرة جداً ، فكانت قواهم واهنة ، وعزوماتهم منحلة وكانت الحوادث المتلاحقة التي تواترت عليهم في السنوات الأخيرة قد زادت ذلك الضعف فكان لا بد لهم من فترة من الراحة يستجمعون فيها ويستعيدون ما تفرق من قواهم ، فلما دعاهم محمد علي إلى موافاته وموالاته والخروج معه إلى ميادين الحرب ، والنهوض وإيابه لشئون الصناعة تخاذلوا عنه ، ولم يكن لهم من ذلك بد ولا محيص ، ولو قد أخذهم بالإصلاح على هينة دون أن يثقل عليهم بحرب ولا أسطول ولا ضرائب ثقيلة لتفطنوا هم إلى الخير الذي يعده لهم بعد أن يعوضوا ما فقدوا في العصور الماضية .

وثانيها أننا نتصور نظام الحكم في البلاد الإسلامية تصوراً بشعاً لم يكن يحسه أهل هذه الأزمان ، فإذا كانت المظالم كثيرة فقد كانت

(1) Dodwell : The Founder of Modern Egypt .
(Cambridge 1931) P 194

الحيل للأفلات منها كثيرة أيضاً ، فإذا طلب الحاكم مثلاً من الناس ضريبة عقارية توازي عشر قيمة العقار لما شقى الناس بذلك عشر الشقاء الذي تنصوره ، فقد كان في الامكان تقديم الرشى إلى الجباة والمحصلين فلا يجبون الضريبة إلا على جزء صغير من العقار . وكانت الحروب إلى ذلك أمراً يقع عبثه على الحاكم لا على الرعية ، فلم يكن ليطالب الحاكم رعيته بالخروج معه إلى الميادين والاستشهاد في سبيله ، وإنما كان يشتري الجند من ماله ويبيعهم يحاربون باسمه من غير أن يكون على الناس إلا غرم المال الذي يطلب ، أما محمد علي فقد طلب إلى الناس أنفسهم أن يخرجوا معه إلى الميدان وأن يخوضوا معه غمار البحار ، ومن ثم كان البلاء الذي ليس بعده بلاء . ولم يكن هذا الأمر غريباً على أهل مصر وحدها بل بقرمه أهل الشام أيضاً - وهم أهل حرب وكفاح - وكانت الأنظمة القديمة تترك الناس أحراراً فيما يأتون من أمر دون أن يكون عليهم حرج من حاكم أو قيود من حكومة ماداموا يؤدون للحاكم المال الذي يطلب ، وما داموا يتركونه وشأنه فلا يسألونه ولا يستدركون عليه شيء ، ومن هنا كان الناس يشعرون بشيء من الحرية » في ظل الأنظمة القديمة . فلما أراد محمد علي أن يفرض عليهم الأنظمة الحديثة ساء لهم ذلك ولم يروا فيه إلا « حجراً » على حريتهم وتدخلوا في شؤونهم فأسخطهم ذلك ونفروا من هذه الأنظمة ، اذ لم يعد الناس يستطيعون اخفاء شيء أو التصرف حسبما يريدون . ومن هنا كان طبعياً أن نجد شيخاً مستنيراً كالجبرتي ينفر من أنظمة محمد علي ولا يرى وجه الحق فيها . بل يشكو منها ويسخط عليها ، لأنه شعر بأن محمداً علياً يريد أن يحد من هذه الحرية التي كان الناس يستمتعون بها في حكم أعني المالك وأشام الأتراك

حريات الناس في
أنظمة الحكم القديمة

نفور المصريين من
الأنظمة الحديثة

وثالثها أن أنظمة محمد على كانت أمراً جديداً - وكل جديد غريب ،
وقد أراد محمد على أن يأخذ الناس بتغيير أساليب حياتهم وشئون
معاشهم فشق عليهم التغيير ، خصوصاً وهم لا يفهمون المراد منه .
ولا يصلون ببصارهم إلى الآفاق البعيدة التي كان محمد على يسوقهم
نحوها ، فاذا ذكرنا إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من تخوف الناس من
الحكومات عرفنا أن نفورهم من أنظمة محمد على واجتنابهم أساليبه
كان موقفاً طبيعياً يتفق مع أحوالهم . وكان لابد من فترة طويلة حتى
يتبينوا بأنفسهم الخير الذي يرجى من وراء هذه الأساليب

طبيعة اصطلاح
محمد على

ورابع هذه الأمور أن محمداً علياً لم يدخل هذه الأنظمة الأوروبية
كاملة بحسناتها ومساوئها ، وإنما جردها من هذه المحاسن في الغالب
فنظام التجنيد الذي أدخله لم يكن يشبه نظام التجنيد في فرنسا مثلاً
فالجندي الفرنسي كان يذهب إلى الجيش فتفرض له الأغطية الوافرة
ويكسى اللباس الفاخر ، وكان يجد في معسكره الطعام الكثير والطبيب
المعالج ، وكانت تطلق له بعض الحرية فيصيب نصيباً من المتعة فيما يفتح
من البلاد ، أما الفلاح الذي كان محمد على يحجره من داره إلى الميدان
فلم يكن يتمتع بشيء من ذلك . كان يعطى أخس الأجر ، ويكسى أقل
الكساء ، ولا يجد الطبيب المعالج ولا شيئاً من التسرية ولا جانباً من
المتعة ، ثم لم تكن مدة الجندية محددة ، بل كان يدخل الجيش دخولاً
أبدياً (١) ، فهو شهيداً أو كالمشهيد ، ومن هنا نفرت الناس من الجندية واقترنت
في أذهان المصريين بالويل والشر وأصبح الناس ييكون الداخل في
« الجهادية » بكاءهم على الذهاب إلى الآخرة ، لأنه لا فرق بين الحالين
في حسابهم ، وهم على حق في ذلك . وعلى هذا القياس كانت بحرية محمد
على ومدارسه ومصانعه ، حتى بعوثة العلية . ولهذا لم ير الناس من

(١) مذكرات غير مطبوعة للاستاذ شفيق غريال

هذه الاصلاحات إلا وجوه الشر وخفيت عنهم وجوه الخير فابتعدوا عنها وأنكروها كل الانكار .

محمد علي والمصريون

وكان طبيعياً أن يسيء محمد علي الظن برعاياه المصريين لذلك . ولو قد فكر قليلاً في حقيقة أمرهم لما أشجاه وأسخطه نفورهم منه وعدم مجاراتهم إياه . ولكنه كان معجلاً لا يملك من الوقت ما يفكر فيه ، كان يريد أن يأمر فيطاع دون سؤال أو تردد ، ولم يكن لديه من الفراغ ما يمكنه من تربية هذا الشعب واعداده في هواة ورفق ، فلم يجد بداً من الاستغناء عنهم والاعتماد على طائفة من الأتراك من جهة وطائفة من الأجانب من جهة أخرى . ولولم ينضج درفتي Drovetti قنصل فرنسا بالاستعانة بالمصريين ويصره بملكائهم المكنونة واستعدادهم الفطري لما فكر في الاستعانة بهم أبداً ، ولظل على حذره منهم لا يكاد يبالغهم أو يحفل لهم .

الأوروبيون ومحمد علي

ولم يكن موقع الرجل من الأوروبيين بأحسن حالا من موقعه من المصريين ، بل كان الأولون أسوأ به ظناً من الآخرين ، وقد شق محمد علي بهم أضعاف شقائه بالمصريين ، لأن هؤلاء كانوا ساخطين ولكن على صمت ، منطوين على أنفسهم لا يكادون يتوجهون إلى الوالي بنقد أو يجاهرونه بمعصية ، أما الأوروبيون فكانوا لا يترددون في إعلان سخطهم عليه وسوء ظنهم به ، بل من قناصل الانجليز في مصر والشام من كان يستمرى التهجم عليه ويجذ لذة في إحراجهم بما يشي ويسخط ، وكان محمد علي يعلم ذلك ويبذل وسعه ليرغمهم على حسن الظن به . إذ كان يعتقد في قرارة نفسه أن جانباً كبيراً من آماله قد يتحقق بمجرد ثقة أوروبا فيه واعتمادها عليه .

الانجليز ومحمد علي

كان الانجليز أضرب أعداء محمد علي وأشدّهم خطراً عليه وأكثرهم إساءة إليه . وقد حاول مؤرخوهم أن يعللوا ذلك بالقول بأنهم كانوا

لا يرضون عن « طبيعة » الرقي الذي استحدثته في مصر ، وانهم كانوا لا يرضون عن أساليبه ويرون فيها ألوانا من الظلم والارهاق لرعاياه ، وربما ذهب بعضهم إلى أن عدا الانجليز له راجع إلى تأكدهم من ضعفه وعجزه عن النهوض باعباء الدور الذي كان يريد أن ينهض به ، وانهم كانوا على ثقة من أنه لن يستطيع الحلول محل الدولة العثمانية وإيقاف التيار الروسي ، ولهذا وجدوا أن « التوازن الدولي » يقتضي حماية الدولة منه وإيقافه عند حده حتى تظل الدولة العثمانية على حالها ، ذلك لأن محمداً علياً كان رجلاً مسناً يعمل منفرداً وسط نيام . . . ومن المنتظر أن تدركه منيته بين يوم وليلة . . . فما العمل لو حدث ذلك . . . ماذا تكون النتيجة لو هدم محمد علي الدولة العثمانية اليوم ثم تهدمت دولته نفسها غداً . . . إلا يجر ذلك إلى نتائج سيامية خطيرة أقل ما فيها حرب عالمية بين الدول على تقسيم هذا التراث الذي آله ثم انفرط من بين يديه ؟

حقيقة موقف الانجليز
من محمد علي

يبد أن كل هذه تعللات كانت السياسة البريطانية تخفي بها أسباب سخطها على محمد علي وشجاعتها بنهضته ، وحقيقة هذه الأسباب لا تكاد تخفى على من يتأمل الأمور تأملاً دقيقاً ويسأل : لماذا كانت إنجلترا تحرص على بقاء الدولة العثمانية ؟ . فيعرف أن سبب ذلك كان ضعف تركيا . ولو كانت تركيا قوية لشمر الانجليز عن ساعد الجدد لهدمها والقضاء عليها . لأن مصالحها كانت تقتضي قيام دول ضعيفة على طول طريق تجارتها إلى الهند حتى تأمن على هذا الطريق ، فعارضتها في تقسيم تركيا لم تكن رحمة بها أو مراعاة لجانب الانسانية ، وإنما كانت خوفاً من أن يقع جزء من أراضي الدولة في حصة دولة قوية أوروبية فتهدد تجارتها بالخطر ، ومصدق هذا أنها سارعت فأصابته أخطر جزء من أراضي هذه الدولة حين سنحت الفرصة . . . فوضعت يدها على مصر وفلسطين

وامنت بذلك سبيل مواصلاتها . هذا إلى أن أفكار الساسة الانجليز بدأت تتجه إلى الاستيلاء على مصر بعد استيلاء فرنسا على الجزائر ، وتوغل الروس في آسيا واستيلائهم على البحر الاسود ، وتمكنهم من تسيير السفن البخارية فيه وفي أنهار روسيا ، إذ أحست إنجلترا أن مركزها في البحر الأبيض أصبح على خطر بوجود فرنسا ، وأن شمال الهند لم يعد آمنا لتقدم الروس ، ونادى بعضهم بضرورة إيجاد مركز لإنجلترا في البحر الأبيض . ولم يكن هذا المركز غير مصر (١)

نهوض محمد علي يضر
المصالح الانجليزية

وكانت لإنجلترا كذلك مصالح تجارية نافقة في بلاد الدولة العثمانية ، وكان سر انتشار هذه المتاجر خلق بلاد الدولة من المصانع أو معاهد الاتاج ، فكانت للإنجليز احتكارات قوية وتجارا نافقة لا يكاد يناقشها فيها أحد ، فلما نهض محمد علي أنشأ في بلاده المصانع والمعامل واستغنى بذلك عن الوارد الانجليزي ، فاسخطهم ذلك وتوجه القناصل إلى الحكومة الانجليزية بالشكوى ، وحاولوا أن يشوهوا أعماله ويتهموا بكل نقيصه وانذروا الدنيا بالبلاء من جراء أعماله وأنظمتهم ، وصادفت هذا الشكاوى هوى من نفوس الساسة الانجليز فبالغوا في تصويرها لمواطنيهم ، وزاد في سخطهم حدة أن محمد علي أزال الضرائب على الصادر والوارد في البلاد التابعة له ، فبعد أن كان مُصدّر القطن يدفع ضريبته تصدير قدرها ٣ في المائة أصبح يدفع ١٢ في المائة ، وبعد أن كان التاجر الانجليزي يدفع ٢ في المائة على ما يدخل من بضاعة في الشام أصبح يدفع اثني عشر في المائة ، فلم يلبث الانجليز أن أحسوا بأن الباشا يخرج صدورهم فرفعوا صوتهم بالشكوى والسخط ، وستروا هذه الأهواء بدعاوى السلام الدولي والنفور من أساليب الوالي . فبينما كان بلمرستون . يتحدى محمد علي باسم سلامة الدولة العثمانية كان يسعى بقناصله لدى الدولة ليقبض الثمن . . وما كان الثمن

(1) Hoskins : British Routes to India. (New york; 1928) P.142

إلا تجديدا لامتيازات الانكليز في مصر نفسها سنة ١٨٣٨ (١) الانجليز يهتمون بمحمد علي بملااة فرنسا

ومسألة ثانية كانت تسخط انجلترا على محمد علي وتحفز همتها إلى القضاء عليه ، وهي اتهامه بأنه كان آلة من آلات السياسة الفرنسية ، وصناعة من صنائعها ، وقد سبقت الإشارة إلى خطأ المؤرخين الفرنسيين فيما يدعونه من أنهم أصحاب الفضل على محمد علي وأنهم رفعوه إلى هذه الدرجة التي صار إليها ، وأنهم كانوا عماده في كل ما أراد من اصلاح وما نهض به من عمل ، ومن ثم تخوف الانجليز من محمد علي وتصوروا الفرنسيين يستترون في أردانه فصارحوه بالعداء واشتدوا في ذلك ، ظنا منهم أنهم يحيطون بذلك مسعى من مساعي الفرنسيين ويفوتون عليهم غرضا من أغراضهم

تلك كانت الأسباب الحقيقية التي أغرت انجلترا بمحمد علي وأوقفتها منه موقف العداء ، ولا محل للسو بالانجليز عن الأنانية والنفاق واعتبارهم أنصار الحق والعدالة حيثما كانوا ، ومسترى كيف حاقت بمحمد علي من جراء هذه العداوة مصائب وويلات شتى

هذا وكان اتساع محمد علي وامتداد أياده في السودان وبلاد العرب والشام يخيفهم ويحد من مطامعهم ، فاما استيلاؤه على السودان والحجاز فقد جعل البحر الأحمر بحيرة مصرية ، وهذا ما لم يكونوا ليرضونه ؛ ولهذا عجلوا باحتلال بريم على الشاطئ الا فريقي ثم عدلوا عنها إلى عدن على شاطئ بلاد العرب ، وأما إكمال فتح بلاد العرب فهدد سيادتهم على خليج فارس وزاد تخوفهم منه أن الرجل بدأ يساهم في تجارة الهند فسير سفنا له في هذا الخليج فاستخطهم ذلك وآذاهم ، وكان وجوده في الشام يعوق مساعيهم في الاستيلاء على الجزيرة

العراقية والملاحه في الفرات في طريقهم إلى الهند ، إذ كان الشام في قبضته في نفس الوقت الذي بدأت بعثة الكابتن كسني Chesney تقوم باختباراتها في مياه الفرات وطرق الشام ، فكان وجود محمد علي سببا في بعض ما لقوا من العقبات

موقف الفرنسيين
من محمد علي

أما الفرنسيون فقد اختلفوا مع أنفسهم ولم ينفقوا من الوالى موقفا واحدا أو مفهوما ، فقد جاهدوا بالاعجاب به ومناصرته ما أمكنهم الجهر ، ولكن عطفهم عليه كان « افلاطونيا » ، أى اقتصر على نية الخير وحسن الرجاء ، فخذلوه في كل مناسبة احتاج فيها إلى المعاونة الجدية ، بل حاربوه برجالهم وسيوفهم في تارات شتى ، وقد كان الرجل يحسن الظن بهم إلى حد كبير ، وكان إلى آخر لحظاته على أمل الخير فيهم والعون منهم ، ولهذا لم يلبث العجب أن مله حين وجد فرنسا تناجزه العداوة وتعقد الخناصر مع انجلترا عليه .. وحينما حاول قنصل فرنسا كوشليه M. Cochelet أن يبرر موقف دولته ازاءه بقوله « إن المسألة ليست مصرية بل شرقية وأوروبية ايضا إن فرنسا ايدتك ولكنها لم تستطع أن تتحلل من روابط السياسة التى تربطها بأوروبا وبنجلترا خاصة » .. لم تجز هذه التعللات على هذا الشيخ المثار المحزون وأدرك آخر الامر حقيقة هؤلاء الفرنسيين فقال « لست أطلب أن تتخلى فرنسا عن احلافها لخاطرى ، وإنما وددت لو أقصرت فلم تقف منى موقف العداء » (١) . وليت ضمير فرنسا احس بهذه الشكاة الصادقة التى توجه بها إليها هذا الرجل الصادق من كل نفسه .. ليتها أحست بذلك فلم تجر فى الكيد له إلى هذا الشوط البعيد

(1) Driault : L'Egypte et l'Europe. (Caire). Vol I
P. LXIM et LXIV

اعوان محمد علي
من الفرنسيين

وعسى من يقول أن مساهمة الفرنسيين في أعمال محمد علي وإسراعهم للعمل معه ومعاوته في مشاريعه ينهض حجة تدحض هذا الرأي ، وتؤكد أن فرنسا كانت لا تغادر جهدا في سبيل محمد علي إلا بذلته راضية قريرة العين ، وتلك حجة أبسط مايسقطها أن هؤلاء الفرنسيين الذين خفوا لعون محمد علي لم يكونوا من طراز الرجال الاقذاذ الذين تهديهم دولة لصاحبها ، وإنما كانوا من النفاية التي تتخلص منهم بلادهم على هذا السبيل ، فلم يكن هؤلاء الفرنسيين الذين اعانوا محمدا عليا بالا كفاء (خلا الكولونيل سيف) الذين يمكن الاطمئنان اليهم والركون إلى خبرتهم ، بل كانوا ذوى كفايات محدودة جدا كما تدل على ذلك أعمالهم التي كانوا بها . . وأمامك القناطر الخيرية التي أقامها لبنان تؤيد ما نقول ، هذا إلى أن هؤلاء الرجال لم يكونوا مبعوثين من قبل الحكومة الفرنسية ، وإنما دخلوا خدمة الباشا عن رغبة في الكسب والمغامرة لا غير

محمد علي وتركيا

أما موقف الدولة العثمانية منه ، وموقفه هو من هذه الدولة فوضعه الفصل التالي من هذا الكتاب ، وإنما يهمنا أن نذكر أثر هذه العلاقات بينه وبين الدولة في حكومته ونظامه . لكي نعرف هذا الأثر ينبغي أن نسأل . هل كان محمد علي يستعد من بادىء الأمر ليلعب هذا الدور مع الدولة ، أو أنه انساق اليه رغما عنه ؟ الجواب نعم ولا .

فأما نعم فلأن حال الدولة في ذلك الحين لم يكن مما يبعث على الاطمئنان والاستقرار ، وكان ولايتها كلهم يعرفون تقلب أحوالها واضطراب سياساتها وميلها إلى الغدر بالحكام أو إرهابهم بالمطالب المشروعة وغير المشروعة . وكان محمد علي نفسه أولى الناس بأن يفهم ذلك ويأخذ الآهبة له ويتوقاه ، فقد مارس سياسة الدولة وناوش

رجالها قبل ارتقائه الولاية ، فعرف آخر الأمر أن هؤلاء الرجال لن يعفوه من الكيد واللدن إلا إذا اعتصم منهم بجيش قوى وعدة صالحة وإدارة حكيمة تستطيع أن تقيمه ولا تتخونه ، وبهذا كانت هذه العلاقات سببا من أسباب نشاطه الإداري ، وأما لا . فلأننا نستبعد أن يفكر محمد علي من بادىء الأمر فى أن تصاريف الأيام ستضطره إلى حرب الدولة ومطاولتها واجتياح أرضها والإشراف على القضاء عليها ، وأغلب الظن أن الجيش كان يعد فى بادىء الأمر « للتخويف » والاشعار بالقوة التى تكبت الكائد وتحبط الساعى ، ولهذا بادر إلى إجابة طلب السلطان حين ندبه لحرب الوهابيين وبذل فى هذه الحرب جهده لكى تظهر هذه القوة ..

لم يكن عصر محمد على يطالبه بأكثر مما فعل ، وإذا قارنا الأمور التى استحدثها فى البلاد بما كان فيها قبل مجيئه لتجلت لنا عبقريته واقتداره ، بل لعل عصره يتألق لو قارناه بمن أتى من بعده من أبنائه و سلالته .

وأعمال الرجل ناطقة بذلك تدل عليها الأرقام والمبالغات .. فهذا رجل يبلغ متوسط إيراداته السنوية حوالى النصف مليون من الجنيهات على أحسن التقدير ، فإذا قلنا أن ميزانيته انتظمت على هذا المنوال مدى ثلاثين سنة لكان مجموع ما اتصل به من إيراد خمسة عشر مليوناً من الجنيهات . فتصور أن الرجل أنشأ من المصانع والمعاهد فقط ما قدرت قيمته باثنى عشر مليوناً من الجنيهات .. ومن الملايين الثلاثة الباقية أنشأ والقناطر الخيرية والمحمودية وميناء الاسكندرية والابراهيمية وقلعة القاهرة . بنى أسطولين فى كل منهما عشر سفن كبيرة .. واستطاع أن يمون

جيشا عدته مائة ألف بضع عشرات من السنين ، وانفق على حملة
الوهابيين وحروب اليونان وحروب الشام وفتح السودان . وأرسل
الاموال الى القسطنطينية واشترى ضباطا ورجالا في أوليات أيامه وأخرياتها ،
تصور هذه الميزانية الصغيرة واذكر مانشأ في «حدودها» من الأعمال
الباقية تعرف أى مدبر كان هذا الرجل ، وأى حكيم عالم بشئون المال
حتى قام بذلك كله ولم يقرض ما يما واحداً . . بل استطاع في معظم
أيامه أن يحفظ النسبة بين الدخل والمنصرف . فكان لديه دائما مبلغ
احتياطي كبير نسبيا

حقيقة كان الكثير من أعماله سطحيا وصار أكثرها إلى زوال ،
ولكن الرجل ليس هو المسئول الوحيد عن ذلك . . فقد غرس البذرة
وكان على خلفائه والقادرين من رجال أمته أن يتعهدوها بالعناية
والثمير . . ونقول القادرين من أمته ، لأن الغالية من أمته لم تكن
على درجة من حسن التقدير لتعرف ما يعود عليها من الخير يقاء هذه
المصانع والمعاهد . فكأن على خلفائه ورجاله أن ينفقوا ما ملكوا من
جهد والمحافظة على هذه المعاهد والمؤسسات باقية حتى يعرف الشعب
جدواها ويقدرها قدرها فينمض لحمايتها والمحافظة عليها ، هذا ولم يكن أحد
من معاصريه — في مصر أو أوروبا — لينظر بالعين التي تنظر بها
الآن ، بل كان معظم المنشآت التي انشئت يومئذ في أوروبا نفسها
سطحيا ، وما كان الفرنسيون بأحكم من محمد علي في تشييد امبراطوريتهم
التي ملئوا بذكرها الآفاق .

بيد أن محمدا عليا لم يكن مجدداً غالبا في التجديد . ولم يقلب نظم
العمل والحياة في مصر رأسا على عقب ، كما قد يقع في أخلاد الكثيرين ،
ولنما الحقيقة أن نظم الحياة ظلت على عهدة شرقية كما وجدها ، ولم
يستعمل الأساليب الأوروبية إلا لتهديبها واصلاحها فقط ، أو

لضبطها حتى تفي عليه غاية درها من المال ، فنظام الاحتكار الذي يعد أساس نظامه المالي والحكومي نظام شرقي سبقه اليه الكثيرون من حكام الشرق ، بل كان يعاصره في الهند وفارس وغيرهما حكام يتناولون التجارة ويحتكرون بعض أصنافها كما فعل . ولكن الرجل يمتاز عن هؤلاء كلهم بأنه عرف كيف يستفيد بهذا المال الذي وصل إلى يديه عن هذه الأساليب ، بل أفاد منه إلى حد أدهش معاصريه من الأوروبيين وحيروا ألبابهم . فقد كان كثيرون من الأوروبيين ينتظرون إفلاسه بين آونة وأخرى ، ولكنه لم يكن يلبث حتى يخيب ظنونهم . ويتخلص من أثقال الضرائب التي تهبط عليه ، ففي سنة ١٨٢٧ مثلاً أبهظته تكاليف حرب المورة وهبط النيل سنتين متتاليتين . . فتبادل القناصل التهانى بالفراغ من أمره . . أخيراً . . فاذا به يضاعف همته في إنشاء المصانع والاحواض في الاسكندرية ، وبعد أربع سنوات أخرى ، كان آخذاً في مشاريع تفوق حرب المورة نفقات وتكاليف (١) . وفي سنة ١٨٣٧ اطمأن المستر باركر إلى أن الرجل أعلن إفلاسه ولا شك بعد ما أنفق في حرب السلطان ، وإذا به يفاجأ بأن محمداً علياً قد أمر بدفع متأخرات جنوده ! ، فلم يشك باركر في أن الرجل قد عثر على كنز عظيم ، عثر عليه بمصباح علاء الدين (٢) .

أجل ، كان للرجل كنز عظيم لا يفرغ على كثرة ما يؤخذ منه ، ولم يكن هذا الكنز إلا تديره وحصافته في شئون المال .

طبيعة محمد علي الشرقية وليس أدل على شرقية محمد علي وأساليه من أنه لم يضع لماليته ميزانية أو شيئاً يشبه الميزانية إلا بعد زمن طويل ، بل كان يضع ما يريد إليه من المال في خزائنه وينفق منه بغير حساب مكتوب على أسلوب الحكام

الشرقيين من قديم الزمان ، ولكنه اجتهد دائماً في أن يكون منصرفه أقل من إيراده وظل على ذلك حتى وضع له وزير ماليته بوغوص بك حساباً منظماً كالمتبع في أوروبا بمعاونة الفرنسي جومار .

ودليل آخر على ذلك ، هو أن « الرعية » لم يكن لها حساب في مشاريعه ، ولم يكن لها حظ من خيراته وأرباحه ، فقد استصلح من الأرضين مائة ألف فدان وأدخل محاصيل جديدة وفيرة الزرع والخير كالقطن والتوت ولكن الفلاح لم يربح منها ملياً واحداً . بل عاد ربحها كله على الوالى وحده ، وظل الفلاح أجيراً مسكيناً مسخراً كما كان على عهد المماليك والأتراك . وقد كانت للرجل مصانع عظيمة تدر الربح العظيم . . . ولكن رعيته كلها كانوا أجراء لا ينالون من المال إلا ما يتبلغون به ، وكانت للرجل جيوش حارب فيها الآلاف من رعاياه واستشهد فيها آلاف كذلك ولكن أحداً من هذه الرعية لم يرتفع عن مكان الجندي المسكين الذى يؤمر فيطاع وحسبه ذلك . وهكذا كان الرجل شرقياً بل تركيا صمياً

ودليل ثالث على ذلك ، وهو أن أساس سياسته وخطته كان شرقياً . أساليب محمد على السياسية فكان الرجل ماهراً في تدبير المكائد ، قدير أعلى حيلها بالخداع والوقعة والتفريق وما إلى هذا ، كما رأينا في موقفه من زعيم المصريين عمر مكرم ، وكما ظهر بشكل جلي في مصانعه للمماليك واحتياله عليهم حتى تخلص منهم ، وكان يؤمن إلى ذلك بفائدة المال في السياسة وأثره البعيد في نفوس رجالها ، فأكثر من الرشوة لرجال الدولة والقناصل ، وقد جنى من ذلك ثمراً طيباً ، إذ اشترى ضمائر طائفة من قناصل الدول فأصبحوا أسرى فضله وعبداً إحسانه وظلوا على ذلك زمناً طويلاً (١) .

وكانت فكرة الرجل عن التعليم شرقية لا غربية . ليس المراد منها

تعليم الشعب و تثقيفه وتحسين حاله ، بل المراد اخراج نفريدخل في خدمته
و ينفى بحاجاته ، ومن هنا كان أول الاساتذة الذين جلبهم من أوروبا
إيطالي اسمه كوستي ، أخذ يعلم تلاميذه الرسم والحساب ، وكان أكثر
مدارسه صناعية ، وعلى هذا الغرار كانت بعوثة . ولكن فكرته لم
تلبث أن تطورت بعض الشيء . فبدأ يفكر في إنشاء مدارس للتثقيف
ورفع مستوى الأمة بعد ذلك بقليل .

يبدأ أن الرجل كان عملياً يعرف ما يريد بالبداية الهادية ، ويعرف
كيف يدركه بالفطنة والزكاة ، فلم يستغل عليه وجه العمل أبداً ، ولم
تشتبك في وجهه المسالك قط ، ولم يجعل نفسه مركباً لفصل من
القناصل ، أو غرا يركبه الشطار بالحيلة والبراعة ، وأعانه على ذلك أنه
كان حذراً لا يكاد يثق في أحد غير نفسه ، فصدر في كل أموره عن رأيها
وكان على الحق في ذلك فلم يكن فيمن حوله رجل — شرقي أو غربي —
يساويه في فطنته وذكائه .

ومن فضائل الرجل أنه كان صادق التقدير للتراث التركي الذي
انتهى إليه ، فكان يعرف ضرره وسوءه ووخامة عقابه ، فكان على
استعداد دائم للتخلي عنه أو عن بعضه ، فلم يتقيد بأشراط الدين
وحدوده وساهم في تجارة الخمر واحتكر العرق ، وأنشأ محاکم تجارية
تقضى بالعرف التجاري ولا تتقيد بأحكام الشرع التي كان المسلمون
يتقاضون في حدودها ، وأباح تشريح الأجساد وغير ذلك مما كان
معاصروه يتخرجون من فعله .

محمد علي لا يتقيد بالتقليد

ولنذكر إلى ذلك أن الرجل كان قد أدخل في الشيخوخة حين
استهل أعماله وإصلاحاته ، فكان عليه أن يسرع حتى يرى نتيجة أعماله
قبل أن يمضي حينه ، فكانت السرعة رائدة في كل شيء . . . فالعمل الذي

أسرع محمد علي في
كل شيء

يتطلب عشر سنوات لاتمامه لا بد أن يكون تاما في عام ، والخطة التي تستلزم عاما لانفاذها تنفذ في شهر واحد وربما في يوم فقط . . . وفي غمار هذه السرعة أخطأ الرجل جوانب شتى من التوفيق ، فلم يكن لديه الوقت للتجويد والاتقان والتجريب ، وكان هذا عاملا من عوامل ضعف أعماله وقلة ثباتها . نشأت كلها في يوم وليلة وضاعت في يوم وليلة غير مخلفة بعدها أثرا .



توجه محمد علي بهمته إلى نواحي الادارة جميعا . وتناولت أعماله نواحي النهضة كلها ، فباشر التجارة وأنشأ البحرية وكون الجيش ونظم المالية وأقر الأمن ورعى الصحة العامة ونهض بالزراعة واهتم بالتعليم . ولكن الجيش والبحرية كانا موضع اهتمامه وسر نشاطه كله ، لأنه كان في أشد الحاجة اليه لحماية نفسه في عصر كثرت فيه الحروب والوقائع والجيوش ، ويشهد التاريخ بالعبقرية لمحمد علي في ذلك ، عبقرية استطاعت أن ترسل إلى الميدان آلاف من خيرة العسكريين بحاربون مخلصين بشجاعة ومهارة ، يشهد له بأنه أقبل على البلاد وليس فيها جندي واحد جدير بهذا الاسم ، فاستطاع في فترة قصيرة جداً أن يحول مصر إلى « قوة » حرية من الدرجة الاولى يخشى بأسها ويحسب حسابها ، ملأ بها نواحي الدولة الاسلامية حربا ونصرا . . من السودان إلى بلاد العرب إلى الشام إلى الأناضول واليونان وكريد ، فأى توفيق ذلك وأى نجاح ، لقد أثبت هذا الرجل للرأى الأوروبي أن الشرق لا زال قادرا على إعداد الجيوش وتسيير الجحافل وكسب المواقع والانتصارات ولو لم تكن السن قد علت به حين تأزمت الأزمات واصطلحت عليه الدول ، لكان له شأن آخر مع المتحالفين عليه سنة ١٨٣٩ ، ولكنه كان يرى رجله في القبر ، ولم يجب أن يغادر الدنيا إلا وعرشه آمن .

جهود محمد علي
في الصناعة والزراعة

أما أعمال محمد علي الأخرى فيكاد شرها يعادل خيرها ، ولا نرى فيها شيئاً يستلزم عبقرية لقيامه ، فلا مصانعه تستوقف النظر ولا مزارعه تستحق الإعجاب ولا منشآته في البحر والبر مما يستحق الذكر ، وإن كانت كلها مجتمعة تصور نظرية الرجل عن النظام المالي للدولة ، وهي نظرية « الاستقلال الاقتصادي للدولة » ، وتمكينها من سد حاجاتها بنفسها ، اهتدى إليها هذا الرجل الذكي بفطرته السليمة ، ولم تهتد إليها أوروبا نفسها إلا بعد الحرب الكبرى ، وما هي الدول كلها تحاول اليوم أن تصل إلى ما حققه محمد علي قبل قرن من الزمان .

إيمانه بنظرية الاستقلال
الاقتصادي للدولة

ومن الملاحظ أن إيرادات مصر في أيامه كانت في صعوده يتناسب مع صعود مشاريعه واتساع دائرة أعماله ، ولم تزعزع هذه المشروعات نظامه المالي ، فظلت النسبة بين الإيراد والمنصرف محفوظة ، ولم يكن الرجل من الحكام الذين يدخرون المال ويبدلون الوسع في ملأ الخزائن بالذهب ، وإنما كان ينفق على مشاريعه وأعماله بسخاء ، ويعرف الوجوه التي يجمع من أجلها المال ، وتلك ناحية أخرى تميزه عن غيره من الحكام الشرقيين ، فقد فطن هذا الرجل إلى أن قوة الحاكم ليست بما لديه من ذهب وإنما بما في بلده من مصانع وما على سواحه من موانئ ودور صناعة وما في أرضه من محصول وما في مياهه من سفائن ، ولم يكن في أوروبا ملك يعاصره يفهم مهمة الحاكم على خير من هذا الوجه « فلو قد قسمت الأيام لمصر خلفاً لمحمد علي يرث مواهبه ومشاريعه لضربت البلاد لأهل الغرب مثلاً في الإصلاح السياسي لا يقل عن مثل اليابان ، ولكن أمراً واحداً ينفق عمره في تأثيل ملك سياسي ، لا يملك بداهة أكثر من أن يضع برنامجاً للتقدم الانشائي » . (١)



أغراض محمد علي
الاساسية

ماذا أراد محمد علي من ذلك كله ؟ .. ماهي الأغراض التي كان يرمى اليها من وراء هذه الحكومة التي أنشأها والقوة التي هيأها ؟ .. لقد ثبت أنه لم يكن يرجو فقط خير مصر وأهلها من وراء ذلك المسعى، وثبت كذلك أنه لم يكن من الحكام المثاليين الذين يصلحون للإصلاح في ذاته ولا يمكن القول كذلك بأنه كان يرجو انهض الاسلام وإقالة عثرته من أول الأمر ، فإذا كان غرضه من ذلك ؟

لقد بدأ يستعد لغرض بعيد من يوم استقر على ولاية مصر : بدأ يعد الجيش ويفكر في الأسطول وينظم نفسه ليدرك هذه الغاية التي طواها في نفسه ، فأى الغايات هي ياترى ؟

خوف محمد علي من
رجال الدولة

لا نزاع في أن محمدا عليا كان يلس ضعف الدولة العلية ويحس أنها مقبلة على نهايتها ، ولا نزاع في أنه كان يعرف أن سوء نظامها واختلال أمورها قد هبطا بها إلى الدرك الذي لا نهوض لها بعده ، ولا شك في أنه - يوم استقرت له الأمور في مصر - أحس بأنه لن يزال في خوف من رجالها - أي رجال الدولة - ما ظلت الأمور متصلة بينه وبينها ، ولا نزاع كذلك في أنه كان يعرف أن السلامة مكتوبة له في الخلاص منها والنجاة بنفسه من الهوة التي كانت تسير نحوها ، بهذا تنطق البيئات الأولى وتؤيده تصرفاته في أوليات أيامه وعلاقاته مع رجال الدولة والبارزين فيها ، وإلا فما كانت حاجته لاعداد الجيش العظيم في مصر من زمن مبكر جداً إذا كان قد وطن نفسه على أن يكون والياً عادياً من ولاية الدولة لا يظهر نحوها غير الولاء والطاعة ؟

١ - الدور الاول
الاستقلال بمصر

نستطيع إذن أن نقول أن آمال الرجل في هذه السنوات الأولى

كانت لا تتعدى الرغبة في الاستقلال عن الدولة وإقامة دولة قوية فيها
له ولأولاده من بعده

ولكن مصر أعطته أكثر مما طلب اليها ، لم يكد يبدأ العمل فيها
بنظامه وتديره حتى وجد خيراتها وازوادها تنثال عليه في وفرة
ظاهرة ، فاذا جيشه أضعاف ما طلب وسلاحه يوفى على الحاجة من
الاستقلال ويزيد . . وإذا بآماله تنمو مع قواته وازدهار حاله . .
وإذا به يمجّد نفسه على حال من القوة تفوق سلطانه وخليفته ، ثم لم
يلبث إلا قليلا حتى أحس أن الناس يرون فيه هذا الرأي ، ويدركون
أنه أصبح « أكبر قوة في الدولة الإسلامية » بل لم يلبث أن وجد
السلطان نفسه يعترف بهذا ويؤكدده ، ويستعين به على الخارجين عليه
الذين عجزت يده عن ردهم إلى الطاعة . . فيستنجد به على الوهابيين ،
وإذا به - أي محمد علي - يحقق الأمل الذي رجاه في نفسه والذي رجاه
الناس فيه ، فيهزم الوهابيين ويعيد بلاد العرب إلى طاعة السلطان

فاذا دخل الحجاز في زمامه فقد استتبع ذلك نتائج سياسية على
جانب عظيم من الخطورة ، أصبح محمد علي أمير مكة والمدينة وصاحب
الأمر في الحجاز ، وهو بعد أقوى قوة في الدولة الإسلامية ، ودولة
الخلافة عاجزة كل العجز عن أن تقيم نفسها . ومن هنا أخذ الناس
يتساءلون : من أحق بالخلافة . . أهذا العاجز المنبث في القسطنطينية
أم ذلك القوى الناهض الذي يملك القاهرة ومكة والمدينة ؟ بل لم
يملك إبراهيم أن كتب إلى أبيه يلح إلى هذا الأمر ويشير إليه -
من خلف حجاب - قائلا إن السلطان لن يذكر بعد ذلك على المنابر
كخادم الحرم الشريف (١) ، ولم يلبث الناس كلهم أن جعلوا يتناقلون

ب - الدور الثاني
اتساع آماله
إلى غير مصر

(١) الدكتور صبرى : الامبراطورية المصرية في عهد محمد علي ص ٢٨١
ومحمد القاري تفصيلا وفي هذه المسألة في الباب الرابع من هذا الكتاب

الفكرة ويرددونها ، حتى لتوقعوا أن يعلن شريف الحجاز أن صاحب الكعبة وحاميا هو خليفة المسلمين (١)

السياسة الأوروبية
تعين على اتساع
آمال محمد علي

وكانت السياسة الأوروبية في ذلك الحين تعين على ظهور هذه الفكرة وتميها في نفسه ، فقد كان ذلك أوان الصراع بين الانجليز والفرنسيين من جهة ، وزمان الكفاح بين الروس والانجليز من جهة أخرى ، ومن ثم وجد الفرنسيون أن مصالحهم تستدعي تقويته وإنهاضه ، بل فكر بعض الانجليز في الأخذ بيده ليوقف تقدم الروس .. وأخذ دعاة من الجانبين يتحدثون بذلك الى أنفسهم وربما تحدثوا إليه فيه ، « وأخذت الصحف والمراسلات الفرنسية الرسمية تغذى في نفسه الاعتقاد بأن إعلانه الاستقلال بنفسه سيلقى التأييد والعطف في كل مكان ، وزاده التفاتا نحو هذه الوجهة ما كان يرى من ظواهر العداوة التي كان السلطان ووزراؤه يطالعونه بها » حتى كتب كامبل من القاهرة الى بنسني في الشام يقول « ان التهديد ومظاهر العداء التي يبدىها السلطان نحو محمد علي لحرية بأن تزيده تعلقا بالاستقلال ، وبمحاولة تحقيق الغرض الذي لا أراه إلا مفكراً فيه دوماً وهو إنشاء خلافة عربية ، انه شديد الطموح بطبعه نحو القوة والابهة ، وأنه لينفرد من بين عامة المسلمين برغبة قوية تخالط دمه في أن يخلد اسمه في صحائف التاريخ .. ولقد طالما حالفه الطالع السعيد (٢) . »

موقف السلطان منه
يدفعه الى الوثوب به

وأى طالع أسعد لمحمد علي من هذه الاخطاء السياسية الكبرى التي اجتريها السلطان حياله ، نخدعه وغرر به وآذاه ، ولو قد وفى له

(١) من خطاب من باركر الى س كاتنج في ٢٣ فبراير سنة ١٨٣٢ (مكتبات وزارة الخارجية

البريطانية رقم ٧٨ — ٢١٣) عن دودويل وكامبل قتل انجلترا العام في القاهرة قوينسني قتلها

العام في الشام

السلطان بما وعد يوم طلب عونه في حرب اليونان ، لما وجد محمد علي فرصة يحقق بها أمله في الاستقلال التام عن السلطان . بل أى طالع أسعد من هذه الانتصارات المجيدة التي منحه الله إياها على جنود السلطان ، لقد أصبح بعد نصيين سيد الدولة بلا نزاع ، ودخلت في طاعته دمشق فلماذا لا يصبح خليفة المسلمين ، لقد كان السيف أصدق الحاكمين في مصائر الدول والخلافت فيما مضى ، فماذا يمنع محمداً علياً من التفكير في تحقيق هذه الغاية الإسلامية ، وليس عليه من حرج أوجناح إذا فكر في ذلك.

قوة محمد علي محمد
له سبيل السيادة

بل لم تلبث عواطف المسلمين كلهم أن أيدته فيما صبا إليه ، لقد استعان السلطان بالروس وألقى بنفسه في أحضانهم فإذا بعد ذلك ، وإلام طاعة هذا الخليفة الضعيف الذي يستعدى جند النصارى على جند الاسلام . هكذا كان الناس يفكرون في القسطنطينية نفسها ، وترامت الى محمد علي نفسه أخبار تؤكد له أن الناس هناك يرون فيه الحصن الأخير للدولة من الاخطار المحيطة والنوازل المتكاثرة (١)

ح - الدور الثالث
محمد علي يفكر في
اصلاح الدولة لامتثانية

يغلب على الظن أن محمداً علياً طرب لذلك ورجا أن يحققه ، ولكنه كان يعرف أن تحقيقه لن يتم بالسهولة التي كان الناس في القسطنطينية يتصورونها ، كان يعرف أن الانجليز لن يخلوا بينه وبين ما يريد ، فأخذ يفكر في سبيل لاقتناع هؤلاء أولاً ، ومن ثم كتب مذكرة وسلبها الى قنصل انجلترا ليعث بها إلى دولته ضرب فيها على الوتر الحساس عند ساسة الانجليز ، فأثبت بذلك حصاة رأيه وحسن

محمد علي يختبر
الانجليز

حيلته . ذهب في هذه المذكرة الى أن غايته الأولى إنما كانت القضاء على
سلطان الروس في تركيا ، وإعداد قوة كافية لا رغابهم على احترام استقلال
تركيا وفارس أيضا ، وأنه لم يرم من وراء احتلاله الشام إلى غير هذه
الغاية وأنه كان يرجو بعد موقعة قونية أن يحدث في حكومة الدولة في
القسطنطينية من التغيرات ما يحبط مساعي الروس لو أعاقته انجلترا
وفرنسا . وذكر أنه لن يلبث أن يعد جيشا عدته مائة وخمسون ألفا
من الأجناد لمعاونة الانجليز لا دراك غايتهم السامية وهي الخلاص
بتركيا وفارس من نير الروس ، ثم رجأ في آخر المذكرة أن تكون
العدالة الانجليزية إلى جانبه حين يعلن استقلاله لأنه سيفعل ذلك اذا
استمر السلطان على عدائه (١) . وبهذا أثبت الرجل ذكاه ورعى
عهد التاريخ في زكاته وبعد نظره ، نعم أن هذا الخطاب
لم يحقق الرجاء الذي علق عليه ، ولكنه دل على أن الرجل كان يحسن
التفكير في موقفه ، وأنه كان يزن الأمور وزنا عادلا دقيقا ، ومن
دلائل ذكائه أنه لم يتوجه برجاء كهذا للفرنسيين لأنه كان يعرف أنهم
كالطبل ضخامة صوت وقلة جدوى .

كانت نفس محمد علي إذن متعلقة بإنشاء دولة إسلامية جديدة ،
وكانت عدته كله وآماله كلها تتجه نحو هذه الغاية ولو لم يقف الانجليز
في وجهه ، ويقضوا على آماله لتحقيق غرضه هذا ، ولفتح في تاريخ البلاد
الإسلامية فصل جديد ، ولاتجهت الشعوب الإسلامية نحو القوة ، ولصار
لها مستقبل لا يقل عما صارت إليه اليابان كما قال دودويل .

د - النور الرابع
ياس محمد علي من بحث
الدولة العثمانية

(١) من رسالة من بوغوص بك الى كامبل في ٣ سبتمبر سنة ١٨٣٤ . عن دودويل ص ١٠٣

انشاء دولة إسلامية
عربية جديدة

فاذا يتس محمد علي من ذلك الأمل الواسع فقد اختصر آماله بعض الشيء. وقنع بما كان في زمانه ، وكان سلطانه يشمل في ذلك الحين مصر والسودان والحجاز والشام ، فأحب أن يستقل بهذه النواحي ، وأن ينشئ من الشعوب التي تتحدث العربية دولة إسلامية عربية ، فعاد يعرض على الانجليز هذا الرأي ويحس نبضهم حياله ، فخير الانجليز بين أن يؤيدوه في هجوم على القسطنطينية أو يعزروه إذا خرج على السلطان وأعلن استقلاله في البلاد التي يحكمها باسم الدولة ، ويبدو أن أمله كان قوياً في أن يوافق الانجليز على الرأي الثاني ، ولكن رجاءه لم يلبث أن تحطم إذ أبى الانجليز ذلك بحجة أنهم لا يستطيعون مناصرة ثورة على صاحب عرش من أحلافهم ، ولم يكن ذلك إلا حجة تذرعوها بها ليخفوا أغراضهم التي سبق بيانها ، (١) وزاد عليها سبب جديد أبان عنه بالمرستون في خطابه إلى السير ولیم كبل وهو الحذر من تسليم طريق الانجليز إلى الهند عن سبيل الفرات إلى محمد علي بعد أن أصبح في يده طريقها عن سبيل السويس (٢)

ذلك كان الغرض البعيد الذي كان محمد علي قد رمى إلى تحقيقه فحالت الأيام بينه وبين ما طلب كما سيجيء بيانه ، ولكنه حرى أن يستوقف انتباهنا لأنه كان محاولة جديّة لا قالة الدولة الإسلامية من عثرتها التي صارت إليها .

العقبات في سبيل
انشاء دولة إسلامية

يبد أن الدلائل كلها كانت ناطقة بأن هذا الأمل كان مآله الحبوط حتى لو لم تمنع إنجلترا في تنفيذه ، وذلك لعدة أسباب ، أولها أن هذه البلاد التي رجا محمد علي أن يجمعها في لواء واحد لم تكن بينها رابطة غير

(١) دودويل ص ١٣٣

(٢) دودويل ص ١٣٤

الدين واللغة ، وفيما خلا ذلك كانت تختلف فيما بينها أشد الاختلاف بحيث كان من العسير جداً حكمها زماناً طويلاً . وثانيها أنه كان لابد من محمد على آخر يخلفه ليقوم على شئون هذه الدولة ويتعهدا بفكر صائب ورأى حصيف وقدرة عظيمة ، ولم يكن في الميدان امرؤ آخر من هذا الطراز ، لا من سلالة محمد على ولا من غيرها ، وثالثها أن قيام هذه الدولة كان لا يحل الأزمة القائمة ، إذ ماذا يكون مصير القسطنطينية وخلافتها ، وقد فصل عنها جسدها وبقيت قائمة تنوشها الريح الهوج ولا تكاد تثبت للروس ، ورابعها أن الروس لم يكونوا ليخلوا بين محمد على وذلك الأمل ، بل كانوا خليقين أن يسعوا له بالملكة وسوء التدبير . وغير ذلك أمور كثيرة

هكذا حالت أوروبا دون بعث الدولة الإسلامية من جديد ، وأصرت على أن تبقى في حيث هي : ضعيفة عاجزة ينخر السوس عظامها ولا يجرو أحد على أن يتقدم إليها بعلاج . ولقد حاولت مصر — أي محمد علي — أن تصلحها وتبعث الحياة في كيانها الواهن فلم تستطع بل انتهى الأمر — كما سترى — بالقضاء عليها نفسها . فلامفر للثنتين — تركيا ومصر — من أن تصبرا لهذا المصير وتعملا الحيلة للخلاص والفرار من نيره ، فلنخلفهما في مكانهما لنطوف طوفة على الشعوب الإسلامية الأخرى لنرى أثر هذا الاتصال بأوروبا فيها .

اثر الحملة الفرنسية على
مصر في الدولة
العثمانية

كانت ضربة الفرنسيين في مصر قنبلة هائلة أفزعت الدولة وأقصت عليها هجوعها الطويل ، فأفاقت على عجل وأخذت تلتمس السبل للخلاص من هذه النازلة التي فجأتها على غير موعد ، ولو قد أحست في نفسها القدرة على دفع ذلك الشر بسلاحها لما كان ثمت مجال للحيرة ، ولكنها كانت قد عرفت أنها لا تملك من الجند والعدة ما يمكنها من مدافعة الأعداء ومغالبة الخصوم ، ومن ثم قصرت همها على محاولة التقرب من الدول

ذوات القوة والسيادة لتحتّمى بها وتعيش فى كنفها ، ولم يكن يوجد فى هذه الأيام من القوى التى يعتمد عليها غير الانجليز والروس .

وأحست الدول كلها بذلك فتسارعت إلى القسطنطينية حتى لا تفوتها حصتها عند التقسيم ، ومن ثم حفلت القسطنطينية بعدد حافل من السفراء والقناصل والمندوبين فوق العادة والقائمين بالأعمال وغير هؤلاء . من رجال السلك السياسى ، وأخذ هؤلاء كلهم يبحثون الموقف فلم يخطئوا فى « تشخيص » المرض ولكنهم أخطئوا فى العلاج ، وكان الشفاء الذى يطلبونه لهذا المريض هو ابتلاعه والخلاص منه على أهون سبيل .

احساس الدول
بقرب فرق الدولة
الثمانية

يبد أن اختلاف الأعداء كتبت السلامة للفريسة ، فوقفت كل منها عن كسب حذر الآخريات ، وأخذت كل منهن تحتال على الأخرى وتخاذعها وتغرر بها ، أخذ الروس يتقربون من الانجليز ويتوددون إليهم حتى يوافق الآخرون على تقسيم تركيا ، وفهم الانجليز أن ود الروس لم يكن فى حقيقته إلا خبا سيئاً ، كأنهم عرفوا بالفطرة ما تنطوى عليه الرسائل السرية التى كان يتبادلها ديتالنسكى مبعوث روسيا فى القسطنطينية وتشارتورىسكى وزير خارجيتها فى أكثر هذه الأيام فرفضوا اجابة الروس إلى هذه المطالب وأبوا الاشتراك وإياهم فى تقسيم الدولة العثمانية

اختلاف الدول
على تقسيم الغنيمة

يبد أن كلا منهما - روسيا وانجلترا - كانت فى حيرة من أمر فرنسا وعلى حذر منها ، وكان نجم نابليون الصاعديثير فى نفسيهما قلقاً . روسيا اذ حسبت أنه لا يبغي شيئاً بعد ابتلاع الدولة العثمانية والفوز بأرضها جملة ، ولم يكن العهد بعيداً يحمله على مصر منذ سنوات ، يبد أن الأمر لم يكن فى حقيقته كذلك ، فما كان نابليون يتنوى شيئاً نحو تركيا ، وما كانت فكرة تقسيمها لديه إلا وسيلة يخيف بها أعداءه أو يجتذبهم بها إلى صفه حسب الحاجة (١) ، ولهذا لن نجد له أى أثر إيجابى على كثرة

(١) عن نشأة المسألة المصرية للاستاذ غربال ص ١٨٤

ما نجد من مشاريعه وخططه في هذا الصدد ، وحتى بعد تلزت - بعد أن أصبح في إمكانه أن يفعل ما يريد دون أن يكون عليه حرج من ذلك - لم يكن يرجو من وراء مشروع التقسيم الذي عرضه وزيره تاليران على النمسا ، إلا إخافة روسيا وارهائها ^(١)

نابليون والمساءلة
الشرقية

بل كان نابليون يرجو مخلصاً أن ينهض الأتراك على أقدامهم فيغلقوا الباب في وجه الروس من جهة ويحبطوا مساعي الانجليز ويأخذوا عليهم طريق الهند من جهة أخرى ، ولكن تركيا كانت أعجز من أن تأتى من الأمر شيئاً ، لا لصالحها ولا للآخرى ، فقد كان الباشاوات في الولايات لا يربطهم بالدولة غير ولاء ظاهرى ، وكان الانكشارية لا ينفكون يثورون بالدولة ويعقدون الحناصر مع اللصوص سرّاً وعلانية ، وكانت عصابات السراق تصل بغاراتها إلى أبواب القسطنطينية ، وكانت مصر قسمة ضائعة بين المماليك والألبان ، وخرجت مكة والمدينة من يدهم إلى الوهابيين ، ولم يكن بين أنصارها أو خصومها خلاف على أن نهايتها أوشكت أن تكون ^(٢) فكيف تستطيع والحالة هذه أن تحرك ساكناً

نابليون يحاول إيقاظ
السلطان

ولكن نابليون لم يطق على هذه الحال صبراً ، ولم يلبث العجب أن ملكه من أمر هذا السلطان الذى يرى الأعداء يجتاحون بلاده فلا يتحرك لرد أحده منهم ، فأهاب به . أنت ! .. ياسليل آل عثمان العظام . . ألم يعد لك حكم ولا حيلة . . انهض ياسليم ! ^(٣) ولكن سليمان نهض ! لا عن انصراف عن النهوض ، بل خوفاً من الروس ، وهم يشرفون عليه من شمال ولا يعفونه من شر إذا هومد يد الحليف لعدوهم نابليون ، ويغلب على الظن أن هذا الأخير قد أدركه اليأس من الأتراك فأرسل سفيره سبستيانى يستطلع الأمر ويدرس شئون

1 Vandal Napoleon et Alexandre I, P. 4

2 Driault, Question d'Orient. P. 82

(٣) نفاة المسألة المصرية : ص ٢٠٠

الدولة ، فلم يكد هذا الرجل الماهر ينزل بلاد الدولة حتى وجد أمراً عجيباً ، وجد النفوس عطشى الى الخلاص والآمال حيرى تبحث عن مخرج من حرج الروس وضيق اليأس ، فلم يكادوا يرون رسول نابليون بينهم حتى هللوا لمقدمه واحتفلوا به أحسن احتفال سواء في ذلك أهل طرابلس والاسكندرية والقاهرة وعكا وأزمير وجزائر اليونان ، أو أية ناحية أخرى زارها ، ولم تكن دهشة الرجل لهذا وحده بل لما لمس من ضعف القوى الاسلامية حتى لقد أكد في تقريره الذي نشر في مجلة المونيتير سنة ١٨٣٠ أن ستة آلاف جندي فقط قديرون على احتلال مصر (١)

تقرير سبستان
شعر مخاوف الانجليز

أثار هذا التقرير مخاوف الانجليز ، ولكنه لم يبلغ من الاتراك مثارا ، فظلوا يطوون خوفهم حذرا من الروس ، فلما ترامت إليهم أنباء أوسترتز ، وأمنوا شر الروس هبوا دفعة واحدة يعلنون لسيد أوروبا ما أمسكهم الخوف عن اعلانه ، وبدأ بوضوح أنهم يرون في نابليون يداً أرسلتها العناية لعقاب عالم مسيء (٢)

ونفض سليم ، وكان يفكر منذ حين في الإصلاح ، ولم يكن له عن ذلك محيص وهو يرى الموت يدب في أوصال الدولة ويسرع بها نحو الفناء ، فلم يكد يفعل ذلك حتى قامت في وجهه الحوائل وأنذرتة النذر بشر مستطير ، وذكرته بأنه لا مفر له من أن يزيل حطام البيت القديم ليستطيع إقامة الجديد على أساس جديد

ولكن سبيله لم يكن ميسرة ولا مأمونة ، أريد السلطان أن يبنى جيشاً جديداً على النظام الحديث ؟ فما حيلته اذن في هؤلاء الانكشاريين الذين أصبحت الحرب في يدهم احتكاراً لا يكاد ينازعهم فيه أحد ،

بدء الإصلاح
في تركيا

Moniteur Afficel, 30 Jan, 1803

(١)

Driault, Op. Cit P. 82

(٢) عن خطاب من المستر ارينثو سفير انجلترا الى ملجراف : ١٥ فبراير سنة ١٨٣٦

أريد أن يستبدل بهم جندا جددا على « نظام جديد » ؟ إذن فليأخذ الحذر تقية من ثورة تكون منهم ، فهم لا يسلمون أنفسهم بهذه السهولة وما كان هؤلاء « التناقلة » أن يفهموا من دعوة الاصلاح الا انها مؤامرة لا يراد منها غير القضاء عليهم والخلاص من أمرهم

من ثم بدأ صراع طويل بين الجديد والقديم في تركيا : سلطان يرى الخطر بعينه ويوجس خيفة من المستقبل المظلم ، وشعب راكد مجهد ، ران على نفسه الكسل وفاضت روحه باليأس وأغلق أذنيه مخافة أن يسمع شيئا ولا يسمح بالتغيير أبدا . وهذا خلاف ما رأيناه في مصر ، فهناك شعب كره الاصلاح لأنه لم يفهمه على وجهه ، ولم يحاول أن يقف في وجهه أو يعوق سبيله ، وإنما سمح به لأن طبيعته — أى طبيعة الشعب — تسمح بالتقدم وتآلف التغيير — فتركيا شعب طال به الأمد في جهل الغرور وأحلام السيادة ووجد في قبول الاصلاح مسبة له وعارا ، فأصر على العناد ، وفي مصر شعب أعزل يستطيع فرض الاصلاح عليه وتحييه إلى نفسه . أما في تركيا فجيش على شيء من القوة لاسبيل إلى إرغام أنفه وإذلاله ، وهذا هو الفرق بين البلدين وهو السبب في تفوق المصريين على الأتراك في أوائل القرن التاسع عشر ، وتفوق المصريين على غيرهم من أمم الشرق في ميدان التقدم والتحضر .

حاول السلطان سليم الثالث أن يصلح ، فبدأ باصلاح الناحية الحرية فاصطدم بالانكشارية . وكان من حظ السلطان أنه لم يكن وحيدا كما كان محمد علي في مصر ، بل وجد من رجال دولته أنصاراً أقوياء على رأسهم البير قدار مصطفى (١) ولكن الانكشاريين انتصروا وأرغموا السلطان على سحب « الخط الشريف » الذي أعلن به تأليف

(١) يجد القارىء تفصيلا للاصلاح في تركيا في الباب الثالث من هذا الكتاب

الجيش الجديد ، ولم يسكن غليان النفوس بذلك إذ لم يزل السلطان على نيته ولم يزل الانكشارية على الحذر ، وانهى الامر بثورة أخرى من جانب الجند عزلوا بها السلطان وقتلوا سبعة من وزرائه ليستريحوا من شرهم .

انتصار الرجعية

وتعاقبت الثورات وكثرت الاضطرابات وخلف السلاطين بعضهم بعضا على يد الجند ، وانهى الامر بانتصار الرجعية والجمود ، وخمود فكرة التقدم والعودة إلى النوم (١) .

ولكن ذلك لم يكن إلا ظاهراً يستتر تحته أموراً أشد خطراً ، لقد نسي السلطان وجنده أن أفكار الحرية تنتشر مع الهواء ، وان دعاوة العصر الحديث لا تحتاج للرسميات لتقرر أو تلغى ، فليتنظر الحيان قليلاً على مضض اليأس وخوف الكيد واللد ، وليؤمنوا ماشاء بأن النهاية كربت أن تكون ، ولينظروا في يأس إلى هذا المصير الأسود ، ولكنهما عسيان أن لا يفسيا أن صروف الأيام سوف تخلف منهما كل مقدر ومنظور

وعلى هذا الغرار قس بقية البلاد الاسلامية ، سرى إلى نفوسها الاحساس بالخوف من الغرب والحضارة الغربية ، وزادها خوفاً وقلقاً ان أوروبا طالتها بمظاهر قوتها قبل أن تطالها بمظاهر حضارتها ، أو قل أنها فهمت وجهها الأول وغاب عنها وجهها الثانى ، ولما كانت شعوب الشرق قد نفضت أيديها من السياسة من قديم الزمان وتركت ميادينها للحكام والأمراء فقد وجدت أن الخطر الأوروبي لا يعينها وإنما يعنى حكامها وأمراءها ، لأنه — بعد — شأن من شئون الحرب

أرالاتصال بالغرب
في الشعوب الاسلامية

(١) ذلك ايجاز للحركة . ومجد القارىء عنها تفصيلاً في الجزء الخاص بالاصلاح في تركيا في

والسياسة وتصارييف الدول والحكومات وليس لها نصيب في ذلك كله ، ولهذا أحس بالخطر سلطان تركيا ووزراؤه ولم يحس به شعبها ، واهتم للأمر محمد علي ولم يحفل له عامة شعب مصر ، وروع للخطر شاه فارس ولم تبال به أمة الفرس لأنها حسبت الأمر ، لا يغنيها ولا يهددها بشر ، ومن يدري فرما رأت في غلاب القوى الغريسة لحكوماتها سبيلا للخلاص من هذه الحكومات ، وكان من المعقول جداً أن يقع من كثرتها موقع الرضى لو لم تكون أوروبا مسيحية ولو لم يعد هجومها على الشرق بغياً على الاسلام .

وكانت أمم الاسلام كلها قد وهن أمرها وحل فيها الضعف في مطالع العصر الحديث ، حتى فارس التي لم تكن لها بالدولة العثمانية صلة ، والتي كانت حرية أن تظل على حالها من القوة لقلة ما نزل بها من الاحداث وما عرف عن أهلها من اتصال النشاط واضطراد الجهود والنهضات ، ولكن الغالب أنها كلها - أى أمم الاسلام - كانت تمر في دور من الانحلال السيامى والاجتماعى ، يؤذن يبدء عصر جديد .

أحست فارس بخطر الغرب احساساً ظاهراً ، إذ تهددها الروس من بدء الأمر ، أى من أيام بطرس الاكبر . إذ كان سيلهم اليها بين البحرين - قزوين والاسود ، وبين النهرين أى تركستان ، وقد سهل للروس هذه المهمة أن هرقل حاكم إقليم جورجيا أسلم للروس بلاده في أوائل القرن التاسع عشر ، وبهذا انفتح الباب على مصراعيه ، ووجد الفرس أنفسهم وجها لوجه أمام الروس فملكهم خوف شديد (١)

وكان على عرش فارس في هذه الايام أمير على جانب من بعد النظر

الشاه فتح على

(١) نجد في الباب الثالث من الكتاب تفصيلاً وافياً لتاريخ فارس في العصر الحديث

وحسن الفهم وهو الشاه فتح على ، عرف بالفطرة - والتجربة أيضاً - أن قواه لن تثبت لطوفان لروس فأسرع يستعين بالسياسة الأوروبية يستفيد من أحوالها وصروفها ، ولا نزاع في أنه كان على اتصال بأوروبا لأنه لم يلبث أن عرف عداوة الروس للفرنسيين فعجل بإرسال مندوبيه إلى نابليون يستعديه ويحتمي به ، وكان نابليون يميل كل الميل إلى استعمال القضية الشرقية لإرهاب أعدائه الروس والانجليز ، فلم يكدرسل الفرس يلقونه في فنكنشتين في ٤ مايو سنة ١٨٠٧ حتى وقع معهم معاهدة من هذه المعاهدات التي كان لا يعنى ما يقوله فيها ، وإنما يوزعها ترضية للناس وسلوى ، فضمن لهم حقهم في جورجيا واستأذنهم في أن تمر جنوده ببلادهم في سبيلها إلى الهند .. وما كان يرجو من وراء ذلك كله إلى أكثر من أن يتسامع الانجليز بأنه لازال يدبر للهند ويلتمس السبيل إليها ، بل لعله لم يندب « جاردان » ويبعثه إلى فارس ليدرس خطة فتح الهند منها ، إلا لكي يشعر الانجليز أنه لازال يسعى لاحتفيم ، ومصادق ذلك أنه لم يكدر ينصرف على الروس ويكسب ودهم بعد فريدلند في ١٤ يونيو سنة ١٨٠٧ حتى نقض يده من فارس وغير فارس ، ولا عليه بعد ذلك : أكلها الروس أو أبقوا عليها فما كان له في عونها أرب ولا غاية

كان اللقاء الاول بين الشرق والحضارة الغربية شراً مستطيراً على شعوب الشرق الاسلامي ، لأنه كشف للغرب عن حقيقة هذه الشعوب فلم تعد يخشاها ولا يحسب لها حساباً ، وأخذ يرسم الخطط لابتلاعها . وتقسيمها ، وعادت إلى أذهان الغربيين ذكرى الحروب الصليبية فسار بعضهم - كالروس - في الامر وكأنه يثار ليوم حطين . وأدركت شعوب الشرق ضعف أمرها وهوان شأنها ، وعرفت

اللقاء الاول بين
الشرق والغرب

أن لا يحيص لها عن دفع الخطر الغربي بالأساليب الغربية ، فحاولت أن تستعين بأوروبا لادراك هذه الغاية فوجدت أوروبا تتخذها ولا تتبعها ذلك إلا بأغلى ثمن وهو الحرية ، بل أحست أن أوروبا كلها يد واحدة ورجل واحد وإن اختلفت النزعات والألوان والأحوال ، وعرفت أن أوروبا مستعدة لأن تفهم المسألة على أنها حرب صليبية ، فتقف كلها صفاً واحداً كما وقفت قبل ذلك بقرون .

إزاء ذلك لم يبق للشرق من أمل في غير نفسه ، فعاد إليها ينظر فيها ويبحث أمرها ، وقرنها إلى مارأى من حضارات الغرب وأحواله فاستطاع أن يفهم حقيقة علته ، وأخذ يلتمس السبيل للخلاص منها ، ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى وجد السبيل تؤخذ عليه فلا يسمح له بأن يصلح من أمره على هيئة ، حيل بين الوهابيين وما طلبوا من اصلاح المسلمين في أمور الدين ، وحيل بين محمد علي وبين تحضير مصر وأنقاضها ، وحيل بين سلطان تركيا وبين اصلاح بلاده ، وحيل بين شاه فارس وبين حماية نفسه من الروس ، فما العمل إذن ؟ فاما التسليم بالموت والهزيمة فأمر لم يحسن حينه ، وأما انتظار العدل والانصاف فانتظار للموت والفناء ، فلم يبق إلا التعجيل بالعمل ، وإذا كانت الحوائل تحول دون هذا التعجيل فلا سبيل إلا الثورة ، وما دامت « الدولة الاسلامية » بحالتها الراهنة عقبة من عقبات النهوض فليبدأ بالثورة عليها جملة ، ثورة عليها كنظام ديني وكنظام اجتماعي وكنظام سياسي ، ثورة شاملة يشترك فيها المسلمون أجمعون بدوهم وحضرهم ، فلعل الدولة الاسلامية ، أن تخرج من مرجل الثورة وقد رتها نيرانها فتستطيع أن تسير إلى الامام بخطى ثابتة بعد أن نقت عنها النار أو شاب الماضي وعقائيل القرون .

الثورة على الدولة
الاسلامية

تفكك الوحدة الإسلامية

قرأت الشعوب على ملاح عواهلها علام الخيبة ، وقد حاول هؤلاء الحكام أن يتكتموا أخبار الهزيمة أو يسترُوا أمارات اليأس فظلوا على حالهم من الترفع على الرعية والتعالى عنها ، كأن ما نزل بهم لم يهز منهم جناحاً ولم يثر روعاً ، فكانوا في ذلك مخطئين ، ولو أنهم فكروا منذ تلك اللحظة في الاستعانة بالشعوب ودعوها للتعاون معهم لكان لهم منها حي ومأمّن ، ولكنهم لم يفتنوا إلى ما فطن إليه أباطرة اليابان قبيل ذلك الزمان ، فقد فطن هؤلاء إلى أن رعاياهم أخنى عليهم وأرعى لعهدهم من أية قوة شرقية أو غربية ، ومن ثم بدأ ذلك التعاون الجليل الذي ارتفع باليابان من الحضيض إلى الأوج في سنوات ، ولكن حكام الشرق كانوا يخكمون بوحى الماضى لا بوحى الحاضر ، فكان ذلك سبباً في هذه المآسى المتتالية التى ستغمر تاريخ الشرق الاسلامى فى ذلك العصر الحديث ، والتى ستحمل الوبال على الحاكمين والمحكومين معا .

وكانت الشعوب قد أدركت منذ حين ضعف حكوماتها وعبرت فى مناسبات عدة عن سخطها على هؤلاء الحكام وعدم اقتناعها بصلاحياتهم للحكم ، وسرى فى كثير من الاقوام الخاضعة لآل عثمان شعور بأن القائمين بالأمر قد وهن أمرهم واضمحل حالهم واجتاحتهم موجة الترف التى اتت الدول الاسلامية قبلهم . وأحس هؤلاء الاقوام بأن التاريخ يناديهم ليعتصموا دورة العمران التى تكررت على مسرح السياسة الاسلامية مثنى وثلاث ، فبدأت أقوام البدو تتحرك لتشن غارتها على الحضرة لتزيلهم وتبعث الحياة فى جسد الدولة الاسلامية من جديد .

هكذا نستطيع أن نعلل الحركات الاصلاحية التى نشأت فى بعض النواحي الصحراوية فى الدولة الاسلامية ، وليس من الصواب القول

سنيها بأن الأول هو الاتصال بأوروبا وانتشار آراء الحرية بين المسلمين كما يزعم نفر من المؤرخين (١)

لا نزاع في أن معظم الحركات التي ستحدث في العالم الاسلامي ستكون ناشئة عن الاتصال بأوروبا ، ولا جدال كذلك في أن الاتصال بالغرب والحضارة الغربية قد فتح عيون المسلمين ودفعهم إلى التفكير في الإصلاح ، ولكن القول بأن الحضارة الأوروبية أصبحت السبب الوحيد في كل ماسيقع في نواحي الدولة الاسلامية من الحركات والاحداث مبالغه لا يؤمن معها الخطأ ، فقد فكر المسلمون في الإصلاح قبل الاتصال بأوروبا بزمن طويل ، وتبينوا تماما أن القائمين بالحكم فيهم أصبحوا غير قادرين على القيام باعباء الحكم على الوجه المطلوب وان استبدال غيرهم بهم أصبح من أزم الأمور للاحتفاظ بكيان الدولة الاسلامية .

ذلك ان المسلمين درجوا على أن يزنوا دولاتهم بميزان الدين ، ويقدرُوا صلاحية حكامهم للحكم أو عجزهم عنه بمقدار محافظتهم على قواعد الدين واشراطه ، وهذا مقياس بين واضح ، لا يحتاج المسلمون إلى آراء الغرب ليعرفوه ، فما دام الحاكم مستمسكا باهداب الدين فحكومته بخير وعافية ، واذا تغاضى عن الدين وأهمل جانبه فحكومته باغية لابد من الخلاص منها .

المقياس الديني

يد أنه لابد من القول بأن الحضارة الغربية ساعدت على ظهور هذا الضعف من ناحية ، وأبرزت هذا السخط من ناحية أخرى ، فقد كان ضعف الحكومة الاسلامية لا يضير المسلمين ماداموا في أمن من العدو المهاجم الذي يهدد حياتهم وأرزاقهم بالخطر ، وقد كانوا في غنى عن الثورة عليها مادامت لها هيبتها وقوتها ، أما وقد رأوا بعيونهم

جيوشها تهزم وألويتها تنهافت ، أما وقد وجدوا الروس يعيشون بها والفرنسيين لا يرعون لها حرمة ولا مكانة فقد بدا لهم ضعفها واضحا ولم يعد للسلبيين بدمن أن يتداركوا أنفسهم قبل أن تصبحهم النازلات بخيلها . ومن هنا برز السخط وتجلي بعد أن كان خافيا مستورا .

وأيقظ الاتصال بأوروبا عوامل الحقد بين الأجناس فأوجد بذلك سبباً جديداً من أسباب الثورة على الدولة الإسلامية ، فرفعت الأجناس المتنافرة رموسها وبدأت تطالب باستقلالها وخروجها عن سلطان آل عثمان ومن هنا نشأت الحركات الاستقلالية في العرب واليونان وعامة شعوب البلقان

وتبينت دول أوروبا ضعف الدولة الإسلامية فأخذت تفكر في تقسيمها والخلاص منها ، فلما وجدت أن ذلك سيطول أمره أخذت كل منها تفكر في الاستيلاء على ما تقدر عليه من أراضيها ، ومن هنا فكر الفرنسيون في الاستيلاء على الجزائر والروس في الاستيلاء على فارس .

من هذا كله ، تجتمع لدينا سلسلة من الأحداث والثورات ثورات في كل مكان الداخلية والخارجية ترمي إلى الخلاص من الدولة العثمانية والقضاء عليها ، فثار الوهايون على نظامها الديني ، وثار محمد علي على نظامها السياسي ، وثار البلقانيون على حكمها ، وثار السلطان نفسه بنظامها الحربي ، وثار أوروبا بوجودها جملة

إزاء ذلك كله كان على العثمانيين أن يعرفوا أن علاج ذلك كله هو أن يشورواهم الآخرون بأنفسهم ، فينفضوا عن أنفسهم وضر الماضي بعلائه وعيوبه ويبرزون للعالم أمة جديدة في كل شيء تسير العصر الحديث وتقتدر عليه كما فعلت اليابان

الوفائيون

ثورة على النظام

الدينى للدولة العثمانية

فكرة الاصلاح الدينى عند المسلمين قديمة جدا ، فكروا فيها منذ منتصف القرن السابع الهجرى ، ونادى فيها منهم دعاة على جانب عظيم من الاخلاص والايمان والاقتدار وكان ظهورها موافقا لظهور الضعف فى الدولة الاسلامية ، وخوف المسلمين من انهيارها ، كما تأملوا فى إصلاح الدين صلاح السياسة . ولهذا نلاحظ توافقا عكسيا بين حال الدولة ونشاط الدعوة إلى الاصلاح : فكلما تصدع كيان الوحدة الاسلامية وبداعليها الوهن كلما اشتد المسلمون طلبا للاصلاح وتعلقا به ، ولهذا ستلاحظ أن حركات الاصلاح ستكثر وتشتد ويعظم اقبال الناس عليها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر : أى خلال الفترة التى ظهر الخطر على الدولة الاسلامية فيها واضحا جليا .

ابن تيمية

وقد بدأ هذه الدعوة عالم من علماء حران هو ابن تيمية (تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن محمد) قام ينبه المسلمين إلى ما وقعوا فيه من الفساد بسبب الانحراف عن جادة الايمان الصحيح فهاجم الحكام واتهمهم علانية بالمروق ومخالفة الدين وهاجم علماء عصره وانتقد طرقهم فى التعليم والافتاء والتشريع ، وهاجم العادات الشائعة فى زمانه إذ وجد فيها مخالفة للشريعة الحنيفة ، ولم يقتصر على ذلك بل « هاجم بقلبه ولسانه كل الفرق الاسلامية كالخوارج والمرجئة والرافضة والقدرية والمعتزلة والجهمية والكرامية والاشعرية وغيرها » و « طعن كذلك على الرجال الذين يعتبرون حجة فى الاسلام ، فقال على منبر جامع الصالحية أن عمر بن الخطاب

وقع في كثير من الاخطاء ، وقال أيضا : أن علي بن أبي طالب أخطأ
ثلثمائة مرة ، ولم يتردد في مهاجمة كثير من الأعلام الذين سبقوه
وانعقد اجماع الناس على تفردهم بالعلم والتفقه في الدين والفلسفة فهاجم
الغزالي بشدة كما هاجم محيي الدين بن عربي وعمر بن الفارض والصوفية
بوجه عام . (١) وبهذا ثار ابن تيمية وتلاميذه على نظام الدولة
الاسلامية الدينية ، ودعا الناس في كثير من الجراءة والقوة إلى اصلاح
شأنها وتقويم أمرها ، ووصف للناس سبيل هذا الاصلاح والتقويم
بأن نصحبهم بالرجوع إلى القرآن والحديث والاكتفاء بنصيبيهما ، كما
فعل مارتن لوثر حين دعا المسيحيين إلى إصلاح شأن دينهم بالرجوع
إلى الكتاب المقدس وحده (٢)

رحب الناس بابن تيمية واستمعوا إليه وأعجبوا به وتعصب له
منهم فريق ، ولكن دعوته لم تلق من التوفيق ما هي جديرة به لأن
الناس كانوا في زمانه مشغولين عن الاصلاح الديني بحرب التتار
وغيرهم من الشعوب التي تهددت المسلمين بالهجوم في ذلك الحين ،
وكانت دعوته كذلك خليقة بأن يعرض عنها الحضرة الذين عاش وتنقل
بينهم في مصر والشام ، ولو قد كانت دعوته في قوم من البدو لفعلت
فيهم فعلها منذ ذلك الحين . ولهذا ظلت دعوة الرجل على ركودها
زمانا طويلا حتى تأذن الله لها بان تصل إلى آذان بدو العرب في
جزيرتهم بعد ذلك بنحو أربعة قرون ونصف حملها إليهم محمد بن

(١) محمد بن شنب في دائرة المعارف الاسلامية . مادة ابن تيمية — للترجمة العربية

(طبع القاهرة)

(٢) سعادة الاستاذ حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين (طبع القاهرة ١٩٣٦)

عبد الوهاب الذي عاش في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي (النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري)

محمد بن عبد الوهاب

حول محمد بن عبد الوهاب مبادئ ابن تيمية إلى برنامج سياسي ، فقد عرف بداهة أن لانجاح لأرائه مادام الناس خاضعين لهذه الدولة العثمانية التي أصبحت تعتبر الإصلاح أياً كان لونه خطراً على كيانها وأضحت مع الجامدين إلماً على كل مصلح وناصح ، وكانت حياة أستاذه الأول ابن تيمية قد أكدت له أن لا أمل له في عون رجال الدين في الحواضر الإسلامية كالقسطنطينية ودمشق والقاهرة ، لأن هؤلاء الرجال قد تحولوا بمرور الأيام إلى موظفين رسميين جامدين ، لا يميلون إلى التغيير أو التطور أو الثورة ، وأصبحت لهم أرزاق موصولة ومراكز موموقة لا يجازفون بها في سبيل نظريات لا يؤمنون بها كثيراً ، وعرف كذلك أنه لا بد له من سند سياسي يعزز مبادئه الدينية ، لأن النظريات لا تنتصر بقوتها وصدقها بل بما يؤيدها من قوى السياسة ، فباعد نفسه عن هذه الحواضر وأوساط المدنية وعاد بأرائه ودعوته إلى البيئة المناسبة لها وهي البيئة الصحراوية التي تميل إلى الزهد والتشلف بطبيعتها ، وكانت طوائف البدو تنطوي على الكراهية والاحتقار لهذه الجماعات الإسلامية الحضرية المترفة ، وكانت ترميها بأنها كانت السبب فيما أصاب الإسلام من نكبات فاحسن ابن عبد الوهاب استغلال هذا الشعور ، واستطاع أن يكسب ود أمير الدرعية محمد بن سعود جد آل سعود الحاليين ، واستعان بقوته وسلاحه لكي ينشر مبادئه بين قبائل العرب بحد السيف حتى استطاع قبل موته سنة ١٧٩١ ميلادية أن يجمع جزيرة العرب كلها إلى لواء آل سعود ، وأن يفرض آراءه ويعاونه على أهل الجزيرة جمعاء . (١)

فانقطعت الصلة بين بلاد الدولة العثمانية وأصبحت خارجة عن طاعة خليفة المسلمين .

ابن عبد الوهاب
والاسلام الرسمي

لم تلق أفكار الوهابيين قبولا عند عامة المسلمين لأن القائمين بأمر « الاسلام الرسمي » في الحواضر الاسلامية تصدوا لهدم الدعوة وحرصوا على أن يشوهوا مبادئها لكي يثيروا السلطان عليها ، فأفلحوا في ذلك ، إذ وقع في ظن السلطان ورجاله أن حركة الوهابيين حركة انصافية ينبغي القضاء عليها عن أى سبيل ، وذلك لأن الوهابيين أعلنوا منقطعهم على كل الطوائف الاسلامية الحضرية التي استسلمت للترف والرخاء ، ولأنهم لم يقفوا عندهما الحد بل أخذوا يصارحون الدولة بالعداء والتحدى ، وأخذوا يعملون صراحة للاستقلال والانفصال إذ استطاع سعود الثاني الذي خلف أباه سنة ١٨٠٢ ، أن يفتح المدينة سنة ١٨٠٣ ومن ثم أرسل إلى السلطان ينهائه عن إرسال المحمل السنوي إلى الحجاز مصحوبا بالزمور والطبول ، وجرى في مخاوف الدولة أن الرجل يعد حملات لا تلبث أن تغير على العراق والشام (١) .

الوهابيون يشرعون
في الجهاد الديني

واشتد إيمان الوهابيين بأنفسهم حين ترامت اليهم الأنباء بهزائم الدولة أمام القوى الأوروبية واضطرارها إلى الخضوع لهذه القوى ، فنسب الوهابيون ذلك كله إلى تهاون العثمانيين في شئون الدين وأحسوا أن واجبه الديني يتطلب منهم أن يخفوا للدفاع عن حوزة الاسلام في هذه اللحظة التي أرادت فيها النصرانية أن تقضى عليه ، وهكذا فهم الوهابيون وغيرهم من الجماعات الاسلامية هذا الصراع الجديد بين الشرق والغرب على أنه عدوان من النصرانية على الاسلام ، وعادت الى أذهانهم ذكرى الحروب الصليبية الراقدة في عقولهم الباطنة ، فوقع في ظنونهم أن حماية الاسلام إنما تكون بالاعتصام بحبل الدين

(١) انظر تفاصيل غارات الوهابيين على العراق في الجزء الخاص به في الباب الثالث من هذا الكتاب

والرجوع الى أصوله ، والابتعاد عن كل جديد على اعتبار أنه بدعة تضر الاسلام وتضعفه في صراعه مع النصرانية .

أهمية بلاد العرب
للدولة العثمانية

لم تكن بلاد العرب من البلاد الغنية التي تحرص الدولة العثمانية على الاستيلاء عليها ، ولم يكن في موقعها ما يغري بالمحافظة عليها أو يساوى جهد الاحتفاظ بها ، ولكن بقاءها في يد الخليفة كان أمراً لا بد منه حتى تتم « شكليات » خلافته ، لا بد أن يكون خليفة المسلمين حامى البلاد المقدسة وصاحب الخطبة على منابرها ، ومن هنا كانت خشية السلاطين من أن يظن الناس بهم الضعف والوهن لعجزهم عن استرداد هذه البقاع .

لماذا عجلت الدولة
بالقضاء على الحركة
الوهابية

ولم تكن ثورة الوهابيين أخطر ما نزل بالدولة من الثورات والأخطار في ذلك الحين ، فان نواحيها جميعا كانت تفيض بالحركات الهدامة والمبادئ الانفصالية . وكانت الهزائم التي أصابت الدولة في ذلك الحين على يد الروس والفرنسيين قد أيقظت الرعية في كل مكان ودفعتها إلى التفكير في الثورة ، ولا يعال اهتمام الدولة بالبدء باخماد ثورة الحجاز الا بحرص السلطان على أن تتم له شكليات الخلافة حتى لا يهون أمره على رعاياه المسلمين ، وربما بالغ بعض المؤرخين فذهب إلى أن الدولة لم ترد من الاستعانة بمحمد على الا القضاء على قوته التي كان ماضيا في انشائها في ذلك الحين ، لأن جيش محمد على لم يكن قد بلغ إذ ذاك المبلغ الذي يخيف الدولة منه ويدعها إلى السعى للقضاء عليه وإنما الحقيقة ان السلطان أحس بضرورة الاسراع بالقضاء على هذه الحركة الثورية الناشئة ، ولم يجد في يده الجند الكافين للقضاء عليها في هذه اللحظة التي كثره الأعداء فيها ، ثم وجد أحداً يتابعه — محمداً علياً — قادراً على القيام بهذا العمل فكلفه به ، ولم يجد محمد علي بدأ من الطاعة والاذعان .

لا يهمننا تفصيل حوادث الصراع بين محمد علي والوهابيين ، (١) الوهابيون ومحمد علي وإنما يهمننا أن نلاحظ كيف سارت هاتان القوتان اللتان كانتا ترميان إلى غاية واحدة — وهى إحياء الدولة الإسلامية — أحدهما نحو الأخرى ، كان الوهابيون يريدون أن يعيدوا مجد الدولة الإسلامية من الناحية الدينية ، وأراد محمد علي أن يعيد مجد الدولة الإسلامية من الناحية السياسية ، وكان من خير الإسلام لو تعاونا وتصالحا ، ولكن صروف السياسة قضت أن تكون إحداهما حلف الأخرى ، فكأنما خنق الإسلام نفسه بيده .

أراد الوهابيون ومحمد علي غرضاً واحداً ، ولكنهما اختلفا في السبل التي اختارها كل منهما لأدراك هذه الغاية ، فأما الوهابيون فقد اختاروا سبيل الارتداد إلى الإسلام الأول ، لأنهم رأوا — وكانوا على حق — أن الإسلام كان بخير ما رعى المسلمون حدوده وأشراطه ، وأنه ضعف وهان أمره حين أهملوا حدوده واستهانوا بأأسسه ، وجرى في ظنهم ان العودة إلى التقشف والابتعاد عن البدع الدخيلة وتنقية العقيدة مما ليس منها يبتعث في نفوس المسلمين روحاً جديدة فيعودون كما كان أجدادهم الأول حماساً وحمية ، أى انهم فكروا في « إصلاح بدوى » ، يتفق تمام الاتفاق مع البيئة التي كانوا يعيشون فيها ، وكان برنامجهم هذا خليقاً أن يفلح لو أن الدنيا كانت في أيامهم كما كانت

(١) يمكن إيجاز حوادث فتح المصريين لبلاد العرب فيما يلى . اتفق محمد علي مع الشريف غالب في ينبع على التعاون للقضاء على الوهابيين ، وكان أهل مكة والمدينة وينبع ساخطين على الوهابيين لاشتدادهم في تطبيق مبادئهم ، ونزلت الحملة المصرية الأولى في ينبع سنة ١٨١٢ يقودها طوسون بن محمد علي . فانتصر طوسون أولاً عند بدر ثم عاد الوهابيون فأوقفوا به ، فلم يسع طوسون الا للتفكير الى ينبع بخسائر فادحة في الجند والمال . وسارع محمد علي فأرسل مدداً جديداً لطوسون ، فخرج من ينبع قاصداً المدينة فحاصرها حتى استولى عليها ، ثم سقطت جدة ففككت فاطائف في يده ، ولكن المصريين لم يلبثوا أن تغلوا عن هذه المواقف بعد قليل فسارع محمد عن إرسال ابنه ابراهيم فاستطاع الاستيلاء على الدرعية في ابريل سنة ١٨١٨ ودمرها وأسر قائد الوهابيين عبد الله ، وبعث به الى القاهرة ومن ثم الى القسطنطينية حيث أعدم فيها .

في أيام أجدادهم ، أو أيام ظهر عبد الوهاب : صحارى وبلاد قرية من الصحارى ، أو يوم كانت اليد موطن القوة ومنبع النهضة في العالم ، ولكنهم نسوا التطور العظيم الذى شمل الدنيا ، وغابت عنهم قوة الحضارة الجديدة التى استحدثها الأوروبيون ، ولم يكن الذنب ذنبهم ، فلم يكن ينتظر منهم أن يفكروا إلا على هذا النحو ، ولو أنهم اطلعوا على مظاهر الحضارة الجديدة وعرفوا مكانها من القوة لاخافهم ذلك وألقى الروح في نفوسهم . ولا يبعد أنه كان يفت في عضدهم من أول الامر ، ولو أنهم عرفوا سبيل الاستفادة منهما لما استطاعوا أن يفيدوا ، لأن الأساليب الأوروبية لا تنهض باعبائها غير الدول المنتظمة ذات المال الوفير ، ولم يكونوا على مال أو ثراء . لهذا سهل على محمد على أن ينتصر عليهم لأنه كان يحاربهم بقوة الحضارة الجديدة ، ولو لم يقض عليهم هو لقضت عليهم الحضارة الأوروبية عن سبيل أخرى . كما ستقضى على الحركتين المشابهتين لها بعد حين وهما السنوسية والمهدية .

كانت نهضة الوهاية غنية بالروح والايمان ، وكانت نهضة محمد على غنية بالرأى والمادة ، ولم يكن الاسلام لينهض إلا إذا اجتمعتا في يد واحدة ، وسيبضى على الأمم الاسلامية كلها حين طويل حتى تعرف ان النهوض الصحيح لا يكون إلا باجتماع هاتين الناحيتين . لأن الأوروبي الحديث روح قوى ورأى شديد — وهنا تغير صفحة العالم الاسلامى وتفلح حركاته كما سنرى .

استتبع فتح بلاد العرب نتائج سياسية هامة ، أولها أنه أعاد لخلافة آل عثمان هيبتها وجمع إلى لوائها العالم الاسلامى من جديد ، فقد كان انقطاع الحج قد روع المسلمين وقطع سببا من أسباب التواصل والتفاهم بينهم ، ولو قد استمر الحجاز خارجا على السلاطين لزاد عامل جديد من عوامل التفكك والانحلال في جسد الدولة الاسلامية . فهذا الفتح أعاد إلى

النتائج السياسية
لفتح بلاد العرب

الخلافة هيبتها الشككية على الأقل . وكان انتصار المصريين على الوهابيين أول حجر في زعامة مصر على العالم الاسلامي في ذلك العصر الحديث فقد انتهالت على محمد علي آيات الولاء والاعجاب من انحاء الدولة الاسلامية، فأرسل اليه الصفويون صولجانا محلي بالجواهر، وتردد ذكره في انحاء العالم الاسلامي ، ومن هنا نشأ تفكير محمد علي في إنشاء دولة عربية جديدة ، وقد كسب المصريون لانفسهم انتصارا في بلاد العرب نفسها ، لأن ابراهيم كان قد سار في فتح بلادهم سير المخلص لا الفاتح فكان لا يأخذ زق ماء ولا بلحة ولا قطعة خشب إلا دفع ثمنها مضاعفا ، وحال بين الجند وبين النهب والسلب فاعتبرهم الأهلون مخلصين ، ومن هنا لم يكن غريبا أن نسمع أن شريف الحجاز انحاز لجانب محمد علي أثناء صراعه مع الدولة العثمانية ، وكان مستعدا للخطبة باسمه على منابر الحجاز . بل ان نفرا من الأتراك أنفسم كانوا ينظرون إلى المصريين نظارهم إلى المخاضين المنقذين ، وسيلجأون إلى عونهم كلما أحاطت بهم المصاعب والأزمات .

التفات الأوروبيين
إلى بلاد العرب

كذلك فتح الغزو المصري أعين الأوروبيين إلى بلاد العرب ، وأيقظ الخوف في قلوب الانجليز من هذه القوة الجديدة التي أصبحت تشرف على طريقى الهند العظيمين ، طريق البحر الأحمر وطريق الخليج الفارسي ، وزاد مخاوفهم أن الرجل لم يقنع بمجرد دخول هذه النواحي في طاعته اسميا ، بل بدأ يفكر في المساهمة في تجارة الهند فعين « فوربس وشركاه » وكلاء له في بمباي ، وأخذ يصدّر إلى الهند البضائع الأوروبية ، ولم يقتصر على ذلك بل فكر في أن ينزل أسطولا تجاريا في الخليج الفارسي ، ليقضى على قراصنة الوهابيين من جهة وليسهم في تجارة الهند من جهة أخرى . واتجه يصره نحو البحر الأحمر الذي أصبح بحيرة مصرية بعد فتح السودان فأخذ يحد من حرية السفن الأوروبية

الانجليز يتخوفون
من محمد علي

التي كانت تمرح فيه دون رقيب ، وأصدر أمراً يحرم على السفن الآتية من بمباي أن تصعد في البحر الأحمر شمالاً جده ، مما أثار مخاوف الانجليز وجعلهم ينظرون إلى محمد علي كخطر جديد على طريق الهند ينبغي القضاء عليه عن أي سبيل (١) . وكان اعتماد الانجليز في البحر الأحمر على موانئ السودان واليمن ، فلما أصبح السودان في يد محمد علي زاد اعتمادهم على اليمن ، ولما دخل اليمن في طاعة محمد علي (٢) أحس الانجليز أن البحر الأحمر خرج من يدهم إلى مصر . فسعوا لاستخلاص التجارة منه جهراً وعلانية . فأبوا على سفينته المسماة « افريقيا » التي كان أرسلها لتطوف بأفريقية عن طريق الرأس - أن تصل إلى البحر الأحمر عن ذلك السبيل ، وأرسل القنصل سولت إلى حكومته يقول : « أما فيما يختص بمصر ، فقد اندمج الباشا في تيار التجارة حتى لقد جعل نفسه تحت رحمتنا تماماً ، إن موارده تعتمد اليوم على التجارة كل الاعتماد ، بحيث أصبح من المستحيل عليه أن ينهض بتكاليف حكومته بدونها ، ولهذا يستطيع أمير البحر الانجليزي في البحر الأبيض - في رأيي - أن يضطره إلى الطاعة إذا جنح إلى عدائنا ، بغير أن يحتاج إلى قوة جديدة زيادة عما لديه ، وذلك بأن يلقي مراسيه في أبي قير ويطلق مدافعه على الساحل وكذلك الأمر في البحر الأحمر ، إذ تستطيع سفينتان بين جده والسويس أن تأخذاً عليه سبيل البحر فلا يلبث أن يعود إلى الطاعة (٣) » وسارعوا بكسب حقوق تجارية

(١) انظر : دودويل : ص ٥٥ — ٥٧

(٢) كان امام صنعاء خارجاً عن طاعة السلطان حتى قيام الثورة الوهابية ، ولم يكن للخليفة سلطان عليه ، فلما أتم محمد علي فتح بلاد العرب نزل لامام اليمن عن بعض نواح شمالاً الجديدة على أن يهدم الامام كل عام قدراً من البن للسلطان ، فاعتبر هذا البن جزية تدل على طاعة الامام للدولة واعتبرت البلاد بذلك داخله في طاعة السلطان من ذلك الحين : انظر دودويل ص ٦٠

(٣) دودويل ٥٨ — ٥٩

في اليمن ، فطلبت شركة الهند تعويضا من امام صنعاء ، فلم يحفل لهم الامام ، فعززوا طلبهم بضرب مخابا المدافع وهاجموا حصون البلد مما اضطر اليمنيين الى التسليم بمطالب الشركة ، وعقدت معاهدة أصبح للمقيم الانجليزي بمقتضى نصوصها الحق في أن يحيط نفسه بحرس كما هي الحال في بغداد والبصرة ، وأن يسير في الطرقات على ظهر حصان ، وأقطع الاوروبيون قطعة أرض يدفنون فيها موتاهم ، وأدخل تجار سورات في حماية الانجليز . وخفضت المسكوس التي يدفعها التجار الانجليز فأصبحت مساوية لما يدفعه الفرنسيون (١٥ يناير سنة ١٨٢١) وبذلك اطمأن الانجليز إلى أنهم أخذوا الطريق على محمد علي وحصلوه بين أسطولهم في البحر الأبيض وأسطولهم في المحيط الهندي .

سيطرة انجلترا على
سواحل بلاد العرب

ولم يخف على الانجليز كذلك وجه الفاتدة من أعمال محمد علي ، فقد كان قراصنة الوهايين ينزلون بمناجر شركة الهند أذى كبيرا ، ولم يكونوا يتخرجون عن ذبح من يقع في يدهم من بحارتها ، واستولوا على بعض سفن الشركة ونهبوها ، فسارعت وأرسلت اليهم حملة تأديبية استطاعت أن تقضي على كثير من سفنهم ، واستولت على مركز أعمالهم في « رأس الخيمة » بمعاونة أمام مسقط ، وأصبحت كل الامارات العربية الواقعة على سواحل بلاد العرب الجنوبية والشرقية شبه خاضعة لنفوذ الانجليز (١) ، ولهذا لم تسكد أخبار انتصارات محمد علي تتصل بهم حتى سارعوا للتحالف معه والاستعانة بسلطانه الذي شمل بلاد العرب كلها من البحر الأحمر الى الخليج الفارسي ، ولكن محمدا عليا لم يحفل لذلك كثيرا لأنه لم يكن ينظر إلى هذا المدى الواسع من وراء فتحه لبلاد العرب . كذلك كانت هذه البلاد سرا مغلقا أمام انظار الأوروبيين إذ لم يجسر أحد منهم حتى الساعة أن ينزلها أو يتوغل في مجاهلها ، فلما مهدتها جيوش مصر سارع الأوروبيون فدخلوها في حماية الحراب المصرية ،

(١) أنظر تفصيل ذلك في الباب الرابع من هذا الكتاب .

واستطاع سادليه الانجليزى أن يخرق البلاد للمرة الأولى ، وكان قد أرسله
مست قنصل إنجلترا في مصر لينى إبراهيم باشا بانتصاره في الدرعية (١) .
قضى محمد علي على قوة الوهايين الأولى ، وأعاد البلاد إلى طاعة
السلطان ، ونشر في نواحيها الوية الأمن والطمانينة من جديد ، فكان
أول من ألقى الضوء الجديد على أهلها ، ثم سلبها للدولة أكثر انتظاما
فاستطاعت هذه أن تحكمها بيد أقوى وسلطان أظهر مما كان لها قبل
فتح محمد علي

بهذا ، أصبحت مصر قوة جديدة يحسب لها حساب في عالم
السياسة الدولية ، أصبحت عماد الدولة الإسلامية ودرعها الذي يقىها
من كل عدو خارجي أو داخلي ، فتطلعت إليها الدول الإسلامية كزعيمة
ومنقذة ، وأخذت الدول الأوروبية ترصدها بعين الحسد والطمع ،
لأنها أثبتت — بزعامة محمد علي — أنها قادرة على أن تنهض بنفسها
وتسترد ماضع من عافيتها ، وأن تنفض ما تراكم عليها من غبار القرون
ومساوات الأجانب في لمحة عين

ظهور مصر في عالم
السياسة الدولية

— ٢ —

كان فتح السودان مشروعا اقتصاديا من مشاريع محمد علي الكثيرة ،
وقد قدمه على غيره من المشروعات لأنه رجا أن يحده أسهل من غيره
مئونة وأقرب جنى ، وكان الرجل يتسامع بما تضمنه أرض السودان
من مناجم الذهب ومعادن الفضة ، وكان إلى ذلك ضيقا بجنوده الألبان
الذين فرغوا من حرب الوهايين وعادوا إليه يشغبون عليه ويسبونون
له متاعب شتى ، فخطر له أن يقذف بهم في مجاهل السودان وقلوات
الاستواء ، ولم يكن بحاجة إلى تشجيعهم على الاسراع في الذهاب بعد

فتح السودان
وأبوابه

(١) وانظر أثر ذلك في السياسة الإنجليزية الشرقية في الباب الرابع من هذا الكتاب

أن علموا هم الآخرون أن السودان يفيض ذهباً وفضة ، وإنهم غائمون من خيراته وأمواله الشيء الكثير ، ولم يكن يخشى افتقاره إلى الجند بعد الخلاص منهم لأنه رجا أن يستبدل بهم جندا من عبيد السودان الذين كانوا يعجبونه في الحرب والطاعة والاخلاص ، وربما أسرع به إلى تنفيذ هذا المشروع عرفانه جهل أهل البلاد بوسائل الحرب الحديثة وعجزهم أمام النار ، فلم يكن في المشروع شيء يخشاه فعجل بالتنفيذ . وكان الرجل يرجو كذلك أن يزداد علما بما وراء مصر من النواحي لعله يجد فيها مجالا جديدا للرزق والكسب ، ولم يكن بعسير عليه أن يقدر أن هذه البلاد أغنى من مصر وأكثر زرعاً وماشية وأوفر ماء ، وأنه إذا تم فتحها جنى من أرضها البكر الخير الكثير .

لذا أراد محمد على
جلب الجنود من
السودان

غير أننا نلاحظ في هذا الفتح بضع نواح جديدة بالنظر : أولاها تفكيره في جلب الجند من السودان وأمامه الكثيرون من المصريين يستطيع أن يجندهم في جيشه دون أن يكلفه ذلك عنا الحرب والفتح ، فانتا لا نظن أن محمداً عليا كان يفضل السودانى على المصرى في ميدان الحرب ، أو يراه أقدر منه عليها وانهض باعبائها منه ، لأنه لمس يديه اخلاص المصريين وثباتهم واقتدارهم على مواصلة الحرب واحتمال مضائنها ، ولا نظن كذلك أنه فضل أن يترك المصريين في زراعة الأرض حتى لا يحرما اليد العاملة ، لأنه لن يتأخر عن تجنيد المصريين حين يلفت ذروفتى نظره إلى ذلك ، وربما كان التعليل الوحيد لذلك أن محمداً عليا اتبع خطة حكام المسلمين جميعهم في الاعتماد على الأجانب في الجيوش والحذر من استعمال أهل البلاد ، خشية ثورتهم وانقلابهم عليه ، وذلك أمر طبعى جدا من رجل كان يحس إلى الساعة أنه غريب عن البلاد وأنه « كسبها بالسيف » كما قال ، فلم يكن له بد من قوة غريبة تحس الاخلاص والولاء نحوه فقط ، وكان الى ذلك يشعر أن

نفوس المصريين قد بدأت تتغير عليه ، ولا ترضى عن الارهاق المالى الذى أخذ يريد هم عليه ، اذ كانت اعباء حرب بلاد العرب قد ثقلت عليهم وبدأت ضرائبه ومغارمه تزداد ، ولا بد أن نفوسهم حدثتهم بالخروج على طاعته وولائه ، ولا بد أنه خشى ذلك على الأقل فضى يبحث عن حرس أجنبي جديد .

ومن هذه النواحي أنه استصدر فتوى تشرع له فتح السودان وما كان بحاجة إلى ذلك ، لأن النواحي التي كان قد أزمع فتحها لم تكن داخلية في طاعة السلطان ، ولم يكن على محمد علي حرج في أن يفعل بها ما يريد ، ولا يعلل ذلك إلا بأن الرجل لم يكن مطمئناً إلى هؤلاء الألبانيين الذين سيرهم في طلب هذا الفتح : لعله خشى استبدادهم بما يفتحون من الأرض على اعتبار أنها إنما فتحت بسيوفهم وحدها ولا شأن للسلطان بها ولا طاعة له عليهم فيها . وكانت هذه البلاد اسلامية يعمر الدين الحنيف نواحيها ولا يبيح الشرع الاسلامى حرب أهلها أو سبيهم ، واسترقاقهم بغير سبب ، فاحتاط لذلك بتلك الفتوى الشرعية التي أجلت له الفتح وجعلته مشروعاً ، والغالب كذلك أنه خشى أن يلقى من أهل هذه البلاد حرباً شديدة فرجا أن تؤثر فيهم هذه الفتوى الشرعية فيسلمون له طائعين مختارين .

استصداره فتوى
تشرع له فتح
السودان

ومن هذه النواحي كذلك أنه أصبح الحملة نفراً من العلماء تشبهاً منه بالفرنسيين في حملتهم على مصر ، وقد يكون غرضه من ذلك يختلف تمام الاختلاف عن غرض نابليون من العلماء الذين استصحبهم معه إلى مصر ، فقد أراد نابليون أن يدرس البلاد دراسة علمية حديثة حتى يتمكن من حكمها واستغلالها على أحسن سبيل ، في حين رجا محمد علي أن يبث هؤلاء العلماء دعاية اسلامية له حتى يوفروا عليه كثيراً من الجهد في الحرب والنضال ، ولكن ذلك لا يخلو من دليل على أن الرجل

محاولة تحضير السودان

قبس الكثير من أساليب الفرنسيين وتمكن من استعمالها والاستفادة منها. كان فتح السودان فتحاً يسيراً سهلاً لم يتكلف جند محمد علي فيه عناء كبيراً ولا مشقة زائدة، وكانت نفقاته كذلك يسيرة لم يثقل بها على نفسه، ولو لم يكن قائد الحملة اسماعيل قد أساء السيرة مع أهل البلاد، وأبدى لهم من الجفاء والاحتقار ما أبدى لما كانت كارثة شندی ولما كان للحملة خسائر تذكر. ذلك أن جند محمد علي كانوا مذودين بالبنادق والمدافع فاستطاع جيشه أن يحصد أهل البلاد حصداً في غير عناء ولا مشقة، وقد استمر الأتراك يسر الفتح وضعف أهل البلاد فانزلوا بهم أذى شديداً، وقسوا عليهم قسوة لا هوادة فيها، حتى أن الدفتردار صهر محمد علي لم يرض بأقل من عشرين ألف رجل من أهل البلاد فدية لاسماعيل بن محمد علي: إذ قتلهم شر قتله.

نتائج الفتح

محاولة تعليم السودانيين
أساليب الزراعة

لم يوث هذا الفتح محمداً علياً بشيء من طلب، فلا الذهب وجده ولا الجند استطاع الحصول عليهم، فأسف لذلك أسفاً شديداً، ولم يطمئن إلى ما كان يبلغه إياه قواده من ندرة الذهب، ولم يزل على شكه حتى مضى هو بنفسه محتملاً متاعب الشيخوخة سنة ١٨٣٨ ليستوثق من ذلك الأمر، فما كان ليصدق أن هذه الآمال التي عقدها تنتهي إلى هذا الفشل، وقد حاول أن يعرض خسارته في انعدام الذهب باستغلال مزارع السودان، فندب نفراً من مزارعي مصر وأرسلهم إلى السودان ليعلموا أهل أساليب الزراعة، ومنح نفراً من الذين درسوا أساليب الزراعة الحديثة قطعاً من الأرض مساحة كل منها مائة فدان معفاة من المال، وأباح لكل منهم أن يأخذ نفراً من أهل البلاد يعملون في أرضه دون مقابل، وكان لا يفتأ يخاطب أهل البلاد ويستحثهم على الإقبال على الزراعة والتعلم، «حتى يرتفعوا من درك السوائم إلى مستوى البشر وحتى

يدركوا الثروة ويتعلموا كيف يستمتعون بخيرات يحول جهلهم دون
تصورها ، ^(١) ولكن ذلك لم ينتج إلا أثرا ضئيلا .

يبد أن هذا الفتح فتح باب السودان بعد ان كان موصدا ، وجعل
بينه وبين العالم سببا ، فمن ذلك الحين بدأت طوابع الحضارة الحديثة
تتوغل فيه ، وبدأ الأوروبيون يفكرون في استكشاف نواحيه ونواحي
النيل معاً ، وكان وصول أول هذه الطوابع على يد محمد علي إذ أرسل
البكباشي سليم أفندي في ثلاث رحلات مختلفة بين سني ١٨٣٨
و ١٨٤١ ليستكشف أعالي النيل ومنابعه ، فاستطاع هذا أن يجمع بعض
المعلومات عن بعض أجزاء النيل كنهر السوبات ، وبعض التفاصيل
عن مناخ البلاد وأهلها .

فتح باب السودان
للعالم

دراسة السودان العليا
ومحاولة استكشاف
منابع النيل

ولو قد وفق محمد علي إلى عمال قادرين على القيام بأعباء الحكم
لاستطاع أن يجني شيئاً من الثمر من هذا الفتح ، ولكن لأهل البلاد
خير من ورائه ، ولكن معظم العمال كانوا يستبدون بأهل البلاد
ويشتدون في تجنيدهم واسترقاقهم دون رحمة ولا هوادة ، كانوا يجمعون
عشرات الألوف بأقصى الأساليب وأبعدها عن الإنسانية ، ويرسلونها
إلى مصر كما ترسل السوائم ، لا يحرصون على صحتهم ولا على طعامهم ،
فكانوا يتساقطون في الطريق صرعى المرضى وقلة الغذاء والضرب
الشديد ومتاعب المشي الطويل وما إلى ذلك ، فأصاب السودان وأهله
من جراء ذلك أذى شديد ، ولو قد وفق محمد علي إلى عمال قادرين
مصلحين لأفاد من ذلك ، ولأفاد أهل البلاد منه كثيراً . ولكن
هذا الفتح الجديد خيرا للسودان وأهله .

حاجة محمد علي إلى
الحكام القادرين

تنظيم السودان
وتقسيمه وتحديد

ولعل أهم نتائج هذا الفتح هو تنظيم البلاد وتحديداتها ، وتقسيمها

إلى مديريات بعد أن كانت فضاء غير محدود ولا معروف ، فقد أوجد لها هذا الفتح كيانا سياسيا ونظاما إداريا ، وأقام فيها حكومة منتظمة بعض الانتظام ونقلها من الفوضى التي وقعت فيها بعد اضمحلال سلاطين الفونج والقور ، وأنشأ لها عاصمة جديدة هي الخرطوم التي وجدها جند محمد علي قرية صغيرة خاملة فسكنوها وأنشأوا بها المباني واستحدثوا فيها المنشآت فلم تلبث أن أصبحت مدينة عامرة في عهد خورشيد باشا ، وكثرت فيها مزارع التين والعنب ، ولم تلبث أن اتخذت مركزا لحكم البلاد .

الخرطوم

واستتبع هذا الفتح نتائج سياسية كثيرة ، أهمها بسط سلطان مصر إلى أعالي النيل بعد أن كانت عند حلقا ، فأصبحت هذه البلاد من ذلك الحين جزء من مصر يحرص حكامها على حكمها وبسط سلطانهم عليها ، وأصبح واجب السياسة المصرية تمكين الصلة بين البلدين ، وهذا أمر طبيعي يحتمه الوضع الجغرافي لمصر والسودان واتفاق مصالحهما واشترائهما في نهر واحد هو النيل . كذلك أيقظ الفتح المصري المطامع الأوروبية نحو السودان فتخوف الانجليز من انبساط سلطان مصر على شواطئ البحر الأحمر كلها شرقا وغربا ، فبدأوا يعملون من ذلك الزمان على محاربة سلطان محمد علي الذي أصبح قابضا على زمام هذا الطريق الخطير إلى الهند .

امتداد سلطان مصر إلى أعالي النيل

المطامع الأوروبية في السودان

وثورة ثالثة بل ثورات ثلثات ، اضطرت نيرانها في البلقان في سنوات متقاربات كأنما كانت كلها على موعد ، حتى أصبح البلقان شعلة ذاكية الاله لا يكاد السلطان يخمده منها جانبا حتى تأخذ النار في جانب ؛ ففي أواخر سنة ١٧٩٧ وثب بالدولة عثمان باشا البسني المسلم المعروف ببسوان اغلو وظل يطاول الدولة حتى سنة ١٨٢٧ ، وما هي إلا سنوات حتى تجاوبت انداء الثورة في مخارم الجبل الأسود ، ونادى أمير الجبلين

ثورات البلقان

بأن الجبل الأسود لم يكن قط ولاية إسلامية ، وما هو إلا قليل حتى تنادى بالثورة أهل اليونان ، فأصبح البلقان كله خارجا عن طاعة السلطان لا يكاد يملك حياله أمرا .

شعوب البلقان

يقف أهل البلقان بين الشرق والغرب ، ولكنهم إلى الشرق أقرب ، سواء من ناحية الجنس أو العقيدة أو الاخلاق والعادات أو الحضارة ، فمخضوعهم للاتراك لم يكن أمرا شاذا كما قد يقع في أخلاذ البعض ، بل لعنا لا نخطئ . إذا قلنا إنهم كانوا أسعد رعايا الدولة وأحسنهم حالا ، وكان اليونان منهم خاصة يساهمون في حكومة الدولة ويشتركون فيما تنزله بالناس من مظالم ومساءات ، بل كان هؤلاء اليونان على الخصوص أظلم من الاتراك للرعية ، وماتولى أحدهم في ناحية إلا عسف الناس وآذاهم أشد الأذى . ومن هنا ليس بصحيح ما يراه البعض من أن فتوح العثمانيين في البلقان كانت أمرا غير طبيعي ، وأن سلطانها هناك كان حريا أن يزول ، لأن أهل هذه النواحي كانوا طوال تاريخهم أعداء أوروبا لأصدقاءها ، وكانت أوروبا تشعر أنهم غرباء عنها ، ولم يتصادق الحيان إلا في فترات صغيرة جدا كـ بعض سنوات الحرب الصليبية ، ولم تكن الصداقة بينهما إلا خداعا من الجانبين ، ينطوى فيه كل منهما نحو الآخر على الشك والحذر والريبة ، بحيث لا نخطئ . إذا قلنا أن الصليبيين الغربيين كانوا يشعرون أن امبراطور بيزنطة عدو لهم لا صديق ، ومصادق ذلك أن هؤلاء الصليبيين لم يطبقوا كتمان هذا الشعور ، فلم يلبثوا أن أعلنوه صراحة وأعلنوا « حربا صليبية » على الدولة البيزنطية ، فهاجموها وأقاموا فيها دولة غربية سنة ١٢٠٤ ، لافرق في حسابهم بينها وبين الشام أو مصر الاسلاميتين ، ولا حاجة بنا إلى الإشارة إلى العداء الذي ظل يتأجج في صدر كل من الكنيستين الغربية والشرقية ، والصراع العنيف الذي استمر بين باباواتهما . وقد ظل هذا العداء بين الجانبين

حرب صليبية على
شرقي أوروبا

العداء بين الكنيستين
الشرقية والغربية

زمانا طويلا خلال العصر الحديث ، فلم تكن الدول الأوروبية بشأن
البلقان إلا بدوافع سياسية صرفة ، بل الامبراطورية النمساوية نفسها
لم تكثر للبلقان الا في زمان متأخر جدا ، وكان التفاتها اضطرارا
لا اختيارا ، أى حينما أقفل بسمرك في وجهها باب التوسع في الغرب
فالتفتت الى الشرق مكرهة

ثورة البلقان

ثورة البلقان إذن لم تكن تعصبا خالصا للغرب ولا رغبة من أهله
في الحرية أو صدى لانتشار مبادئ الثورة الفرنسية ، ولم تكن
ثورة أوروبا من أجلها صادرة عن تعاطف بين هذه الدول وأهل
البلقان ، بل كانت في الغالب صدى مباشرا للصراع بين روسيا وتركيا
ونتيجة طبيعية لتوالى هزاتم الثانية على يد الأولى . بل ليس من
الخطأ في شيء أن نقول إنها لم تكن تعبر عن ميول عامة اليونانيين ،
ومصادق ذلك أن طلائع الثورة لم تلق قبولا عند عامة أهل البلقان
فاصدر بطريق القسطنطينية قرارا بحرمان قائدها الأول « اسكندر
ابسلتي ، وتخلي عنه أنصاره ، وقعد عامة اليونانيين عن مناصرته ، فلم
تلبث حركته أن ماتت في مهدها (١)

سيريل لوكاريس

ومصادق ذلك أن آراء الغرب وأفكاره ظلت زمنا طويلا
لا تلقى من أهل اليونان إلا الزاوية والآنكار ، فحينما قام سيريل
لوكاريس في أوائل القرن السابع عشر يتغنّى بمبادئ الغرب ويحض
قومه على التمثل بأهل غرب أوروبا ، ويملي على مواطنيه من كرسى
البطرقة في القسطنطينية مبادئ الكفنية التي كان يعجب بها كل
الاعجاب ، ويتخير النابهين من أبناء الكنيسة ليلقى بهم في كنائس
الغرب ومعهده ليتشربوا هذه المبادئ والأفكار ، لم يكد يفعل هذا

(١) تاريخ مصر السياسي للاستاذ رفعت ص ١٦٤ — ١٦٥

حتى ثار به مواطنوه وأنكروا أمره ، واستعدوا عليه خليفة المسلمين ،
وطردوه من كنيستهم سنة ١٦٩١ (١)

الشاعر كوريس

ولا يتنافى هذا مع القول بأن بلاد اليونان ضمت في ذلك الحين طائفة
قليلة من السراة وذوى الثقافة العالية ، ممن اتصلوا بالحضارة الغربية
وأعجبوا بها وسعوا فى نشرها فى بلادهم ، كالشاعر كوريس الذى جاهد
طويلا لخلق اللغة اليونانية الحديثة ، وظل طول حياته يدعو أهله
للأخذ بأسباب حضارة « أوروبا المستنيرة » كما كان يسميها (٢)

مبادئ الثورة اليونانية

وحقيقة الثورة اليونانية أنها كانت نتيجة للعلاقات السياسية بين
الروسيا وتركيا ، وحيلة من الحيل التى لجأ الروس إليها للقضاء على
تركيا ، فالروس والبلقان إخوة فى البيئة الجغرافية والمذهب الدينى
والأخلاق ، وكان الروس يبذلون قصاراهم إذ ذاك للقضاء على تركيا
والوصول إلى البحر الأبيض ، فلما عز عليهم ذلك عن طريق القسطنطينية ،
حاولوا أن يبلغوه عن طريق إثارة شعوب البلقان إلى جانبها والعمل
على تحريرها من غير الدولة العثمانية ، فامأدخلوها فى زمامهم أو أصبحوا
ذوى الكلمة النافذة فى مرافقها ونواحيها ، وكانت دول أوروبا
تعرف هذه الحقيقة ولهذا تدخلت فى المسألة اليونانية وعملت على
إنهاءها ، ولو لم ير الانجليز والفرنسيون والنمساويون شبح الروس
مستترا خلف دخان الثورة اليونانية لما تدخلوا وأعانوا اليونان على
التحرر .

فمن الخطأ إذن أن تنظر لثورة اليونان على أنها كانت ثورة شعب
ثقلت عليه وطأة الحاكم الأجنبي وسعى للحرية فقام يجاهد فى سبيلها ،

(1) Toynbee : The Western Question in Greece and Turkey P. 8

(2) Ibid P. 9.

نعم كان فيها شيء من ذلك ، ولكنه لم يكن كل شيء ، بل لم يكن أكبر شيء . حتى زعماء الثورة أنفسهم لم يكونوا يصعدون في أعمالهم عن وحى من الشعب اليوناني بقدر ما كانوا يعبرون عن ميول القيصر السياسية ، « فكابود سترياس » مثلاً - من أوائل زعماء هذه الثورة - لم يتوان عن خذلان مواطنيه اليونانيين حين أحس أن القيصر راغب في ذلك ، وقد كان في استطاعته أن يفعل كثيراً إذ كان وزيراً لخارجية القيصر في ذلك الحين ، بل كان نفر من « الشعب اليوناني » نفسه يبيع السفن لمحمد علي ويمد جيشه في الثورة بالامدادات لكي يمضي في حرب مواطنيه .

أصبح الروسي
في الثورة

ثورات البلقان إذن مظهر من مظاهر الصراع الطويل بين روسيا وتركيا ، ولم يكن اليونانيون أنفسهم إلا آلات يحركها الروس ، ومن دلائل هذا أن رجال الثورة لم يلبثوا أن أصبحوا قراصنة ينهبون السفن الانجليزية والفرنسية في البحر الأبيض وهم على علم بأن الانجليز والفرنسيين يعطفون على قضيتهم الوطنية ، ولكنهم لم يكونوا ليحفلوا لذلك ، إذ كان الغنم والنهب أحب إليهم وأقرب إلى أفهامهم من دعوى الحرية والاستقلال . ولا يقتصر ذلك على ثورة اليونان وحدها ، بل ينطبق على ثورة الصرب كذلك ، بدليل أن ميلوش ابرونوفتش الزعيم الصربي لم يتردد في قتل زميله الزعيم قره جورج حين وجد أن هذا الأخير ينافسه السلطان الذي وصل إليه ، بعد أن نال من الدولة حق الاستقلال الداخلي للصرب سنة ١٨١٧ (١)

المذابح بين الفريقين

أما الذي أفاق الخواطر وأجج نيران الثورة وأقام الشعب اليوناني كله عن بكرة أبيه في المذابح التي أنزلها كل من الفريقين بالآخر جهلاً

وزيادة في التطرف والنكابة ، وهي مذابح تقع مسئوليتها على اليونانيين وحدهم ، إذ لم يكن ينتظر أن يتلقى المسلمون بالسكوت نبأ مقتل عشرين ألف مسلم في اليونان ، بل المعقول أن يجيئوا عليها بمثلها ، ولو قد قيل لدعاة الانسانية من جماعات الهيلينيين - الذين كانوا يتشدقون بالانسانية في ذلك الحين في مجالس لندن - أن عشرة انجليز فقط ذبحوا في الهند لدفعت الهند ثمناً لذلك آلافاً من أبنائها ، ولكان دعاة الانسانية أنفسهم غرقى في الدماء إلى ذقونهم ، باسم الانسانية أيضاً ، ولكن هؤلاء المتحمسين الخياليين من أمثال بيرون وكشران كانوا صليبيين في الباطن ، وأن تستروا بالشعر حيناً وبالانتصار لآباء الثقافة الأوروبية حيناً آخر .

غير أن الغريب أن الدولة عجزت عن القضاء على هذه الثورة في أدوارها الأولى ، لآلتا لاستطيع أن نفهم كيف لا تستطيع الجيوش العثمانية أن تقضى على جماعات من الثوار وليس بينهم وبين بلادهم إلا بحر صغير ، ولا عبرة بالقول بأن اليونان كانوا قد أخذوا البحر على الأتراك وملكوا ناصية الشواطئ ، فقد استطاع ابراهيم باشا أن يصل البلاد ويعبر البحر الأبيض وهو أوسع وأحفل بالخطر ، هذا إلى أن بلاد اليونان كانت تضم في ذلك الحين حاميات تركية كثيرة كافية جداً للقضاء على الثورة لو شامت ذلك وعملت له باخلاص .

عجز الدولة عن القضاء على هذه الثورة

لا يعجل هذا إلا بأن رجال الدولة من الصدر الأعظم إلى الانكشارى البسيط كانوا قد فسدوا تماماً ، ولم تبق في قلوبهم ذرة من الوطنية أو الحمية أو الاخلاص أو الشرف ، ولو لم تكن لدينا بيانات صادقة لكفى بالهزيمة بينة ، فما كان ثوار اليونان بحاجة إلى « نظام جديد » حتى تخمد حركتهم وإنما كان يكفي جداً أن يبرز لهم جنود مخلصون ذوو حمية وإخلاص ، ولم تكن الدول قد تدخلت بعد ، ولم تكن روسيا قد أسفرت عن

فساد رجال الدولة

وجهها. وكانت النمسا تومىء بالميل إلى معاونة السلطان على الروس ، وكان في الامكان تدارك الامر وإقفال الباب وتسوية المسألة لو أن للسلطان فرقة واحدة من الجند المخلصين الأوفياء . فلم يكن دودويل مبالغا حين همس في أذن السلطان محمود الثاني بأن أيامه لم تعد أيام سليمان القانوني (١)

كان الصدر الاعظم إذ ذاك خسرو الذي لقيناه في مصر منذ حين ، وكان لا يحفل أوفق السلطان أو اندحر ، فلم ينصرف في معمعان القتال عن أن يناجز محمدا عليا ويكيد له ويعاثره ، فكان يتأخر عن معاointه ويتركه في ساعة الحرج أو يشى به عند السلطان ، كأن الامر صفاء والحال رخاء ، وكان ما بينه وبين محمد علي أعظم شأنا مما بين السلطان وبين اليونان ، وأما الجند فكانوا هم الانكشاريون ، وليس هناك دليل على انحطاط شأنهم أكثر من أنهم انهزموا أمام طوائف من الثوار على طول الخط ، واضطروا قائدهم خورشيد باشا إلى الانتحار بعد انهزامه عند « ترمويل » وبسبب هؤلاء الجند أعلنت اليونان استقلالها بزعامة ماورو كرو داتس بطل ترمويل ، وديمترى ايسلنتى أخى اسكندر ايسلنتى في يناير سنة ١٨٢٢ .

في هذه اللحظة العصيبة تقدمت النمسا إلى السلطان بالنصيحة فلفتت بصره إلى واليه في مصر وقوته ، ونصحت له بأن يعتمد عليه في القضاء على هذه الفتنة قبل أن يتفاقم أمرها وتتدخل الدول فيها ، ولم يكن دافع النمسا إلى ذلك مجرد الاخلاص للدولة ولا محض العداء للأفكار الثورية وإنما كانت تأخذ نفسها بالتقية من روسيا ، وذلك بأن تقفل باب الثورة اليونانية قبل أن تجد روسيا الفرصة المواتية للتدخل وكسب حقوق من الدولة العثمانية .

موقف محمد علي
من الامر

أغلب الظن أن محمدا عليا لم يرحب بهذا الطلب ، فسياق الحوادث يدل على أنه كان مكرها عليه بود لو ينفض يده منه في أقرب الأوقات ، ذلك أنه عرف أن تلك الحرب ستنزف قواه وتفسد عليه نظامه ، وتشغله عن شؤون مصر ومرافقها . وكان مهتما بها أشد الاهتمام في ذلك الحين . ولم ينس الرجل بعد الخسائر التي أصابته من حرب العرب على قلة الجدوى وانعدام الجزاء . لهذا كان محمد علي لا يفتأ يشكو تكاليف هذه الحرب ومساومات رجال الدولة وكيدهم له خلالها ، وزاد زهدا فيها حين التي انجلترا لا ترضى عنه من أجلها فبدأ يتلمس الفرصة للانسحاب منها .

اثر تدخل مصر

تغير الموقف تماما في بلاد اليونان بعد تدخل المصريين في أمرها ، فانقلبت انتصارات الثوار هزائم ، وتراجعت سفنهم ، وطلب قرصانهم عرض البحر فرارا ، واستطاع الجيش المصري الجديد أن يحتاج البلاد ويستولى على معاقلها ويشل حركة الثوار تماما ، واستولى المصريون على امنع معاقلهم «مسولنجي» بعد حصار خمسة عشر شهرا في ابريل سنة ١٨٢٦ ، وانحط مركز الثوار أدبيا وبدا أن الثورة مقضى عليها ولا شك بدون تدخل الدول .

تدخل روسيا والنمسا

ولكن ، أترضى روسيا عن ذلك ؟ أيرضيها أن يساكنها في اليونان شعب قتي جديد ، ويقف في وجهها رجل كإبراهيم يأخذ عليها السبل . لقد أثارت هذه الحرب لتضعف مركز السلطان لا لتقوية ، فكيف ترضى عن ذلك ؟ ولمح مترنيخ الروسية تتحرك للعمل فجعل يشد على يد محمد علي ويستحثه على الاسراع في القضاء على ثورة اليونان ، فبعث مندوبه بروكش أوستن الى محمد علي في الاسكندرية لاقتاعه بالاسراع في العمل ، وأخذ هذا الرجل يشرح لمحمد علي حقيقة نوايا الانجليز ويؤكد له أنهم إن يطلبون الا أضعاف مصر والقضاء عليها ، ويؤكد

له الخير العميم الذي يعود عليه من التعجيل بالقضاء على ثورة اليونان والقضاء على مطامع الروس ، ولكن محمدا عليا لم يقتنع ، لا لأنه كان متحمسا للسلطان ولا راغبا في القضاء على ثورة اليونان ، وإنما لأنه كان يريد أن يفوز من الأمر بصفقة طيبة ، وهي كسب ود الانجليز وأخذ إقرار مبدئي منهم باستقلاله ، كان ينتظر أن يتقدم الانجليز اليه طالبين اليه الانسحاب لكي يساوم في الأمر ويطلب الثمن ، ولم كان ستراتفورد دي رد كلف بعيد النظر حين لمح من محمد علي هذه النية فخاطب سولت مندوب إنجلترا في القاهرة يسأله عما اذا كان الباشا لا يرى أن الأفضل له أن ينسحب من الحرب ويفوز بنصيب من الجزية التي ستفرض على اليونانيين ، وربما ضمن له الانجليز ولاية الشام أيضا ، لقد أنكر سولت ذلك وعده أمرا خياليا ، لأنه كان يعتقد أن محمدا عليا يحارب مع السلطان بيده وقلبه (١) ، ولكنه لم يتمالك نفسه من الدهشة حين وجد أن العرض لقي من الرجل قبولا طيبا ، ومن ثم بدأت مفاوضات طويلة أبدى محمد علي فيها مكرًا بعيدا وحصافة طيبة ، فكان يقول متحايلا « سيظل كل شيء على ما هو عليه الآن حتى الربيع ، فاذا أبدت حكومتك خلال تلك الفترة ما يدل على رغبتها في فعل ما يرضيني لـكنت على استعداد لأن أقبل ما تعرض علي ، ولا التمسيت السبل لأسحب جندي من اليونان » ثم يقول مهددا : « فاذا لم يكن ذلك فسا جمع قواي كلها وأستعين بمالي من النفوذ عند السلطان وأجمع في يدي قيادة البحرية العثمانية ... ثم أجعل نفسي على قيادة الحرب وأختم ذلك الأمر » (٢) ولم يلبث سولت أن عرف غرض محمد علي ، فأقبل يسأله عما يطلب من الانجليز فأجابته الرجل في شيء من المكر أنه لا يرجو أكثر من أن تعاونه إنجلترا في زيادة

(1) Dodwell P. 38

(2) Ibid P. 48

اسطوله وإطلاق يده ليمتد كيفما شاء في بلاد العرب ، وعرف سولت أن الرجل يطوى في نفسه أمرا هو الرغبة في ضمان موافقة انجلترا على اعلان استقلاله اذا اضطرته الظروف الى الوثوب بالسلطان.

هذه حقيقة موقف مصر بهذا ينجلي الأمر على حقيقته ، فلم يشترك محمد علي في حرب اليونان حبا في السلطان ولا كراهة لليونان ، فقد كان لا يأبى على اليونان في مصر أن يسافروا لينتقموا لآخوانهم في الثورة ! .. وإنما أراد أن يجعلها صفقة يجبر الدول بها على الاعتراف به وبقوته ، وقد كاد يدرك هذه الغاية لولا أن روسيا فوتها عليه عامدة أو غير متعمدة . فقد كان من الممكن أن يظل ميزان الأمور على ما هو عليه فترة طويلة في البلقان : فجيش ابراهيم قابض على زمام الأحوال ولا يلبث إلا قليلا حتى تختنق بقايا الثورة باستمرار الضغط على عنقها ، وكان من الممكن أن تجرى المفاوضات بين محمد علي والدول أثناء ذلك ، ولكن روسيا لم تطق الصبر ، لقد زال عنها كابوس الاسكندرو مخاوفه ، ونفضت عبء مترنيخ واستوى على عرشها نيقولا الأول ، فلم ير وراء هذا التسوية خيرا يرجي ، فعجل بالعمل ، وفاجأ السلطان بانذار نهائي عرض عليه فيه شروطاً مهينة أولها الانسحاب من بلاد اليونان ، فأفاق الانجليز من غفوتهم ، وخشى كائنخ أن يحل الروس المسألة على هواهم ، فعجل بارسال الدوق ولينجتون ليؤكد له تعزيز انجلترا لآراء القيصر ، ويؤكد له أنها لا ترى مانعا من أن تمنح اليونان استقلالاً داخليا وتظل في طاعة السلطان .

سعى روسيا وانجلترا لاستقلال اليونان
بهذا انقطع أمل محمد علي في تحقيق غايته الكبرى ، ولم يبق أمامه إلا المضي في معاونة السلطان ، فسمح أخيراً لاسطوله الذي كان قد ارتبته في الاسكندرية - لينتظر جليلة الأمر - بالمضي إلى بلاد اليونان ، فمضى ليلقى مصيره في نوارين في ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٠ ، فزاد ذلك في تقور نوارين

محمد علي من اليونان ومسألتها ، فهذه صفقة انقلبت عليه ، فبعد أن كان يرجو أن يفوز منها بتأييد إنجلترا ، إذا به يجد نفسه ضحية الانجليز ، ولو قد اقتصر الأمر على ذلك لتعزى الرجل بالفوز بالاياب ، ولكن ما حيلته والسلطان يأبى إلا الاستمرار ، فيجمع رجال دولته ويستثيرهم لحرب الروس ، بما انتهى بهؤلاء إلى اعلان الحرب على الروسيا صراحة سنة ١٨٢٨ ، فلم يعد محمد علي يفكر إلا في الانسحاب ، وبدأ عليه الندم للاشتراك في تلك الصفقة المشؤومة .

موقف إنجلترا بعد
نوارين

ويبدو أن إنجلترا كانت على وشك أن تجيب محمدا عليا إلى ما أراد ، لأنها أحست أن كارثة نوارين كانت أشبه بالخيانة لهذا الرجل الذي لازال يطمع في ودها ، فأعلنت أسفها لما أصابه من هذا الحادث الذي لم يكن منه مفر *The untoward event* (١) وسارعت باخراجه من التبعات الجسام التي سترتب على الاستمرار في الحرب ، ووعدته بالاعتراف باستقلال شخصيته عن الدولة إذا هولزم الحياد فيما يلي من أدوار الكفاح ، فقد جاء في نص الاتفاق بين محمد علي وكدرنجتن أمير البحر البريطاني « أن جلالة الملك - من غير تدخل منه في العلاقات بين الباشا والسلطان الذي يعترف له الباشا بحق السيادة - مستعد للاعتراف لسموه بالحيدة التامة ، متى تعهد هو أيضا بمراعاتها مراعاة تامة . إذا ما نشبت الحرب بين الحلفاء والدولة » (٢)

الاتفاق بين محمد علي
والانجليز

انسحاب محمد علي

بهذا أحس محمد علي أنه أدرك بعض غايته ، فقد اعترف الانجليز بكيان له مستقل عن كيان الدولة ، فليسرع بالانسحاب قبل أن تأتي الحوادث التالية بما يعكر عليه صفوه هذا الغم اليسير ، فلم ينتظر حتى

(١) الأستاذ محمد رفعت : تاريخ مصر السياسي ص ١٧٥ (الطبعة الرابعة)

(٢) في المصدر ص ١٧٦

يأذن له السلطان بالانسحاب، وانسحب متعللاً بقله جنده أو بقله سفنه أو بانتشار الوباء في اليونان .

موقف الاتراك بعد
انسحاب مصر

أما السلطان فلم يكن في استطاعته أن ينسحب بهذه السهولة ، فكيف يجيب الدول الى ما تطلب منه وهو الموت أو أشبه شيء به ؛ بل زاده اليأس قوة ، فأبدى في آخر أدوار حرب اليونان بعض القدرة ، وكسب جنوده بعض النصر في سلسلتها ؛ وكان في استطاعته أن يوقف تقدم الروس عند أدرنة حين تقدموا نحو القسطنطينية ، ولكن الخوف ملك عليه وعلى وزرائه كل سبيل ، فأسرع بتوقيع معاهدة أدرنة سنة ١٨٢٩ وفيها اعترف باستقلال اليونان وقد وصفها الاستاذ دريو بقوله « لقد كان انتصارا باهرا للسياسة نيغولا ، الأول ، وربما عد معتدلا إذا قيس ما وصل اليه باطماع كثرينة الثانية وأسلافه الآخرين ، ولكنه عوض ذلك بامتيازات أدبية عظيمة كان يستطيع كسبها من بعض مواد المعاهدة ، لقد تفتحت له أبواب الامبراطورية العثمانية كلها من ناحية القوقاز ومن ناحية الدانوب ، ولقد تغلغل فيها النفوذ التجارى الروسى ، وأصبحت أدرنة الآن تحت رحمته بفضل الحماية التي اعترفت له بها المعاهدة على ولايات الدانوب (١) . »

معاهدة أدرنة

بلى ... أصبحت تركيا بأسرها ، ومركز الخلافة تحت رحمة الروس وقد كانوا مستطيعين القضاء على دولة الاسلام القضاء المبرم في ذلك الحين ، ولكنهم تريثوا ، فقد كان في بقائها ، ذليلة خاضعة مفتحة الأبواب مهيضة الجناح ، كسبا تجاريا وسياسيا لا تحصل عليه إذا ووريت التراب ونمت مكانها دولات جديدة طامحة (٢)

تركيا تحت رحمة
لروسيا

(1) Driault : OP. Cit, P. 128

(٢) راجع تاريخ مصر السياسي : ص ١٧٧

وفي القسطنطينية ميت مسجى ، كما قال أحد الوزراء ، أما هنا فيوجد
الجسم الحى ، هنا الحياة ، وسوف تدب الحياة فى كل شىء فى تركيا
أوروبا وآسيا الصغرى فى الخريف ، فهلا تجد أن صاحب مصر
والشام ومكة وبلاد العرب وصديق شاه الفرس ومعبود أمته وكل
أصحابه فى الدين ، هلا تجد هذا أقوى يدا من هذا الذى يقوم بالأمر فى
القسطنطينية ؟ سوف يكون لى فى الخريف القادم مائة ألف من الجند
وثلاثون سفينة حربية ، فاذا احترمو أربابى ومالى وفضيلتى فلن أطلب بعد
دمشق شبرا من الأرض ، ولن يجد السلطان فى كنيسته أخلص منى ، وأما إذا
أقلقلوا بالى ومالوا الى خيائى ، لم أتردد فى الاستيلاء على حلب ، وسأذهب فى
حيثما وجدت أرضا عثمانية ، وبهذا ينحسم النزاع بين رجلين : محمود
ومحمد على « (١) هكذا قال محمد على لقنصل فرنسا المسيوميمو فى
معرض الحديث بينهما عن النزاع بينه وبين الدولة العثمانية ، وهى
قالة صادقة تكشف لنا عما كان يدور برأى هذا الرجل قبل حرب
الشام ، وقبل اشتعال الخصومة بين مصر وأوروبا ، فهذا الرجل يرى
فى الدولة جسدا قانيا لا أثر فيه للحياة ، ويرى فى مصر الناهضة جسدا
فتيا يتوفز بالقوة والحياة ، فكيف يحكم الميت الحى ، وكيف يحكم
الضعيف القوى . ثم هو يرقب الحياة بعين مفتحة ونفس لا تغفل ،
إذ كان يعلم أن مصير هذه الدولة بات قريبا ، فربما كان فى الخريف المقبل ،
ولهذا انشأ يستعد ويعد العدة لكى يكون على الأهبة ساعة العمل ،
وهو لا يكره الدولة ولا يحقد عليها ، وإنما يرق لها ويشفق عليها ، ويرى
يده أحنى عليها من أولئك الذين يحكمون عليها بالموت بسوء السيرة
وعبث الألاعيب وضلال الجهل ، وهو يشعر أنها لا تكرهه بل

حقيقة شعور محمد
على نحو الدولة

(١) Driault : L'Egypte et l'Europe P. XXVIII

تحميه لأنه صديق المسلمين كافة وأمل الاسلام في كل مكان ، ولكنه يعرف أن هناك نفرا يكيدون له ويأبون الاعتراف بفضله وقدره ، وهذا ما يغير نفسه ويقلق باله ، ولو قد قدر هؤلاء النفرة مقامه واعترفوا بفضله لما طلب الرجل غير دمشق يحكمها باسم السلطان ، ولما كان أخلص المخلصين لخليفته ، أما إذا أبى هؤلاء النفرة الاعتراف بقدره فدونه وأرض الدولة ليعترفوا قدره ويقروا بمكاته ، فلم يكن الرجل جشعا ولا ثائرا ولا عنيدا يرضى شهوة خاصة في نفسه ، وإنما كان يبغي خير الدولة الاسلامية كلها ، ويرى الخير لها بين يديه وفي رعايته ، وهو رفيق بالسلطان مشفق عليه ، يرجو أن يعاونه فيما يبغي من الإصلاح ، ويحب لو أطلق يده في الشام يصلح أمرها ويبعث فيها الحياة التي بعثها على ضفاف النيل .

موقف الدولة
من محمد علي

أما في القسطنطينية فكان الأمر على خلاف ذلك ، كان السلطان محمود رجلا واسع الذهن شديد الشعور بالمخرج الخطر الذي كانت تقع الدولة فيه ، وكان لا ينفك مفكرا فيما ينقذ الدولة من هذا المهوى فاعدم جنده القديم « الانكشارية » سنة ١٨٢٦ ، وأخذ في إنشاء جيش جديد ، ومضى يبعث الحياة في هذا الخراب الذي أحاط به فكان خليقا به أن ينظر إلى محمد علي في كثير من عدم الرضى ، فهو يرى نفسه سلطان الدولة المسئول عن أرضها كلها ، عليه أن يأخذ ولايته بالطاعة ، ويحافظ على بلاده كاملة غير منقوصة ، فطالب محمد علي مرفوضة من أساسها لأنها ترمى إلى فصل جزء من الدولة والاستقلال به ، ثم هو يريد أن يفرض أمره ، فعلى الخليفة أن يأبى وإلا لم يعد خليفة ولا سيذا ، وكان نصحاؤه ووزراؤه يعرفون منه ذلك ، ولكنهم لم يكونوا يحسون إحساسه ، فهم نفر من الخونة الانذال يبيعون الدولة ، ويأخذون السياسة مجالا للعبث وارضاء النفوس في

هذا الوقت العصيب ، كان على رأسهم خسرو عدو محمد علي : لا يرى في النزاع بينه وبين السلطان إلا فرصة لاشفاء اللدد الذي يشعر به نحوه ، ولا يعرف لسيادة السلطان على ناحية من النواحي معنى إلا أنها تضيف مبلغا من المال يدخل خزائنه ، فسهل عليه بالطبع أن يستغل شعور السلطان نحو محمد علي ويوجهه الوجهة التي ترضاهم نفسه ، فساق الدولة بهذا العبث المزرى إلى هاوية سخيقة ، قضت على كل أمل لها في الحياة والنهوض .

موقف الدول أثناء النزاع
وحول هذين وقفت الدول توجب النار وتثير الخلاف ، لأن كلا منها ترجى أملا من وراء قيام الخلاف أو سكونه ، ولا تبغى آخر الأمر إلا هلاك الاثنين معا ، ولا تكاد تشعر نحو أحد منهما بعاطفة ولا اشفاق ؛ تختلف فيما بينها اختلافا هينا أو يسيرا ، وتتصاحب أو تتخاصم ، ولكنها تتفق أخيرا على كراهية السلطان وواليه معا ، كراهية لا تمنعها كلها — وهي خمسة دول عظمى — من الاتحاد على حرب محمد علي وهو الضعيف المسكين ، ولو قد كانت هذه الدول تريد بأحد الخصمين خيرا ، لحل المشكل وانتهى الأمر كما انتهى في اليونان وفي بلجيكا وفي مستعمرات أسبانيا في أمريكا ، وما كانت مشكلة مصر أشد تعقدا من أي هذه المشكلات ؛ ولكنها كانت مشكلة الشرق والغرب ، مشكلة أجيال وخصومة أحقاب ، فأين منها الانصاف والعدل والسداد .

فقيصر روسيا - نيقولا - ووزيره نسلرود وإخوانه كلهم يرون أن الوقت قد حان لتحقيق حلم روسيا القديم والخلاص من الدولة العثمانية واحتلال ناصية البحر الأسود والنزول إلى البحر الأبيض ، ولو قد ترك الأمر لتصرفها لحلت المشكل في أيام ، فقضت على الدولة واحتلت القسطنطينية وتركت محمدا عليا يفعل بالشام وبلاد العرب

ما يريد ، ولكنها كانت ترى الدول الأخرى ترقبها بعين الحذر ، وترى إنجلترا على وجه الخصوص تتخوف نياتها وتخشى غدرها بطريق الهند ، فلا بد لها من مراعاة إنجلترا ومحاولة اقناعها بأنها لا تنوى بها شرا ، فهي تتقرب إليها وتبعث رسلا إلى لندن بين الحين والحين يعلنون هذا الحب والولاء ، ثم هي لا تنسى أثناء ذلك أن تزيد نفوذها السياسى والاقتصادى فى أنحاء الدولة ، فإذا لم تستطع القضاء على السلطان فلتبسط عليه حمايتها ، ولتأخذ عن الانجليز هذا الدرس للصالح ، ومادام قد عز عليها أن تنزل جندها أرض الدولة على عدا ، فلتنزلها على حب وحماية ، لتدفع الخوف على كيان تركيا من محمد على ولتسارع بئذ العون ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

موقف إنجلترا

وفى طرف القارة تقف إنجلترا ، وقد مدت أساطيلها فاحتلت البحر الأبيض وراقبت الأحوال فيه خوفا على طريق الهند الذى كان يخترق أرض الدولة خلال مصر وخلال الشام ، وكانت تعلم أن سلامتها رهونة بسلامة هذين السبيلين أى بسلامة الدولة العثمانية ، فهي تأبى على الروس أن يعتدوا عليها ، وترد محمدا عليا إلى حدوده إذا أراد بها بغيا ، وهي تحارب السياسة الفرنسية التى تعمل على كسب ود محمد على والسيطرة الأدبية والدينية على المارونيين فى جبال لبنان ، وهي تعرف أن فرنسا تقول ولا تعمل ، فهي لا تخشاهم ولا تقيم لغضبها أولرضاها وزنا كبيرا وإنما هي تخشى الروس ، أولئك الذين يندفعون بجموعهم الحاشدة فى غير روية ولا تفكير .

موقف لوى فيليب

وبين هاتين تقف فرنسا لا تكاد تنهض على أقدامها ، على رأسها ملك يحس فى أعماق نفسه أنه مدين بعرشه للانجليز ، فهو لا ينفك يرصد موضع رضاهم ولا يطبق لهم خلافا ولا شيئا يشبه الخلاف ، يعيش فيها شعب ثقلت عليه عقايل الثورات والحركات ، وحيرته الدنيا فى

أمره فهو لا يستطيع عملاً ، ولكنه يحيا بذهنه ما يزال في الامبراطورية
الماضية لم تفارقه بعد نشوة الانتصارات ، فهو لا يفتأ بين الحين والحين
يشور لكي يظهر للعالم قوته ، ويرد الناس عن حياضه ، وربما ذهب مع
الغضب مبلغا لا يكون بينه وبين الحرب فيه الا خطوة ، ولكنه لا يلبث
أن يسترد صوابه ويعود الى نفسه ويعرف قوته وحاله ، وهنا يفارقه
الحماس ويسكن الغليان كأن لم يغن بالأمس .

بهذه العيون تنظر هذه الدول الثلاثة الى المسألة الشرقية ، تراقب
كل منها الأخرى وتخشاها أشد الخشية ، وربما كره قيصر روسيا
ملك فرنسا فاتجعت الدولتان بالعداء إحداهما نحو الأخرى ، وربما
خافت النمسا اتساع سلطان روسيا في تركيا والبلقان فانضمت الى انجلترا ،
وربما أملت بروسيا أن تقع حرب بين الانجليز والفرنسيين فتجد فرصة
تأرفيها من هؤلاء الآخرين — الذين آذوها في السنوات الماضية أبلغ
الأذى — فانضمت الى انجلترا ، ولم تبال أن تشترك بذلك في خنق أمة
لا حول لها ولا طول .

كان السلطان والوالى يفهمان ذلك حق الفهم ، وكان كل منهما
يعرف من أمر هذه الدول ما تعلن وما تبطن ، فأما السلطان فقد
ضمن السلامة فما عاد يخشى كثيرا ، فألقى الحبل على الغارب وترك
الأمور تجري في أعنتها ، وهو واثق من أنه واجد العون من الروس
أو الانجليز في أى زمان ، ومضى يشتط في معاملة الوالى ويفرض
عليه طاعته فرض القوى المتجبر الذى يعتز يمينه وسلطانه لا يمين
غيره وسلطانه ، وحققت الدول ظنه فيها فطنى وتجبر ومضى في العناد
الى حد بعيد ، وأما الوالى فكان يعرف أنه في مسبعة لانجاة له فيها
إلا بسلاحه وحيلته ، فاستنفذ هذين الى حد أرهق البلد الذى يمدده
بالسلاح ، وحطم الرأس التى ترسم له الحيلة ، فاتهى بهذين الى خمود
وذبول .

موقف مصر وتركيا
من الدول

مستزلة محمد علي

ولم يكن لمحمد علي كذلك محيصا عن عداوة الدولة العثمانية والوثوب بها ، فقد كان خرج إلى حرب اليونان على أمل الفوز بولايات الشام ، وقد كانت الدولة وعدته ذلك ، فكان من الحق أن يعطى ما وعد به بعد إذ قام بتبعاته في حرب اليونان خير قيام ، فقَد فيها أسطوله ومعظم جيشه وأنفق من المال شيئا كثيرا ، فاذا أبى السلطان عليه ذلك لم يكن له بد من أن يستعين بالقوة على تحقيق ما عجز دون الحصول عليه بالرأى والاقناع ، بل يبدو أنه لم يكن له مفر من عداوة الدولة لأنها كانت على نية الالتجاء إليه كلما حز بها أمر ، فقد استدعته لاختضاع الثائرين في الروملى ولما يفرغ من عقايل حرب اليونان ، كأن هذا الرجل إنما كان يعمل لخدمة هذا النفر من المبطلين المفسدين في القسطنطينية ، يستنزف دماء شعبه ويرهق نفسه وابنه لكي يريحهم من العمل ويؤمنهم من الخوف ، وليس له بعد ذلك نصيب من مال أو شكران ؛ إنما كان على الدولة أن تسلم له بما طلب فقد كان الرجل خيرا مصلحا بل كان خير من في الدولة كلها ، وكانت ولايات الشام التي طلبها في حاجة إلى رأيه ويده ، « فقد كانت في حال سيئة ، وكان الأمن فيها مروعا إلى حد استحالة معه على الرسل أن ينفذوا خلالها دون توقع الأذى والعدوان ، وقد طال بها الزمن يحكمها باشوات يستنفذون وسع جهدهم في إرضاء جشعهم ، ولم يكن أحد يستطيع أن يظهر بأى مظاهر الغنى ، وكان الجميع فقراء أو تظاهروا بالفقر ، وكان أهلها كلهم — بأديانهم المختلفة — مختلفين متدابرين طرائق » (١) . فماذا كانت الدولة تريد من بقائها على هذه الحال ، وما ضرها لو أطلقت فيها يد هذا القدير فأصلح من شأنها واستنقذها من مظالم آل الجزائر في عكا ، والشهابيين في بيروت ، وخلص بها من فوضى منازعات

حال الشام قبل
الفتح المصري

الدين في كل مكان ، لو فعل السلطان هذا لزاد سلطانه على الشام ولم يضعف ، فقد كانت هذه الفوضى فرصة طيبة للدول لتدخل في أمور هذه الولايات وتأتي فيها من الأمر ما تريد ، فاستطاع الانجليز أن ينشروا متاجرهم ويشرفوا بأنفسهم على طريق الهند ، وأمكن للفرنسيين أن يبسطوا سلطانا أدبيا على لبنان وآله من الموارنة ، فلم يكن للسلطان ظل من القوة هناك ، فماذا ضره من مطالب واليه ؟

النزاع بين محمد علي
والعول

يبدو أن النزاع لم يكن بين الوالي والسلطان ، بل كان بين الوالي والدول ، فقد اصطاح السلطان والوالي مراراً أثناء الكفاح وبداعليهما الميل إلى الهدوء ، فابت الدول ذلك وأخذت تثير أحدهما على الآخر وتغريه به ، بل أبت انجلترا وحدها ذلك وأصرت على القضاء على محمد علي وه إلقائه في النيل ، كما قال بلهرستون ، من هنا يصح أن ننظر لهذا النزاع على أنه مشكلة دولية ، لا مسألة داخلية ، وأن نعتبره دوراً من الكفاح بين الشرق الاسلامي والحضارة الأوروبية ، فالنزاع في الشام كان بين الانجليز ومحمد علي لا بين هذا الأخير والسلطان ، وهو نزاع يشهد التاريخ فيه للوالي بأنه لعب فيه دوره بمهارة واقتدار ، بحيث نستطيع أن ننظر إلى سياسة محمد علي حيال المسألة السورية كقطعة طريفة من السياسة الذكية الرشيدة .

ضرورة ولايات
الشام لمحمد علي

وكانت ولايات الشام لازمة لمحمد علي في ذلك الحين ، فقد كان له أسطول لا يستغنى عن أخشاب لبنان ، وكانت له متاجر تصليح لها أسواق الشام ، ولم يكن في استطاعته أن يترك فلسطين — مفتاح بلاده — ليهده الأعداء منها ، وليقيم فيها ولاية لا يدخرون وسعاً في أيدائه والنكابة به كأنهم موكلون بهذا (١) ، وقد كان الانجليز على حق حين تخوفوا

مطالبه لأنه لم يكن ليدعهم أحرارا في الشام يأتون من الأمر مه يريدون كما هم الآن .

الروسيا تحول النزاع
من مسألة داخلية إلى
مسألة دولية

ولم يكن تقدم المصريين الأول في الشام بالأمر الجديد ولا بالحدث الخطير ، فقد كانت المنازعات والحروب دائمة بين ولاية السلطان ، لا يفتأون يحتربون فيما بينهم لسبب أو لغير سبب ، فر بما أضلح السلطان بينهما أو تركهما على حالهما ما دام اختلافهما لا ينقص المال الذي يأتيه من أحدهما ، وقد كان من المعقول أن يظل الشام في يد محمد علي زمانا بعد انتصار ابراهيم الحاسم في قونيه في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ ، لولا تدخل الروسيا الذي أخاف الدول ودفعها إلى التدخل ، فقد كانت الروسيا تعتبر الدولة العثمانية منطقة نفوذ لها ، وكانت مصالحها تقتضى بقاء الدولة على حالها من الضعف ، فلما رأت أجناد مصر يحتاجون الشام ويشرفون على جبال الاناضول ، تخوفت مسيرهم إلى القسطنطينية واستيلاهم عليها ، وأنهاضهم الدولة من جديد والقضاء على مطامعها فيها لهذا حرصوا على أن يثيروا مخاوف السلطان من ناحية واليه من بادية الأمر (١) ، فبالغوا في تصوير المسألة وجعلوا حرب محمد علي للجزار حربا للسلطان ، وأخرجوه بذلك عن حله ، فتورط في عدا محمد علي ، ومن هنا يسهل علينا تصور السبب في توجيه السلطان قواته لحرب محمد علي من جهة وتحريضه الولاة الآخرين عليه من جهة أخرى ، ثم حذفه اسمه واسم ابنه من سجل الباشاوات الذي نشر في عيد الأضحى الذي تلا ذلك أى سنة ١٨٣٢ ، وقد كانت الدلائل كلها تدل على أن محمدا عليا لم يكن يرجو شيئا بعد الشام ، فلو قد كان السلطان فاضحه قبل قونيه لأراح نفسه من عنا طويل ،

ولكن تخويف الروس أربه فوجه نحو الوالى قوته كلها ، فسار الصدر الأعظم رشيد محمد نفسه نحوه ، وبهذا لم يعد الأمر نزاعا بين محمد علي والجزار بل بينه وبين السلطان ، ولو قد أراد محمد علي القضاء على السلطان إذ ذاك لكان عليه فى شغل من الدول ، ولما أرسل يستوقف ابنه عند كوتاهية بعد أن أصبحت القسطنطينية قاب قوسين أو أدنى فلم يكن الرجل يفكر فى الاستيلاء على بغداد فى ذلك الحين ولم يأمل فى الصدارة العظمى فى ذلك الحين كما زعم المسيو دريو (١) .

ولما كانت روسيا تكره أن يتدخل غيرها فى منطقة نفوذها . فقد حرصت على الاسراع بقفل الباب قبل أن تنبذ الدول الأخرى ، غير عالمة أن تدخلها هذا هو الذى سيثير مخاوف الدول ويدفعها إلى التدخل ولو قد اصطنع الروس الكياسة فستروا أغراضهم لكان فى الصلح أمل ولما اضطربت الأمور هذا الاضطراب ، ولكنهم بالغوا فى سوء التصرف — لو استقام هذا التعبير — فإرسلوا قائدهم مورافيف Muraviev إلى محمد علي فى الاسكندرية لاليتفاهم معه ، بل ليأمره بالانسحاب من الشام جميعه وتسليم أسطوله إلى السلطان وإنقاص جيشه إلى عشرين ألفا فقط ، وهذا بعد شهر واحد من انتصار قونيه ، أى والرجل فى غلواء النصر ونشوة الظفر ، ولو طلبوا إليه هذا وهو فى عقابيل الهزيمة وذل الانكسار ، لأباه وهو على حق فى الإباء .

هذه الخطوة الروسية فتحت أبواب البلاء . لا على محمد علي وحده بل على السلطان والروسيا ، فقد تار تار الوالى حين وجد السلطان يستعدى عليه الروس النصارى « وتفشى الغضب على السلطان فى نفوس الرعية حتى لقد سبه درويش صغير على قارعة الطريق (٢) ، وأحس

غضب الرعية على
السلطان

(١) Driault : Question d'Orient; P 141

(٢) Ibid

محمد على بذلك فدارت برأسه فكرة خلع السلطان بالمضى إلى القسطنطينية ، بهذا صارح باركر مندوب إنجلترا ، وأرسل لابنه ابراهيم يطلب اليه أن يحصل على فتوى تشرع له عزل السلطان قبل أن يعلن خلعه ويسقطه من الخطبة ، وقبل أن يمضى إلى القسطنطينية ليزيل منها هذا الذى لا يأنف أن يستعدى خصوم المسلمين على المسلمين^(١)

تدخل الانجليز
والفرنسيين

أزاء هذا التقدم الروسى لم يسع الانجليز والفرنسيين إلا أن يتدخلوا ، فما كان بالمرستون ليترك الروس يسيطون حمايتهم على الدولة ويخاطبون الناس باسمها ، وما كان للوى فيليب أن يسمح لعدوه يقولوا - الذى كان لا يفتأ يعيزه ويستثيره - بأن يستمرى هذه اللقمة السائغة ، ومن ثم أسرع الاثنان بالعمل ، فأما الفرنسيون قد كانوا لا يطلبون أكثر من كف يد الروس واعادة الدب إلى عقاله ، فاكثفوا بأن وجهوا لمحمد على النصيح بان يلزم القنوع فى مطالبه ، وأن يعجل بالصلح مع السلطان قبل أن يتسع الباب إذا استمرت الحرب والشحناء ، ولهذا عجلت بارسال مندوب خاص هو البارون بوالسكمت لي عجل بذلك .

بلمرستون ومحمد على أما الانجليز فلهم بعد رد الروس مطالب أخرى ، فقد رأوا رأى العين أن هذا الرجل الناهض قوى ، وأنه ينبىء عن قوة مقبلة وفتح عظيم . فهذا الشام له طال الحين أوقصر ، وطرق الهند فى يديه عن أى السبل فهو لا يقل عن الروس خطرا والقضاء عليه ضربه لازب ، وهنا بدأ بلمرستون يلعب دوره الخطير فى هذه المسألة ، وهو دور يبالغ المؤرخون كل المبالغة فى تصويره والاعجاب بالرجل من أجله . وينسون أنه كان يغالب خصما ضعيفا هو محمد على ودولة صغيرة هى مصر ، وينسون انه لم يكن على شيء من الكياسة لامع مصر وحدها بل مع فرنسا أيضا ،

(1) Dodwell p, 114

(2) Douin : Mission du Baron de Boisecomte أنظر

وأنه كان يلعب لعبا مكشوفاً صريحاً في أكثر الأحيان ، وأنه كان يغامر في غير حذر معتمداً على أسطوله في البحر الأبيض ، ينسى المؤرخون هذا ليعجبوا بانتصاره في آخر الأمر ، مع أن الرجل لم يكن له مفر من الانتصار — إذا استقام هذا التعبير — مادامت المسألة صراعاً بين أسد وحمل ، ومادام على ثقة من انتصار أوروبا له على خصمه الضعيف

كان قنصل إنجلترا في مصر في أوائل أيام الصراع الكولونيل باركر ، فاثاره انتصار محمد علي ولم يملك غضبه ، فلم يهتئ باستيلاء ابنه على عكا ، وانهز فرصة عزل السلطان له لكي يتحدث عنه بازدراء فكان ينعته بالوالى السابق حيناً وبالثائر حيناً آخر ، فوجد بالمرستون أنه يوشك بذلك أن يفضح نيات الانجليز ، فسارع بعزله وأقام بدله الكولونيل باترك كامبل أقدر معتمداً بريطانيا في مصر ، وأوسعهم فهماً إبان حكم محمد علي (١) وأكثرهم عطفاً عليه وتقديراً لأعماله ، وإنما احتال بالمرستون بذلك ليعرف بواسطة كامبل نوايا محمد علي وأغراضه عن سبيل المودة والصداقة ، وفهم محمد علي ذلك فغير أسلوبه من المصارحة إلى الدهاء ، فبعد أن كان يصارح باركر برغبته في فتح فلسطين ، وبعد أن كان يعلن له رغبته في عزل السلطان ، أسر إلى كامبل أنه لا يرغب بالدولة شراً وإنه يرجو انقازها وإصلاح شأنها ، وأنه لا زال العبد المخلص للدولة التركية وإن خاصم سلطانها ، ولم يستطع بالمرستون أن يفعل أكثر من ذلك إذ ذاك لاشتغال جيوش إنجلترا في هولنده والبرتغال وغيرهما ، فوقف يرقب الحوادث ، وألح عليه السلطان في التدخل فرد سفير إنجلترا السير ستراد فورد دي ريدكليف قائلاً : « ان المسألة أصعب مما يتصور الباب العالي ، وإن الحكومة البريطانية ستحتاج إلى وقت تجيب فيه ،

(١) Dodwell; Op. Cit. P. 112 – 113

ولكنها — في الوقت نفسه — سترسل الى محمد علي في أقرب فرصة ،
معبرة عن الأسف الذي سببته خطته وعن أملها في أن يعقد الصلح
مع السلطان مباشرة (١) .

فرنسا ومحمد علي أما فرنسا فلها في السياسة سبيل أخرى ، فهي لا تعتذر عن عجزها
عن التدخل الفعلي ، وإنما تريد أن يطيعها الناس طائعين مختارين ، وأن لا يعصى
محمد علي لها أمرا ، أليس هو صنيعتها وثمره جهدها ، فقيم يعصاها ولا يسمع
نصيحها ؟ وفيما حاجتها للجند تقهره بهم وفي استطاعتها أن تأمر فيطيع
من غير مطاولة ولا مكابرة ؟ ولا يكلفها الأمر إلا أن يتحرك مندوبها
في القسطنطينية « دى فارن » فيأمر إبراهيم بان يقف عقب قوته ،
فيقف إبراهيم ويمثل ، فإذا لم يمثل وتقدم ، استطاعت فرنسا أن تحل
الأمر من جهة أخرى ، فتأمر السلطان بأن يعيد الروس الذين أتوا لعونه ،
فإذا أبى ، كان عليه أن يجيب مطالب محمد علي دون تردد أو سؤال (٢) .

وليس أغرب من موقف فرنسا وتصرفها في هذه الأزمة الطويلة
إلا دعوى مؤرخيها أنها مشكورة على ما فعلت ، وأن مركزها في البحر
الأيض كان يستدعي ذلك التصرف ويبرره ، وليس أغرب من
دعواهم بأن الفرنسيين عاضدوا مصر وتولوا حمايتها في هذه الأزمة
التي كآثرها الأعداء فيها ، مع أن كل الأذى الذي أصاب محمدا عليا لم
يكن سببه إلا هذه الدعوى ، فقد استثارت عليه الانجليز والروس .
يزعم مؤرخو فرنسا أن البحر الأبيض كان في ذلك الحين بحيرة
فرنسية « كان سلطان فرنسا — إذ ذاك — عظيما في البحر الأبيض
المتوسط ، فكانت تبسط على الأحرار في إيطاليا شبه حماية منذ

مركز فرنسا في
البحر الأبيض

(١) تاريخ مصر السياسي ، للاستاذ رفعت ص ١٩٠ .

(٢) تاريخ مصر السياسي ، للاستاذ رفعت ص ١٩١ — ١٩٢ .

احتلالها انكونا ، وكان لها في اليونان حزب قوى جدا لا يلبث أن يصبح صاحب السلطان النافذ فيها ، وكانت فتوحها في الجزائر تسير سيرا موقفا على رغم كيد الانجليز . . وكان الفرنسيون أصحاب الرأي المسموع في مصر ، إذ كان نصحاؤهم أدنى الناس إلى ثقة الباشا ، ومن هناك امتد سلطان فرنسا حتى فلسطين والشام ، وطرق أبواب آسيا الصغرى والعراق ، فلم يكن الناس مخطئين حين زعموا أن البحر الأبيض كاد يصبح إذ ذاك بحيرة فرنسية (١) كما يزعم المسيو دريو ، ولو قد قرأ هذه السطور سولت أو تير أو جيزو لاستحيي وهو يرى أساطيل إنجلترا تنزع هذا البحر وتملك نواصيه فلا تجرؤ فرنسا أو غيرها على الخوض فيه إلا بعلم الانجليز ورضاهم ، وما كانوا بعاجزين عن أن يحرموا على الفرنسيين نزوله الآن ، وقد حرموه عليهم في أوجههم أيام نابليون ، هذا وقد كان السلطان وواليه لا يحفلان لفرنسا نصف حفلهم للروسيا أو لإنجلترا ، ولا حاجة بنا إلى القول بأن احتلالهم لانكونا أثار عليهم بغض الإيطاليين لأحبيهم ، وأن أهل اليونان كانوا يعرفون أن استقلالهم منسوب للروس والانجليز ، ولم يفعل الفرنسيون أكثر من مظاهرة في البحر أثناء نافرين ، ومظاهرة في البر قام بها الجنرال ميزون حين نزل اليونان في ختام ثورتها بيضعة آلاف من الفرنسيين لم يشتركوا في موقعة ولم يغيروا أمرا . .

إنما الحقيقة أن محمدا علياً شقى بهذه الدعوى الفرنسية الباطلة . ادعاء الفرنسيين حماية محمد علي توثيقه
شقى بها لأنها أثارت مخاوف الانجليز من ناحية فاتهموه دائماً بأنه يعمل لحساب الفرنسيين ، فأربوه وهم على ثقة من أنهم يحاربون فرنسا . ولو قد سلم محمد علي من تهمة العمل لحساب فرنسا لما أصر الانجليز

على عناده هذا الاصرار ، فالانجليز أكيس من أن ينفقوا كل هذا الجهد في عدا دولة ضعيفة كمصر الناشئة . وشقى بها محمد علي مرة أخرى ، لأنها غررت به ودفعته من حيث لا يتوى معاوته فعلا ، فركته يصلى نار الهزيمة وحده ، وليتها اكتفت بذلك ؛ بل أهوت يدها على رأسه في آخر الامر كألد الاعداء والخصوم .

قلق محمد علي

وكان محمد علي يرقب الحوادث إذ ذاك بعين القلق ، فقد أفرعه تقدم الروس وانزالهم الجند لعون السلطان ، وكان يرجو مخلصاً أن يتقدم اليه هذا الأخير في طلب الصلح قبل أن يستفحل الامر ويقتل الروس والمصريون على القسطنطينية ، فتستطير أوروبا كلها نارا حامية ، وكان يرجو أن يعينه الله على الاتفاق كما نصحته انجلترا وفرنسا ، وبلغ منه الخوف مبلغاً عظيماً ، حتى ليذكر « سنت جون » — وهو شاهد عيان — أن الباشا تأثر وجمع ٥٠٠٠٠ مصرى لحضور صلاة جامعة امام قصره سائلين الله النصر للباشا ورجوع جنوده ظافرين سالمين (١) .

اتصار محمد علي
في النور الاول من
الكفاح

فادا هو في هذا إذ أتاه الفرج ، وإذا برسول السلطان يطرق بابه عارضا عليه الصلح ، مقدما له الشام كله علاوة على مصر ، فرضى جذلان طربا ، وطاول فترة من الزمن حتى كسب لابنه درجة محصل لولاية ائنه ، فانتهى الامر بذلك واستراحت النفوس بهذا الصلح الذى عرف بصلح كوتاهيه في ١٦ مايو سنة ١٨٢٣

بين مصر والدول

صفيت المسألة بين الوالى والسلطان ، ولكنها لم تصف بينه وبين الدول ، فقد رضى السلطان بهذه الحال واطمأن إلى أن وجود محمد في الشام لن ينقص من ماله أو هيئته . واطمأن محمد على الى مركزه الجديد فاخذ يثبت ويقويه ، أما الدول فلم يرضاها ذلك ، فكيف تقفل روسيا الباب وتترك الدولة مطمئنة البال ، وكيف تسمح لها بذلك الرخاء الذى قد

يمكنها من اصلاح شأنها والوقوف في وجه روسيا ومطامعها . معاهدة منكارسكى
فلتسرع إذن ولتؤكد حمايتها للدولة من أى اعتداء ، وذلك لتستثيرها
إلى عدااء محمد على من جهة ، ولتتغلب على أى نفوذ دولى آخر فى
القسطنطينية من جهة أخرى ، فأرسلت سفيرا فوق العادة هو الكونت
أرلوف Orlof وكلت إليه مهمة عقد معاهدة دفاعية مع الدولة العثمانية ،
ورحب السلطان بذلك لأنه عرف « من تجاريه الحديثة درسا جديدا ،
وهو أنه لما اشتدت الازمة وانهزمت جيوشه ولى وجهه نحو أصدقائه
يطلب المساعدة الفعلية ، فلم يسعفه أولئك الذين طالما أعلنوا إخلاصهم
له (إلا) بالكلام والقول الجميل ، أما روسيا فلما وجه إليها الطلب
أجابته على الفور بالجيش والأساطيل ، من ذلك عرف السلطان
الناحية التى يجب أن يولى وجهه شطرها إذا ما اضطر لطلب
المساعدة (١) ، ، ومن هنا عقدت معاهد سرية عرفت باسم « هنكار
اسكسى » تعهد القيصر فيها بالدفاع عن السلطان ، وأخذ السلطان على
نفسه ان يقفل المضائق فى وجه السفن الحربية لاية دولة عدا روسيا

بهذا كادت الصفقة كلها أن تخرج من يد الانجليز ، وبيعت الدولة اثرها فى السياسة العام
لمحمد على ونيقولا مناصفة ، وقعت طرق الهند فى يد الأول وأصبح
شرق البحر الايض تحت رحمة الثانى ، فلودام الامر على ذلك لا تقطع
رجاء الانجليز فى الصلة بالهند عن هذا السيل ، ولأمكن الروس أن
يهاجموها آمنين وقد أحكموا رتاج الباب ، فلا يملك الانجليز لهم دفعا ،
ولهذا لم يلبث بالمرستون ان أحس أن هذه القسمة ثقيلة على نفسه ،
وما يطيق الرجل صبرا على هذا الحل الذى أصبحت الدولة به شطرا
للروس وشطرا للفرنسيين .

انجلترا تهم محمداً علياً
بأنه سب للبلاكة

من ثم أنشأ بلهرستون يعمل بجد ونشاط ، وكان يرى أن محمداً علياً سبب
هذه المصائب كلها ، أليس هو الخطر الوحيد الذي يدفع السلطان إلى الاحتماء
بالروس ، وأليس هو الستار الذي يخفى خلفه الفرنسيون ، فقيم بقاؤه؟
ولم لا يقضى عليه ويستراح من شره ؟ ولم لا تسلك إنجلترا كل السبل
للوصول إلى هذه الغاية ، ولن تشفع للرجل عند الانجليز اصلاحات
ولا تقدم ولا عمران ، ولن يشفع له جهد بذل أو مال انفق أو شعب
ضحى نفسه للوصول إلى هذه الغاية ، ليهدم العمران وليذهب الجهد
هباء ولترم الضحية للكلاب ، ليسلم الانجليز ويعيشوا موفورين

انجلترا وحركات
الاصلاح في الشرق

هذا هو الخطر الجديد الذي سيلقى الدولة الاسلامية الناشئة في
في دورها الجديد ، خطر يعوقها عن التقدم ويأخذ عليها سبل الاصلاح ،
لأن إنجلترا عرفت أن كل إصلاح من شأنه أن يقوى الدولة ويعز
من جانبها ويجعلها قوة على طريق الهند انما هو خطر على إنجلترا ، وإذن
فكل إصلاح على هذا الطريق خطر على إنجلترا ، وإذن فأنجلترا تعتبر
القضاء على الاصلاحات والنهضات في الشرق الاسلامى دفاعاً عن
نفسها ، تحاربها بداهة وبغير تردد ، ذلك مفتاح السياسة الانجليزية إلى يومنا
هذا ، ومادامت عيون الشرقيين قد تفتحت للاصلاح وسعوا إليه ،
فذلك يعتبر إعلاناً للحرب على إنجلترا ، فمن اليوم الذى تستيقظ فيه
الشعوب وتأخذ للاصلاح سبيلها ، يصبح الصراع بين المسلمين في كل
مكان وبين الانجليز

انجلترا تحارب
مصر حرباً سلبية

وليس أدل على ذلك من الحرب التى أعلنتها على محمد على جبراً
وعلانية ، في الشام وفي مصر وفي القسطنطينية ، وفي أوروبا كافة .

يشبى الدأعاء محمد على

فأما في الشام فقد شمر قنصل إنجلترا عن ساعده ونزل الميدان
صراحة ، وأخذ يتصل بزعماء القبائل ويحرضهم على الثورة ويقدم
اليهم السلاح ، وما كان هؤلاء الزعماء بحاجة إلى من يحرضهم على الثورة

أو يدفعهم إليها ، فقد كانت يد محمد قد ثقلت عليهم منذ حين ، وأبوا عليه أن يجندهم في جيوشه وينزع سلاحهم ويحتكر دونهم تجارة الحرير وما إليه ، وما كانوا يطبقون أنظمتهم ولا قوانينه ، فما ان همس بُنُسْبِي بالثورة في آذانهم حتى هملوا ورحبوا ، فاشتعلت الثورة ، وحق للانجليز أن يؤكدوا للدول أن محمداً علياً يخرب الشام بحكمه ، وان العدل يقضى بتخليصه من نيره ورده إلى السلطان العادل القادر !

مترافقوردى ردكف
يسعى لزيادة الحالة
مخرجاً

وأما في القسطنطينية فلا ضير على مترافقوردى ردكف أن هوأ الخ على السلطان في اعلان الحرب على الوالى واحراج مركزه ، واقناعه بأن الانجليز خدم له إذا هو فعل ذلك . وأما في أوروبا فلا أقل من إقناع النمسا بأن اتساع سلطان روسيا في تركيا خطر على كيانها ، فلا بد من القضاء على ذلك السلطان ، وهل من سبيل الى ذلك الا بالقضاء على محمد علي ؟ ولا تعجز انجلترا عن أن تفهم بروسيا بان القضاء عليه اضعاف لفرنسا واحباط لمسااعيها ، فلا يلبث البروسيون أن يقبلوا . وبهذا تجتمع السياسة الدولية كلها لحرب مصر .

مخاربة محمد علي في
مصر نفسها

وأما حربه في مصر فبمعا كسته في رزقه وماله ، فاذا كان الرجل يعول على التجارة فلتحرم عليه التجارة ، وليحصل الانجليز من الدولة على حق التجارة في بلاد محمد علي ، فيضربونه بذلك ضربة قاضية بالقضاء على الاحتكار الذى هو أساس نظامه المالى .

محمد علي يتوق
الحرب محافظة على كيانه

بديهي بذلك أن نعرف أن الحرب كانت مستطيرة بين الوالى والسلطان عاجلا أو آجلا ، لسبب معقول أو لسبب غير معقول ، من ناحية السلطان أو من ناحية محمد علي ؛ وكم كان هذا الاخير مشكينا ، وكم توفى الحرب ، وكم احتمل الحرج والاعنات في صبر وإناة ، وكم رأى اليد ترتفع لتطعنه فلاها مالا وريحانا ، ولم يشفع له دفاع كامل عنه وحسن رأيه

فيه ، ولم يتجه دفاع بعض الوزراء الانجليز أنفسهم عنه حين أرسل إلى بلرستون يقول « لا يمكننى أن أَرْضَى بترك ماشيدته بمصر من المنافع والمرافق الحيوية بها طوال هذه السنين — مما كلفنى أموالاً طائلة ، كدور الصناعة البحرية والاسطول والبواخر والمصانع وعددها وعملها... — لا يمكننى ترك كل هذا للفناء في يد الباب العالي بعد موتى ، وإن قلبى لينفطر حزناً كلما ذكرت أن ثمرة اتعابى ضائعة ومصيرها للفناء ، وأن أولادى وأسرتى ستركون بعد موتى تحت رحمة الباب العالي » (١)

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا أن انجلترا هي التي أثارت حرب الشام الثانية بعد أن استوثقت أن أوروبا كلها — عدا فرنسا — معها على محمد علي. فلم يكذب بنسبى Ponsonby يستوثق من ذلك حتى أنشأ يحرض السلطان على الحرب صراحة وعلانية، فأكد له أن انجلترا معه في هذه الحرب وأن أسطولها في خدمته ، فتشجع السلطان وأقدم على حرب هو الكاسب فيها على أى حال ، فإذا انتصر كان بها ، وإذا انهزم كانت حماية الروس والانجليز مأمناً له من عدوان محمد علي . وكان السلطان قد بدأ منذ حين يصلح جيشه وينظمه ، فظن أن العدة اكتملت له ، وأنه مقتدر هزيمة المصريين على أهون سبيل ، فأمر جنوده بالمسير ، وأحست فرنسا أن السلطان وقع في الفخ وأن انجلترا بالغة ما أرادت ، فأسرعت تطلب إلى الجيشين المتحاربين أن يتهادنا ؛ وكلفت مندوبين لها ببسط الأمر على حقيقته أمام بصريهما ؛ ولكن الرسولين تأخرا فلم

انجلترا هي التي
أثارت حرب الشام
الثانية

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) كابل إلى بلرستون ٢٥ مايو سنة ١٨٣٨ عن

يصل إلا بعد موقعة نصيين ، أي بعد القضاء على جيوش السلطان وانفتاح طريق القسطنطينية أمام محمد علي ، لا يعارضه معارض .

الصراع في الشرق
يصبح صراعاً بين فرنسا
وانجلترا

هنالك أصبح الصراع بين فرنسا وانجلترا صراحة ، وانتقل ميدانه من القسطنطينية والقاهرة إلى لندن وباريس ، وأصبح مدار النزاع كرامة كل من الدولتين وقدرهما في أوروبا ، ذلك أن الفرنسيين وجدوا في ذلك فرصة يعلنون فيها ما طال بهم الزمن وهم يضررونه من كراهية انجلترا وسخطهم على عبثها بحكومتهم وتدخلها الدائم في شئونهم ، ولم تكن الوزارة الانجليزية تتوقع أن تثار فرنسا هذا المثار لخاطر محمد علي ، وتأكد لديها إجرام محمد علي بحب الفرنسيين له ، فأصرت الاصرار كله على موقفها ، وقررت تهدم كل أمل لمحمد علي هذا .

العلاقة بين محمد علي
وفرنسا في سنوات
الأزمة

والحق أن العلاقة بين محمد علي وفرنسا تطورت تطورا سريعا خلال هذه الأزمة ، فلم يكن الفرنسيون الذين ثاروا من أجل محمد علي يرون في تشجيعه نشرأ للحضارة وعملا للرقى بقدر ما رأوا فيه سبيلا للنكاية بالانجليز ، فقد بدا لهم بوضوح أن انجلترا تستهين بهم ولا تحفل لرضاهم ، وترجو أن تقودهم من آذانهم في كل حين ، ومن هنا تريت بلهرستون في العمل مع شعوره التام بأن الموقف يستدعي الاسراع في التنفيذ ، وكانت فرنسا تحيره من أمره فلا يكاد يعرف ما انتوت من أمر ، فبينما يتصافح سولت وملبورن كالأخوين في لندن وباريس إذا بالأسطول الفرنسي يكيد للأسطول الانجليزي في مياه البحر الأبيض ، ويعين الأسطول التركي على الانضمام لمحمد علي .

بيد أن روسيا تطوعت لانقاذ بلهرستون من هذه الحيرة ، فأعلنت تنازلها عن الحقوق التي تتيحها إياها معاهدة هنكار اسكسي ، فتتفس بلهرستون الصعداء ، وأيقن أنه مستطيع الاستغناء بجيوش روسيا عن جيوش فرنسا ، فبدأ يعمل على حل الأزمة بغير رأى فرنسا ،

ولعل روسيا لجأت إلى هذا الحل لكثرة ما أخرجها الفرنسيون وجابهوها بالعداء ، فكان من الطبيعي أن تنحاز إلى جانب أعداء فرنسا ، وذلك بعد أن تأكدت أن هذه المعاهدة لم تصبح ذات بال أمام انتباه الانجليز وحذرهم ، ومن هنا سارع نيسلرود وزير خارجية روسيا فأرسل مندوبه برنوف ليؤكد لانجلترا استعداد روسيا للعمل مع الدول جنبا إلى جنب

إزاء ذلك تشجع بليرستون وبدأ العمل ، ولكنه أحب أن يستوثق لنفسه قبل ذلك ، فأعلن إلى سبستيان سفير فرنسا في لندن أن الدول لا ترى مانعا من منح محمد علي مصر وعكا ورايتين ، وهنا أخطأت فرنسا الخطأ الذي جر علينا — نحن المصريين — الويل ، فقد استباححت الرد باسمنا ، وكان يجب أن تركنا تتكلم عن نفوسنا ، فرفضت ذلك رفضا قاسيا ، وأكدت أنها لا توافق على استعمال القوة في قهر محمد علي

فرنسا تتكلم باسم
محمد علي

أما محمد علي فكان يسعى عن سبيل أخرى ، كان يسعى ليحل المسألة باتفاق خاص بينه وبين السلطان ، ولمح بنسبني ذلك فرأى فيه محاولة لتضييع الفرصة التي طال بانجلترا الأمل وهي ترقبها ، فسارع إلى السلطان يحذره من الاتفاق ، فلم يجد رجال الدولة بدا من الوقوف وانتظار رأى الدول ، وبهذا حرم علي محمد علي أن يفتح فمه في اللحظة التي أصبح مصيره فيها في الميزان ، وحكم عليه بأن ينتظر نتيجة الموقعة ، وما كانت نتيجة بخافية ، إنما كان الرجل موقنا أن فرنسا تسوقه لحتفه وتضعه في فم المدفع ، وكان منذ حين يصرف أموره في كثير من القدرة والسياسة .

محمد علي يسعى للاتفاق
مع السلطان

وبدأت المعركة ، فكانت أسلحة فرنسا خطبا رنانة في البرلمان ومقالات طنانة في الصحف ، وأسلحة انجلترا خطوات عملية حاسمة

المعركة في دورها
الآخير

خاية خسارة لمصر !... بدأ النائب جوفرى فى يونيو سنة ١٨٣٩
فالتقى فى البرلمان الفرنسى ييانا بليغا أكد فيه عزم فرنسا على أن تقف
مع مصر جنباً إلى جنب ، وأعلن استعدادها للعبادة على إنشاء امبراطورية
عربية توازن الامبراطورية العثمانية التى صارت إلى يد روسيا (١) ،
وبعد ذلك بقليل ألقى تيير خطاباً قوياً أيد به كلام جوفرى وأعلن أن
شرف فرنسا مرهون بعون مصر ، فاشتعلت فرنسا ناراً ، ونجاوبت
الصحف تنادى بالعداء ، فلم تملك وزارة سولت المعتدلة أن تقر فى
موضعها ، فاستقالت ليحل محلها تيير صاحب محمد على ونصيره ، وأيقن
الناس أن الحرب واقعة لا محالة ، وعجل تيير بالضبط على الباب العالى
للسراع فى عقد الصلح مع محمد على مباشرة ، فلم يكده يتصل ببلرستون
ذلك حتى فاجأ فرنسا بتوقيع المذكرة المشتركة بين روسيا وبروسيا
والنمسا وانجلترا ، تعلن فيها ضمانها لسلامة الدولة وحرية الملاحة فى
المضايق ، وتمنح محمد على مصر وراثية والشام مدى حياته

هنالك توقدت فرنسا ناراً ، فاعلن « لامرتين » أن هذه المعاهدة
« ووترلو السياسة » ، وخشى تيير أن يجمع مجلس النواب مخافة أن يتورط
فى إعلان الحرب ، فترىث ، وملك الحماس أمة الكلت فقالت « الطان »
« أن أوروبا لا تثبت لنا » فأجابت الديبا مؤكدة « أن المعاهدة إهانة
لا تقبلها فرنسا ، إن شرفها يمنعها من قبولها » حتى لوى فيليب نفسه على ما به
من كراهة الحرب وخوف التورط فيها حذراً من ضياع التاج ، لم يملك
أعصابه وعادت إليه ذكريات جيباب فقال « اتنى أجاهد لرد الثورة
إلى عقابها منذ عشر سنوات ، وقد عرّضت فى سبيل ذلك حب شعبى
وراحتى وحتى حياتى للضياع ، إنهم مدينون لى بالسلام فى أوروبا
وبثبات عروشهم ، وهذا جزائى منهم ، أيجبون لولبست شارة الثورة

علانية ، وكأنما لم يكفه هذا العتب فعاد يقول مهددا مندوبي النمسا وبروسيا « إنكم لمنكرونا للجميل ، إنكم تطلبون الحرب ، فستصلون نارها ! فان كان ذلك ، فاني مطلق النمر من مقاله ، إنه يعرفني وأعرف كيف أتفاهم معه ، وسنرى إن كان يعرف لكم قدرا (١) »

ولم يكن الرجل يستطيع أكثر من التهديد ! كان يخشى على نفسه من نمر الثورة أن يأكله أول المأكولين ! وكان بلرستون يعرف ذلك ، فلم يهز التهديد منه جنانا ، وثار به زملاؤه في الوزارة ، واحتج عليه اللورد هولاند ، فهدد بالاستقالة ، فتركه ملبورن يفعل ما يريد . وهلل القيصر واستبشر ، فهذه عدوته فرنسا تنساق إلى الحرب راضية ، ورجا أن يرى بعينه مصرع « ملك المتاريس » عن قريب ، واشتعل الحقد في قلب الألمان ، ورحبوا بالحرب واستطارت الخصومة بينهم وبين الفرنسيين ، وتناكر الشعبان ، وتحول الأمر بينهما من خصومة في محمد علي إلى خصومة في الرين ، فنادى بكر شاعر الألمان :
لن يكون لهم ، هذا الرين الحر الألماني
فرد عليه لا مرتين :-

لقد كان لنا ، هذا الرين الألماني الذي تدعيه
وسيمضي الطفل إلى حيث كان أبوه .

أي سيعود الرين إلى فرنسا . وليحمد محمد علي الله على ذلك !

في ذلك الحين كان محمد علي ينتظر ، فاني أن يجيب الدول إلى ما طلبت في المذكرة المشتركة ، ولبت يرقب ما تنجلى عنه المعركة بين فرنسا وإنجلترا من أجله ، ولكن الدول لم تنتظر ، فنزل الكولونل نايبير عند بيروت ، وثار شمالي الشام بمساعي الانجليز وأصبح مركز

الخلاف في الوزير
البريطانية بسبب مسألة
مصر

اتساع نطاق الخلاف
دخول بروسيا

انجلترا تبكر بالعمل
بير في مياه الشام

ثورة في الشام

محمد علي في الشام حرجا جداً ، وخشى أن يقطع الأسطول الانجليزي على جيشه خط الرجعة إلى مصر فتراجع ابراهيم مسرعاً .

فرنسا تتراجع

وهنا فوجيء الناس بأمر جلل ! . لقد سقطت وزارة تيير وعاد سولت وقام جيزو المعتدل بشئون الخارجية . . وإذا بنيران فرنسا تمخض ، وحماسها يسكن ، وإذا بها تستبدل الغلو بالتواضع وتقنع بمصر لمحمد علي ، كما تما مصر من أملاك يمينها يصرف الأمر فيها لوى فيليب كما يشاء ويهوى ، وما هي الا أيام حتى هدأت ثائرة الفرنسيين وتركوا محمداً علياً تلعب به الأقدار ، وكان هذا جزاؤه على تعلقه بها وانتظاره رأيها ، ولو قد عرف أنها ستتصرف على هذا النحو لقبل ما عرضته للدول عليه من أول الأمر ، ولما تحداها هذا التحدي ، ولو فر على جنوده عناء حرب الشام الثالثة ، ولما وقف الرجل هذه اللحظات العصيبة يلتمس الرحمة من يد الأعداء ؛ أحس محمد علي أنه بين الحياة والموت فانشأ يحصن مصر تحصيناً بالغاً ، وكون جيشاً جديداً من المصريين ، واستدعى جنوده كلهم ووجد أسطوله في يد واحدة ، واستعد للمعركة الفاصلة في حدود مصر بعد أن فقد الأمل في الشام . ورأى الكولونيل شارلس نايبير ذلك ، وعرف استحالة أخذ مصر من محمد علي ، اذ استيقظت فيه عزة نفسه فاني شروط الدول مرتين . وأخيراً وبعد أن ناء ظهره تحت ضربات الحلفاء وخيانة فرنسا وعيث السلطان ، قبل مصر وراثية ، ورجا أن يعطيه السلطان مصر . . وإذا ذلك تقدم نايبير ففاوضه رأساً على ذلك الأساس ، وأكده أن الحكومة البريطانية لا تعارض في أن تترك له مصر وراثية ، فقبل الرجل . . وتعلل السلطان تعلل القادر الذي يحتمى بسلاحه يمينه ، فلم تمالك الدول — وهي أعداء محمد علي — من أن تعجب لهذا الاسراف في البطر ، واحتجت ،

محمد علي يستعد

للدفاع عن نفسه

نايبير يفاوض محمد علياً

واتهى الأمر بفرمان ٢٢ مايو سنة ١٨٤١ الذي أصبحت به مصر

فرمان ٢٢ مايو سنة ١٨٤١

وراثية في أكبر أبناء أسرة محمد علي ، وحددت الجزية بأربعمائة ألف جنيه مصري ، ومنح الباشا بعض حقوق بسيطة في منح الرتب وما إلى ذلك .

ذلك كان نصيب مصر من الدنيا على طول الجهد وطول العناء ، ولو قد انهزمت في كل حروبها وقصرت في كل تضحياتها لما منحها اعداؤها غير هذا ، فلم يكن مقدراً لها إلا نصيب المهزوم في أى الحالات ، ومن ثم سئمت النصر وسئمت العمل ، والقتت نفسها في احضان نوم طويل لن تفيق منه إلا بعد سنوات طوال ، فقيم يلومها الناس وماذا يأخذون عليها ، وماذا كان يطلب اليها أن تعمل فوق الذى فعلت في هذه السنوات القليلة : لقد أعلنت حقها في اختيار حاكمها ثم طهرت نفسها وأثبتت حقها في الحياة جنباً إلى جنب مع أعظم قوى الدنيا ، وأثبتت بالبرهان القاطع أن هناك فرقاً بين شعبها والشعوب الأخرى المستنمية للنوم ، ومدت يد الشرف للعالم فاباها لأسباب خاصة ، وانحط عداها الشرق والغرب كله مدى قرون على رؤوس جنود مصر ، فلم يكن لهم بد من أن يسلبوا سلاحهم في ميدان الشرف . ولقد حاول أعداؤها أن يتخلصوا من وصمة خنقها ، فزعم بالمرستون انه حارب محمداً علياً لانه كان يحارب لنفسه وليس من ورائه شعب يطلب الحرية ويستأهلها ، كأن عصابات اليونان — التى كانت تباع السفن لمحمد علي والتى كانت تعتدى على سفن الانجليز — فى اللحظة التى اشتعلت مجالس الانجليز فيها حماساً من أجل اليونان — كأن هذه العصابات تستحق الاستقلال ومصر لا تستحقه ولو بحثت مصر عن سبب لهذا الفشل الذى حاق بها فى النهاية لما وجدت غير سببين اثنين : هما وقوعها على طريق الهند واتهامها بالعمل لحساب فرنسا

أثر الصدمة فى

شعب مصر

فاما الوقوع على طريق الهند فذنب فى نظر السياسة البريطانية لا يغتفر ، ولو قد قاد مصر اللورد ملبورن نفسه لما كان فى نظر

لغة الموقع الجغرافى

بلرستون غير همجى يعمل لحساب نفسه ولا يستحق الا اغراق في النيل ، وذلك هو « ثمن » الموقع الجغرافى يدفعه شعب مصر من دمه وحرته بين الحين والحين ، ولو قد كانت مصر في طرف من أطراف الدنيا لكان لها تاريخ يختلف كل الاختلاف عما نراه اليوم . وأما الاتهام لفرنسا فقد عدته السياسة الأوروبية جريمة كبرى في ذلك الحين ، إذ كانت فرنسا عدوة الدول جميعا ، تصارحها بالأذى وتنطوى نحوها على اللد ، ولو قد دعت انجلترا الدول إلى حرب فرنسا في سنة ١٨٤١ لاجابت الدعاء في أغلب الظن ، فما بالك والدعوى إلى خنق مصر هينة الاجابة يسيرة التحقيق ، فمن هنا سهل على انجلترا أن تجمع الدول في يدها ، وتأتى من الأمر ما تشاء ، ولو قد كسبت فرنسا إلى صفها دولة واحدة كالروسيا أو النمسا لغير الانجليز موقفهم وماليت قضيتنا إلى جانب العدل والانصاف ، وكان على مصر أن تفهم ذلك ، وتعتبر بما أصابها في ذلك الحين ، ولكن مصر لن تعتبر . . . فبعد نصف قرن من هذه الحثية الظاهرة لازال في مصر ناس يؤملون الخير في فرنسا ، فكان جزاؤهم على يدها أنكى من خيانتها لمحمد على كاسرى . وكانت محاولة مصر صريحة لا تقبل اللبس أو الشك ، محاولة لانهاض الدولة الاسلامية وتكوينها من جديد ، وتحضيرها والموافقة بينها وبين عصرها ، ومدافعة أوروبا بسلاحها والاندماج في المجموعة الأوروبية ، والسير مع الدنيا وأهلها ، وقد وفقت مصر توفيقا طيبا : فاعدت جيشها ونظمت مراقبها وعلبت من أبنائها من يستطيع المضى في ذلك الطريق ، ولكن المصائب أقبلت زرافات كما يقول شيكسبير ، واجتمعت الدنيا كلها على أن تردّها إلى الوراء ، فما كان لها والحالة هذه إلا أن تسلم سلاحها في هزيمة أقرب ما تكون إلى النصر والظفر

حقيقة الحركة
المصرية

لم يعمر محمد علي بعد ذلك غير سنوات قلائل ، قضاهما ضيق الصدر بادی الحزن ، وكانت الدنيا قد عرفت فضله بعد أن قصت جناحه ، فانها لعل عليه التقدير من كل صوب ، تلقاه أعداؤه في الاستانة بالدموع والآسى ، وأحسوا هول جريمتهم في هذا الأمل الذي خنقوه ، وبعث اليه ملك الفرنسيين وسام فرقة الشرف ، ولم يستح الانجليز أن يبعثوا اليه سفينة كعلامة على التقدير والاعتراف بالفضل ، حتى بلرستون نفسه أرسل يدعوته الى انجلترا ويرحب به أجمل ترحيب ، ولكنه أبى وفضل زيارة الاستانة ، فذهب اليها وعاد وقد ذهب عنه بعض ما كان يجد . وكان الرجل يمشي نحو الثمانين يحمل على ظهره هذه الخيبة الفاجعة فكان لا بد أن ينوء تحتها ، وخيم على مصر ذهول أصابه منه نصيب ، فاختصم مرة مع بعض عماله واحتد عليهم ، ونام ليلته نوما مضطربا ، ثم نهض في الصباح ليلقى بعض وزرائه ، فاعتذر عنهم ، وجلس على أريكته وبكى بكاء مرا ، ثم نزل ومضى إلى القاهرة عن طريق المحمودية لا يتكلم ولا ينبس ، بعد أن اتهم وزراءه ورجاله جميعا بالغدر والخيانة .

وارتدت عافيته اليه بعد حين ، ولكنه كان بين الحياة والموت وهنا أحس أعداؤه الانجليز بما أنذوه فلم يسعهم الا الاعتراف بفضله ، ففي هذه السنوات كتب قنصل انجلترا الى بلرستون يقول « . . وفي الحق ياسيدى ، لا جدال في أن محمدا عليا رجل عظيم ، فقد استطاع أن ينهض من وضاعة النسب وقلة المال ، ويشق طريقه نحو القوة والشهرة بشجاعته التي لا ترد ومثابرته وحكمته » (١)

(١) من جرای الى بلرستون : ٥ أغسطس سنة ١٨٤٩

عن تودويل ص ٢٦٢

وكان هذا من أجل ما قيل في الرجل الذي مات بعد ذلك بقليل

الوصول في تركيا

— ٤ —

أزاء هذه الأخطار كلها ، والهزائم التي أقبلت بعضها في أثر بعض أحسن بنو عثمان أن نهاية أمرهم قد أوشكت أن تكون ، وترامى إلى سمعهم ما تتفاهم عليه الدول من تقسيم بلادهم واحتلالها ، فبدأ لهم الخطر واضحا جليا ، وحفزهم ذلك إلى التفكير في سبيل يخلص بلادهم من هذا الموت المحيط بها من كل جانب .

وإحساس الأتراك بخطر أوروبا قديم يرجع إلى أوائل القرن الثامن عشر ، حين اشتد ساعد روسيا وعقدت النية على أن تزيل تركيا من موضعها ، فقد هال الأتراك ما وجدوا من انكسار جيوشهم وانكماش دولتهم انكماشاً متتاليا بسبب الضغط الأوروبي من الغرب على يد النمسا ومن الشمال على يد الروس ، وما كان للأتراك إلا أن يشعروا بالخطر بعد إمضائهم معاهدات مينة للشرف العسكري العثماني كمعاهدة كارلوفتز ١٦٩٩ التي سلمت بها المجر وطريق قلب أوروبا إلى النمسا ، ومعاهدة بيساروفتز ١٧١٨ التي فقدت بها جزءا مهما من البلقان أو معاهدتي كيتشك كينارجي ١٧٧٤ وباسي ١٧٩١ اللتين أذلتا تركيا للروس .

حركة اصلاحية
سلفية

لم يكن الأتراك قد تبينوا قوة أوروبا وعرفوا أسباب نهضتها وتفوقها ، فوقع في ظنهم أن سبب هذا الاضمحلال العثماني هو تفریطهم في سنن أجدادهم الأولين ، ومن ثم انجحت أفكار المصلحين منهم وجهة سلفية كالتى سترأها في غير تركيا من البلاد الاسلامية بعد حين . وهذا التفكير السلفي معقول جدا ، بل هو الخاطر الوحيد الذى يخطر في أذهانهم إذا فكروا في إصلاح أمورهم والعودة إلى التفوق الذى كان لهم في سابق الأيام ، فقد كان أجدادهم ينتصرون حيث

ينهزمون هم ، وكان آباؤهم يسوسون الدنيا وأهلها . . فما السبب في عجزهم اليوم وقصورهم ؟ وكان المسلمون قبل أن يتبينوا حقيقة الحضارة الغربية « يعيشون في الاسلام » ، ويرون أنه السبيل الوحيد للعز والعظمة و لرفعة . . فلم تكد المصائب تنزل بهم حتى جرى إلى أذهانهم أن السبب الوحيد هو التفريط في شعار الاسلام والانصراف إلى الدنيا والاسترسال مع الشهوات ؛ هذا النمط من التفكير نجده في تركيا اليوم وفي مصر وجزيرة العرب بعد قليل ، وفي كل بلد اسلامي تنكسر جيوشه أمام أوروبا ويحس خطرها .

كتشى بك

بدأ كتشى بك فأهاب بالأتراك إلى الارتداد إلى النظم العثمانية القديمة والاعتصام بها ، وأكد لمواطنيه أنهم مفلحون أن عجلوا بهذه الرجعة إلى أنظمة محمد وسليمان ، فلم يلبث أن ظهر من السياسيين من آمن بهذا وأخذ به كوزراء أسرة كبريلي ، فانتعشت الدولة إلى حين ، ولكنها عادت فاسترسلت في نومها العميق .

هنا عرف الأتراك أن الأمر ليس مجرد اضمحلالهم ، وإنما سييه أن أوروبا لم تعد ما كانت عليه أيام سليمان ، وإنما شملها تغير عظيم نهض بها من الضعف إلى القوة ، ومن الهزيمة إلى الظفر ، ولم يكن الأتراك بحاجة إلى كبير جهد ليتبينوا ذلك على وجهه ، فقد كانت روسيا إلى شمالهم تعرض عليهم الأمر عرضا واضحا لا يحتاج إلى بيان ، فعرفوا أن بقاء الدولة الاسلامية على حالها لا يغني عنها شيئا ، وإن القوة الأوروبية الحديثة لا تقاوم بالارتداد إلى الاسلام الأول أو بالاعتصام بالاساليب العثمانية الاولى ، بل بالسير في نفس الطريق التي انتهجتها أوروبا ، والتي أوصلتها إلى هذا الأوج من الفرق والانتصار .

فكر الأتراك في هذا منذ أواخر القرن الثامن عشر ومضوا في تنفيذه من ذلك الحين ، ولم يكونوا - كما يظن الكثيرون - جامدين ولا

التفكير في ادخال
الانظمة الأوروبية

مصرين على العناد، بل استطاعوا أن يقطدوا في هذا المجال خطوات واسعة جدا تعادل أضعاف مأتاه الكاليون بعد الحرب الكبرى ، وربما وجد القارى غرابة في مثل هذا القول ، لأن رأى السائد بين الناس هو أن تركيا ظلت جامدة ما كنهه محافظة على القديم حتى الحرب الكبرى وحتى قام الكاليون بحركتهم ، فففضوا عنها القديم وأسرعوا بها في ميادين التجديد وتطرفوا في ذلك تطرفا ظاهرا . ولكن الحقيقة أن الكالين لم يفعلوا أكثر من إتمام ما بدأ به السلاطين . ومقارنة بسيطة بين ما أدخله السلاطين من وجوه التجديد وما أدخله الكاليون تنطق بهذا . فقد استبدل الكاليون مثلا القبعة بلباس الرأس التركى القديم ، ولكن السلاطين هم الذين استبدلوا الزى الأوروبى بالآزياء التركية القديمة ، وقد استبدل الكاليون القانون السويسرى بالشريعة فى مسائل الأحوال الشخصية ، ولكن السلاطين هم الذين أدخلوا القوانين الأوروبية على الشريعة فى غير المسائل الشخصية ، وهكذا ، لا نجد إصلاحا للكاليين إلا وهو فى حقيقته إتمام لما بدأ به السلاطين (١)

الوضع السياسى
لتركيا قبل حرب
القرم

ولعل دافع الناس إلى الأخذ بهذا رأى هو ما يرونه من أن هذه الإصلاحات لم توف على الغرض المراد منها ، فلم ينتقل الأتراك من الهزيمة إلى الظفر ، أو من الاضمحلال إلى النهوض ؛ والذين يذهبون هذا المذهب ينسون أن الدولة العثمانية كانت إلى حرب القرم تعتبر نفسها - ويعتبرها الأوروبيون كذلك - خارج المجموعة الأوروبية ، وأن علاقاتها الطبيعية بها كانت - ولا بد أن تكون - علاقات حرب ، وهى العلاقة الطبيعية الوحيدة المعقولة بين الاسلام والنصرانية ، وينسون أن هذا الاعتبار حال بين الأتراك وبين أن يحققوا أحلامهم فى النهوض . والأخذ بأساليب الحضارة الأوروبية ، إذ أن شعور العدا.

(١) من مذكرات غير مطبوعة للأستاذ شفيق غربال

والنفور والاحتقار من الجانبين لم يبرح قائما بينهما . وهذا الاعتبار نفسه غل يد السلاطين عن الاصلاح الواسع الصحيح ، فالسلطان لا يستطيع - وهو حامى الاسلام من النصرانية - أن يقلد «النصارى» تقليداً ظاهراً ، أو يفرض على «المسلمين» أموراً «نصرانية» يكرهونها ويرون أنفسهم أرفع من الأخذ بها . فكان لا بد له من أن يصطنع الأناة والحذر في كل ما يطلب من وجوه الاصلاح ، بل كان لا يملك التغيير إلا في حدود ضيقة جداً لا تتعدى جنده وحرسه وقصره ، ثم إنه سلطان دولة مترامية الأطراف والنواحي ، تضم اليوناني المذهب بعض التهذيب ، والمغربي الذي يعيش على القرصنة والمصري المتحضر الوداع والكردي المحارب الحشن والعربي القطري البدوي والتركي العنيف الشديد ، فكيف يستطيع أن يفرض على هؤلاء نظاماً واحداً في طريقة عين ، كيف له أن يجمعهم كلهم في لواء واحد ويسوى بينهم ، ويجعل الدولة العثمانية وحدة متماثلة كفرنسا وانجلترا مثلاً ، وهب أن السلطان استطاع ذلك - على استحالة - فكيف يستطيعه والقلاقل تحيط به من كل جانب والأخطار تهدده كل يوم ، وما من قرش يدخل خزائنه إلا استنفدته الحروب لرد العدى أولئكبت الخارجين والواثين ، وكيف يستطيعه وأوروبا لا تعينه عليه العون المفيد المجدى ، فهذه روسيا لا تكاد تترك له فرصة العمل ، ولا تفتأ تثير عليه الحروب والفتن ، بل كيف يستطيعه وأوروبا تتدخل في شؤنه وتحول بينه وبين رعاياه فلا تبقى له على الهيبة اللازمة في هذه الأحوال ، فيدعى الروس لأنفسهم حق حماية المسيحيين في البلقان ، ويزعم الفرنسيون لأنفسهم حق رعاية الأراضى المقدسة ، ويرى الانجليز أن البحر الأحمر منطقة نفوذ لهم فيها ما للسلطان وزيادة ، كيف يستطيع السلطان والحالة هذه أن يعقد أمراً أو يصلح شأناً أو يقيم بناءً ، بل كيف

العقبات التي تعوق
السلطان عن الاصلاح

يستطيع الاصلاح وهؤلاء رعاياه تتسرب إليهم المبادئ الحديثة فيؤمنون بها ويصارحون السلطان بأنهم أحرار أو لا بد أن يكونوا أحراراً ، فاذا أخذهم بأمر عصوا ، وإذا نصحهم بنصح عاندوا وأصروا ، ووجدوا من دول أوروبا معيناً ، قاتروا وخرجوا على الطاعة جملة ، فاذا أرادهم السلطان على الطاعة اعترفت أوروبا باستقلالهم فلم يكن له بد من احترام هذا الاستقلال :

تلك كلها أمور ينبغي أن نحسب حسابها قبل المضي في دراسة حركة الاصلاح في تركيا ، ولندكر إلى ذلك أموراً أخرى كالتنافر وعدم الثقة بين السلطان ورعاياه ، وهو شعور طبيعي بين الحاكمين والمحكومين في البلاد الشرقية . فقد حال هذا الشعور — وما يصاحبه من التخوف والريبة — بين السلاطين وبين أن يقنعوا رعاياهم بحسن نواياهم أو بالخير الذي يرجى لهم من وراء اتباع السلطان فيما يريد . ولم يكن السلاطين يجدون المال اللازم للاتفاق على وجوه الاصلاح . فقد كانت إرادات الدولة قد هبطت هبوطاً مزمرياً جعلها تعجز عن أن تهيم لنفسها العدة اللازمة لمقاومة الدول الأوروبية الأخرى . ولو قد وجد السلاطين الرجال المخلصين والأعوان الصالحين لهاذات عليهم السيل ، ولكن الأتراك لم يكونوا خيراً من المصريين في هذه الناحية .

هل كان السلاطين
مخلصين في طلب
الاصلاح

ويبدو ان أقوى أسباب فشل السلاطين في تحقيق وجوه الاصلاح والنهوض هو أنهم لم يكونوا مخلصين في طلبها ، ولم يعنوا بها عن ثقة بفضلها وجدواها ، وإنما عن اضطراب واكره ، لجأ إليها السلاطين على رغمهم ليقاوموا بها هجوم أوروبا ، ومن هنا غابت عنهم محاسنها فلم يستطيعوا الاستفادة منها على وجهها الصحيح ، ولو قد وجه السلاطين الاصلاح لصالح الرعية لكانت الفائدة أعم والبنیان أقوى ، لأن

الحضارة الغربية حضارة شعوب لا حضارة ملوك ، فهي إلى نفوس الجماهير أدنى ، وما من شعب يتبين خيرها حتى يؤمن بها ويسعى هو لتحقيقها دون الحاجة إلى إحياء ملك أو توجيه سلطان

نفور الشعب التركي
من الإصلاح

من هنا لالوم على الشعوب الاسلامية إذا هي نفرت من الحضارة الغربية ولم تتبين وجه الخير فيها ، فقد اعتبرت الدعوة إليها ضرباً من تحكم الملوك والسلاطين ، واعتبرت اتباع مبادئها لونا من الخضوع لهم ، واليعد عنها فنا من فنون العناد والمقاومة تلجأ إليه كلما أرادت مقاومة أو عنادا ، ولنضف إلى ذلك أن هذه الحضارة أقبلت على أيدي النصارى فاعتناق مبادئها مناصرة للنصرانية على الاسلام ، واحتقارها ضرب من التعبد والتقوى خلق بالمومن الصحيح .

تلك كلها عوامل جعلت سبيل الإصلاح صعباً شائكاً في وجه السلاطين ، كان عليهم أن يتغلبوا عليها قبل أن تثمر ثمرة واحدة من الثمار التي بذلوا الجهد في انباتها ، فلتحسب حسابها عند دراسة تاريخ الإصلاح في تركيا ، وعسانا لا نخطئ فذهب مع القائلين بأن محمداً علياً وفق في حين فشل السلطان ، وأنه لهذا أقدر وأحجى ، إذ فرق بين من يعمل في دولة مترامية الأطراف وفي ميدان مليء بالصعوبات ، وبين من يعمل في بلد متحد آمن محدود قابل للتحضر عاجز عن المقاومة إذا طلبها .

فشل الحركة السلفية

فشلت الدعوة السلفية التي نادى بها كتنشئ بك لأنها جاءت متأخرة جداً — في الساعة الحادية عشرة كما يقولون — فبدأ السلاطين يفكرون في السير في السبل التي انتهجتها عدوتهم الكبرى — روسيا — التي استطاعت أن تنتقل من دولة مضمحلة متأخرة إلى دولة حديثة قوية بحسب لهاكل حساب في السياسة الأوروبية ، وهذا السبيل هو محاربة أوروبا بسلاحها ، أي بنقل مظاهر الحضارة الأوروبية

بدأ هذا العمل السلطان سليم الثالث الذى مر ذكره ، وكان طبيعياً
أن يبدأ بالناحية الحربية ، لأن مظهر الضعف العثماني كان حريماً ،
ولأن روح العصر كلها كانت تهتم بالحروب وتحسب لها كل
حساب ، ولأن الأخطار التي أحاطت بالدولة كانت تستدعى وجود
جيش قوى يحفظ عليها كيانها وهيبتها . فبدأ بأعداد جيش على « نظام
جديد » إلى جانب الجيش القديم ، فلم يكد يمضى في ذلك حتى تبين له
أنه لم يكن على الصواب فيما قصد إليه ، لأن الجيش القديم لن
يدعه يمضى فيما طلب ، لأن قيام هذا الجيش الجديد قضاء على
القديم ، ومن ثم بدأ الصراع بين السلطان والانكشارية هذا الصراع
الذى انتهى بقتله والقضاء على حركته .

و حاول سليم كذلك أن يدخل على نظام الدولة الاجتماعى والسياسى
تعديلاً مهماً ، وهو إلغاء الاقطاع ، والأقلاع عن السنة التى جرى عليها
أسلافه من التشكك والريبة فى العمال والولاة وقصر ولايتهم على
سنة واحدة . فلما عن المسألة الأولى فقد كان زمان الاقطاع قد انقضى
فى العالم كله ولم يعد يلائم الأحوال الدولية الجديدة ، وقد كان
الاقطاع التركى قد فسد نظامه وانعدم وجه الفائدة منه ، إذ كان
السلطان — فيما مضى — يقطع رجاله الاقطاعات على أن يقدموا له
خدمات حربية لقاء ذلك ، ولكن المقطعين كفوا عن أن يقدموا الجند
والعون الحربى ، وأعاتتهم قترات الاضمحلال فأصبحوا ملاكاً
فعلين لما يدهم يتوارثونه . ويتصرفون فيه . أراد سليم أن يقضى على
هذه العلة فقرر ضم كل اقطاع يموت عنه صاحبه إلى أراضى الدولة ،
وارصد دخل هذه الاقطاعات المستردة على الاتفاق على الجيش الجديد
وهنا كان بديها أن يهب أمراء الاقطاع (أو الأمراء الأقوياء — دره
بك — كما كانوا يسمون) لرد هذا الاعتداء على كيانهم . وأما عن

تعديل نظام ولاية الدولة المسألة الثانية فقد وجد سليم أن قصر الولاية على سنة خليف بأن يكف يد الوالى عن الاصلاح ، وخليف أن يجعل الولاية سلعة تباع وتشترى بالمال والرشى ، فقرر أن تكون الولاية ثلاث سنوات قابلة للتجديد وهنا وجد السلطان أن هذا النظام عسير التطبيق على الحكام القدماء الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ذئاب الدولة واعداءها لا انصارها ، يترقبون غفلتها أو ضعفها ليثبوا بها ويقطعوا الصلة بينهم وبينها ، فلم يستطع المضى فى هذه السيل طويلا (١) .

وأراد سليم أن يخطو بالدولة خطوة أخرى لا تقل أهمية عن كل ما بدأ به ، وهى المحاولة الاولى لا دخال تركيا فى الهيئة الأوروبية ؛ فقد سبقت الإشارة إلى أن العلاقة « الطبيعية » بين الدولة وغيرها من الدول الأوروبية كانت علاقة حرب وعداء ، فلا يجتمع الحيان على مائدة واحدة إلا لامضاء معاهدة أو لحل مسألة طارئة ، وفى غير ذلك لم يكن لوجود بين تركيا وغيرها غير الحرب والنضال . وكان هذا النوع من العلاقات علة تركيا وسبب تأخرها عن غيرها من الدول ، لأنه قطع الأسباب بينها وبين غيرها وعزلها سياسيا ، فتقدمت الدول ولزمت هى مكانها ، ولو قد كانت العلاقات غير ذلك لسارت تركيا جنبا إلى جنب مع غيرها من دول أوروبا ، ولما وجدت الهوة السحيقة التى فصلت كلا من الجانبين عن الآخر ، فأراد سليم أن يوجد بين الدولة وغيرها من الدول علاقات سياسية ، باقامة السفراء فى عواصم أوروبا . ليكونوا صلة بين الأتراك وعصرهم الذى يعيشون فيه . وربما بدا لنا هذا الأمر ميسور التنفيذ ، فما على السلطان إلا أن يندب السفراء الذين يريد أن يمثلوه لدى حكومات الغرب ليم الأمر ، ولكن من أين للسلطان الرجال الذين

انشاء علاقات سياسية بين
تركيا ودول أوروبا

يحسنون القيام بمثل هذه المهمة ، فيندمجون في الأوساط السياسية في البلد الذي يقصدون إليه ، ويستطلعون أخباره وأحواله وينهونها إلى دولتهم؟ لقد فشل السلطان في ذلك فشلا بينا ، ولقى مندوبيه صعوبات كبرى في القيام بوظائف السفراء ، وهي صعوبات ناشئة عن نفورهم من أوروبا والحضارة الأوروبية وعدم فهمهم لطبائع هذه البلاد ، وضيقهم بالحياة في البلاد الأوروبية ، وغير ذلك من الصعوبات التي تجدها مفصلة في الكتاب الذي وضعه « هربت » بعنوان « سفارة تركية لدى حكومة الديركتوار » يصف فيه الصعوبات التي لاقاها على أفندي سفير تركيا في باريس من سنة ١٧٩٧ إلى سنة ١٨٠١ وعجزه عن القيام بمهمته على الوجه المطلوب (١) ويبدو أن سليما لم يرد من هؤلاء السفراء أن يقوموا بمهام سياسية في أول الأمر ، لأنه لم يكلفهم بشيء من ذلك ، ولم يعتمد عليهم في حل مشاكله السياسية مع الدول ، وإنما أراد أن تكون السفارات مدارس فيخرج فيها شبان قادرين على الاضطلاع بمهام التمثيل الخارجي ، بدليل أنه الحق بكل سفارة نفرا من الطلاب الأتراك لهذا الغرض . بيد أن سليمان لم يطل به الصبر على التعليم والاعداد ، فلم يلبث أن كف ، واكتفى بأن يقيم في العواصم الأوروبية قائمين بالأعمال من اليونان ، إذ لم تتمكن الدولة من إيجاد أتراك قادرين على القيام بمهام السفارات الاخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وأراد سليم وجوها أخرى من الإصلاح ، فحاول انشاء مجلس اتشاي بمجلس وزراء مسئولين وأراد سليم وجوها أخرى من الإصلاح ، فحاول انشاء مجلس اتشاي بمجلس وزراء مسئولين بالتضامن عن شؤون الحكومة ، وغير ذلك مسائل أخرى ، فلم يكن توفيقه فيها بأكبر من توفيقه فيما مر ذكره من تنوحي الإصلاح ، وعلة فشله في ذلك كله هي أنه أراد أن ينشئ الجديد والقديم

(1) Herbette; Une Ambassade Turque sous le directoire

باق على حاله ، وكان عليه أن يفهم أنه لا بد من ازالة المنزل القديم وآثاره حتى يمكن اقامة الجديد .

فشل سليم في ادراك ما طلب ، وانهى الامر بقتله ، ولكن النية في الاصلاح لم تبارح اذهان السلاطين ، لأن الاخطار لم تبرح تهدد تيجانهم ، فكانوا مجبرين على التماس سبيل اخرى للاصلاح ، وقد بدا لهم بعد الحملة الفرنسية على مصر أن أوروبا لن تتركهم يستسلمون للنوم مرة أخرى ، فبدأوا بمحاولة جديدة تختلف عن هذه الاولى بعض الاختلاف

أثر الحملة الفرنسية على مصر في نفوس الاتراك

بدأ هذه الحركة الجديدة السلطان محمود الثاني ، وقد تعلم من سلفه سليم أن ازالة معالم القديم جزء من بناء الجديد ، فكانت تلك خطته في كل وجه من وجوه التجديد التي طلبها ، فقبل أن يبدأ بإنشاء جيش جديد أباد الانكشارية في مذبحة قريبة الشبه جدام مذبحة المماليك التي أباد فيها تابعه محمد علي المماليك قبل ذلك بخمس عشرة سنة .

محمود الثاني

ويبدو أن محمودا الثاني كان يتأثر واليه محمدا عليا في كثير من الأعمال التي قام بها ، وذلك لأن النهضة التي وفق اليها محمد علي كانت خليقة أن تكون قدوة صالحة يتأثرها الحكام إذا طلبوا الاصلاح ، ولا نزاع في أن أسلوبه صادف إعجابا من نفس محمود ، حين رآه يوفق هذا التوفيق في حرب اليونان التي فشلت فيها جيوش السلطان ، وكانت تركيا ساحة ولى أمورها أشبه « بسفينة ينبغي تجديد قاعدتها وصواريخها وأشرعتها وبجارتها » (١) أي كان ينبغي تغيير كل شيء فيها

هل كان محمود الثاني يتأثر محمدا عليا

يبدو أن محمودا لم يكن يستطيع المضي في سبيله قبل أن يحسن مركز تركيا في نظر الدول ، فقد كانت ثورة اليونان وحروب محمد علي والأزمات التي نشأت عن ذلك قد هبطت بسمعة الدولة إلى الحضيض

تأمين الرعية

(1) Engelhardt : La Turquie et Le Tanzimat
(Paris 1848) P. 5

ولم يعد لآية دولة ثقة فيها أو في نظام حكمها ، فوجد السلطان أن يبدأ باصلاح حال رعاياه ، وإيجاد وضع جديد للمسيحيين منهم في الدولة . وكان يحس كذلك أن رعاياه المسلمين يكرهون الحكومة ولايثقون فيها ، فبادر وأعلن إلى الرئيس افندى بأنه يريد « أن يصبح العرش من الآن مأمّن الشعب لا مخافته ، انى أقرر إلغاء المصادرات ، وحتى أولاد الثائرين لهم أن يتمتعوا بميراث آبائهم » (١) ولكن المصاعب الكثيرة التى أحاطت به حالت بينه وبين أن يتم مابدأ ، فكانت ثورة اليونان وحروب محمد على والروسيا شغله الشاغل طوال حكمه ، فلم يستطيع أكثر من إصلاحات بسيطة بعضها لتحسين القسطنطينية وتنظيمها ، وبعضها تناول نواحي الادارة كتنظيم الدولة إلى أربع ولايات كبرى لتحل محل الثمانية عشر قسما القديمة التى كانت تعرف بالايالات ، وإدخال الزى الأوربى وفرضه على رجال البلاط والحكومة وغير ذلك عدة مسائل أخرى قليلة الخطر .

محمود الثانى والاصلاح

يبد أن الحوادث تنطق بأن محمودا لم يكن مخلصاً في هذه الوجوه التى طلبها ، وإنما كان يبغي أن يصطنع أمام الدول مظهرا يخفى تحته ضعف الدولة وتأخرها ، بل لم يكن يؤمن بما يفعل أو يحرص على اتباعه ، فبعد أسبوعين فقط من إلغائه المصادرة صادر أموال رجل يهودى اسمه شبتشى . وعقب على ذلك بمصادرة أملاك الرئيس افندى الذى أعلن إليه قانون إلغاء المصادرة منذ أيامه وكان محمود إلى ذلك قليل التوقير للدين ورجاله ، كثير الاستهانة بالتقاليد والامور . فاثارت تصرفاته مخاوف الناس وسخطهم ، وبلغ غضب الناس أن سبه درويش على قارعة الطريق وأتهمه بمالأة النصارى على المسلمين ، وأنذرهم بسوء المصير ، وفي الواقع لم يكن محمود كفتا للنهوض بالمهمة

التي تعرض لها فقد كان يحس الحاجة إلى الإصلاح ، وكان يشعر بتفوق أوروبا ، ولكن آراؤه لم تكن لتظهر إلا في فترات قصيرة. ولم تكن له طاقة لفهم المسائل الكبرى ، وظل تركيا في الوقت الذي أراد فيه أن لا يكون كذلك ، وقد بالغ المؤرخون كثيرا في تقدير الدور الذي قام به والإصلاح الذي أدخله .

قيمة أعمال محمود
الثاني

ولكننا نلاحظ أن أعمال محمود أفادت الدولة بعض الفائدة ، فأثارت في كيانها لونا من النشاط على الأقل . وعلى الرغم من كثرة الحروب التي اشترك فيها والهزائم التي منى بها ، والكوارث التي نزلت بالدولة على أيامه ، على الرغم من ذلك نجد الدولة عند موته أقوى منها في أول ولايته ، فقد زاد سلطان الدولة على ولاياتها وولاياتها ، فلم نعد نسمع بولاية خارجين عليها كالجزار باشا في الشام ، وسليمان باشا في بغداد . (١) ويبدو أن ذلك راجع إلى خوف الولاة من أوروبا بالامن السلطان ، فلم يعد أي حاكم يفكر في الوثوب بسلطانه مخافة أن تتدخل الدول وتقضى عليه ، وإلى هذا الخوف من أوروبا نستطيع أن نرد ما بدا على الدولة من دلائل النشاط الأخرى كزيادة دخلها من ولاياتها لأن حكام الولايات باتوا يعتقدون أن الدولة أصبحت في حماية أوروبا وكنفها ، والثورة على السلطان ثورة عليها ، وليس العهد بعيداً بمحمد علي وقصته .

عبد المجيد

مات محمود الثاني سنة ١٨٣٩ وخلفه ابنه عبد المجيد في السادسة عشرة من عمره ، فكان صغره سنة هذا فرصة مكنت بعض النابيين من الاتراك من الظهور على مسرح السياسة التركية والعمل على اصلاح حالها ، وعلى رأس هؤلاء المصلحين رجلا نقيديران قدما للدولة خدمات جليلة هما رشيد باشا ورضا باشا .

(١) مذكرات غير مطبوعة للاستاذ شفيق غريال

كان رشيد باشا قبل ذلك سفيراً للدولة في لندره ، وكان رجلاً ذكياً مخلصاً ، فاستطاع أن يلبس نواحي ضعف بلاده ، وتفتن إلى الوسائل المجدية لانهاضها ، وقد رأى بعينه كيف كانت حماية الدول لتركيا منقذة لها من الموت حين أحرق بها ، وكان يعلم كذلك أن الدول لا تحسن الظن بالدولة العلية ولا تثق فيها ، فأحب أن يبدأ عمله باكتساب ثقة أوروبا ، فسعى حتى استصدر من السلطان الاعلان المعروف « بخط شريف جلخانة » أي المرسوم المتوج بخط السلطان الذي صدر عن سراي الزهر .

أعلن الخط الشريف في مظاهرة حافلة لا يخفى جانب الفكاهة فيها ، فقد اجتمع لسماحه رجال الدولة وعلمائها ورجال الدين فيها وطائفة من رجال السلك السياسي ، وأطلقت له مائة طلقة وواحدة ، وسبقته صلاة تخير وقتها منجم معروف ، ثم قرأ السلطان : « ان النظم الأهلية تضمن لرعاياها من الآن أمناً شاملاً على أرواحهم وشرفهم وأموالهم .. وهذه المنح حق للجميع من أية ملة أو مذهب .. يستمتع بها الكل على السواء » (١) ولم يمض على ذلك الاعلان كبير وقت حتى عززه السلطان بتصريح آخر ، إذ اجتمع نفر حافل من رجال الدين اليونانيين والأرمن واليهود في جزيرة متلين ، وهناك خطبهم رضا باشا باسم السلطان ، فقال أيها المسلمون والنصارى واليهود ، انكم رعية امبراطور واحد وأبناء أب واحد ، ان السلطان يسوي بينكم جميعاً (٢)

تصريح السلطان
يقلب التقاليد
الإسلامية

بهذا التصريح الخطير الذي أصدرته الدولة لتتقرب من دول أوروبا — فأكدت انها دولة متحضرة تقيم العدل بين رعاياها ولا

(1) Engelhardt : op. cit P. 39

(2) Driault : La Question d'Orient P: 153

تحسب لمذاهب رعاياها الدينية حساباً ، ولا تعصب للمسلمين على غير المسلمين - بهذا التصريح من السلطان التقاليد العثمانية في الشغاف وتناول الشريعة الاسلامية بالتحريف ؛ فان التقاليد والشريعة كلاهما لا يبيحان أن يتمتع المسلمون وغير المسلمين بنفس الحقوق في رعاية خليفة المسلمين ، لا بد أن يكون هناك تمييز بين المسلمين ومن في ذمة المسلمين ، فاما هذا التصريح الخطير فله دلالة ، فهو ينطق بأن رجال الدولة اعترفوا بأن التقاليد القديمة لم تعد ميزانا صالحا للحكم ، ولا بد من الاخذ بأساليب الغرب ولو تعارض مع الشرائع والسنن ، وهذا الاعلان وحده يكفي للدلالة على أن رجال الدولة في ذلك الحين لم يكونوا أقل رغبة في الاصلاح ولا جرأة عليه من الكمالين .

وكان رشيد يمتاز عن غيره من رجال الدولة بأنه كان يقول ويفعل في حين كانوا يقولون ولا يفعلون ، وهذا هو الفرق الجوهرى بينه وبينهم ، وهو الذى جعل له عليهم فضلا وجعل أعماله ثابتة ذات أثر ، ولهذا بادر بعقاب حاكم أدرنة لأنه حكم على رجل بالموت بدون رأى السلطان .

رشيد باشا
رجل عمل

أيقن رشيد أن هذه السياسة الجديدة لا بد كاسبة عطف الدول ، فضى في طريقه وأنشأ للدولة مجلسا يضم نوابا من مختلف النواحي ، يناقش النواب فيه المسائل ويقترعون عليها بحرية ، ويسرى رأى أغليته على السلطان نفسه (١) ، وأعقب ذلك اصلاحات شاملة في أساليب الدولة ونظم حكمها ، فألغى نظام الملتزمين إلغاء فعليا ، ووضع للدولة نظاما ماليا دقيقا حديثا ، وعهد في جمع الضرائب إلى هيئات محلية من أهل الاقاليم حتى لا تثقل يد الحكومة على الناس في جمع الضرائب ، ثم وضع للدولة قانونا للعقوبات وفق الشرائع الحديثة ،

انها مجلس نواب

النظام الانتخابى

واستقدم رجلا فرنسيا ليضع قانونا مدنيا حديثا للدولة ، واشتد
في تطبيق قوانينه شدة حازمة ضمنت احترام الناس لها ، فلم يعف خسرو
باشا الصدر الأعظم القديم فحاكه وعاقبه على الرشوة ، وأقام
من العلماء مفتشين يتفقدون الولايات وينهون اليه أخبارها وأحوالها ،
ويوافونه بأخبار الحكماء الذين يقبلون رشوة أو يعسفون الناس أو
ينزلون بهم ظلما . وأعقب ذلك بإنشاء بنك جديد للدولة وأصدر
أوراقا مالية .

الرجعيون يعارضون
رشيدا

على هذا النمط توالى جهود رشيد باشا ، ومضى في تنفيذها بحزم
لا يعرف التواني أو اللين ، فلم يلبث الناس كلهم أن أحسوا ثقل يده ،
ولم يلبث القدماء أن شعروا بالخوف منه فبدأوا يكيدون له ويأتمرون
للخلاص منه ، وأعانهم على ذلك أن أحسوا أن بالعامية شعور استياء
وتخوف من أعمال رشيد ، وهذا التخوف طبعي من جهة العامة ، فقد
وجدوا الدولة تساوى بهم النصارى واليهود ، وتستبدل بالشرعية
الحنيفة قوانين النصارى ، وتخلع الأزياء القديمة (الشريفة) لتتخذ
زي النصارى ، وأحسوا كذلك أن حكومة رشيد لا تكاد تأتى أمرا
إلا راعت فيه خاطر النصارى وحرصت أن لا تمسهم بأذى أو
تألمهم بضميم ، فلم لا يكون هذا الرجل آلة في يد النصرانية تستر
خلفه لتبغى على الاسلام ، ولم لا يكون بقاؤه خطرا ينبغى القضاء
عليه قبل أن يعم ويشمل ؟ . . هكذا فكر العامة وعلى هذا الأسلوب
فهموا أعمال رشيد ، ولم يكادوا يرون الروس يحتضنون الدولة
ويتقدمون لحمايتها من محمد على حتى استحالت شكوهم يقينا . فرشيد
ستار يخفى خلفه الروس النصارى « وإن السلطان لا فرنجي وإنما
المسلم محمد على » (١) وما دروا أن المصريين كانوا يقولون عن محمد على

عزل رشيد باشا

مثل ذلك ! وأحس أعداء رشيد ذلك فأخذوا يكيدون له ويعملون على إسقاطه . فلم يلبث أن عزل سنة ١٨٤١ .

الارتداد الى الوراء

وكان عزله معناه إلغاء نظامه والارتداد إلى النظام القديم بمساوئه ، ولم يكن ذلك عن رغبة من السلطان أو إيمان منه بصحة القديم وخطأ الجديد ، ولكنه خشي وثوب رعاياه به لما رأى من نفورهم وقلة ثقتهم فيه وفي مستشاريه ، حتى رعاياه من النصارى الذين رفع من مكانهم وأعلى من قدرهم لم يثقوا في حسن نيته ، ومضوا يطالبون بالاستقلال والانفصال ، وإزاء ذلك السخط العام وجد السلطان أن لا حاجة به إلى الأثقال على نفسه بالأنظمة الجديدة وتبعات الإصلاح ، فترك رفعت باشا الوزير الجديد يأتي ما يريد ويرد البلاد إلى سابق عهدها في نظام المال أو الحكومة .

بقاء حركة الإصلاح

بيد أن الظروف كلها لم تكن تسمح بعودة النظام القديم بحذافيره ، لأن فكرة التقدم لم تعد ملكا للسلطان يعلنها أو يخفيها كما يشاء ، وإنما استيقظ نفر من رعاياه وأخذوا يطالبون بها ويشعرون بأن الدولة صائرة إلى القضاء إذا لم تسارع في القيام به . والواقع أن كثرة المصائب والازمات كانت قد أوجدت بين الأتراك نفرا من قوى الرى الصالح والتفكير الحديث ، وكان جل هؤلاء ممن بعثهم الدولة للعمل في التمثيل السياسى الخارجى أو للدراسة العسكرية ، وكان من هؤلاء من يفهم السياسة الأوروبية ويحسن الاستفادة

من أحوالها وتقلباتها ، وعلى رأس هذا نفر رشيد باشا الذى

رضا باشا ورشيد باشا مر ذكره ورضا باشا . وكان الرجلان متفقين فى الآراء والغايات ،

متقاربين فى القدرة والذكاء والوطنية وإن اختلفا بعض الشيء . فتطرف رشيد واعتدل رضا ، وقد تناوبا قيادة الدولة وتوجيهها طوال عصر عبد المجيد وعبد العزيز واشتركا معا جنبا إلى جنب فى مناسبات عدة ،

والى تضامنها وقدرتها يعود الفضل فيما أدركته الدولة من تحسن وانتصار نسبي في حرب القرم ، هذا الانتصار الذى صان كيانها حتى الحرب الكبرى ؛ فالى هذين الرجلين يرجع الفضل فى ادخال تركيا فى حياة الدول الأوروبية ، والحيلولة بينها وبين الفناء فى الازمات الخائفة التى أحاطت بها على أيامهما أو بعدها .

رضا باشا

تولى رضا باشا قيادة الأمور بعد عزل رشيد بقليل ، ففضى على سياسة رشيد فى التقرب إلى الدول بالاحسان إلى الرعايا والرفق بهم رفقا ظاهراً لا يكاد يجاوز مدى البلاغات والتصرّجات ، لأنه إذا كان السلطان وبعض مستشاريه يؤمنون بفائدة الدولة من المساواة بين رعاياها وإذاعة العدل بينهم جميعاً ، فإن عامة الشعب كانوا بعيدين كل البعد عن هذه الآراء ، ولم يكونوا مستعدين للعمل بما يصدر لهم من نصح وما يوجه لهم من تقارير ، بل كان قواد الدولة وحكامها أشد الناس إنكاراً لذلك ، وأثقلهم يدا على المسيحيين من رعيّتهم فى نفس الوقت الذى كانت تذاع فيه القرارات . ولم يكن السلطان ليكره من رعاياه المسلمين هذا العناد ولم يكن ليفض على أحد من ولاته إذا آذى ذمياً أو عسف يهودياً ، لأن السلطان ومستشاريه كانوا يعلمون أن النصارى الذين يعيشون فى الدولة قد هلاوا لمصائبها وأسرفوا فى الانتصار للدول الأوروبية الكبرى كروسيا وفرنسا ، مما آذى شعور المسلمين ودفعهم إلى عسف هؤلاء النصارى عسفاً جاوز الحد . وكان القناصل قد دأبوا على موالاة هؤلاء الذميين بالمناصرة والتشجيع فأصبحوا يدا على الدولة يشلون يدها ويأخذون عليها السيل ، مما جعل الحكام ينظرون إلى المساواة بين الرعية كلون من الخضوع للدول ، ويعتبرون تحسن حال الذميين ضرباً من الهوان للإسلام ودولة الاسلام . لهذا ينبغى أن نعلم أن المبادئ النظرية التى أعلنها

روح الشعب تميل
إلى الجود

محمود وعبد المجيد ، والأفكار الجديدة التي سعى إليها رضا ورشيد ، لم تكن أكثر من مظاهرات لا يتعدى أثرها جلتخانة وجزيرة متلين ، وأن دول أوروبا — التي كان يرجى خداعها عن هذا السبيل — كانت أعلم الناس بحقيقة الحال ، وأنشط العاملين في عرقلة هذا الإصلاح المزعوم .

رضا يطلع الجيش تناوب رشيد ورضا قيادة أمور الدولة زمنا طويلا ، وحققا لها من وجوه الإصلاح طائفة شتى ، فتناول رضا الجيش وأصلحه واعدده ليقوم بدوره الحاسم في حرب القرم ، بل أعطاه القوة التي مكنته من الثبات إلى الحرب الكبرى ، وشمل رشيد نواحي الإدارة كلها بنشاطه وكفائته ، فأنشأ مدارس مدنية للتعليم الحديث ، وأسس جامعة وأنشأ للدولة مصرفا ماليا على النظام الحديث ، وأصدر باسمها أوراقا مالية ، وأعاد تقسيم الدولة الإداري ، ووزع وحدات الجيش الحديث على هذه الأقسام ، ووضع برنامجا حديثا للتعليم العام ، وأنشأ مستشفيات تعالج الناس بفنون الطب الحديث ، وألغى الرق بمشيئة السلطان ، وغير ذلك مسائل شتى ، فلم يغادر الرجلان وأعوانهما ناحية من نواحي الحكومة إلا تناولاها وبعثا فيها روحا جديدا ، ولكن أعمالهما لم توف على الغاية المطلوبة ولا بشرت ببلوغها في مقبل الأيام ، بل انتهى الأمر بعودة الرجعية ونمود حركة الإصلاح ، فما أسباب ذلك ؟

أسباب فشل الإصلاح لعل أقوى أسباب ذلك هو ندرة المعلمين الناهين في الدولة إذ ذاك ، فلم يكن هناك من يفهمون الإصلاح أو يؤمنون بفائدته إلا نفر قليل جدا ، ولم يكن المصلحون ليجدون من يعتمدون عليه في التنفيذ الذي هو أساس هذا الإصلاح ، لهذا كان السلطان يقرر ثم لا يجد من ينفذ فتبقى القرارات قرارات فقط ، بل إن الشعب التركي لم يكتف بهذا الموقف السلبي وإنما حرص على أن يأتي من الأمور ما يعارض

أوامر الحكومة الجديدة ظنا منه أن هذه « التنظيمات الخيرية » رجس من عمل النصرانية فلا بد من اجتنابه ، ومن دلائل ذلك أن مسلي الشام اشتدوا في إيذاء الذميين وتعصبوا عليهم حين بلغتهم أوامر السلطان باحترام هؤلاء الذميين ومساواتهم بأنفسهم . بل كان الحكام أنفسهم يخالفون هذه الأوامر ويذيعون ما يناقضها كما فعل درويش باشا حاكم دمشق الذي أذاع على المسلمين منشورا جاء فيه « فالبادى هو أن النصارى عندكم عمال يقلدوا الاسلام (كذا) في ملابسهم وعمائمهم ونعالهم ، وتعدوا درجاتهم وخالفوها فهذا ضد رضانا ولا يعطى به رخصة ، فبناء على ذلك أرسلنا لكم مرسوما هذا لأجل أن تحذروهم وتنذروهم من عواقب ذلك المراد حالا ، وتنهوا عليهم أن لا يلبسوا ملبوس أزرق وعمامة سوداء ونعال سوداء وان بلغنا أن واحدا تعدى الحدود المذكورة فما له لا يقنى عن حاله وخطيئته في عنقه ونطلع من حقكم وحقه » (١) وهذا بعد إذاعة الخط الشريف بقليل . من هنا نظر الأتراك إلى الإصلاح بعين السخط وكفوا عن متابعته أو مناصرته ، فظل محصورا في دائرة ضيقة ولم يظهر له أى أثر .

غرض الدولة من
الإصلاح

ولنصف إلى ذلك أن الدولة لم تكن تصدر في ذلك الإصلاح عن نية الخير للشعب والرعية ، وإنما الغالب أنها طلبت بذلك مرضاة الدول وكسب ودها « فكانت هذه التصريحات الجميلة التى أكدت وجددت مرات لاحصر لها ، معتبرة مظاهرات لخداع أوروبا ، ولم يكن الناس ليرونها على أنها رغبة أكيدة صادقة من الحاكم » (٢) ولسنا نقطع بأن هذا كان الغرض الوحيد لعبد المجيد ورشيد ، لأنه يغلب كذلك أن المصلحين كانوا مدفوعين برغبة صادقة في انقاذ الدولة وإنما

(١) حصر اللام عن نكبات اللام لمؤلف مجهول طبع مصر سنة ١٨٩٥ (ص ٤٤)

(٢) Engelhardt Op. Cit ; : P. 81

لا نزاع في ان الناس - في تركيا وخارجها - أصروا على اعتبارها كذلك وحسب هذا سبب للفشل والخسران .

فقر الدولة في المال
والكفايات

كذلك كانت الدولة فقيرة في المال وفي الكفاءات التي تنتج المال فلم ترزق خلال هذه السنوات كلها رجلا اقتصاديا يحسن الهيمنة على مواردها ويحسن التصرف فيها على نحو يهيء لها المال للشاريع الاصلاحية ، بل وقع المصلحون في اخطاء مالية كبرى كاصدار أوراق مالية لا يعادلها رصيد معدني ، فلا تلبث أن تفقد قيمتها ، وعدم وجود ميزانية حقيقية للدولة ، وبمعنى آخر : عدم وجود خطة تتبع في تصريف أموالها ، وحاجتها إلى أساليب تمكنها من إيجاد توازن بين الدخل والخرج ، (١) هذا إلى حيرة الدولة في أساليب جمع الضرائب ، واعطائها للمتزمين تارة ، وتكليف رؤساء العشائر والأقاليم بجمعها تارة أخرى ، والاعتماد على القادة العسكريين في جبايتها تارة ثالثة ، وعسف الناس وظلمهم في أدواتها في مختلف التارات والحالات . وإزاء ذلك وجدت الدولة نفسها في أزمة مالية مستمرة . فلا هي واجدة المال ولا هي قادرة على تصريفه إذا وجدته ، حتى لقد توقفت عن دفع اعطيات جندها في كثير من الأحيان مما جعل الجند والعمال يتخوفونها ولا يحفلون بما يصيبها من هزيمة أو اندحار ، بل كان الكثيرون لا يترددون في ترك صفوفها واللجوء للعدو في عنفوان المعركة وحومة القتال ، وانضف إلى ذلك ما نعرف من فساد ذمة الموظفين الأتراك وقبولهم الرشى وميلهم إلى اختلاس أموال الدولة . (حتى رشيد نفسه لم يسلم من هذه التهمة فأدين وثبتت عليه تهمة السرقة والارتشاء في قضية خطيرة) . (٢) إذا ذكرنا ذلك استطعنا أن نعلم كيف كان توفيق الدولة ضئيلا ، وكيف كانت تجد نفسها عاجزة

فساد الموظفين

(1) Engelhardt; Op. Cit. P, 101

(2) Ibid. P. 61

عن القيام باصطلاحات واسعة تنجو بها من الحرج الذى كان يزداد بها يوما بعد يوم

موقف القول
من الاصلاح

ولم تكن الدول كذلك بخالصة النية فيما كانت تعلن من الحذب على مصلحة الدولة والاخذ بيدها ، وقد سبقت الاشارة إلى ما كان من فساد نظم الدولة المالية ، مما يدل على أن نصحاءها الاوروبيين لم يكونوا من ذوى الكفاية أو ذوى الاخلاص ، فسماحهم للدولة باصدار أوراق مالية غير مضمونة يدل على كلا الأمرين ، وبخلهم على الدولة بالنصح فى مسائل النظام المالى والميزانية يؤكد أنهم كانوا يخادعون ، لأن تلك الأمور من أوليات التنظيم الاوروبى المالى ، يعرفها رجل الشارع لا المستشار الذى يتدب لتنظيم أموال دولة بأسرها . وكانت الحكومات لا تتأخر فى القيام بأى عمل من شأنه عرقلة الأتراك فى اصلاح أمورهم ، فلم يكف الروس عن اغلاق الدولة والتدخل فى شئونها ، وكانت تحارب المصلحين صراحة وتعمل على إفساد ما بينهم وبين السلطان ، حتى لقد تمكنت من عزل رشيد باشا فى مرة من المرات ، وكان مترنيخ ينظر إلى اصلاحات الدولة فى شئ من القلق ، ولم يتردد فى اعلان استيائه منها ورغبته فى الغائها وعودة تركيا إلى ما كانت عليه ، وحتى انجلترا وفرنسا لم تكفا عن التدخل بين السلطان ورعاياه وادعاء الحماية على طوائف منهم ، مما قلل هبة الحكومة وشل يدها وجعلها بين نارين : نار الرقابة من الدول ونار الصلف من رعية تعزز على راعيها برعاة آخرين .

حيرة المصلحين

وماذا يبقى لرشيد أو لغير رشيد من الوسائل أو الآمال ، انه للام إذا أصلح وملام إذا قصر ، مخطئ إذا أعلن المساواة مخطئ إذا أذاع الاستبداد ، مهان إذا تقرب من أوروبا مهان إذا ابتعد عنها ، لا يجرد الممال إذا طلب وإذا وجده لم يجرد الوجه الذى ينفقه فيه ، فإذا وجد

وجه الاتفاق لم يجد شاكراً ولا عارفاً ، فماذا يستطيع . . لعمله لو استطاع ما فعل ، فكيف وهو العاجز المغلول ! فليدع الإصلاح وليترك الأمور تجري في أعتها فما هو مبدل من الأمر شيئاً ، وما زاد عليه الا قول مترنيخ — يحكم على عمله وجهاده — ان الدولة العثمانية كيان في دور الاضمحلال ، ومن أسباب هذا الاضمحلال « بل السبب الذي نشأت عنه كل بلاياها — هي فكرة الإصلاح على الطريقة الأوروبية التي وضع — أساسها السلطان سليم ، والتي اندفع فيها السلطان الأخير مسوقاً بجهل شديد وبطائفة من الخيالات » (١) ، ليدع الرجل العمل وليخل بين الناس والدعة فما كان الناس يطلبون اليه الاثقال عليهم بالعمل واتباع النصرانية وأهلها ، ليدع الأمر هو وأصحابه وليتركوا عبد المجيد وحده فانه لا يرضى عنهم بل يتهمهم بافساد الأمر عليه ، لينصرف رشيد بسلام في أواخر حكم عبد المجيد (أوائل يناير سنة ١٨٥٢) وليدع السلطان يجرب حيلته أمام الدول والناس وجهالوجه ، ليجرّ الرجل على نفسه سحائب النسيان ، فما يكلف الله نفساً إلا وسعها وما هو ببالغ أمراً بعد الجهد والاعياء .

عزل عبد المجيد وليق عبد المجيد وحده في الميدان ، ليتلقى سخط الناس ويسمع بأذنيه اتهامهم إياه بمبايعة النصرانية على تاجه وشعبه ، وليتلقى وحده جوارح المهانة ومظاهر السخرية من عواهل أوروبا وساستها ، وليرى بعينه جنده يشغبون عليه ولا يقيمون له وزناً ، وليرحل عن هذه الدار محزوناً آسفاً ، مخلياً بين أخيه عبد العزيز ومرجل الحكم ، معزياً نفسه بقوله : « لا أحد ينكر انه على الرغم من العناية التي بذلت لتنفيذ آرائي

لم يشر شيء من هذه المشاريع الثمر الذي رجوته منه ، خلا الاصلاح الحربى ، وحتى هذا لم يقيم على أساس مكين انى محزون بالغ الأسى » (١) ليتعز بهذا الأسلوب من التفكير ، وليتقبل عزل الناس له بنفس راضية ، وليكن عزاءه انه كان صادق النية وان قسا ، حريصا على خير الرعية وان تبدل الوزراء وأساء اليهم وصرفهم غير مقدر فضلهم أو حاسب لهم حسابا . . ليحمل نصيبه من سخط الناس ولعنهم اياه ولتكن له حسنة المؤمن الذى أخطأه التوفيق . وماله يجاهد سيل الرجعية ورغبة الارتداد الى الحال الاولى ؟ لقد طالما حال بين الحزب الرجعى فى القصر والحكومة وبين الاستبداد ؟ وقد طالما حارب جنوده وأتباعه على غير طائل ، ولقد طالما استمع إلى وشاياتهم وصانعهم على قلة الجدوى ، فليخل بينهم وبين ما يريدون ، وهذا عبد العزيز يشار كهم الرأى والفكر ، فليرفعوه على أنفسهم خليفة وسلطانا وليقبل عبد العزيز ليحرب حظه ، فيعهد بالأمور الى رجل أمى لا تعززه كفاية ولا خبرة ولا معرفة ، هو محمد على ، وليدعه يمضى فى الاصلاح والتنظيم حينما عساه يبلغ من الأمر مرادا . وليصدر فرمانا جديدا فى نوفمبر سنة ١٨٥٢ فينظم به أمور الدولة من جديد ويصلحها

السلطان عبد العزيز

العودة الى القديم

مما ابتلاها به رشيد وعبد المجيد ، وليعد بالدولة إلى نظام قديم جدا يرضى عنه السلفيون ويرون فيه اعزازا للشرع والماضى وإن كان فيه مهانة للرعية ، فليكن على رأس كل ولاية حاكم عسكري يقابل الوالى أيام الخلفاء ودفتردار يقابل صاحب الخراج وليخضع الوالى العسكرى للصدر الأعظم ، وليتبع الدفتردار لوزير المالية ، ولتجر الأحكام بهذا من غير تعاون بين رب الادارة ورب المال ، وليض عبد العزيز فى هذا العلاج مستعينا بنصحاء بعضهم مثقف فى مدارس فرنسية ، ولا عليه إذا توالى اليه انباء عجز ادارته وحكامه وشرطته عن ضبط الأمن

(1) Engelhardt. Op, Cit, vol I P. 49

في مختلف النواحي . لا عليه إذا أصبحت أدرته وطرايزون وأزمير
مسرحة للفوضى والاضطراب ، لا عليه من ذلك كله ، فاصلاحه يخرج
عن طاقة الناس ، ليدع هذا كله لينظر ما تأتية الدول في الشام ، وما تأثيره
عليه من الحرب والقتال ، وليجد نفسه آخر الأمر مسوقا إلى حرب
لا يعرف لنفسه فيها مصيرا .

— ٦ —

في ذلك الحين كانت الشام تشقى وتئن تحت وابل حافل من الولايات
والآلام ، ولعلها كانت أحفل بلاد الاسلام إذ ذاك بالمصيبة وأعضلها
بالداء إصابة ، فقد كانت تحمل على عاتقها — فوق مصاعب العصر
الحديث — عقايل قرون ماضية ، بعضها ناشئ عن تكوين البلاد وبعضها
مردة إلى تاريخها وتاريخ الشرق الاسلامي كله .

الشام

ذلك أن الحروب الصليبية كانت قد وضعت أهل الذمة في الشام في
موضع لا يخلو من حرج ، فلم يكن ينتظر بعد هذه الحروب الطويلة
التي اشتعلت نيرانها في بلاد الشام بين النصرانية والاسلام ان يتصافى
المسلمون ومن بقي في البلاد من النصارى ، فكما اشتد نصارى الاندلس
على المسلمين بعد حروب الاسترداد ، فقد اشتد مسلمو الشام على النصارى
بعد الحروب الصليبية ، والأمران قريب من قريب ، وقد استمر الأمر
على ذلك من نهاية الحروب الصليبية إلى أوائل القرن الثامن عشر ،
فظل الذميون يعاملون معاملة شعب مغلوب على أمره مستضعف مسكين
فكان النصراني لا يملك أن يساوى نفسه بالمسلمين فيما يلبسون أو
يركبون أو يفعلون ، ولم يكن ليحجر على المسير عن طريق المسلم ،
حتى لقد كان يقابله في الطريق فلا يلبث أن يتياسر في طريقه أدبا
واحتراما ، ولو لم يكن لنصارى الشام من تسامح المسلمين وقاية لحاق
بهم في الشام ما حاق بالمسلمين في الاندلس ، إذ عفى القوم على آثارهم تماما

مركز نصارى
في الشام

ولم يكن ذلك كل ما فى الأمر ، فقد كان تاريخ الشام قد فرض عليها أن تكون « متحفا » لكل غريب طريف من الأديان والمذاهب ، فهذه البلاد — التى لا يزيد عدد سكانها على بضعة ملايين — تضم كل ألوان الأديان بمذاهبها المختلفة ، وتفرد بطائفة لا تحصى من المذاهب الخاصة بها ، كطوائف الموارنة والدروز والسامرة والنصيرية التى لا توجد إلا فى بلاد الشام وحدها . وبديهي أن يكون هذا الخليط الدينى حائلا بين توحيد البلاد واجتماعها إلى لواء واحد ، مما جعل حكم الشام من أعقد الأمور وأصعبها ، فإذا أضفنا إلى ذلك مانعته من اختلاف اليات فى الشام بين السهولة والحزونة ، وبين الصحراء والمزارع ، وبين بلاد الساحل والداخل ، وبلاد المرتفعات ونواحي المنخفضات ، وما نعلمه كذلك من اختلاف المهاجرين إلى هذه الأرض العريقة فى القدم ، واتجاه الناس والفاتحين اليها من كل حذب وصوب ، إذا عرفنا ذلك وأضفنا إليه أن حكامها فى العصر الحديث كانوا هم الأتراك العثمانيون الذين يصعب عليهم حكم بلد آمن وادع متحد متجانس كصر ، هان علينا تصور الحال التى كانت الشام عليها فى مطالع العصر الحديث .

نظام الشام الإدارى

قسم الأتراك الشام إلى أربع ولايات تعرف بالألايات هى حلب وبيروت والشام والقدس ، يقوم على إدارة كل منها باشا خاضع بدوره لحاكم الشام الأعلى الذى يقيم فى دمشق ويلقب بمشير العرضى الهايوى وكانت البلاد تحكم حكما عسكريا وتجبى ضرائبها على طريق الالتزام المعروف . ولم يكن الحاكم ليعنى إلا بجمع المال والرشى وسرقة الدولة ، فكان يلزم الأهلى بمضاعفة الأدا . وإلا ضوعف العذاب ، وكان عماد الحاكم التركى على ما يده من الجند ومعظمهم من الانكشارية وطائفة أخرى تسمى القيقول ، وكانت الطائفتان لا تفتآن تتنازعان وتحتربان

الانكشارية والقيقول

فى المدن والمزارع حتى هبطت حالة البلاد هبوطا تاما . وشغل الجند بما بينهم من المنازعة فانصرفوا عن حماية الناس ورعاية مصالحهم ، فاختل الأمن واضطرب الحال ، واشتد هولا الجنود على الناس وعسفوهم حتى أصاب أهل الشام على أيديهم أكثر مما أصاب أهل مصر على يد المماليك ، « إذ كان رجال كل قسم يتشمون على أيديهم بشاردة وجاقهم (فرقتهم) ، وأكثر اجتماعهم فى القهاوى ، وجرت العادة أن يرسم فوق وجاق كل قهوة إشارة الوجاق الذى يجتمع رجاله فيها ، ولم يكن لهم نظام عسكري فى ذلك الوقت إلا أن رجال كل حارة كانوا يخضعون لأغا (رئيس) الوجاق الحال فيها ، والجميع يخضعون لكبير الوجاق المنتخب من بين الأغوات لامتيازه بالجسارة وصدقة الوالى أو لغير هذا ، ولم يكن يمكن لحدث أو لامرأة شابة جميلة المرور أمام القهاوى التى يجتمع فيها العساكر خيفة أن يضحوا فريسة أولئك الجهال » (١) و « كان النزاع بين الأقسام قائما على قدم وساق ، وقد نشأ عنه حروب كثيرة بين هذه الأقسام المتضاعفة فتسبب عن ذلك مخاوف كثيرة ولحق بالأهالى أضرار عظيمة ، حيث كانت تنهب الدكاكين وتقفل الأسواق وتعطل الأشغال ويتعذر على أبناء السبيل الخروج من بيوتهم ، وكلم من مرة أضحت بعض المدن — وخصوصا الشام وحلب — مطعما للنار من جراء ذلك ، ولم ينصرف المشكل إلا بمداخلة الولاة أو بعض الأعيان ، ولكن ليعود الشر بعد وقت قصير عند ما يحدث له موجب صغير ولطالما نهض القوم على الولاة أنفسهم وقتلوهم وعساكرهم كما جرى فى دمشق سنة ١٨٣١ لسليم باشا حيث قتل هو ومعظم عساكره لأجل ضريبة جزئية فرضها على

(١) حصر اللام عن فتكات الشام : ص ٣٣

الدكاكين والمخازن والبساتين ، وقد كان الاعتداء على العرض والقتل
عما يحدث كل يوم ، (١)

الاتصال بأوروبا
يثير الخلاف بين
النصارى والمسلمين

فلما أقبل العصر الحديث ، وتسامع المسلمون بتفوق أوروبا ، وبدأ
للرعية ضعف الدولة العثمانية وسوء حالها ، انضافت لمصاعب الشام
مصاعب جديدة زادت الحال سوءاً على سوء ، ذلك ان طوائف النصارى
لم تكف تنسى أخبار تفوق دول أوروبا حتى رفعوا رءوسهم وأخذوا
يستعدون ليردوا للمسلمين ما أسلفوا لهم في العصور الماضية ، وزاد
الطين بلة ما جرى عليه الأتراك من التفريق بين الرعية وضرب طوائفها
بعضهم ببعض مما أوجب النار وجعل الشام كلها كمنزلة البارود
لا يكاد يشم النار - عن بعد - حتى ينفجر انفجاراً مخرباً. وأخذ السائحون
الأوروبيون يرتادون البلاد وينهون أحوالها إلى دولهم . واتصل نفر
منهم ببعض الطوائف المسيحية واستمع إلى شكائهم فلم تلبث الدول أن
تنهت إلى هذا الحال السيئ ، وزادها رغبة في التدخل مارأوا من هوان
الذميين في هذه البلاد وما لمسوا من اختلال الأمن الذي كان يهدد
التجارة - وهي غرض الأوروبيين الأول - فلم تلبث عناية الدول
أن اتجهت نحو هذا القطر ، ولم تكذب أن أرسلت قناصلها ومعتمديها
وأخذت تتدخل في الأمر وتزيد الأمر على الدولة العثمانية حرجاً .

اتجاه القنصاء الدول
نحو الشام
عكا

اتجهت أنظار الأوروبيين إلى ثلاث نواح من الشام : هي عكا
ولبنان وبيت المقدس . فأما الأولى فقد كانت قد أخذت طريقها إلى
إلى القوة والاستقلال خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ،
إذ تولى أمورها ضاهر العمر شيخ قبائل صفد ، وكان أميراً قوياً قادراً
استطاع أن يمد سلطانه على ناحية الجليل وحصنها وخلصها إلى حين من
مسمات الحكم التركي ، فلم تلبث المدينة أن نهضت في رعايته وبدأت

ضاهر العمر

أهميتها السياسية والتجارية في الظهور ، وظل مستقلا عن الباب العالي مدى خمس وعشرين سنة من ١٧٥٠ إلى ١٧٧٥ ، واعانه على ذلك أمرا. مصريون كعلي بك وأبي الذهب ، وكان العداء. إذ ذاك بين الروس والأتراك على أشده ، وكان أمير مصر علي بك قد سعى للاستعانة بالروس على الأتراك. فجاراه في ذلك ضاهر ، فاستطاع أن يفيد من معاونة الروس أكثر مما أفاد صاحبه علي بك ، لانهم استطاعوا أن يمدوه بأسطول وحامية ، واستمر يناضل الأتراك حتى مات وهم على حصار بلده سنة ١٧٧٥ .

الانجليز يحمون عكا من ذلك الحين أخذت عكا سبيلها إلى القوة والرقى ، واتصلت الأسباب بين ولايتها وبين الأسطول الانجليزى الذى كان يربط في شرق البحر الأبيض منذ الحملة الفرنسية ، إذ وجد الانجليز أن الاعتماد على ولاية صيدا وميناءها عكا يجعل للأسطول الانجليزى ملجأ وموردا للمثونة وقت الحاجة ، ومن هنا كان هذا التعاون الموفق الذى اشترك فيه الأسطول الانجليزى مع الجزائر والى عكا وانتهى باحباط مساعى نابليون فى الشام سنة ١٨٠٠

عبد الله الجزار وحوالى سنة ١٨٢١ تولى اماره صيدا أمير شاب سيكون له أثر بعيد فى مستقبل الشام السياسى ، هو عبد الله الجزار . وقصة هذا الفتى وأعماله وسياسته تدل على الروح التى سادت زعماء الشرق الاسلامى فى ذلك الحين ، وتكشف لنا عن كثير من جوانب الضعف التى كانت الدولة ترزح تحت عبئها ، والتى مهدت الطريق لانهار الوحدة الاسلامية وأعانت الغرب على التمكن من بلاد الشرق .

حياة الجزار بدأ عبد الله الجزار حياته العملية فى سن مبكرة جداً ، إذ أقیم فى التاسعة عشرة من عمره حاكماً لسواحل الشام ، فلم يلبث إلا قليلاً

حتى استطاع أن يستولى على إمارة دمشق وضمها إلى زمامه . وكان
الفتى طموحا تخامره نزعة الوثوب بالدولة والاستقلال عنها بالشام ،
بل كانت آماله البعيدة تتراعى إلى خلع الخليفة محمود الثاني وإعلان
نفسه خليفة على المسلمين ، ولهذا لم يلبث الخلاف أن دب بينه وبين
الباب العالي ، فأغرى السلطان به حكام دمشق وأطنة وحلب فمشوا إليه
يريدونه على الطاعة ، فاعتصم منهم خلف مينائه الحصين عكا ، وظل
يناجز ويقاوم تسعة أشهر . فاذا أشرف على الهلاك فقد أراد أن يستعين
بمحمد علي صاحب مصر على هذا البلاء الذي حل به ؛ وكان هذا
يرقب الأمر بعين النمر ويلتمس الفرصة للاستيلاء على الشام بعد أن
أثبت قدرته وكفاءته في حرب الوهايين ؛ فأخذ يقلب الأمر على
وجوهه والرجل مرتقب العون ، تتفرق عنه بلاده ونواحيه يوما بعد
يوم ، فلما استيأس من نجدة مصر اتجه إلى أمير لبنان بشير الثاني ،
فجعل هذا بمعاوته عادت على لبنان بالخسار ، إذ ضيق أنصار
السلطان على بشير حتى اضطر إلى مغادرة بلاده والهرب إلى مصر ،
واشتد الأمر بعد الله مرة أخرى فتوجه إلى محمد علي يستعطفه من جديد ،
فأخذ يبعث إليه برسائل تفيض ذلة واستعطافا وتمليقا ، مؤكداً له أنه
عبده الخاضع وعامله الأمين . ومضى في الرجاء إلى حد تقديم عكا إلى
محمد علي ثمنا لهذه المعاونة ، وهناك تحرك محمد علي للعون ، وكان طوال
الوقت لا يغلق موانيه في وجه سفن عكا ولا يمنع إرسال الإمداد من
البحر إليها ، وربما أرسل بعضها بنفسه ؛ تقدم محمد علي يرجو السلطان
أن يعفو عن عبدالله ويؤكد له حسن نيته وتوبته وندمه على ما أتى من الأمر
فلم يلبث السلطان أن عفا عن الجزار ورده إلى ولايته (١)

الجزار يحاول
الاستقلال

الجزار يستمر بمصر

الجزار يستمر بلبنان

تدخل محمد علي
والعفو عن الجزار

(١) Asad Rustom : The Royal Archives of Egypt and the origins of the Egyptian expedition to Syria. P. 20.

مطامع محمد علي في عكا

أغلب الظن أن محمدا عليا لم يبذل هذا السعي خالصا لوجه عبد الله، وإنما رجا أن يدوم اعتراف هذا الفتى بفضله عليه وبتبعية عكا لصاحب مصر تبعية معنوية، ويذهب الأستاذ اسدرستم إلى أن الجزائر لا بد قد وعد محمدا عليا بالمعاونة الحربية وقت الحاجة (١)، وليس هناك ما يمنع من قبول هذا الرأي، خصوصا وقد ظل الجزائر يعترف بفضل محمد علي سنوات طويلة، بل استطاع هذا الأخير أن يفيد من ولاء صاحب عكا حتى نهاية حرب اليونان « ففي أثناء حرب المورة طلب محمد علي منه تهيئة عشرة آلاف مقاتل من لبنان لانجاء ولده إبراهيم فتلقي الطلب بالقبول، على أنه لم يطلب منه تنفيذه، ثم لما وقع النزاع بين الأمير بشير — صديق محمد علي — وبين الشيخ بشير جنبلاط، كتب إلى عبد الله باشا يستحثه على انجاء الأمير فلي عبد الله باشا هذا الطلب، فأرسل إلى لبنان شرذمة كشافة وأعد حملة لتأييد حزب الأمير بشير » (٢) ولكن عبد الله هو الآخر لم يفعل ذلك كله عرفانا بالجميل ولا اعترافا منه بالتبعية لمصر، وإنما كان يخدع محمد علي ليستعين به وقت الحاجة، وليجد منه التعضيد حين تسنح الفرصة ليستقل بالشام.

أولئك كانوا ولاية الدولة و « أعمدتها » كما يقولون، فما أوهى البناء... يخاتل أحدهم الآخر ويخدعه عن نفسه، ويتعاونون معا على سلطان لا يتقى الله في نفسه ولا في رعيته، ولا يتخرج أن يخدع ولا ته ويغرر بهم في ساعة الحرج والأزمات، وما كان يخفى على السلطان تدير أحد الوالين، وكان الخوف لا يفتأ يدب في صدره كلما ذكر عكا وصاحبها ومصر ووالها، وما دام يحس من نفسه العجز أمامهما ويتخوف اتئلاهما عليه فلا أقل من إفساد ما بينهما وضرب أحدهما بالآخر، وأحسن رجال الدولة « بغريزتهم » عسر

رجال الدولة يسعون بين محمد علي والجزائر

(٢) نفس المصدر والصفحة

(١) نفس المصدر السابق والصفحة

محمد علي عليهم وسهولة كسب عبد الله الجزار ، فلم تلبث سعاية رجال الدولة - وعلى رأسهم خسرو باشا - أن فعلت أفاعيلها في نفس صاحب عكا ، حتى انعقد بينه وبين رجال الدولة شبه تحالف على الوقوف في وجه محمد علي ساعة الحرج . وأحس محمد علي بذلك فبات على الحذر من الجزار ، وأنشأ يترقب الفرصة للقضاء عليه وإعادته إلى حدوده . وفي هذه اللحظات التي اطمأن خسرو فيها إلى أنه خدع صاحب عكا وعبث بصاحب مصر كان عبد الله لا يتحرج من المصارحة برغبته في الخلافة والعمل على خلع محمود الثاني ونقل مركز الخلافة من القسطنطينية إلى عكا (١) .

هذا اللون من العلاقات يعرض لنا مقدمات الحرب بين السلطان ومحمد علي ، وهي حروب طبيعية جدا بين آمال متعارضة وسياسيات ملتوية ورغبات بعيدة وهوامرات معقودة في ذلك الحين بين رجال الدولة الإسلامية ، أو بين الاستانة ودمشق والقاهرة . وللحرب مقدمات أخرى في نواحي أخرى من نواحي الشام وهي لبنان وجوران وجبل الدروز فلنمر بها مسرعين .

لبنان كانت أمانة لبنان وما يجاورها من جبال حوران تعيش في شبه استقلال عن الدولة ، فلم يكن للسلطان على سكانها من السلطان ما كان له على مصر وبقية بلاد الشام مثلا . لأن الجبال كانت معتصما لأهل هذا الأقليم يطلبون فيها الأمان من جيوش السلطان ، فاذا عز عليهم الأمان في لبنان لم يكن عليهم بأس إذا التمسوا النجاة في سفن البحر والهروب إلى الجزائر أو إلى اليونان . ولهذا تصالح أهل لبنان والدولة على أن تنزل لهم عن بلادهم يحكمونها على أن يؤدوا إلى الدولة مالها .

كانت أرض لبنان قسمة عادلة بين طائفتين دينيتين فريدتين في

الدروز والموارنة

بابهما ، أولاهما الدروز والثانية الموارنة ، والأولون أقرب إلى المسلمين والآخرون أقرب إلى النصارى ، وكلاهما خارج عن طاعة الخليفة والبابا معاً . وكانت الفتان ذواتى ماض مجيد فى الحرب الصليبية ، إذ أبلى الدروز فى جانب المسلمين ، وأبلى الموارنة فى جانب اللاتين ؛ فلما انتقضت الحروب الصليبية ظلت أواصر الولاة معقودة بين الفرنسيين والموارنة من أهل لبنان ، حتى أن لويس الرابع عشر ادعى الحماية على المارونيين وأبدى عليهم عطفًا ظاهرًا .

العلايين الموارنة
وفرنسا

وكان حكم البلاد فى أول الأمر إلى الدروز ، إذ هم أهل بأس وسطوة ، واشتهرت منهم بيوت أثبتت قدرتها على الحرب والنضال ، فتوالى على حكم لبنان وحران وجبل الدروز أمراء من بيوت تنوخ ومعن وارسلان وجنبلاط وعماد وشهاب . ولما كان الفريقان خارجين على الاسلام والنصرانية معاً ، فقد نجحت بلادهما من العداء الدينى وتصافى الحليفان ، وجرت الأمور بينهما على ما يجرى الأمرين الحليف والحليف . فكان الدروز يخضعون لمشايخ النصارى ؛ والنصارى يخضعون لمشايخ الدروز عن نفس طيبة نادرة (١) . وأنتهت أمانة لبنان فى نهاية القرن الثامن عشر إلى الأمير بشير شهاب الذى ظل على ولايتها إلى سنة ١٨٤٠ ، وكان فى أول أمره مسلماً ثم اعتنق النصرانية وصار مارونياً وظل الصفاء معقوداً بين الدروز والموارنة فى أغلب أيام حكمه .

أمراء الدروز

الأمير بشير شهاب

وكان طبيعياً أن تتصل الأسباب بين بشير ومحمد على . فكلاهما رجل قادر واسع الرأى يؤسس لنفسه ملكاً ، يتخوف الدولة ويأخذ نفسه بالتقية من تديرها وكيدها ، وتفطن بشير إلى قوة محمد والخير الذى يرجى للشام على يديه إذا هى صارت إليه ، وكان محمد على — كما سنرى — آخر من يقيم للاعتبارات الدينية وزناً فى مسائل السياسة والحكومة ، ومن ثم جرت مراسلات بين بشير ومحمد على ؛ وسواء

بين الأمير بشير
ومحمد على

أتواعد الرجلان على التعاون على الوثوب بالدولة ، أم كانا قد اتفقا على ذلك على يد رجل إيطالي اسمه ييانكي ، وسواء أصدق عبد الله الجزار فيما ادعى من أن هذه المراسلات وقعت في يده مصادقة فطير نبأها للقسطنطينية (١) أم لم يصدق ، فقد أصبحت الدولة توجس خيفة من بقاء لبنان على حاله ، ومن قوة أهله واستعدادهم للتفاهم مع رجل كمحمد علي ، تدل الدلائل كلها على فساد العلائق بينه وبين الدولة ، وعلى أنه لا ينوي بالدولة خيراً

الدولة تسعى بين
الدروز والموارنة

من ثم أخذت سعايات الدولة تنشط في التفريق بين الموارنة والدروز ، فبعد أن كان الود معقوداً بين أمير الدروز الشيخ بشير جنبلاط ، وأمير الموارنة بشير شهاب ، واختلفا في آخر عهدهما بدسائس الاتراك ، ولما قتل الشيخ بشير جنبلاط في عكا على يد الجزار المشهور بالظلم وظن أهل لبنان أن ذلك كان بطلب الأمير بشير قاموا عليه وشقوا عصي طاعته ، (٢) وبهذا وضعت الدولة هذه الطائفة المسيحية في حرج مخطر ، ومهدت السيل لتدخل فرنسا في شؤون الشام تدخلا فعلياً خطيراً .

المنافح بين الدروز
والموارنة

فسدت العلائق بين الدروز والموارنة ، وعمت المذابح والمنازعات ذلك الجبل الآمن المطمئن ، وساءت الأسباب بين الجزار ومحمد علي وكان كلاهما يخدع صاحبه عن نفسه ويحاول السيطرة عليه ، فكانت العلائق بين الولاة والأمراء والصدور العظام علاقة خداع وتدمير وكيد وكرهية ، ولم يكن هناك يد من أن تقع الواقعة بينهم جميعاً عاجلاً أو آجلاً ، فإذا كانت أسباب حرب الشام القريبة ترجع إلى

بعض أسباب حرب
الشام الثانية

(١) Douin : La mission du Baron de Boislecomte, P. 65-66
Asad Rustom. Op. cit. P. P. 24-25 وانظر

(٢) انظر حصر الشام عن نكبات الشام : ص ٦٦

النزاع بين محمد علي وعبد الله الجزار ، وإذا كانت أسبابه البعيدة نوعاً ترجع إلى تقرير السلطان بمحمد علي وحثه بما وعده من ولاية الشام ، فإن أسبابها البعيدة ترجع إلى هذا العداء الباطني المتحكم بين رجال الدولة كلهم حكماً كانوا أو رعية ، وخوف بعضهم من بعض وسعيهم كلهم القضاء على بعض عن أي سبيل ، هذا الشعور السيء الذي انتهى بهم جميعاً إلى خاتمة محزنة حقاً ، انتهى بالقضاء على آمال محمد علي ، وزوال بيت الجزار ، ونفى الأمير بشير ، وتسليم السلطان عاصمته إلى الروسية في معاهدة هنكيار سكسي .

محمد علي يفتح الشام بدأت حرب الشام في صورة خلاف بين محمد علي وعبد الله الجزار ، ولكنها لم تلبث أن تكشفت عن حقيقتها ، فأصبحت حرباً بين محمد علي والسلطان كما مر بيانه ، وقد لقي الجزار فيها جزاءه على ما تخون من عهد محمد علي وما أثم في حقه ، إذا شد عليه ضغط إبراهيم باشا حتى سقطت المدينة في يد المصريين والجزار مرتقب معونة السلطان ، فلم نفسه وهو يصف السلطان بأن شرفه كشرف القاهرة ، وأصبحت الشام كلها بعد قونية في يد المصريين .

الحكم المصري في الشام حكم المصريون الشام مدى تسع سنوات تعد خير سنوات الشام في هذه الفترة العvisية ، فقد بدأ إبراهيم فأخذ العصاة والثائرين بالشدة حتى قضى على كل مقاومه ، ودانت له البلاد وأسلمت له قيادها ، ثم أعقب ذلك بفرض أنظمة محمد علي وأساليبه على الشام فاعلن التجنيد الاجباري واحتكر معظم المنتجات وجمع السلاح .

إبراهيم يسوى بين الطوائف في الشام وتلك كلها أمور لم يعرفها أهل الشام في أسود أيام الحكم التركي ، فلم يلبثوا أن نفروا من حكومة مصر نفوراً شديداً ، ولكن الذي زاد نفورهم وملاً قلوب أهل الشام حفيظة وغماً هو المساواة التي أعلنها إبراهيم بين أهل الشام نصارى كانوا أو مسلمين أو يهوداً ، مساواة

شاملة في المعاملة وأمام المحاكم والقضاء ، وهذا أمر لا يقبله مسلمو الشام ، ودونهم وقبوله خرط القتاد ، وقد حسبوا أول الأمر أن ابراهيم راجع إلى صوابه ومعيد النصارى إلى حدودهم من الذلة والضعف ، فذهب نفر من علماء الشام يشكون إليه انقلاب الأوضاع ، ويبسطون أمامه ألمهم من استعلاء الذميين وركوبهم الخيل كالمسلمين ، وتلك في نظرهم جريمة لا تغتفر ، وحرب على الدين لا تمسحها إلا توبة حوياه فلم يكن من ابراهيم إلا أن سخر منهم سخرية مرة وردهم كاسقى البال ، إذ نصحهم أن يركبوا الجمال من اليوم حتى يصيروا أعلى من النصارى كافة : (١) ثم فجعهم وخيب آمالهم بأن حضر حفلا من حفلات النصارى ، وشهد طقوسهم بنفسه جذلان طربا يد أن الأمن لم يلبث أن ساد ربوع الشام ، فعاد الناس إلى زراعة الأرض ، وأمن الناس على أموالهم فاخرجوا ما كان مخبأ منها أيام الأتراك وأخذوا يتاجرون به ، واستطاعت الجنود المصرية أن تعصم البلاد من غارات اليهود التي كانت تهدد المزارع الآمنة فاطمأن الزراع وعادت الأرض قيمتها وللزارع نضرتها ، حتى لقد وصف أحد قناصل الدول حكومة محمد على في الشام بأنها كانت تضمن للناس الأمن من الأوامر الاستبدادية — إلا فيما يتصل بالتجنيد — وتؤمنهم على أموالهم ، وتترك لهم حرية جديدة في أمر دينهم ونهى لهم أسباب الاستمتاع بالحياة ، وعدلت بين الناس في توزيع الضرائب ، وعلى الجملة هيأت لهم أسباب الحرية التي يستطيع الناس أن ينعموا بها في ظل حكومة حرة على قدر المستطاع ، بل قد لاحظ القنصل أن الإدارة تحسنت حتى جاوزت الحد الذي كان منتظرا منها ؛ ولكنه يضيف إن الناس لا يحبونها (٢)

اطمئنان الناس في الشام في أوائل أيام الحكم المصرى

(1) Dodwell; Op. Cit. P. 251

(2) Ibid ; P 352

الانجليز والحكم
المصري في تعلم

الواقع أن أهل الشام كانوا لا يحبون حكومة مصر للأسباب التي سبق بيانها ، ولكن شاركهم في هذا الشعور نحو الحكم المصري أناس آخرون . فقد كان الانجليز يرصدون محمداً علياً بقلق لا يخفى ؛ إذ أن وقوع الشام في يده من شأنه أن يجعله يسيطر على طريق الهند البري الآخر ، ومن ثم ضاقت صدورهم به وودوا لو نفضوا عن الشام سلطانه ، ثم ان امتداد حكومته إلى هذا المدى الواسع من شأنه أن يجعل منه قوة خطيرة في شرق البحر الأبيض ، وهذا أمر لم تكن انجلترا لتطيقه أو ترضاه ، وما دام الرجل مصرا على أن يحتفظ بأسطول قوى ، فان مياه « الليفانت » في خطر ، وإذن فلا بد من القضاء عليه . هذا إلى أن بقاءه في الشام واضطراد قوته في الزيادة من شأنه أن يغريه بالاستزادة من أرض الدولة ، وهذا بدوره يجعل للروس تعلق يتدخلون بها في أعمال الدولة العلية ويدعون الحماية عليها ، ومن ثم كان لا بد من ابطال حجة الروس بالقضاء على الخطر الذي يهدد الدولة وهو محمد علي . لهذا لم يسترح الانجليز لما أدرك محمد علي من التوفيق في ادارته ببلاد الشام ، فبدأوا يعملون لاثارة البلاد عليه . وأظهاره بمظهر العاجز عن حكم البلاد ، ولخلق مبرر للتدخل في أمور حكومته ، ومن ثم أوحى بليبرستون إلى قنصله في الشام بنسبتي بأن ينظم حركة الثورة في سوريا ، وكان هذا الأخير في غير حاجة إلى أن يغري بمحمد علي حتى يبدأ في الكيد له ، فقد كانت نفسه تفيض حسرة وحسدا لهذا الرجل الذي خيل إليه أنه يهدد انجلترا بالشر المحقق . فغشط الرجل في العمل نشاطاً جاوز الحد المألوف حتى لقد بالغ في إيذاء محمد علي والاساءة إليه . وهل يصعب على إنسان ما — مهما قلت قدرته وحصافته — ان يثير ثورة في الشام في هذه الأيام ، أيام كان المسلمون يكتبون النفس على مضض من تسامح ابراهيم وما

الانجليز يبدون
فعل لاثارة الشام
على محمد علي

تصوروه من اعتدائه على الدين ، وأيام كان النصارى يتنسمون المعاودة من أية دولة مسيحية ، فكيف ببريطانيا ذات الحول والطول ، من ثم أفلحت سعاية الانجليز فأخذت نيران الثورة تلتظى في نواحي الشام كلها ، وأسرع رجال الدولة ينفخون في النيران ، ويعدون أهل الشام باعفائهم من التبعات التي كان يفرضها عليهم بقاء المصريين في الشام كالجنديّة الاجبارية والاحتكار وجمع السلاح وما إلى ذلك ، وانضاف الى ذلك كله ما كان أهل الشام يجدون من الحرج في نفوسهم من استعلاء الذميين ومناصرتهم ، فلم تلبث نيران الثورة أن اشتعلت سنة ١٨٣٤ . واضطر ابراهيم الى الاشتداد على الثائرين ليعيد الأمر إلى نصابه فانضاف شدته هذه إلى مساوئه الأخرى في نظر أعدائه ، فلم يدخروا من الآن وسعا في القضاء عليه وإخراجه من الشام . ولم يكن الانجليز يخفون أيديهم وهم يعقدون أطراف الفتنة في نواحي البلاد ، بل عملوا اجهارا على أن يقطعوا المواصلات بين مصر وسوريا بواسطة اسطولهم في البحر الأبيض ، ونشط بنسبني في إثارة الناس نشاطا بالغا ، حتى اضطربت البلاد كلها على ابراهيم ، وخلع الناس عن أنفسهم ما كان المصريون قد ألزموهم به من مظاهر الإصلاح ، والتوت السبل على المصريين وعاد السلطان يجدد الحرب فخرج الشام عن يد مصر جملة ، واحت من معالم الإصلاح والنظام وعاد فوضى كما كان ، ثم نزلت جيوش الانجليز أرض الشام تحارب ابراهيم وتضيق عليه الخناق فكان ذلك ايذانا بانتهاء أيام السكينة فيه ، ونذيرا بعودته إلى نير الاتراك ينزلون به من المساءات أضعاف ما كانوا يأتون قبل غزو مصر ، وبهذا أدركت انجلترا ما أرادت على حساب الشام ومستقبله ، فابتعدت عنه المصلح وسلمته للمسيء ، ونقضت عنه السلام والاطمئنان واسلمته للفوضى والاضطراب ،

ثورة الشام

الامطول الانجليز
يشد أزر الثورة

الانجليز ينزلون
جنودهم في الشام

تقلص الحكم المصري
من الشام

على الرغم من أنه « لم يكن من الشهامة في شيء أن تتولى سفارة بريطانيا في القسطنطينية تحريض قوم عرفوا بتمردهم ضد أي حكومة نظاميه ، وخاصة بعد اعتراف ممثلي إنجلترا نفسها بكفاءة ومقدرة الحكومة المصرية » ولقد حق لتير أن يستفهم من الحكومة الانجليزية : « هل كان التحريض على الثورة من الأعمال التي تفيد الدولة العلية التي هي في حاجة إلى الراحة والطمأنينة ، وهل الثورة في الشام تولد حب الطاعة والنظام في قلوب رعايا السلطان ، وهل ينجح السلطان في حكم هؤلاء القوم بعد أن أثارهم الباب العالي في وجهه الوالي (١) .

الحكم المصري في الشام
وفكرة الدولة العربية

يبد أن وجود ابراهيم في الشام أوحى اليه الفكرة التي سبقت الإشارة إليها قبل ذلك ، وهي فكرة « الدولة العربية » وسلخ الناطقين بالعربية عن جسد الدولة . فقد كان ابراهيم وأبوه يحكمان الآن معظم الناطقين بالضاد ، ولم يعد خارجا عن سلطانهما إلا أهل الجزيرة وبغداد ، وكان صوت محمد علي قد طار كل مطار ، واتجهت إليه الأنظار في لحظة يئس المسلمون فيها من الدولة العلية وسلطانها ، ومن ثم أخذ ابراهيم يبسط لآييه هذه الفكرة ويعرض عليه الآراء للوصول إلى الانفصال وإعلان الدولة الجديدة ، ومضى محمد علي يستعمل ابنه وينصحه بالانابة ويسأله أن يتحسس موقع الأمر من نفوس العلما والسراة وذوى الرأي في الشام ، ولو قد ترك ابراهيم وحده لأعلنها ولما حفل لثورة الدول ، فقد كان الرجل لا يؤمن بغير سيفه ، ويكاد يكون عربيا خالصا لا يفتأ يذكر العرب ومجدهم الزاهب القديم ، وقد تكون هذه الآراء والنيات بعض ما أثار الدول على ابراهيم وحفزها إلى العمل على طرده من الشام . وعلى أي الأحوال فقد كانت جهود الانجليز ومساعي الأتراك قاضية على كل هذه الآمال الزاهرة التي كانت ترجى للشام .

والعروبة على يد محمد علي وابنه لو ظل الشام في ايديهما ، سواء من ناحية اصلاح احوال البلاد وإعادة الأمن اليها وبعث الحياة والرخاء فيها من جديد ، أو من ناحية انقاذ الدولة الاسلامية بانشاء دولة عربية خالصة تضم مصر والشام والعراق وتبدأ للدولة الاسلامية والاسلام حياة مجيدة زاهرة .

أخلى المصريون الشام خلال سنة ١٨٤٠ دون قتال طويل، فعادت المصريون يخلون الشام البلاد إلى « أصحابها » الترك ، عادت اليهم ليعيدوا اليها مبادئهم ومساخرهم وليهبطوا بها مرة أخرى إلى الدرك الذي كاد محمد علي يستنقذها منه « وكان الأتراك لما عادوا إلى امتلاك الشام رأوا أن يعرضوا مافاتهم في السنوات التسع التي حكم فيها رجال الدولة المصرية ، فبالغوا في تحقير المسيحيين وإنماء أسباب البغضاء بينهم وبين المسلمين ، وكانت الخزازات في الصدور من أيام ابراهيم باشا لأنهم ظنوا أن النصارى تجاوزوا حد الأدب في طلب المساواة بالمسلمين وحسدوهم على تقدمهم في المراكز الأميرية وفي صناعتهم وتجارتهم ، وأضرموا لهم السوء وساعدوهم على ذلك تحريض الأتراك لهم سرّاً وعلناً ، واضطر المسيحيون في المدن إلى العود لملايسهم وحالتهم القديمة وكثر التعدي عليهم من الرعية والحكومة » (١) .

مبادئ الحكم
للتركى تعود

ولو قد اقتصرت مشاكل الشام على ذلك لكان ذلك حجة كافية تترربها الدول تدخلها في البلاد ، فقد عاد الأمن فاختل وتهددت المتاجر والأرزاق بالأخطار ، وتوالت مسمات الأتراك حتى ضج القناصل بالشكوى وأخذوا يبعثون إلى دولهم بالتقارير يصفون الحال ويصورون لها الهاوية التي تنساق اليها البلاد من جديد في حكم

الأتراك ، لو اقتصر الأمر على ذلك لكان فيه الكفاية لتبرير تدخل الدول
الفعلى وسلخ الشام عن الدولة ، فكيف وذلك كله لا يعدو أن يكون
جانبا يسيرا من أسباب الاضطراب ، ولو قد كانت إحدى هذه الدول
حرة تفعل ما تريد لآتمت الأمر على أهون سبيل ، أما وهى ترى
الآخرى رقيات عليها فليس لها إلا أن تسعى للتدخل فى شؤون
الدولة تدخلا سلبيا تحت ستار المحافظة على كيانه وصيانتها من الاعداء .
وكان الانجليز أسرع الدول تطفنا إلى هذه الناحية فمدوا متاجرهم فى
نواحي الشام ، وحصلوا من الدولة على احتكارات وتسهيلات شتى حتى
أصبحت الشام منطقة نفوذ تجارى لهم لا يكاد ينافس منسوجاتهم
ومنتجاتهم الأخرى منافس فيه .

انجلترا تحصل على
امتيازات اقتصادية
فى الشام

أما فرنسا فقد سلكت للتدخل سبيلا أخرى ، إذ مدت سلطانها
عن طريق الدين ورعاية المسيحية فى الشام . سبقت الإشارة إلى ما كان
من رعاية فرنسا للهوارة واعتبارها إياهم تحت حمايتها واتصال الأمر
بينها وبينهم ، وكان الفرنسيون قد حصلوا من الدولة فى أوائل القرن
السابع عشر على حق رعاية الأماكن المقدسة والعناية بها وترميمها ،
ولا زالت فرنسا تنمى فى هذا الحق البسيط حتى أصبحت تملك الكنائس
المقدسة عرفا وحصلت من الدولة سنة ١٧٤٠ على تعهد بأن يباح للحجيج
زيارة الأماكن المقدسة فى أيام الحرب والسلام على السواء (١) . ومضى
الأمر على ذلك والدولة لا تحس له خطرا ولا تعلم أن بقاء طائفة من
رعاياها فى حماية دولة أخرى يمس شرفها ، وأن امتلاك الفرنسيين
للبنائى المقدسة فى بيت المقدس من شأنه أن ينتقص من سلطتها كدولة
محترمة لها كيان واعتبار بين الدول . ولم تكن تحسب أن التدهور
سيصل بها إلى حد تصبح معه هذه المنح حقوقا الزامية تجبر الدولة على

فرنسا ومطاميرها
الدينية

(1) Engelhardt : Op. Cit, P. 96,

طاعتها ، وسيلا لنفوذ سياسى يحاوله الفرنسيون فيما بعد .

مركز فرنسا في الشام
يثير مخاوف الروس

يبد أن هذه الحال لم تثر من الأتراك مثارا ولم تروع منهم سربا ،
ولكنها روعت قوما آخرين كانوا ينظرون إلى هذا السلطان الفرنسى
النامى في كثير من القلق . ولم يكن هؤلاء الآخرون هم الانجليز — فهؤلاء
لا يزعجهم كثيرا ازدياد النفوذ الدينى لأية دولة غربية في تركيا — وإنما
كانوا الروس الذين رأيناهم يسيطون رعايتهم على المسيحيين من رعايا
الدولة في البلقان وعلى الدانوب ، وكان الروس يتقبلون حسدا من
الفرنسيين ، ويتشوقون للفرصة التى تسمح لهم بالتدخل لمنافسة
الفرنسيين في ذلك الحظ العظيم . وزادهم رغبة في ذلك أن قيصر روسيا
في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر كان رجلا شديد التعلق
بالدين وأسبابه ، وهو اسكندر الأول ، ولم يكن يرضيه أن تظل
الآما كن المقدسة في رعايا الكاثوليك ، فلم يزل يجد ويسعى حتى
سنحت له الفرصة سنة ١٨٠٨ ، إذ استطاع مساعدوه أن يقنعوا السلطان
محمودا بالخطر الذى يهدد الدولة وشرفها من احتكار الفرنسيين لرعاية
الآما كن المقدسة ، ومن ثم أصدر السلطان فرمانا أباح به للروس
الارثوذكس اصلاح الكنيسة الكبرى في القدس .

بدأ الصراع بين
الروس والفرنسيين
في الشام

بذلك بدأ هذا النزاع العنيف بين الروس والفرنسيين على الآما كن
المقدسة في الشام ، بدأ في صورة مصغرة جداً : في حياة نزاع على شرف
رعاية الكنائس ، وانتهى في صورة مكبرة في حرب القرم سنة ١٨٥٦
وليس من الخطأ أن نقول إن الأمر كله لم يكن — من أول الأمر —
نزاعا على شرف معنوى صرف كرعاية المباني المقدسة ، وإنما هو في
حقيقته نزاع على السلطان والنفوذ في أراضى الدولة وبلادها .

الفرنسيون يحتجون

أحتج الفرنسيون على السلطان واعتبروا منحه هذا الحق للروس
اعتداء منه على حق مسلم لهم به في معاهدة محترمة . ورد الروس بأنهم

أصحاب حق هم الآخرون : حق تدعمه معاهدة محترمة لا تقل عن معاهدة الفرنسيين قوة ولا احتراماً ، وهو الذي فازت به في روسيا معاهدة كتشك كينارجي سنة ١٧٧٤ ، فكسبت به حق رعاية الروم الأرثوذكس في الدولة ، وما دام الروم مسيحيين كالكاثوليك ، فللروس ما للفرنسيين من الحق في رعاية الأماكن المقدسة التي هي حق مباح لكل مسيحي كاثوليكي كان أم رومياً أرثوذكسياً .

تطور الحقوق الدينية
إلى حقوق سياسية

في أثناء ذلك كان هذا الحق الديني المعنوي يتطور بمساعي الدول إلى حق سياسي خطير يهدد الدولة باخطار شتى . وقد أعان سوء حال الدولة وكثرة مساوئها واضطراب أحوالها على هذا التطور ، فما دام الرعايا غير آمنين على أنفسهم وأموالهم في رعاية السلطان فلم يلبثوا أن يلتمسوا الأمان في رعاية دولة أجنبية ، حتى يحتضروا بالقناصل والسفراء ويفروا من المظالم والمغارم ويعيشوا آمنين مطمئنين ، ومن ثم أخذ الرعايا يتجنسون بجنسيات أجنبية فرنسية أو إنجليزية أو روسية ، وفتح الروس الباب على مصراعيه فتدفق الرعية يطلبون الجنسية الروسية من غير حساب ، حتى أصبحت إشارة القنصل الروسي على جواز السفر كافية لاعتبار الرجل روسيا خارجاً عن رعاية السلطان داخلها في رعاية القيصر ، فلم يلبث السلطان أن وجد الدول تغزوه هذا الغزو السلمي الخطير ، يخرجون رعاياه عن سلطانه ، فملكه الخوف من استفحال الأمور ولبث يتحين الفرصة ليوقف هذا السيل . ولم يكن بعسير عليه أن يجد فرصة مواتية ، فقد كانت الأمور إذ ذاك تسير من سيئ إلى أسوأ في جبل لبنان الذي استطارت الخصومة بين أهله ودبت الفتنة فيه بسعائيات الترك بين الدروز والموارنة فانقلب شعله من نار يترامى أهله بالعداوة والثارات ، فلم يلبث السلطان أن أعلن أن كل تصريحات التجنس لا بد أن تراجع بمعرفة السلطات التركية بالشام وأعقب ذلك

بإعلان قرر فيه أن سفر أحد الرعايا إلى أي بلد أجنبي لا يلزم السلطان باحترام أية جنسية أجنبية لهذا العائد فما دام أصله تركيا ، وما دام يعيش في أراضي السلطان فهو تركي يخضع لحكومة الأتراك ولا سلطان لراع آخر عليه .

وَأدرك الانجليز بصرهم الثاقب أن المسألة ليست صراعا معنويا، وأن فرنسا وروسيا لا تحتربان على شرف أدبي تكسبانه من وراء رعاية المسيحيين ، وأن الأمر في حقيقة صراع سياسي صرف كالحرب سواء بسواء ، وقد هالهم أن يجدوا للروس والفرنسيين مذاهب دينية لها اتباع في الشام يتسترون خلفها ، فبدأوا يعملون على غرس بذور البروتستنتية في البلاد المقدسة حتى يكتسبوا لأنفسهم رعايا يسيطون عليهم سلطانهم ، ويمدون سلطانهم السياسي عن سيلهم ، فتقدموا إلى السلطان حوالي سنة ١٨٤٠ يطلبون إليه أن يسمح لهم ببناء كنيسة بروتستنتية في القدس ، وعززهم الألمان في ذلك (١) ، وأحس الفرنسيون بمسعى الانجليز فنشطوا لاجباطه وأثاروا كنائس الشام وبطارقه على البروتستنتية وخوفوهم من مساعي الانجليز ، فلم تلبث الرجى والشكايات أن انهارت على الباب العالي تستحلفه أن يرفض هذا الطلب ، فالكاثوليكية هي المذهب المسيحي السائد في بلاد الدولة ، وليس للبروتستنتية ذبوع في أي مكان ، فالانجليز لا رغبة لهم في الشام فما عساهم يريدون الا سلطانا سياسياً ..

بناء كنيسة انجليكانية في القدس

وبهذا امتنع السلطان فرفض ، طلب الانجليز ، ولكن هؤلاء لم يثنوا عن غرضهم فما زالوا يلحون في الطلب ويشاربون عليه حتى أقاموا كنيسة انجليكانية صغيرة في القدس حوالي سنة ١٨٤٢ . وتسامع الأمير يكون بذلك وبث الانجليز فيهم دعاياتهم فهرولوا بأموالهم وبعوثهم التبشيرية فلم تلبث الكنيسة الصغيرة الناشئة ان كسبت لنفسها

طائفة من الاتباع ، ونشطت القنصليات في معاونة الكنيسة حتى صار هؤلاء الاتباع نفرا يعتد به ويحسب حسابه : وأعانها على ذلك ما كان الناس ينتظرونه من الانتساب للبروتستنتية من التمتع بحماية الانجليز بهذا أخذت الدول باليمين مامنحته باليسار ، حافظت على كيان الدولة العثمانية في الظاهر ومضت تنخر كيان هذه الدولة وتمتص رعاياها في الباطن ، وطردت محمدا عليا من الشام وقسمته بينها هذه القسمة الباغية التي لا تفرق عن الاحتلال الحقيقي في شيء ، ردت الشام إلى السلطان وأخرجت عن طاعته أهل الشام وتجارة الشام : وعسكرت حول موانيه وأخذت عليه السبل ، فإذا بقي الدولة فيه غير تبعية اسمية تكاد لا تغني شيئا ؟

القول تحتل الشام
معنويا واقتصاديا

ولو ترك الأمر للروس لما أقروا هذه الحال ، ولجمعوا جمعهم منذ حين ونزلوا أرض الدولة وقضوا عليها منذ بعيد ، فهؤلاء هم يحكمون من رعية السلطان عددا طيبا ، ويميلون على السلطان إرادتهم ويتصرفون في سياسة الدولة كما يشاءون ، وليس لهم صبر الانجليز ولا يشغلهم عن الأمر متاعب الفرنسيين ، إذ ليست لهم هند يحرصون على طريقها ولا متاعب سياسية داخلية تستولي على ألبابهم ؛ وقد عجب القيصر فيقول من بقاء هذه الحال على ما هي عليه ، فحسب أنه يبدى جديدا إذا عرض على الانجليز فكرة تقسيم الدولة ، وكانت بينه وبين فرنسا خصومة فظان نه يغري انجلترا بالعمل إذا هو أخرج فرنسا من الحساب ، إذ قد ضاق ذرعه بكفاح الفرنسيين ورد مطامعهم في الشام ، وليست لهم فيه إلا بضع كنائس وبضع حقوق أو ما يشبه الحقوق ، ومن ثم رأى أن يفتح هاملتون سيمور سفير انجلترا لدى بلاطه في الأمر - وكان له صاحبا - وشجعه على ذلك أنه كان على ود موصول مع اللورد ابردين رئيس الوزارة الانجليزية إذ ذاك ، ومن ثم دار بين القيصر والسفير حديث

ذاع أمره وطار صيته في يناير سنة ١٨٥٣ في هذه المحادثة — التي
 بُلِّغَتْ للندن لساعتها والتي نشرت ساعة أعلنت حرب القرم —
 يتحدث القيصر عن تركيا فوصفها بأنها دولة يكاد ينهار بنيانها ، وقال
 ان التركي رجل مريض جداً ينتظر له الموت بين أيديهم بين
 الحين والحين ، ومن ثم كان خليقا بهم أن يعملوا رأيهم ليرواما يفعلون
 بأراضيهم لوجم فيه القضاء ووقعت الواقعة ، وأكد للسفير أن نصاب
 الأمر يد إنجلترا وروسيا ، إذ أنهما تستطيعان أن تريا فيه رأيهما دون
 حرب ، ثم أشار إشارة خفيفة صريحة إلى الحل الذي يرى ، فولايات
 البلقان تمنح استقلالاً في حماية الروس ، وتحتل روسيا القسطنطينية
 من غير أن تضيفها إلى أرضها ، وأما الانجليز فخصتهم من هذه القسمة
 مصر . (١) ولم يكن الانجليز يجهلون هذه النوايا التي يبيتها الروس ،
 ولكن حديث القيصر أكد مخاوفهم وأعلمهم بأن روسيا على الأهبة
 وأنها لن تستريح إلا إذا فازت بحصتها من تركة الرجل المريض ،
 ومن ثم أخذ الانجليز يستعدون لدفع مطامع الروس بالحرب إذا
 استلزم الحال .

الرجل المريض

وكأنما حسب القيصر أن الانجليز عون له على ما يريد ، فأراد أن يبدأ
 في التنفيذ ، فأرسل أحد رجال بلاطه المقربين وهو الأمير منشيكوف
 برسالة خاصة الى السلطان يطلب اليه أمرين بسيطين : أولهما تسليم
 الروس مفاتيح الأراضي المقدسة وثانيهما حماية الروس لجميع الرعايا
 المسيحيين في الدولة ، وكان سفير الانجليز إذ ذاك في القسطنطينية
 هو اللورد ستراتفورد دي رذكلف السياسي الانجليزي الذائع الصيت

ستراتفورد دي
 رذكلف يعني لائحة
 حرب القرم

(1) Grant and Temperley: Europe in the Nineteenth Century, (ed. 1929) P. 269

وخاف الرجل أن تطول مدة المخبرات والأمر على حرج ، فتحمل
تبعة الأمر ومضى الى السلطان فأشار عليه بأن يرفض طلب الروس
الثانى ولا بأس عليه أن يقبل الأول ويسلم مفاتيح الأماكن المقدسة
لهم فهذه مظاهر لاغنا فيها ، فلم يكدمشيكوف يسمع هذا الرد من
السلطان حتى اعتبره إهانة له ولدولته ، فطوى ذيله فى مايو سنة ١٨٥٣
وهو ينوى فى نفسه ليشيرنها على الترك عواتا . ولم يكدمشيكوف ينقضى على
أوبته شهر حتى سير القيصر جنده فعبروا البروت واحتلوا ملدافيا
وولاشيا ، وبذلت الدول وسعها لتحسم الحرب على غير جدوى ، فقد
كان الروس قد أجمعوا رأيهم فلا بد لهم من المضى فيما بدأوا . وقد
أحس الأتراك بأن انجلترا من ورائهم تشد أزرهم فتشجعوا وأصروا
على رفض مطالب الروس ، وتخرج الأمر بين الحين فلم يلبث الترك أن
أعلنوا الحرب على الروس فى ١٤ أكتوبر سنة ١٨٥٣

حرب القرم تبتدى

أثبتت حرب القرم والنتائج السياسية التى خلفتها أن تركيا ليست
ضعيفة فحسب ، بل لأمل فى شفافها واستنهاضها كذلك ، فقد جاءت
بعد جهود طويلة لاصلاح الجيش والادارة ، فكان لابد أن يرى
الناس فيها تركيا جديدة تخالف القديمة وتمتاز عليها ، ولكن الحرب طالت
ولم تبد تركيا أمراً جديدا ، قام الحلفاء - الانجليز والفرنسيون - بالأمر
كله ، فاضطروا الروس إلى الانسحاب من ولاشيا وملدافيا ثم توجهوا
لانتفاذ البحر الأسود من الروس بالقضاء على قاعدتهم الحربية فيه وهى
سياستبول . وكانت الحرب فرصة طيبة يظهر فيها الأتراك كفاءتهم
ولكنهم عجزوا دون ذلك ، وكانت الحرب حرب حصون والأتراك
معروفون بالمهارة فى هذا الباب ، ولكنهم لم يستطيعوا فعل شئ ، ولم
يكن فى جيوش الانجليز والفرنسيين ضابط ماهر يقود الحرب بنجاح

اثر حرب القرم فى تركيا

سياستبول

لا للورد راجلان ولا الجنرال سمبسون ولا كانروبرت Canrobert ولا بلسيه - كن من أن يستولى على سياستبول ، واستمر قائدها الروسي - الألمانى الأصل - تودلين Todleben يدافع عنها بمهارة استحققت اعجاب الأعداء . كان على الأتراك أن يفيدوا من هذه الحرب التى اشتركوا فيها مع الانجليز والفرنسيين ، ولكنهم لم يفيدوا شيئاً ، ظل الجيش التركى على ما عرفناه قبل ذلك بسنوات : جنود بواسل يمسكهم الصبر فى ظلال الموت ، وقادة فاسدون يشغلهم الفساد عن الظفر ، وإليك ما قاله أحد كبار ضباط الانجليز يصف الجيش التركى فى ذلك الحين : « إننى لمعجب بالصبر الذى يتحمل به هذا الجنس الصبور الشديد الاسوى متاعب حمة كانت تكفى فى أى مكان آخر لتدفع بالجند إلى الاعتصاب طعام الجندى يستمطر الرحمة ، وقد أهمل القوم أبسط قواعد الوقاية الصحية ، فهناك الحيات وهناك التيفوس ، ورواتب الجند متأخرة ما بين ثمانية عشر وعشرين واثنين وعشرين شهراً أما الضباط فتقصهم الخبرة والنظام والثقافة نقصا قاصحاً ، معظمهم أهلون سموا إلى مراتب القيادة ، ودأبهم فى الحياة الشراب ولا يحفلون الا لسرقة الجنود ، وفى هذا الباب نجد المشير يضرب لضباطه أسوء المثل فى الافساد ؛ اذ كان الاتفاق بين القادة والضباط وتعاونهم على اقتسام الغنيمة عوناً له على أن يبلغ الدولة أمورا مشيئة غير حقيقية ، فكان يبلغ الدولة أن جنوده يبلغون ٣٣.٠٠٠ فى حين لم يبق منهم فى الميدان إلا ١٧.٠٠٠ ولا يتأبى المشير عن أبسط السرقات : فقد باع مخلفات اثني عشر ألف جندى ماتوا فى المستشفى فى الشتاء الماضى ، ولما كانت الدولة تعطيه بعض اعطيات الجند ورقاً وبعضها الآخر من فضة فقد كان يعطى الجند الورق فقط ليكسب الفرق وهو حوالى ٢٠ ٪ ، (١)

1 Engelhardt. Op. cit. P. 120,

المشير هو القائد الأعلى للجيش التركى

وهذا كله بعد الاصلاح وبعد التهذيب وبعد سنوات طويلة من الدعوى
للتقدم... لازال اللب على حاله وان تغيرت القشور... فما جدوى الجهد
وما وراء العمل !

الانجليز والفرنسيون
في حرب القرم

شقي المشتركون في حرب القرم شقاء بالغاء ، وأبلى الجانبان فيها
بلاء محمودا ، فاستمرت هجمات الانجليز والفرنسيين والأتراك نحو
عام ترمى عن مدافعها لتدرك حصون Sebastopol على غير جدوى ،
وانسابت عليهم في موضعهم غمرات ثقيلة بعضها الكوليرا وبعضها
القوازيق وبعضها شتاء روسيا القاسى ، واصطلى الانجليز بنيرانها في
بلا كلافا وانكرمان حتى كاد رجااء الجند والقادة أن ينقطع في الحياة ،
ولم تخفف من بلواهم جهود البطلة الانجليزية الذائعة الصيت مس
فلورنس نايتنجيل ، فهبطت قواهم إلى أحد عشر ألفا فقط ، وأخيرا ،
بعد صراع هائل في حصون ريديان وملاكوت استطاع القائد الفرنسى
مكماهون أن يستولى على الحصن الأخير فأشرف على المدينة ، ولكن
ذلك لم يحسم الحرب إذ عوض الروس ذلك بالاستيلاء على حصن كارز
في آسيا الصغرى .

مؤتمر باريس
سنة ١٨٥٦

وأخيرا ، فهم الحيان حقيقة الحال ، عرف الروس أن الانجليز
يبدلون أنفسهم دون البحر الأسود ومضايقه ، وأيقن الانجليز أن
الروس عرفوا تماما بهذا الدرس أن لا يحاولوا الاستيلاء على البحر
الأسود مرة أخرى ، وما دام الروس قد عرفوا ذلك فقد أدرك الانجليز
من الحرب وطرحهم ولا حاجة لهم باستقبال ولا موسكو نفسها ، وانتهى
الامر أخيرا بمؤتمر باريس في أوائل سنة ١٨٥٦ ، حيث قررت حيدة
البحر الأسود ، وحرمت مياهه على السفن الحربية من أى لون ،
وتقرر كذلك اقفال المضائق في وجه أية سفينة حربية ، بذلك اطمأن

الانجليز إلى أنهم أغلقوا الباب في وجه الروس ، واشهدوا الدول على ذلك ، ولكنهم أرادوا أن يطمئنوا إلى أن الروس لن يعودوا فيتدخلون في شؤون الدولة وييسطون عليها حماية دينية أو غير دينية ، فقررروا أن لا يتدخل دولة بين السلطان ورعاياه ، وأخذوا على السلطان المواثيق أن ينفذ ما وعد من المساواة بين رعاياه لا فرق بين دين ودين وجنس وجنس ، فوعدهم السلطان بذلك ، وأرادوا أن يثبتوا ذلك فرفعوا تركيا إلى مصاف الدول الكبرى وأدخلوها ضمن الحياة الأوروبية لكي لا يعتدى عليها الروس أو يستهينوا بها

تركيّا تدخل حياة الدول الأوروبية

بهذا أتاحت للأتراك فرصة من ذهب ، منحها الدول سلامتها وأمنتها من اقتراس الدب الرابض شمالها ، فكان عليها أن تتهر هذه الفرصة وتعمل جادة في إصلاح شؤونها ، وقدمت لها الدول المعاونة اللازمة ، فلندعها تحاول من جديد بعد أن انجلت عنها الغمرات وزايلتها الازمات ، ولنعود إليها بعد حين لنرى ما يكون من أمرها بعد سنوات

— ٦ —

يعرض علينا غرب البحر الأبيض المتوسط لونا آخر من الصراع بين الشرق والغرب في العصر الحديث ، ويكشف لنا هذا الصراع عن نواح أخرى من العلاقات بين الجانبين تختلف الاختلاف كله عما رأيناه في المشرق .

الحروب الصليبية في الغرب

ذلك أن ميدان الحروب الصليبية لم يكن مقصورا على الشرق وحده وإنما شمل غرب البحر الأبيض كذلك ، قارت بين المسلمين في الأندلس والنصارى في الشمال حروب طويلة تعرف بحروب الاسترداد Reconquista ، وكانت هذه الحروب شديدة حامية لا تقل شدة وأهمية

(١٩)

عما دار في الشرق بين الاسلام والنصرانية ، بل كانت الروح الدينية فيها أغلب وأظهر ، وكانت نتائجها على مستقبل الحين أحسم وأبعد ، بل كان سكون ريح الصليبيات في الشرق مؤذنا باشتداد ريحها في المغرب واجتماع القوى كلها على الصراع في ميدانه. وأنتا نستطيع أن نلاحظ انتقال ميدان الحروب الصليبية من المشرق للمغرب خطوة خطوة ، فقد كانت نيرانها مستعرة أول الأمر في الشام ، ثم تحول ميدانها إلى مصر ، ثم إلى تونس ثم إلى الجزائر بعد ذلك ، وهناك أقامت حتى أوائل القرن التاسع عشر حين انتهت بانتصار الغرب واحتلال الجزائر وبداية استعمار شمال افريقية .

الحرب الصليبية في
شمال افريقية

من هنا ليس بغريب أن نجد المغرب طوال العصر الوسيط وإلى أوائل القرن التاسع عشر ميدانا حافلا بالحروب لا يكاد يسكن فيه ريح الصراع الشديد أو العداوة المتأججة ، وليس بغريب كذلك أن نجد الفريقين يلتزمان السبل كلها للغلبة والظفر لا فرق في ذلك بين مباح وغير مباح ، وليس من الصواب في شيء أن نحكم على ما يحدث في المغرب بالمقاييس التي نحكم بها في أوقات السلام ، إذ كانت الأيام كلها حربا هنالك ، وكان الميدان مفتوحا على مصراعيه للجيوش والاساطيل ؛ فأولى بنا أن نعتبر المغرب ميدان حرب لا ميدان سلام ، وأن نعتبر أهله مقاتلين ومداته معسكرات ؛ ولم يكن أهل المغرب أنفسهم — في افريقية وأوروبا — لينظرون للأمر إلا بهذه العين فلم يتركوا السيف أبدا واستمر الكفاح بينهما دائرا متصلا .

المغرب في حرب دائمة

يبد أن ظروف المغرب الجغرافية لم تكن تساعد على الاستمرار في الكفاح أمام الحاح الأوروبيين واستمرارهم ، فقد كان على دويلات المغرب الفقيرة أن تناجز الأسبان المستعمرين والبرتغاليين الذين امتلأت

فقر المغرب بعوقه عن
الاستمرار في الحرب

فقوسهم بالرغبة في الاستعمار وقويت أساطيلهم ، والفرنسيين الذين اتجهت همهم منذ حملة لويس التاسع على تونس للاستيلاء على المغرب واخضاعه ؛ فكيف يستطيع الحفصيون في تونس وبنو عبد الواد في وسط المغرب وشرقه أن يتجاوزوا هذه القوات كلها ؟ كان طبعياً أن تنهق قواتهم وتخلد إلى الطاعة بعد طول الصراع ، لأن بلاد المغرب فقيرة قليلة الخيرات والأرزاق لاتعين على تكاليف الحروب وأعباءها ولأن نظامها الجغرافي يحول دون اتحاد جهاتها واتلافها وتكوينها جهة واحدة ، فظلت متنافرة متدبرة تحترب فيما بينها فتفسح للعدو فرصة النصر والظفر . لهذا تمكن البرتغاليون من احتلال جزء من ساحل إفريقية الغربي وأقاموا فيه محارس سميت باسم *fronteiras* ، واستطاع الأسبانيون أن يحتلوا جزءاً عظيماً من ساحل الجزائر وحصنوه بحصون عرفت باسم *presidios* . ولم يكن بنو عبد الواد ولا الحفصيون هم وحدهم أصحاب السلطان في المغرب إذ ذاك بل نازعهم فيه بدو العرب الذين كانوا قد أخذوا يتقاطرون على المغرب بمجموعهم ابتداء من القرن العاشر . وكانت بقية الأراضي الداخلية نهياً متنازعا بين القبائل البربرية المستقلة التي كانت تأتي الخضوع والطاعة ، فلم يخطئ جوليان اذن حين وصف المغرب في ذلك الحين بأنه كان « قاشانيا سياسيا » (١)

قبائل العرب مهاجم
الساحل

أرسطة وطلالاسلام
في المغرب

وكان المصير الذي انتهى اليه أمر المسلمين في الأندلس قد أضاف إلى متاعب أهله نصيباً كبيراً وحملهم تبعات كبرى ، فقد انتهى أمر مسلمي الأندلس إلى الهزيمة ، وأصبح أمر البلاد بيد الأسبان والبرتغاليين النصاري ، فأقلقوا الثغور على من بقي من المسلمين وأخذوا يذيقونهم من العذاب ألواناً ، إما ليفتوهم عن دينهم أو ليسترقوهم ويستخدموهم في أعمال العبيد . واشتد الأسبان في ذلك شدة ذاع أمرها بين الناس فلا

حاجة إلى تصويرها ، وتطارت الأخبار بما يلقاه المسلمون من الذل في هذه البلاد . ولم يقتصر الأسبان على ذلك بل أخذوا يجوبون البحار ويحطون على سواحل بلاد المسلمين فيخطفون من يظفرون به منهم وينهبون سفنهم ويخربون مدنها ، فلم يكن إلى السلم سبيل بين الحين على هذه الحال ، وأصبح النهوض لاستنقاذ المسلمين في أسبانيا واجباً شرعياً يتحتم على كل مسلم أن يقوم به ، وأصبح لزما على الدول الإسلامية أن تقابل عداوة أساطيل الأسبان بالمثل ، وأن تقف في البحر رسدا لما يقع لها من سفن النصارى لتوقع بها وتؤذيها وترد إليها ما تساف من أذى وكيد .

مسوا المغرب ينهضون
لا نقاذ مسلمي
الأتدلس

ذلك هو الوصف الصحيح الذي ينبغي أن نصف به أعمال الغزو والحرب البحرية غير النظامية التي كان أهل المغرب يقومون بها ، وقد أخطأ الكثيرون فسموها قرصنة أو لصوصية ، وليست في الواقع إلا لونا من الحرب الدينية من جهة ودفاعا عن الأوطان من جهة أخرى ، وربما تطرف المغريون في أعمال العداء واشتدوا في مطاردة السفن ، وربما أنزلوا بالموانئ كثيراً من الأذى ، ولكن أعمالهم لا توصف إلا بأنها جهاد ، فالعرف الإسلامي يعتبر بلاد النصرانية كلها دار حرب يباح الغزو فيها ويستحل السبي في أرضها ؛ ولم يكن المغاربة يفعلون أكثر مما كان البرتغاليون يفعلونه في ذلك الحين في كل البحار والبلاد .

قرصنة في المغرب
جهاد ديني

بل كانت هناك عوامل شتى تدفع بأهل المغرب إلى السدور في هذا الطريق وتضطرهم إلى الاستمرار فيها ، حتى لو جنحو إلى السلم والاستقرار . أول هذه العوامل أن غرب البحر الأبيض كله كان مسكونا بشعوب من القراصين التي تمارس الغزو والقرصنة وتعتمد عليها في معاشها ؛ فكانت مدائن إيطاليا وفرنسا وأسبانيا أعشاشاً

غرب بحر الأبيض
ميدان قدم القرصنة

للقراصين يقيمون فيها ويهمون منها للغزو والسلب في البحار ، فلم يكن المسلمون وحدهم هم الذين يهاجمون سفن الأسبان والانجليز والهولنديين ، بل كان الأوربيون يهاجمون بعضهم بعضاً لا تفرقة في ذلك بين دين أو نسب ، وسنرى أن كثيراً من الأمم النصرانية كانت تحالف القوى الإسلامية على أخواتها . وقد كان الانجليز أنفسهم في هذه العصور قراصين أو ما يشبه القراصين ، ولو قد قرأت توارينغ كبار الملاحين الانجليز كما رواها « فرود » لعرفت أن القرصنة أصل البحرية الانجليزية (١) كما كانت أساس البحرية الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط ، وثاني هذه العوامل فقر بلاد المغرب واضطرار أهلها لطلب الرزق فيما جاورهم من البلاد والأراضي ، وكان بربر المغرب لا يستقرون على حال ولا يخضعون لنظام فلم يكن للدولة موارد من أرضها أو أهلها . ولم تكن لتستطيع أن تقيم بنيان إدارتها إلا عن سبيل أخرى كالتجارة مثلاً ، ومادامت القرصنة هي وسيلة التجارة المعروفة في ذلك الزمان فقد كان طبعياً أن يلجأ إليها أهل المغرب خصوصاً وهم قوم بحريون يحسنون الملاحة وشئون البحار ، ومصدق ذلك أن الحرب والغزو والكفاح كان مستمراً طوال العصر الوسيط بين دويلات المغرب في الداخل والساحل على السواء ، وهي حالة من القلق والاضراب لا تعلل إلا بفقر النواحي مما يضطرها إلى التحارب والتنافس على مواضع الجنب والخير . وثالث هذه العوامل أن بلاد الأندلس كانت تلتقي بين الحين والحين بطوائف وجماعات من المسلمين هارين من أسبانيا أو صرح لهم بالخروج منها ، وهؤلاء كانوا يخرجون من بلادهم آلافا مؤلفة لا تملك من حطام الدنيا شروى فقير ، فماذا تعمل إلا أن تنضم لسفن المسلمين الغازية لتدرك ثأرها من الأسبان

القرصنة أصل
البحريات الكبرى

أصل المغرب أمة
بحرية

مهاجرو المغرب
يثيرون الحرب

الذين استذلوا وآذوها ، ولتجد عن طريق ذلك سيلا للرزق والعيش ، فكانت هذه الجماعات لا تجد غير هذا السيل تقبل عليه بحماس وحمية وتبذل فيه قصارى جهدها ، ومصدق ذلك أن معظم المحاربين على سفن المغرب كانوا من هؤلاء الهاربين من الثغور الإسبانية . ورابع هذه العوامل هو اتصال الأمر بين دويلات المغرب والدولة العثمانية في أوائل القرن السادس عشر ، وكانت الدولة العثمانية في حالة حرب دائمة مع القوى الأوروبية ، فلم يكن لبلاد المغرب بد من أن تفعل فعل الدولة فتستمر على الغزو في البحار ، لأنها أصبحت من ذلك الحين مرتبطة بالدولة العثمانية تجري على سياستها وتقف موقفها . وخامس هذه العوامل خلو البلاد من قوة واحدة مركزية تستطيع أن تضبط الأمن وتنشر سلطانها على الرعية وتتوب عنهم في المعاملات السياسية ، فكان كل فريق يوجه سياسته على النحو الذي يريد ، ولم تجد دول أوروبا حياة تخاطبها لا يقاها أعمال القرصان والاتفاق معهم ، ففشلت كل الجهود التي بذلت لتحويل الموانئ المغربية عن أن تكون أعشاشا للقراصين فاستمرت في سيلها حتى أوائل القرن التاسع عشر بل أن ادمان النظر في تاريخ المغرب في هذه الأيام يدل على أن أهل المغرب كانوا مسوقين إلى اتخاذ هذه الوجهة وإن مالوا إلى الاستقرار والانتظام ، فقد كان أهل الجزائر مثلاً قد هدأ أمرهم وازدهرت مدنياتهم ودولتهم في أواخر القرن الخامس عشر ، وزاد في ازدهار أمرها توافد الهاربين من اسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ ، وكان معظم هؤلاء الهاربين من الصناعات الماهرة أو المدنيين الذين درجوا في مهاد الحضارة والاستقرار ، فأخذوا يمارسون صناعاتهم القديمة في وطنهم الجديد ولكنهم لم يستطيعوا أن يأمنوا على نفوسهم والاسبان يهددون مدنياتهم الجزائر بالغزو والنهب وقراصنتهم رصد لمتاجرهم في البحر تتخطف أموالهم وأرزاقهم

اتصال المغرب
بالدولة العثمانية يزيد
الحرب

عدم توحيد البلاد

أوروبا لا تدع للمغرب
فرصة للاستقرار

فكان أمراؤها من الثعالبية بين أمر من ثلاثة : إما توجيه قواهم كلها نحو البحر لمحاربة القرصنة ، وإما التسليم للأسبان الذين اقبلوا يغزون بلادهم بقيادة بدرو نافارو الذي كان لا يفتأ يهدد البلد وجزائرها بمدافعه ، وإما الدخول في حماية أحد كبار الملاحين المسلمين الذين دانت لهم البحار والثغور الإسلامية كلها في ذلك الحين ، ولم يكن لها بد في كل من هذه الحالات من أن تطوى حضارتها وتهدم ما بنته من صرح دولتها . وتلقت لهذه الحرب البحرية الشديدة

مدرو نافارو

المغرب يدخل
المجموعة الإسلامية

وتلك هي الظروف التي ألقت بالمغرب في احضان الدولة العثمانية ووصلت أسبابه بأسباب المجموعة الإسلامية الكبرى في شرق البحر الأبيض وما يليه ، وهي ظروف يستوى في روايتها فن القصاص ودقة المؤرخ ، لأنها تجمع بين طرافة القصة وصدق العبرة ، وقد تعاونت هذه الظروف على أن تسلم للدولة العثمانية نصيبا فسيحا من الأرض والساحل بلا عناء أو جهد ، ولو قد أرادت لغيرت وجه الحياة فيه ولحولته من ميدان للكفاح والنزاع إلى بلاد مستقرة هادئة وافرّة الخير كما فعل العرب قبلهم بيضعة قرون ، ولكن كثرة مشاغلهم وقلة حيلهم باصلاح أمر رعاياهم ، وعدم اهتمام السياسة الإسلامية بالمستقبل عادة جعلت الحكم العثماني نكبة على المغرب لارحمة له

بربروسا

استنجد الثعالبية بعروج بن يعقوب الملقب ببربروس الأول (١)

(١) نشأ عروج في جزيرة المدلى (متلين) في بحر الأترخيل ، وكان في أول أمره ملاحا فلما اشتد ساعده انفصل عن بحارة السلطان ومال الى القرصنة ، ولما لم يكن في ميسوره أن يقوم بأعماله في شرق البحر الأبيض لأن سواحله كلها بلاد إسلامية داخله في طاعة الأتراك فقد شد رحاله إلى المغرب وأرسي هناك واخذ يمارس صناعته بمهارة أذاعت ذكره ولقت نحوه نظر السلطان بايزيد الذي اعتبره مجاهدا في أرض النصرانية ، ثم وقعت له حوادث أسوأ فيها تم أظقت وعاد بعدها إلى بلاده الأولى فدخل خدمة الدولة من جديد ، وأعجب به قبطان الدولة نور فدا وهو ابن السلطان بايزيد نفسه وشجعه ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى المغرب بعد موت بايزيد وأخذ يثير على ثور أوروبا وسفنها حتى اجتمعت له ثروة عظيمة ، ثم أراد أن يوجد لنفسه مركزا فاستأذن سلطان تونس في ذلك الحين أبا عبد الله محمد بن الحسن الحفصي في أن يحيط بعض ثوره

الذى كان قد استولى على جيجل في ذلك الحين وجعلها مركزاً لأعماله وطلبوا
عونه على الاسبان فعجل هذا بالمعاونة التي طلبوا وفي نفسه أن يدخل
بلادهم في حوزته ، فتم له ذلك بعد حروب طويلة سنة ١٥١٦ ، ثم أخذ
يستولى على بلاد المغرب واحدة فواحدة ، فاستولى على معظم بلاد الدولة
الزيرية في المغرب الأقصى حتى أصبحت سواحل بلادها كلها في يده
وخلفه في أعماله أخوه المعروف بخير الدين فكان أوفى منه حظاً
وأبعد منه خطراً ، ويبدو أن خير الدين لم يكن يعمل لمجرد الكسب
والغنمة وإنما كانت تسيره عاطفة دينية صادقة . فقد عجل هذا الرجل
في ساعة نظره وظفروه فوضع نفسه في خدمة السلطان وقدم إلى الخلافة
ببلاده في الوقت الذي كان عمال الدولة يتشرون فيه فرصة استقوائهم
لينفصلو عنها ، وقد كان الرجل موقفاً فيما رأى ، إذ وقع تصرفه من
نفس السلطان سليم موقفاً طيباً ، فخلع عليه لقب باشا ولقبه بأمير الأمراء
(بيغلر باجى) وأمدّه بالفين من الجنود ومدفعية قوية وأربعة آلاف
من المتطوعة والانكشارية ، وبهذه المعونة الطيبة استطاع الرجل أن
أن يستولى على الجزائر في مايو سنة ١٥٢٩ وتونس في أغسطس
سنة ١٥٣٤ وبذلك دخل المغرب جميعه في زمام الدولة العثمانية

خير الدين بربروسا

نظم الأتراك المغرب على نفس الأسس التي نظموا بمقتضاها غيره
من البلاد الإسلامية ، فكان يمثلهم فيه باشا يعتمد في قوته على جند
من الانكشارية مقسمين إلى وجاقات يرأس كل وجاق أغا ، وقسم
المغرب إلى أربع إيالات هي الجزائر وتيطرى وقسطنطينية ووهران

نظم المغرب في
الحكم التركي

فأذنله ، وأعطاه عروج كل ما يده من القنائم والاموال فرضى عنه السلطان ورحب به ترحيباً
طيباً . ولحق به بدليل أخوه خير الدين الذي سيشتري فيما بعد بربروسا الثاني ، وفي ذلك الحين
كان فرد يند الثاني قد أذن للمسلمين في مغادرة اسبانيا فأسرع خير الدين وأخذ يعمل بهمة مدى
ثلاثة أشهر لينقل مهاجرة المسلمين واسراهم ، مما أطار صيت خير الدين وأطلق الألسنة بحمده
وذكره ، ومن هنا أخذ يتدخل في شئون تونس هذا التدخل الذي انتهى بضمها إلى الدولة العثمانية

يحكم كل منها باى يرجع فى شئونه إلى كبير البكوات فى الجزائر نفسها ، وكان لاهل البلاد مجلس يسمى مجلس الشورى أو الديوان ، يجتمعون فيه لانتخاب البايات والتشاور فى شئون الإدارة العامة ، ويتولى الغزو والأسر من ثغور أوروبا . ويتوالى ورود مهاجرة المسلمين من اسبانيا تكونت فى البلاد قوة بحرية بحرية أخرى معظمها من الأفارقة والاندلسيين ، فقسمت هذه القوة إلى طوائف يرأس كلا منها قائد يسمى « الرئيس »

مطامع الاسبانيين
فى الغرب

المسلمون يغيرون
على سواحل أوروبا

بهذا التكوين الجديد تغير موقف المغرب حيال أوروبا ، فاستطاع أن يرد عدوانها بل أن يقوى عليها ويرد كيدها ، فأنحلت الحصون الاسبانية والبرتغالية من على السواحل وتراجعت أطماعهما فى البلاد . وأعان على ذلك اشتغال اسبانيا بحرب فرنسا فى ذلك الحين ، ومن ثم انقلب الأمر فاخذ المسلمون يغيرون على سواحل اسبانيا وفرنسا ويأسرون من أهلها ويعودون بالغنم الوفير ، وكلما زاد الأسر كلما تضخم الجيش الاسلامى والبحرية الاسلامية وقوى أمرهما ، وزاد عدد السفن السريعة واشتهر أمر المسلمين بالنظام والدقة والخلص والنظافة والشجاعة حتى استشاروا إعجاب خصومهم من الاسبان ، وارتفع شأن الجزائر وتونس ، وجرى العدل فى ربوعهما حتى أدرك المغرب شأوا من الرفعة عظيما .

ضعف الدولة المغربية

يد أن الدولة الاسلامية هى فى كل مكان لا تتغير ولا تبدل ، تعلو إلى أى شأ وتريد ، ويسموا بها أهلها إلى أى أوج تقتدر عليه همهم ولكن مصيرهم إلى ضعف وإلى اضمحلال عاجل سريع ، فهذه الدولة المغربية كانت تحمل فى أطوائها عوامل الضعف التى لازمت أخواتها من دول الاسلام فى الشرق والغرب ، واختصت من بينها بطل أخرى شديدة الحظر على كيانها ، أهمها وأقواها أن الدولة لم تكن معتمدة فى جندها أو مالها على مورد ثابت يضمن ثبات القوة واستمرارها ، وأنها

وقفت في مكانها فلم تتطور مع خصومها وجاراتها فتقدم من عليها
وسبقنها في التنظيم الاجتماعي والحربي والرقى الفكري .

بدأ اضمحلال الدولة الجزائرية في صورة عدا و تحاسدين القوى
التي وكل اليها حمايتها والقيام على شئونها ، بين وجاقات الانكشارية
وطوائف المقاتلة والبحارة الأندلسية والمغربية ، وبين الباشا المعين من
قبل السلطان وبين الديوان المكون من الأهالي لمعاونته في إدارة
البلاد ؛ فأما الباشا المعين من قبل السلطان — والذي كانت
مدة ولايته لا تزيد على سنة — فقد اشتغل بشئون نفسه وأنصرف عن
الإدارة ، واجتهد في أن يملأ نفسه بالمال من الرشى والسرقات ، فلم تلبث
هيئته أن سقطت واجترأ عليه جنوده من الانكشاريين ، وإلى هؤلاء
الباشاوات ترجع مسؤولية الاسراف في التعدي على السفن والشعور ،
فقد كان الباشاوات يدفعون أهل البلاد اليه دفعا بل يكلفون بعض
القرصان بأن يقوموا به لحسابهم ، ومن ثم لم يعن الباشا بأن يحسن تمثيل
السلطان أو يقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه ؛ فلم يكن الجند أو الأهليون
ليحسون بوجوده إلا في الاحتفال العظيم الذي يقام لاستقباله يوم يصل
من القسطنطينية ، وإلا في هذه الاجتماعات التي كان مجلس الشورى
يعقدها للنظر في شئون البلاد بين حين وحين ، وربما حاول الباشا أن
ينخضع شوكة الانكشارية بالاستعانة عليهم بقبائل من أهل البلاد
فنشأت عن ذلك حروب وويلات شتى ؛ وقد حاول أحدهم أن يستولى
على المنحة التي كان السلطان يعيها كل عام لاعانة الأسطول الجزائري
فكانت النتيجة أن قرر الديوان (وكانت السلطة فيه للانكشارية)
أن يسحب من الباشا آخر ما بقي له من مظاهر السلطان ، وهو القيام
على الأموال والاحتفاظ (بالخزنة) فتولاها الأغايعاونه الديوان ؛ ومن
ذلك الحين (سنة ١٦٥٩ م) أصبحت السلطة الفعلية في يد الأغوات .
ولم يمض الا قليل حتى تبين الناس أن التغيير الجديد قد زاد الحالة سوءا

العدا بين الانكشارية

راحيل البلاد

الأهالي للتركي

الأغوات

إذ أن الاغوات اقتتلوا فيما بينهم للوصول إلى مركز الرئاسة حتى
لقد مات بحد السيف أربعة الاغوات الذين تولوا هذا الأمر من ١٦٥٩ إلى
١٦٧٩ . وإزاء هذا الصراع بين الاغوات والوجاقات لم يجد جنود
البحرية وطوائفهم إلا أن يتخلصوا من سلطة الاغوات وإن يستأثروا
هم بالسلطة ، فقتلوا آخرهم وهو الاغا على وابتدبوا مكانه أحد
« الريساء » وتلقب « بالداى » أى « الخال » ومن ذلك الحين
أصبحت السلطة فى يد الدايات ، وفى سنة ١٦٨٩ رفض أحدهم وهو
الداى على شاويش أن يستقبل الباشا المعين من قبل السلطان وطلب أن
يمنح هو اللقب وأن يمارس السلطة رسمياً .

الداى

تونس

فى أثناء ذلك كانت تونس هى الأخرى مسرحاً لتطورات شتى من
هذا القبيل وإن اختلفت معها فى التفاصيل ، فقد كان أصحاب الأمر فى
إدارتها من أول الأمر هم الدايات المعينون فى مجلس الشورى . وكان الدايات
(أى البكوات) يمارسون سلطة اسمية نائين عن الباشا فى الجزائر ،
فانتهزوا فرصة ضعف الدايات واستولوا على السلطة ، واستطاع
أحدهم وهو الباي مراد (١٦١٢ — ١٦١٣) أن يحصل على لقب
باشا وأن يحصر السلطة فى ابنه حموده وأولاده من بعده واستمر ذلك
إلى سنة ١٧٠٢ حين استطاع أحد القواد أن يقتل آخر أبناء حموده
ويتولى مكانه ويحصل على لقب باشا ويصبح ذا سلطة فعلية فى البلاد
ويحصر السلطة فى أولاده سنة ١٧١٠ .

الباى

ازدياد خطر القرصان

بهذه الأمور اشتغل أهل المغرب وقواده ورجاله واتراكه
تاركين المهم من الشؤون ، وقد دفعهم نظام الحكم التركى إلى أن
ينصرفوا إلى مقاتلة بعضهم البعض والاجتهاد فى الكيد والتدبير بما
أخذ يمتص حيوية البلاد شيئاً فشيئاً ، وفى هذه الأحوال استشرى
خطر القرصان ، ومضوا فى أعمالهم دون أن يكون عليهم رقيب ،

إذ تحولوا مع الزمن من طلاب جهاد إلى طلاب غنم ، واتصلت
الأسباب بينهم وبين دول البحر الأبيض وقراصته فمضوا يخططون خبط
عشواء لا يميزون بين ما يضر بلادهم وما ينفعها ، فأثاروا الدول كلها على
أنفسهم وعلى بلادهم من غير حساب ولا رعاية ، فجنوا بذلك على بلادهم .
وانضمت اليهم العصابات من كل جنس وناحية ومضى الجميع يدا
واحدة يسرقون ويسلبون والتبعة أخيرا على المغرب وأهله والدولة
الاسلامية ، وأسرفوا في ذلك اسرافا نفرت منهم الرأى العام كله والدول
جميعها ، فلم تعد دول المغرب في نظر أوروبا إلا جماعات من القرصان
لا فرق بين حاكم فيهم ولا جندي ولا صاحب صناعة ولا صاحب
أهل المغرب الأصليين دين . ولم يكن الأمر على ذلك في الحقيقة اذ ان أهل المغرب الأصلاء
مضوا في سبيلهم لا يكادون يشتركون في النزاع بين الجند والحكام
ولا يد لهم في سرقة ولا قرصنة « فقلت نقاباتهم شئون الصناعات
المحلية ، وتناولوا الزراعة ... فاحتكر أهل الزاب القيام على الحمامات
العامة وتجارة اللحوم والمطاحن في المدن ، وساهموا كذلك في تجارة
القوافل والرقيق الأسود ، واختص البسكريون بالسقاية وأعمال
بسيطة أخرى وبعض أعمال الشرط » (١) وهكذا ، وضمت المدينة كذلك
كثيرين من اليهود تناولوا شئون المال وبعض أعمال أخرى ولكنهم
كانوا محقرين من الأهالي لا ينظر اليهم برعاية أو احترام ، وانصرف
أهل البلاد إلى اقامة المنشآت العمرانية كالطرق والأبنية والمساجد وغير
ذلك بما لازال باقيا إلى اليوم : فاذا ساهم أحدهم في القرصنة اشترك
فيها اشترك تجارة : فاكترى بعض السفن وأجرها للملاحين لقاء مال
أو جزء من الغنيمة . بيد أن اتساع أعمال القرصنة لم يلبث أن زاد ثروة
أهل المغرب من الغنائم والاسلاب ، فعم البلاد الرخاء وأصبحت كل
من تونس والجزائر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر من مراكز

ازدهار تونس
والجزائر

العمران والحضارة في البحر الأبيض ، فبلغ سكان الجزائر مائة ألف وكثرت فيها الأبنية والمتاجر ، وبلغ عدد سكان تونس ٨٠٠٠٠ وأصبحت حصونهما ملجأ للمهاجرين من أسبانيا وجزائر البليار ، وتقدمت البلاد تقدما ظاهرا ، وكانت تونس أكثر ازدهارا لخصب تربتها وكثرة مجارى المياه الصالحة فيها ، وجريان نهر مجرد في أرضها فلم تعول كثيرا على ما يرد عليها من اسلاب القرصان ، ولم تبلغ القرصنة فيها الأهمية الكبرى التي صارت لها في ولاية الجزائر ، ثم كانت ضرورات التجارة والعلاقات التجارية سببا في أن تهتم الحكومة بالحد من طغيان القرصان ، (١)

وازدحمت مدائن تونس والجزائر بطوائف شتى من الأسرى تجارة الرقيق في المغرب أخذ عددهم يزداد عاما فعاما ، وكان جل هؤلاء الأسرى من الأسبان والانجليز والفرنسيين والاطاليين وشعوب أوروبا الأخرى ، فاصبحت تجارة الرقيق نافقة في نواحي المغرب وأصبح الاعتماد على الرقيق عظيما في شتى الأعمال . ولكنهم لم يكونوا في الحال السيئة التي يتصورها الناس فقد كان مالكوهم يحسنون معاملتهم ، ويشفقون عليهم ، ولا يشتدون عليهم ، بل كانوا يتركونهم يمارسون شعائرهم الدينية ، وقد روى هايدو المؤرخ الاسباني أنه لم يكن على القساوسة منهم حرج في أن يرتلوا صلواتهم ترتيلا مسموعا على وقع الموسيقى (٢) فأين هذا من معاملة أهل باريس في ذلك الحين لمن كان يقع في يدهم من البروتستانت : لقد كانوا يلقونهم تحت العجلات في الطرقات ، ويجتمع الناس للتفرج عليهم . . . ، وعلى الجملة كان وضع الرقيق في المغرب كوضعهم في كل بلاد المسلمين ، إخوان لسادتهم يساهمون معهم في الحياة العامة داخل

* (١) Julien; Hist. d'Afrique du Nord P. 546

(2) » » » » » P. 546

المنزل وخارجه . ولم يكن الرجل ليطلب استرقاق ملك يمينه بل كان يحرره ويعتق رقبة ابتغاء مرضاة الله . وكانت الرقيقات يتزوجن سادتهن ويرتقين إلى مقام الأمهات المكرمات

وكان الموقف السياسي يتطور في غرب البحر الأبيض المتوسط تطورا خطيرا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فقد أخذت أسبانيا تهوى من الأوج الذي كانت فيه ، بعد ثورة مستعمراتها عليها وهزيمة أساطيلها أمام الإنجليز ، وأخذت قوة فرنسا البرية والبحرية في الظهور ، ومن ثم استراح أهل المغرب من منافسة الأسبان وعدوانهم وأخذوا يستقبلون عدوا ناشئا جديدا في شخص فرنسا ، وبدأت فرنسا تأخذ طريقه إلى النهوض ، واهتمت بحماية الأساطيل الفرنسية ؛ فكانوا يقومون بمغامرات وأعمال تجارية ، وكان الإنجليز قد تفوقوا عليهم في أمريكا والهند وأخذوا عليهم هذه السبيل ، ومن ثم لم يجد تجار فرنسا وملاحوها ميدانا خاليا غير ميدان المغرب فاتجهوا إليه ، ومن هنا تلاحظ أن الضغط الفرنسي على المغرب أخذ يزداد بنسبة ما كانت تفقد من مستعمرات وأسواق في البحار الآسيوية والأمريكية . ففي أوائل القرن السابع عشر استطاع رجل فرنسي - قرصيني الأصل اسمه سانسون نابليون أن يحصل من دولة تونس على تصريح بإقامة محرس تجاري حصين عرف باسم البستيون Bastion (٢٩ سبتمبر سنة ١٦٢٨) على الساحل الأفريقي ، وبذل للحصول على ذلك أموالا شتى بعضها رشى لأصحاب الأمر وبعضها الآخر قروضا وأموالا تدفع للدولة ، واحتكر صيد المرجان على السواحل الأفريقية نظير دفع ستة عشر ألف جنيه سنوية . ولم يكن مصر حاله بأن يقيم حصونا أو يتدخل في شئون البلاد ، ولكنه استعمل البستيون

اضمحلال قوة اسبانيا
لبحرية وبدء ظهور
قوة فرنسا

سانسون نابليون

مركزا للاستطلاع والتجسس على أهل البلاد ، ثم تناول تصدير القمح وامتدت يده إلى متاجر شتى في بلاد المغرب .

الاطالون

وكان الايطاليون قبل ذلك قد حصلوا من خير الدين على تصريح باحتلال جزيرة طبرقة وجعلوها مركزا للتاجرهم ، وكانوا يتولون صيد المرجان وكثيرا من المتاجر ، وكان معظمهم من جنوا فأثارهم ما وصل اليه الفرنسيون على يد سانسون ، فدبروا له مؤامرة انتهت بمقتله والتمثيل بجثته في مايو سنة ١٦٣٣ .

أهل جنوى في الميدان

بهذا تغير ميدان الصراع ، فلم يعد بين الفرنسيين والاسبانيين وإنما بين الفرنسيين والجنوبيين ، وأخذ الفرنسيون يبدلون وسعهم للتخلص من هذه المنافسة الجديدة ليخلو لهم غرب البحر الأبيض ، واشتد النزاع بين تجار جنوة وأصحاب شركة سانسون حتى أقلق النزاع بالحكام الجزائر فصادروا منشآت الاوروبيين جميعا في ديسمبر سنة ١٦٣٧ . ولكنهم لم يلبثوا أن منحوا امتيازات Concessions جديدة لشركة فرنسية مرسلية أخرى صرح فيها للشركة بأن تقيم منشآت لحماية أموالها وأرواح أصحابها ، ولم يكد أهل ليون يرون ما وفق إليه أهل مرسلية حتى خفوا هم الآخرون يطلبون امتيازات واستطارت منازعات طويلة بينهم وبين المرسلين على ذلك ، وانتهى الأمر بأن حصل أهل ليون على نفس الحقوق التي كانت مقرررة لشركة سانسون وأمضى اتفاق بالامتياز الجديد في أول يناير سنة ١٦٩٤ ، واستمر هذا الاتفاق أساس المعاملات بين الجزائريين والفرنسيين حتى سنة ١٧٥٤ (١) ، وقد تقرر في هذه المعاهدات كلها أن يقتصر الأجانب على التجارة فقط ولا دخل لهم في شئون البلاد السياسية .

أهل ليون في الميدان

يد أن هذه الحال لم يكن مقدرا لها أن تستمر طويلا، فهذه الهدنة المعقودة لم ترض أحدا من الجانبين : لم يرض عنها أهل المغرب لأنها حرمت عليهم مهاجمة السفن وسلب ما فيها، وكانت الدولة تفيد كثيرا من الأموال التي تجيئها من القراصين ، أو التي تربحها إذا كلفت بعضهم بالقيام ببعض غارات وسرايا لحسابها ، فكان الملاحون المغريون يفضلون حالة الحرب مع أخطارها على حال السلام لقلة رزقه وجدواه ، وأما الأوروبيون فقد كان الكثيرون منهم يطالبون بمحاربة الدول الأفريقية لاستنقاذ من بيد أهلها من الرقيق ، وأخذ الرأي العام في مختلف بلاد أوروبا يهاجم سياسة الاتفاق التجاري مع بلاد المغرب وأخذت الحكومات — تخف ضغط الكنيسة والرأي العام — تتحين الفرصة للتخلص من هذه الاتفاقات ومحاربة دول المغرب ، هذا إلى أن هذه الاتفاقات لم تكن تعقد مع دول أوروبا كلها ، بل كانت الجزائر لا تتفق إلا مع دولة واحدة وتشتد على غيرها — (في أعمال السلب والقرصنة) ، فحينما عقدت الجزائر صلحا مع ريتير Ruyter الهولندي ، كان معنى ذلك نقض الاتفاق مع فرنسا وتوجيه أعمال القرصان نحو السفن الفرنسية (سنة ١٦٦٣) وكان معنى التحالف مع لويس الرابع عشر ، إعلان الحرب على الانجليز والهولنديين سنة (١٦٧٠) ، وكان معنى الاتفاق مع الانجليز سنة (١٦٨١) إعلان الحرب على السفن الفرنسية ^(١) ، وبهذا استمرت القرصنة في طريقها تؤذي الجزائر أكثر مما تؤذي الدول ، بسبب ما تقيمه نحو بلادها من العداء الشديد .

الرأي العام في أوروبا
يؤثر المغرب

حاولت الدول أن توقف سيل القرصنة فلم تستطع ، وكلما تقدم الزمن بالدويلات المغربية كلما ضعف أمرها وأصبح الاعتماد عليها

1) Julien Op. cit 553

في القضاء على القرصنة أقل نفعا . وكانت سواحل المغرب على طولها تستعمل كلها مراكز لهؤلاء القراصين الذين تخلصوا من كل رقابة ومضوا يأتون من الأمر ما يريدون رضى حكام المغرب وأهله الاصلاح أم لم يرضوا ، فلما أعيت دول أوروبا الحيلة لجأت إلى القوة ، فضربت إنجلترا الجزائر بالمدافع ثلاث مرات (١٦٢٢ ، ١٦٥٥ ، ١٦٧٢) وكان الانجليز والهولنديون إذ ذاك في عنقوان نهضتهم الملاحية ، وكانت سفنهم تضرب في عروض البحار في الأطلسي والبحر الأبيض ، فاشتد القراصين في تصيد ما تيسر لهم منها حتى اعيى الصبر ملاحين مهرة من أمثال بليك ومرلمبره وآلن . وانتهى الأمر بهم أخيراً إلى قبول دفع جزية لداى الجزائر حتى يأمنوا على سفنهم ومتاجرهم من أذى القراصين : و فكانت دولة انكلترا تؤدى لها ستمائة ليرة انكليزية في كل سنة ، ودولة فرنسا هدايا ثمينة تؤديها عند تغير قناصلها ، ودولة الدانيمرك آلات ومهمات حرية قيمتها أربعة آلاف ريال شنكو وهدايا نفيسة ، ودولة هولندا ستمائة ليرة فرنساوية ومملكة سيانيزيا أربعة وعشرين ألف ريال شنكو ، ومملكة سردينيا ستة آلاف ليرة فرنساوية ، والولايات المتحدة بامريكا آلات ومهمات حرية قيمتها أربعة آلاف ريال شنكو ، وعشرة آلاف ريال نقدية تحضرها قناصلها معها والبرتغال هدايا بهية ، وأسوج ونروج آلات حرية وذخائر بحرية تساوى قيمة وافرة ، وهنوفر وبرام من المانيا ستمائة ليرة انكليزية وأسبانيا هدايا نفيسة ، وربما حاول بعضهم في بعض الأحيان مقاومتها وتحرك للانتقام منها فلا يصادف نجاحا فيضطر الى مسالمتها (١)

وكانت فرنسا أحفل دول أوروبا بالأذى ، فكان خليقا بها أن تكون أكثرها اهتماما بهذا الأمر ، ومن ثم اتصل العداء بين الفرنسيين والجزائريين طوال القرن السابع عشر ، وتكررت حوادث الاعتداء

الانجليز يضربون
الجزائر بالمدافع

لانجليز يدفعون
جزية لداى الجزائر

بقية الدول الأوروبية
تدفع جزى

العلاقة بين فرنسا
والجزائر من
عصر النهضة

(١) تحفة الجزائر في مآثر الامير عبد القادر : ص ١٠٨

من الفريقين، وتوالت مذابح الجزائريين في مرسلها ومذابح الفرنسيين في الجزائر . ونهب البستانيون مرارا عديدة ، وأهين قناصل فرنسا كثيرا ، وضربت المدافع الفرنسية الجزائر مرات عديدة بغير جدوى ، بل حاول الفرنسيون غزو الجزائر سنة ١٦٦٤ فلم يوفقوا في ذلك وعادوا بعد خسائر فادحة ومقتلة عظيمة . وحاولوا مرة أخرى احتلال جيجل فلم يكونوا أسعد حظا . ثم حاول الفرنسيون التدخل في شئون المغرب عن سبيل الدين فاتجهت همه الجمعيات التبشيرية الفرنسية والإسبانية إلى إقامة مراكنز وكنائس على الأرض المغربية ، وحاولوا بذلك أن يثيروا أوروبا المسيحية على المغاربة المسلمين إذا أصاب الكنائس ضرر ، وقد وفق القساوسة بعض التوفيق فيما ندبوا من أجله ، واتخذ الاعتماد عليهم يزداد بفضل عناية الوزير الفرنسي كليبر ، فأصبح رجال الدين هم المنادون بتخليص أسرى الأوروبيين في الجزائر ، ثم عهد اليهم أخيرا في القيام بوظائف القناصل ، حتى اجتمعت مصلحة المسيحية إلى مصلحة فرنسا ، وحتى أصبح يمثل فرنسا هو يمثل المسيحية في أرض المسلمين ، واستمر العداء بين الفرنسيين المغاربة متصلا طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

بعوث تبشيرية الى
المغرب

كليبر يعتمد على
القساوسة في المغرب

وكانت الجزائر طوال هذين القرنين على حال طيبة من الرخاء والقوة ، واتسعت رقعتها وشملت نواحي كثيرة ، وغزت تونس نفسها سنة ١٦٨١ ، وأعانها على القوة والرفاهية انقطاع الصلة السياسية بينها وبين الدولة العلية تقريبا ، فكان داي الجزائر أشبه بالأمير المستقل يأتي من الأمر ما يريد دون أن يكون عليه في ذلك حرج ، فلو قد تفتن أولئك الدايات في هذه الفرصة الطيبة فأجادوا تنظيم بلدهم وأعدوها لمقاومة كل عدوان يراد بها ، لاغنى ذلك عنها كثيرا ، ولافلتت البلاد من المصير السيئ الذي استلقاه في أوائل القرن التاسع عشر ، ولقد كانت

ازدهار الجزائر

نواجه العداوة تتبدى لها ، وكانت أيادي الغزو تنوشها ، ومع هذا لم يتفطن أحد من هؤلاء الحكام إلى أن يحسب للمستقبل حساباً ، ويأخذ نفسه وبلاده بالتقية من شر يكون ، وقد منحهم الله أرضاً يسهل الدفاع عنها ، وقدرة على ركوب البحر لها خطرهما في الصراع المقبل ، ومع هذا لم يغن عنهم ذلك شيئاً . وقد كانوا على صلة بأوروبا يستطيعون أن يروا بعيونهم ما يفعل حكامها ليحفظوا بلادهم وعروشهم ، وقد كان الإصلاح عليهم سهلاً ميسوراً . . . ولكنهم أبوا إلا الرجوع إلى الوراثة في لحظة اشتد فيها سباق الناس إلى الامام .

ففي أوائل القرن الثامن عشر أخذت بوادر الانهيار تلمع في أفق المغرب ، وبدأت غواشي المحن تزورها وتثقل عليها ، أخذ إيراد الدولة من القرصنة يقل بتقدم الملاحة الأوروبية واحتياط السفن المارة بسواحل أفريقية ، فلم يزد دخل الدولة من هذا الباب على مائة ألف من الفرنكات ، وفي الوقت الذي كان ينبغي عليها فيه أن تزيد قوتها البحرية نجدها تهاون في شأنها فينزل عدد السفن إلى النصف ، وقد كانت البحريات الأوروبية قد بلغت من التقدم والرقى في ذلك الحين مبلغاً طيباً ومع هذا لم يجد دايات الجزائر ما يدعوهم إلى تحسين سفنهم وتقوية جبهتهم ، وأقبلت الاوبئة في أواخر القرن الثامن عشر واجتاحت الأهليين حتى إن كان لموت في الجزائر ألف كل يومين ، وكان في الجزائر أطباء فرنسيون يعرفون أساليب طبية لمقاومة هذه الأدواء ومع هذا لم ير الحكام داعياً لحماية أرواح الرعية ، فتركوا الداء يستشري والعلّة تستعز حتى هبطت الأمراض بالناس والبلاد إلى درك سحق ، وانقطع مدد المتطوعين إلى جيوشهم لأن المحصورين في إسبانيا من المسلمين قد انتهوا ، ومع هذا لم يفكر الدايات في أسلوب يعرضون به ما تهاوى من جيوشهم ، حتى أصبح الجيش المغربي كله

بدء اضمحلال المغرب

مستولي حكام المغرب
في ذلك الاضمحلال

سته آلاف جندى فقط ١ - بل كان أولى بأولى الأمر أن ينظروا ،

انتشار المتاجر الفرنسية
في المغرب

فهذه متاجر الفرنسيين في البلاد يشتد ساعدها وتزايد ارباحها ، وهذه حكومة فرنسا تأخذ الشركات الفرنسية العاملة في المغرب في حمايتها وييسط الملك عليها رعايته ، وهؤلاء هم الفرنسيون يحتكرون تجارة القمح وتصديره ويحتفلون بتوفيقيهم في تجارة المغرب ، فيضربون مداليات من الذهب احتفالاً بالنصر والكسب ، ويوزعونها في ساعة ثقل الفقر بكلكله على المغريين جميعاً . كان أولى بهم أن يعتبروا بهذا كله ، ويكون لهم منه عظة ونذير ، ولكنهم أرسلوا أنفسهم مع التهاون ، وألقوا حبلهم على غارب الأيام ، فدهمهم الأمر وهم ايقاظ كنيام

وانقضى عصر الدايين الأقوياء . وأخذ يتولى الأمر منهم رجال

اضمحلال الدايات
وفساد الموطعين

ضعاف ، واقترن ذلك بصعود نجم الجندية واجتماع القوة كلها في يد الأجناد وقوادهم ، وأدرك الأمة كلها فتور ، فلم يعد للديوان حول ولا طول ، وترك الناس إدارة البلاد لم يشاء يصرفها كيف شاء ، ومال الوزراء إلى الراحة ، وحذا حذوهم الموظفون فلم يكن « أغا المحلة » بأن يناقش الداي في شؤون البلد الحربية ، وانصرف « وكيل الخراج » عن العناية بشأن الأسطول ، ولم يهتم « الخازن دار » بشؤون المال ، ترك هؤلاء العمال الشؤون كلها في يد الداي يصرفها كما يهوى ، وثقلت عليه الأمانة فسلمها للجند واستراح . . وهذا في آخر القرن الثامن عشر . . أى في عصر النهوض والقوة . . عصر الأخطار والأهوال ١ . . بل لقد أتعبه البقاء في المدينة وأحب أن يبلغ نفسه من الراحة مبلغا طيباً ، وخاف عليها فتك الجنود ، فأثر العافية ، وانتقل من قصره المعروف بالجنيّة ، وأوى إلى قلعة الجزائر المعروفة بالقصبة ، وهناك جمع متاعه وماله وعتاده وحرمه ، وترك الأمر لمزيدة الأمر . فلم يخطئ . المؤرخ الأسباني جوان

كانوا حين وصفه بقوله « رجل غني ليس له على أمواله سلطان : أب
بلا ولد ، وزوج بلا زوجة ، ومستبد بلا حرية ، ملك عبيد وعبد
رعاياء » فليس هناك أصدق من هذا الوصف اللاذع للحاكم الذي
سيظل على سكونه هذا حتى إذا تحرك فتح على بلاده تنور الطوفان .
وليس على قبائل المغرب حرج في هذه الحال إذا هي ثارت على
الحكومة وخاصمتها وخلعت سلطانها ، وليس على قبائل وادي سبو
من حرج إذا أعلنت استقلالها وخلعت طاعة الأتراك في النصف الثاني
من القرن الثامن عشر ، وليس على غيرهم من القبائل من بأس إذا
تواثبوا بالدولة في كل مكان ورفعوا راية العصيان ، وليس على الأسبان
من حرج أيضا إذا هم حاولوا فتح المغرب من جديد ، فهاجموا مدينتي الساحل
مرارا عديدة وخربوا وهران ، وليس على الفرنسيين من حرج كذلك
إذا فكروا في غزو المغرب من جديد ، فإذا تعذر عليهم ذلك لكثرة
الشواغل ومسائل الثورة فلا بأس من انتهاب أموال المغرب ، واستيراد
القمح منه وتأجيل الدفع حتى تتراكم ديون الجزائر عند فرنسا ، لاضير
على الحكومة الفرنسية أن تفعل هذا فهي تعرف أنها لن ترد شيئا من
ديونها وأن الجزائر أعجز من أن تسترد مالها . . . وإن الداي أقل عناية
بشئون بلاده من أن يتعب الفرنسيين بالمطالبة والالاحاح . لاضير
عليها أن تفعل ذلك ، بل لا ضرورة تلح عليها في غزو المغرب مادامت
تفوز منه بملايين الجنيهات قححا . بل لعل مصلحتها تستدعي أن
ترفض التعاون مع الدول في القضاء على القرصان . . مادام بقاء الجزائر
والقرصان يفيدها ويؤذي عدوتها إنجلترا .

قبائل المغرب تنور
بالحكومة القائمة

الاسبان يهاجمون
المغرب من جديد

الفرنسيون يفكرون
في غزو المغرب

مؤتمر اكس لا شابل
للنظر في شئون
القرصنة

ربما كان ذلك كله معقولا يتفق مع طبائع الأشياء ، ولكن الغريب
الذي يستوقف النظر أن الأيام ما كانت تزيد الجزائريين ألا عتوا في
القرصنة وشدة في ترصد السفن واتهايها ، فهذه أوروبا تتأذى من
أعمالهم وتعقد مؤتمر في اكس لا شابل للتفاهم فيما يتخذ حيال الجزائر ،
ثم تؤثر الحسنى وتندب أميرالين - انجليزي وفرنسي - لمفاوضة الداي في كف

يدرعيته عن الأذى ؛ فيلقاهم الداي صلفا راكبا رأسه، ويحدثهم حديث
الامر الناهي متهددا متوعدا ، وهؤلاء هم الانجليز يبلغ بهم اليأس مداه
فيرسلون أسطولا بقيادة اكسموث الانجليزى وكابتن الهولندي
لتأديب العصاة فيصيب الجزائر بشىء من العطب ثم ينصرف في أغسطس
سنة ١٨١٦ . (١)

وفيم الخوف ومم الحذر ، وماذا تكون أوروبا هذه أمام بضعة
آلاف من الجند الجزائري .. وماذا تكون أساليبها وحضارتها إلا
هباء في هباء .. ليحضر الداي في طريقه مستبدا غشوما .. يسخر من
قناصل الدول في اللحظة التي يصانعهم فيها محمد علي ويرجو حسن ظنهم -
وهو أقوى من الداي أضعافا مضاعفة - وليشتد باي تونس في طلب
ألمال من القناصل والدول غير عارف أن ذلك يجعل دولته في وضع
دولي غير لائق بها ولا بمقامها بين الدول ، وليعجب الداي من محمد
علي كيف يسأله أن يصانع الفرنسيين ويخشى شرهم ، وليسخر منه
لهذا سخرية بالغة .. ويرفض وساطته ويرد عليه ردا خشنا (٢) .

حكاه المغرب يزدادون
شدة في معاملة أوروبا

(١) ويبدو أن جند المغرب كانوا على حال من الفرور والجهل بقوة أوروبا تشبه ما كان
عليه أصحابهم الماليك في مصر قبل الحملة الفرنسية ، فقد حاول عمر باشا الوالي التركي أن يصلح
اكسموث وينتهي معه الى رأى ، قاتل الجند به ، وقبضوا عليه الشروط الانجليزية ، قبضوا عليه
وقتلوه خنقا وولوا مكانه على خوجه ، وقد التمسنا العذر لماليك مصر في جهلهم قوة الفرنسيين
لانتقطاع أسباب الصلة بين الجانبين . . . ولكننا لانستطيع أن نلتمس عذرا لجند الجزائر ، فقد
كان الباب مفتوحا بينهم وبين أوروبا ، وكان القتال بين الجانبين متصلا في البر والبحر فكيف جهل
المغاربة قوة الأوروبيين واساليبهم ؟

راجع : تحفة الزائر في أخبار الجزائر - ص ١ ص ٨٠

(٢) « واتصل الخبر بملك فرنسا فتفاوض أهل دولته فوسطوا محمد علي باشا خديوى مصر
أن ينصحه ، فأرسل له كتابا ينصحه ويحذره ويطلبه به بأن العاقبة وخيمة ، فلما قرأه حسين باشا قال
لرسول « بلغه سلامى وقل له يا كل القول » وربما كانت نصيحة محمد علي هذه سابقة لمفاوضته
مع فرنسا على فتح الجزائر لحسابها ، ولا يستبعد أن يكون الداي حين قد علم بهذه المفاوضات
فتمدد ان يسخر من محمد علي هذه السخرية

تحفة الزائر في أخبار الجزائر - ص ١ ص ٨٣

(1) Dodwell : Op. Cit, P 97. 98

فمحمد علي هذا رجل مسكين لا يفهم الأمور ولا يقدرها قدرها !
ليذهب الغرور بالدأى مذهباً بعيداً وليلامس الصلف ، وليغمض عينيه
وليظمن فلا خوف عليه ولا هو يحزن !

بذلك كانت سياسة الدأى حسين باشا سبباً في انعدام الرجاء في الصلح بين الدأى حسين باشا وسياسة
فرنسا والجزائر ، وبين الدول الأوروبية كلها بصفة عامة والجزائر ، فقد كانت
الدول كلها مستطبعة احتمال هذا الموقف من الدأى ، ولكن فرنسا لم تكن
لستطيع لأنها كانت أكثرها شجى به لقرب ثغورها من ثغوره وكثرة تعدى
سفنه على سفنها ، ولم يكن يخفى على أحد من يتأملون حوادث هذه الأيام أن
الفرنسيين كانوا يفكرون جدياً في التخلص من دأى الجزائر والقضاء على سلطانه ،
ولو قد كانت فرنسا في ظروف غير التي وجدت فيها بين سنتي ١٨٢٥ ، ١٨٣٣
لتقدمت حملتها على الجزائر بضع سنوات ، ولكن حكومة شارل العاشر
كانت في شغل بمصائبها فانظرت الجزائر على مضض ، بل رغبت إلى محمد
علي أن يقوم هو بهذا الأمر ، فيقوم حملة يخضع بها طرابلس وتونس
والجزائر ويقر الأمور في سواحل المغرب ، على أن تقدم له الحكومة
الفرنسية معونة من مال وسفن ، وتلك هي « المسألة الجزائرية »
المعروفة في تاريخ محمد علي ، ولكن الرجل أظهر في الأمر حكمة موفورة
ورأياً حزمياً ، فقد رأى من بادى الأمر عبث المشروع وقلة جدواه
عليه وكثرة نفقاته « ولكنه لم يحب — في نفس الوقت — أن يدع
الفرصة تغترب من بين يديه ، لأنه لو قدر لهذه المفاوضات الفرنسية
أن تنتهي إلى شيء لافاد منها قائدتين : فهي فرصة يعيد فيها بناء أسطوله
وسبيل للمحاربة مع الفرنسيين أو مع الانجليز إذا أقلقهم الأمر
وأخافهم (١) » ومن ثم اشتط في طلب الثمن الذي يدفع له للقيام بهذه
المهمة ، فطلب مبلغاً جسيماً من المال وأربع سفن كبرى من ذوات

فرنسا تفاوض محمداً
علياً لفتح الجزائر

الثمانين مدفعا ، وعبثا حاول الميسوميمو — المندوب الفرنسي فوق العادة الذي ندبه بولنيك لمفاوضة محمد علي — أن يقنع محمدا عليا بالتعجيل في العمل ، لأن الرجل كان يخشى الانجليز ويخشى الدولة العلية ، وقد حذر الساسة الفرنسيين من ذلك ونصحهم بالكتمان ، ولكن هؤلاء لم يرزقوا حصافته ولا دقة فهمه ، ففضى دروقي قنصل فرنسا يحدث باركر قنصل انجلترا في الأمر ! وتعجل جلنيير Guilleminot سفير فرنسا في تركيا فحدث الرئيس افندي في المشروع راجيا الحصول على موافقته ، فعجل الانجليز بمقاومته ، وعارض الباب العالي مؤكدا أنه يستطيع إرسال مندوب خاص — طاهر باشا — لمفاوضة الداي بغير حاجة إلى حرب أوفتح ، وانهى المشروع كله إلى فشل تام لمعارضة الانجليز والأتراك ، واعتراض الوزراء الفرنسيين على تسليم سفن فرنسية لمحمد علي ، واضطراب الحكومة في يد بولنيك وملكه شارل العاشر.

بولنيك يفكر في فتح
الجزائر جديا

يد ان ظروفا جديدة ما لبثت ان أيقظت في اذهان الوزارة الفرنسية فكرة فتح الجزائر ، فقد زاد احساس شارل العاشر ووزيره بولنيك بانصراف الفرنسيين عنهما وسأمهم حكمهما وتحديثهم بالثورة على الملكية الضعيفة ، وكان شارل العاشر يحتمل ذلك مادام مشروع تقسيم أوربا مذخورا رهن التنفيذ ووزيره ، لأن تنفيذ هذا المشروع كان جديرا بان يرضى قلوب الفرنسيين ويحبب الملك اليهم ، فلما فشل هذا المشروع وتحطمت آمال شارل فيه ، رأى وزيره ضرورة عمل شيء يرفع من قدر حكومته في نظر الفرنسيين من جهة وليشغلهم به عن تقديم اياه من جهة أخرى ، وانتهى به الأمر الى التفكير في فتح خارجي ، فالشعب الفرنسي مقتون بالحروب والغزوات تملكه اخبارها ويأسر قلبه مجدها وفخارها ، ومن ثم تخير الجزائر ميدانا لهذا الفتح ، فقيه كذلك انتقام

لما أصاب الفرنسيين من أذى على يد اهل الجزائر ، وفيه كذلك شفاء
لغريزة دينية مطوية في قلوب الغالين ، واعانه على ذلك ان وزير
حريته مارمون كان يتحرق شوقا لقيادة هذا الفتح ، ومن ثم اخذ شارل
ووزيره بولنيك بتحيينان الفرصة المناسبة للقيام به

الفتح الفرنسي للجزائر
في رأي جوليان

ولكن سوء الطالع أبى إلا أن يلزم شارل العاشر في كل مانوى
فكان سيء الاختيار للناسبة التي بدأ فيها بفتح المغرب ، وكان سيء
الاختيار للقادة الذين ندبهم للقيام به ، وكان سيء التقدير حين
رجا ان يقيم امر ملكيته بهذا الفتح ، فلم يخطئ جوليان حين وصف
الفتح الفرنسي للمغرب بقوله انه كان عملا مضطربا دبره تجار جزائريون
يهود بالاشتراك مع سياسيين مفسدين في باريس وكان - اى الفتح -
حادثا أثاره سياسى متهم في ضديره ، وكان حملة قادها قائد سيء السمعة
قيادة خاطئة ، ونصرا تلقاه رأى العام بعدم اكتراث ، واعقبه
سقوط الاسرة التي طلبت فخره ، تلك كانت المقدمات الفريدة التي
مهدت لفتح المغرب على يد فرنسا (١)

مقدمات الفتح
ديون البكرى

ترجع المقدمات القرية للفتح الفرنسي الى القضية المعروفة « بديون
البكرى وأبى زناك » اليهوديين ، وهى قضية لا يقال عنها الا انها كانت
مؤامرة سيئة دبرها هذان اليهوديان بالاشتراك مع نفر من كبار الساسة
الفرنسيين لسرقة داي الجزائر وحكومة فرنسا على السواء ، دراسة تفاصيلها
تدل على ان السياسيين الفرنسيين كانوا يريدون ان ينصبوا حاكما
شرقيا بضعة ملايين من الفرنكات فاذا طالب بها كان مسيئا خارجا عن
حدوده في معاملة دولة محترمة مثل فرنسا ؛ بل يبدو كذلك ان الاستخفاف
بلغ بالوزراء الفرنسيين مداه ، فلم يكفهم المعاطلة والاحتياي ، بل
قصدها الى احراج الداي بتعيين رجل متهم في خلقه وأمانته للسفارة

ديغال قنصل فرنسا في الجزائر فيل للفتح لديه ، وعبثا حاول الداي أن يحتج على بقاء هذا الرجل ، وعبثا حذر الحكومة الفرنسية من جرائم بقاته عنده على ما بينهما من سوء الظن والتخوف والازدراء ، فلم تستمع إليه حكومة فرنسا ، وانتهى الأمر بينهما إلى مشادة عنيفة ملك الداي الغضب فيها فلطم القنصل الفرنسي ديغال بمروحة كانت بيده ، فكانت تلك اللطمة هي الشرارة التي اشعلت الحرب بين الجانبين .

أما ديون الداي لدى حكومة فرنسا فقديمه ترجع إلى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، إذ احتاجت الحكومة الفرنسية إلى القمح اللازم لحملى إيطاليا ومصر ، فتعهدت تقديمه إليها تاجران يهوديان من تجار الجزائر ، يرجعان إلى أصل إيطالي - إذ نشأ في ليفورنيا - هما يعقوب كوهين بكري وميخائيل ابوزناك ، وكان الداي حسين (منذ سنة ١٨١٨) قد فوض لهم أمر تجارته الخارجية ، فضا يوردان القمح سنوات طويلة ولا يعطيانه شيئا ، وكان لهما شبه اتفاق مع تاليران - وزير الخارجية الفرنسية إذ ذاك - على أن يقتسموا ما يأخذونه من الحكومة الفرنسية ثمنا لهذا القمح من غير أن يكون للداي - وهو صاحب الحق الأول فيه - نصيب ، ومضت السنوات واليهوديان يضيفان على المبلغ أرباحا وهمية ويتراخيان في مطالبة الحكومة الفرنسية حتى تزداد المسألة تعقدا ، وتعهد تاليران بالدفاع عنهما ، فكان لا يفتأ يوصي وزير المالية « بأز لا يعتبر هذه المسألة مسألة شخصية ، وإنما مسألة حكومية » (١) ، ولما تكررت مطالبة الداي نصح تاليران له بأن يطالب نابليون في مصر بهذا المبلغ ، وبهذا غرر الثلاثة به في اللحظة التي تناولوا فيها أربعة ملايين من الفرنكات من الحكومة الفرنسية لتسليمها لصاحب الحق . وبعد

ديغال قنصل فرنسا في الجزائر فيل للفتح

ديون الداي لدى حكومة فرنسا

الداي حسين يفوض بكري وأبوزناك شئون تجارته الخارجية

تاليران يشترك مع اليهوديين في سرقة الداي

سنوات قليلة تقدم اليهوديان إلى حكومة فرنسا يطالبانها بأربعة وعشرين مليوناً من الفرنكات هي مبلغ ما وصل إليه الدين وأرباحه المركبة ، فلم يسع الحكومة الفرنسية إلا أن تحقق هذه المبالغ وانتهى الأمر بتقديرها إياه بمبلغ سبعة ملايين فقط .

سوء العلاقة بين
ديفال والداي

وفي هذه السنوات أقامت الحكومة الفرنسية ديفال قنصلاً لها لدى حكومة الداى وهو رجل متهم في ذمته ، وكان الداى يكرهه ولا يطبق معاملته ، فلم يلبث حسين أن أيقن أن ماله ضائع بين تسويق الحكومة الفرنسية وبمالة تاليران وتأثير البكرى وحظوة مندوبه في باريس نيقولا بليفيل Nicolas Pleville وتحدى ديفال ، وتحققت مخاوفه حين اعترفت الحكومة الفرنسية بحقوق البكرى ولم تشر إلى حقوقه هو بكلمة واحدة — وهو أولى الناس بالمال — وأحست « غرفة التجارة في مرسيليا » بأن شيئاً من الاتفاق قد تم بين بكرى وديفال على العبث بمصالح فرنسا والجزائر معاً ، فاعلنت رفضها التعامل مع القنصل ، ومضى الداى يشكو سوء معاملة ديفال فكتب إلى حكومة فرنسا سنة ١٨٢٦ يبلغها بأنه لم يعد يحتمل بقاء هذا « الدساس » لديه ورجا الحكومة الفرنسية أن تستبدل به رجلاً « شهماً » ، بل رأى الرجل المكيدة تكاد بين يديه فابلق الحكومة الفرنسية أن بكرى وعد بليفيل وديفال بأن يمنحهما مليونين من الفرنكات إذا حصلوا له على الملايين السبعة المتجمدة لدى الحكومة الفرنسية .

غرفة التجارة في مرسيليا
ترفض التعامل مع ديفال
لداى حسين
يشكو ديفال

لا حرج على حسين إذن إذا خرج به الغضب على ديفال عن طوره ، وقد وجد الحكومة الفرنسية تصر على سرقة وانهاب أمواله وإيذائه ، وزاد في غضبه أنه « كان لتجار فرنسا من أهل مرسيليا على تجار الجزائر مليونان وخمسمائة ألف فرنك فرفعوا أمرهم إلى دولتهم وطلبوا منها أن تنفذ لهم أموالهم من أصل السبعة الملايين المحكوم بها لحكومة الجزائر ، فادت دولة فرنسا للحكومة الجزائرية أربعة ملايين ونصف

الحكومة الفرنسية تاني
دفع ديون تجار الجزائر

مليون وابتقت ما ادعى به تجارها في صندوق الامانة وامرت ان تجرى دعوى تجارها مع غرمائهم من اهل الجزائر في مجلس التجارة في باريس ، فغضب الباشا لذلك وطلب اداء الاموال المحكوم له بها كلها وان تكون مرافعة التجار والغرماء في مجلس الجزائر ، (١) وكان على حق فيما فعل ، اذ لا ينبغي ان يكون الفرنسيون حكاما على انفسهم ، بل ان كرامة الجزائر كانت تستدعي عرض الامر في محاكم الجزائر نفسها .

حادث المروحة
٢٩ ابريل سنة ١٨٣٧

في مثل هذا الظرف معقول جدا ان تشتد المناقشة بين الداي وبين القنصل ، وليس بالامر ذى البال اذا تناول الداي مروحته وضرب بها وجهه ديفال ، ليس ذلك بالامر الخطير الذى تستحق من اجله الجزائر ان يزال استقلالها ، خصوصا وقد استيقن الناس ان ديفال استفز الداي بوقاحة غير لائقة ، وقد لبث الداي اياما يؤكد ان المسألة شخصية لا دخل لها بحكومة فرنسا ، ولكن هذه الاخيرة اعتبرت حادث ٢٩ ابريل سنة ١٨٣٧ كافيا لتبرير غزو الجزائر واحتلالها .

فرنسا تحاصر الجزائر

بدأت حكومة مارتيناك فقررت محاصرة الجزائر ، فحاصرتها حصاراً طويلاً كلفها مالا كثيراً ولم يعد بفائدة ، فرفع الحصار وعادت فرنسا تطلب ترضيه ، فأبى الداي حاسباً أن رفع الحصار معناه عجز فرنسا عن فتح بلاده . بل زادت جرأته فلم يتردد حين أرسل إليه مندوب فرنسي جديد هو لا برتنيير La Bretonniere ليعرض عليه الترضيات التى تطلبها حكومة فرنسا ، فى أن يطلق مدافعه على السفينة بروفانس التى كانت تحمل المندوب ساعة مبارحتها ميناء الجزائر .

دمون وزير الحرية
الفرنسية يسعى لانقاذ
المشروع

هنالك استقر رأى بولنيك على أن يقوم بالامر ، وكان إلى جانبه بورمون وزير الحرية Bourmont يرجو أن تكون إليه قيادة هذا الفتح ، ولم تكن فرنسا تخشى كثيراً من اعتراض الدول على فتح كهذا ،

حتى انجلترا بداعليها أنها تفضل قيام الفرنسيين في شاطئ إفريقيا على بقاء داي الجزائر ورجاله فيها . أما المقاومة الفعلية فقد لقيتها الحكومة من الفرنسيين أنفسهم ، فقد كانوا تلقوا وزارة بولنيك بالتشكك والريبة وقلة الاكتراث ، وأسخطهم منه اعتماده على رجال لا يكاد الفرنسيون يحملون لهم حيا مثل بورمون هذا ، فقد كانت العامة تحمله مسئولية هزيمة وائرلو وتهمه بتخون نابليون والجيوش الفرنسية فيها . ويدو أن حامية الجزائر كانت على حال شديدة من الضعف والعجز لأن الفرنسيين استطاعوا أن يقضوا عليها في زمن قصير جدا ، على رغم سوء قيادتهم وتغير نفوس الجند على قائدهم وانتشار التمرد بين صفوفهم ، ويكفي للدلالة على ضعف القوة الفرنسية أنها عجزت عن الاستيلاء على « البليدة » بعد ذلك لأنها لقيت فيها بعض المقاومة . غادرت الحملة الفرنسية ثغر طولون في ٢٥ مايو سنة ١٨٣٠ وتم استيلاؤها على الجزائر وسلم الداي حسين نفسه لها في ٥ يوايه ، أي أن ولاية الجزائر سقطت في أقل من أربعين يوما مما يدل على أنها كانت ضعيفة جدا ، وأن جند الأتراك في البلد لم يكونوا خيرا من زملائهم في البلاد الإسلامية الأخرى .

ضعف الحامية
الفرنسية

الاستيلاء على الجزائر
٢٥ مايو سنة ١٨٣٠

وليس هنا موضع التفصيل في أحداث الفتح الفرنسي ، (١) وليس هنا كذلك موضع القول في ثورة عبد القادر التي بدأت بعد ذلك

(١) في الخامس والعشرين من مايو سنة ١٨٣٠ بارح الجنرال بورمون Bourmont ثغر طولون على رأس جيش عده سبعة وثلاثون ألف جندي ، وفي العاشر من يونيو ألفت الحملة مراسيها عند خليج سيدى فرج ، وأخذت تتقدم نحو الجزائر على عجل ، وتهاون الداي في السير اليهم فلم يلقيهم إلا بعد ثمانية أيام في سهل استوالى ، وتقهقر أمامهم مسرعا ، ثم تقدم الفرنسيون ببطء وتردد . وبعد اختلاف بين القادة - حتى أشرفوا على حصون المدينة وظلوا يطلقون عليها المدافع حتى سلبت حاميها التركية في ٤ يوليو سنة ١٨٣٠ ، وفي الخامس من سلم الداي نفسه على شروط . منها سلامة وصيانة أمواله ورعاية الحرية الدينية لأهل البلاد ، وفي نفس اليوم دخلت القوات الفرنسية الجزائر . وقد وجد الفرنسيون أموالا طائلة في خزائن الداي قدورها بعض المؤرخين

بسنوات ثلاث، واستمرت أربعة عشر عاما متوالية، فلهذه الثورة مكانها فيما يقبل من أجزاء هذا الكتاب . وإنما تهمننا فقط دراسة أسباب سقوط هذه البلاد وتأثير سقوطها في المجموعة الإسلامية كلها .

أسباب سقوط المغرب
١ - عدم وجود حكومة صحيحة به

واضح جدا أن أقوى أسباب سقوط المغرب هو أنه لم تكن به حكومة بالمعنى الذى يفهم من هذا اللفظ ، كان به حاكم يستعين في تصريف الأمور بطائفة من الأعوان والوزراء ويشرف على نفر من الجند في البر والبحر ، ولكنه لم يكن ذا سلطة فعلية معترف بها ، فقد رأينا أنه على الرغم من معاهداته مع الدول لم تسلم السفن المتعاهدة من الاعتداء والاذى ، اذ كانت السلطة موزعة توزيعاً غريباً بين رؤساء الجند، فلم يكن يستطيع أن يقضى أمراً أو يعقد رأياً، بل كان في معظم أحيانه موزعاً بين آراء هؤلاء الأجناد ، ويمثل هذا اللون من الحكومة لم يكن في مقدور المغرب أن يثبت تحت الضغط الأوروبي ، فقد قلل ذلك من احترام الدول له ، وهون عليها أمره وجعل استيلاءها عليه ضرورة تقتضيها مصلحة البلاد نفسها ، وجعل الدول ترضى عن

بثمانية وأربعين مليوناً من الفرنكات ، فنهب القادة والجند منها شيئاً كثيراً ، وانحصرت الشهرة في القائد العام وهيئة أركان حربه وعمل سير Seillière — الذى كان يولى تموين الحملة — وتفر آخر من أصحاب الكلمة في الجيش والجند . ومن غريب الأمر أن رأى العام الفرنسى تلقى أخبار النصر بمزيج من الازدراء والسخرية وقلة الاكتراف ، حتى أن القادة الذين نسب اليهم ثغر الفتح سقطوا في ميدان الانتخاب في نفس الوقت الذى أعلنت فيه مدافع الانتفايد دخول الجزائر في طاعة فرنسا ، ومرر ذلك إلى كراهية الناس للملكية شارل العاشر ووزيره بولنيك وكل ما يتصل بهما .

عجل بورمون بعد ذلك فاحتل وهران وبونة ، ولكنه عجز عن الاستيلاء على البليدة . وبعد ذلك بقليل تسامع قواد الحملة بثورة يوليو سنة ١٨٣٠ التى أسقطت حكومة شارل العاشر ، فوقت الحملة إلى حين وفكر بعض ضباطها في الزحف بمن معهم من الجند على فرنسا نفسها ، ولكنهم عدلوا . ولم تلبث الحكومة الجديدة أن عزلت بورمون وولت مكانه كلوزل Clauzel في ٢ - سبتمبر سنة ١٨٣٠ ، وقد لقي بورمون اهانة كبرى حين عزل عن القيادة اذ أبى قائد الاسطول

عمل فرنسا وتقف ساكنة حياله ، وكان في استطاعتها أن تفعل شيئاً لحماية المغرب لو أرادت .

وكانت بلاد المغرب على الاطلاق فقيرة فقراً إلا يعين على قيام دولة قوية حديثة ، تستطيع أن تنهض باعباء التنظيم والدفاع . ومرد ذلك إلى قلة موارد الرزق في البلاد ثم إلى سوء التصرف فيما كان يرد من المال ، فايراد المغرب كله في تلك الأعوام لا يكاد يكفي لإنشاء جيش قوى صحيح ، ولم يكن ليُمكنَ الحاكمين من مباشرة نواحي الإصلاح لو طلبوا ذلك ، ولا يعلى الهبوط الذي أصاب موارد البلاد إلا بأن أهلها أنصرفوا عن استثمار موارد الخير الحقيقية في بلادهم واهتموا بكسب الرزق من وجوه أخرى كالقرصنة ، فنضبت موارد البلاد مع الإهمال يوماً بعد يوم ، وأخطأت حكومة الجزائر نفس الخطأ الاقتصادي الذي وقعت فيه كل دولة إسلامية غيرها ، وهو إهمال عيون الثروة في البلاد والاعتماد في ملأ الخزانة على ما يرد من الأسلاب والغنائم وأرباح الحروب ، فاجتمع إهمال الحكومة إلى إهمال الشعب ، وتدهورت مرافق البلاد تدهوراً سريعاً خطيراً جعلها في حال أقرب إلى الإفلاس والاملاق ، وعلى الرغم من أن استثمار هذه الموارد لم يكن

Duperé أن يسمح له بالسفر على إحدى سفنه ، فاضطر المسكين في استئجار سفينة نمساوية نقلته إلى إسبانيا لا إلى فرنسا . ولم يوفق كلوزل كثيراً في عمله فلم يلبث أن استبدل بالجنرال Berthezéne (فبراير سنة ١٨٢١) فلم يكن خيراً من سابقه إذ صرف عنايته إلى بعوث صغيرة وسرايا قليلة لفائدة ، وكان الرجل مسناً قليل الفهم فلم تلبث الثورات أن شبت في كل مكان وخرج كثير من التواحي - التي كانت قد خضعت للفرنسيين - عن طاعتهم فلم يلبث الرجل أن طلب العزل فاجيب إليه وأعقبه Savary Duc de Ravigo . فاشتد على الأهالي شدة بلغت به إلى إبادة قبائل بأسرها ، مما اخاف كثيراً من التواحي ، ولكنه لم يلبث أن خلفه Voirol فاستطاع بحسن حيله ومهارته أن يخضع الساحل حتى مستغانم وأتم الفتح تقريباً . وفي ١٧ يوليو سنة ١٧٣٤ أرسلت حكومة فرنسا أول حاكم عام فرنسي للجزائر وهو Drouet d'Erlon . وفي تلك الأثناء كانت حركة الأمير عبد القادر في طريقها إلى الظهور والقوة

بالأمر العسير فان الحكومة أهملت وانصرفت عنه، فمُنحت صيد المرجان إلى شركة فرنسية احتكاراً، وكان في إمكانها صيده والكسب من ورائه وقس على ذلك ما أصاب موارد الخير الأخرى كالزراعة وتنظيم جمارك البلاد وما إلى ذلك، وقد كان هذا الفقر سبباً في طائفة شتى مما أصاب البلاد من الشرور: فهو الذي دفعها إلى الاستمرار في محاربة الكسب عن طريق القرصنة وجعل أقالعها عن ذلك أمراً خطراً على مالياتها، فلم يستطع الحكام الاقلاع عنها على الرغم مما بدا من أخطارها وما تهددت به سلامة البلاد من التلف والضياع، وكان الفقر أيضاً السبب في إفساد العلائق بين الجزائر وبين دول أوروبا، فقد كانت هذه الأخيرة تأبى الاعتراف بحكومة الجزائر بصفة الدولة المحترمة مادام حاكم الجزائر معتبراً في نظرهم رئيس عصابة من اللصوص لا بد أن ترفع له أتاوة مالية حتى يكف أذاه ويمنع أفراد عصاباته من العدوان والأذى، فكانت العلائق بين الجزائر والدول شاذة لا تشرفها بحال ولا تعطى فكرة طيبة عنها، وهذا هو السبب الذي جعل الدول ترضى عن عمل فرنسا وتتركها تفعل بالمغرب ما تريد

حكومة المغرب تمنع
الأوروبيين امتيازات

أوروبا لا تعترف
بحكومة الجزائر

ثم ان أسلوب الحكم العثماني في المغرب كان قد انتهى فيه إلى مثل ما انتهى إليه في عامة البلاد الإسلامية الأخرى، فقد عمل من أول الأمر على إبعاد أهل البلاد الأصليين عن نواحي الحكم والإدارة والدفاع، وجعل ذلك قصراً على طوائف الانكشارية ووجقاتهم، فانصرف أهل البلاد عن الدولة ونا بذوها وانحطت البلاد وضعف أمرها تبعاً لذلك كما حدث في مصر حين أبعد المصريون عن الحكومة وقُـرِرت على الأتراك والمماليك، فاتمى ذلك بضعف البلاد تماماً، لأن هؤلاء الأتراك لا يقتدرون على الدفاع عن البلاد بنفس القوة والاخلاص الذي يستطيعه أهلها.

٣ - الحكم العثماني
يفسد أمور المغرب

وقد كانت الباب مفتوحاً بين المغرب وأوروبا، وكانت الصلات بين الجانبين معقدة في ميادين الحرب والسلام على السواء، فكان في مقدور أهل المغرب أن يسايروا أوروبا ويتفطنوا إلى أسرار تقدمها ويعملوا على الضرب على نهجها والتشبه بها، وكانت الدول تدفع بعض الاتاوة أسلحة وذخائر حديثة الطراز، فكان في مقدور أهل المغرب الاستفادة من ذلك الاتصال والتعاون، ولكنهم قصرُوا في ذلك وأهملوه أو جهلوه؛ فلو كان للممالك مصر عذر في قصورهم عن الفرنسيين بسبب انقطاع الصلات بين الجانبين لما كان لأهل المغرب مفر من اللوم على ما جهلوا من تقدم أوروبا وامتيازها في ميادين الأسلحة والحروب.

ولنقل كذلك أن أصحاب الشأن في المغرب لم يكونوا من ذوي الرأي أو الكياسة، على الرغم مما يتفق عليه الكثيرون من وصفهم بالدهاء وحسن الحيلة، فقد كان خليقاً بالداي حسين أن يجعل علاقته مع الفرنسيين خالصة مباشرة دون الحاجة إلى وساطة البكري أو غيره، وكان يستطيع أن يتخذ لنفسه وكيلاً في باريس يشرف على تجارة القمح ويحصل له المال، لأن إطلاق يد هذين اليهوديين كان جديراً أن يدفع بهما إلى الفساد والتضييع. وكان في استطاعة الداي مرة أخرى أن يكون أحسن تصرفاً في علاقاته مع فرنسا، فقد أطلق نفسه مع الغضب إطلافاً خرج به عن مذاهب الرأي والحجى، فأمعن في الزاوية بها، ظناً منه أن ذلك جدير بأن يرغمها على احترامه وتقديره والنزول على رأيه.

هنا تبدأ قصة الفرنسيين في المغرب، وهي قصة طويلة محزنة لا تخلو من وجوه الخير للبلاذ وأهلها، وقد كان هذا مصير المغرب على أي حال مادامت أوروبا تجاوره ويثور في نفسها شعور الصليبيين نحوه بين الحين

والحين ، وما دامت العلاقات بين الجانبين قد ظلت قرونا طويلة لا تتغير ولا تتبدل : جهاد دائم وغزو لا ينتهى وحرب لا ينحمد اوارها . وقد رأينا كفة المغرب خفيفة حتى فى أيام قوته وعلو شأنه ، ورأينا كيانه مهدداً وادارته مختلة وشثونه فوضى لا أمل للخير فيها ، ورأينا السياسة التركية تزيد ضعف البلاد وتثير عليها عدا العالم الأوربي . فكلمنا عدا الأتراك على المسيحيين فى شرق أوروبا باطلعت الدول إلى أخذ الثأر من المغرب ، وبهذا شقى المغرب بالاتصال بالمجموعة الاسلامية شقاء عظيماً . وعرفنا أن فرنسا كانت تبنت له هذا المصير منذ حين ، وانها كانت تتربص به الدوائر وترقب الفرصة المواتية ، فلم يكن سقوط الجزائر بالأمر البعيد الاحتمال أو المستغرب ، بل كان نتيجة طبيعية جداً : لها أسبابها القريبة والبعيدة ولهاو نتائجها البعيدة القريبة كذلك .

— ٧ —

قلنا فى الصفحة الثالثة من هذا الكتاب « وأصبحت مواقع الخصب فيه — أى فى الشرق الأدنى — مقصد سكانه ومتجه آمالهم من فجر التاريخ ، تهب عليها بين الحين والحين زوابع الرياح المهلكة تدفعها الرياح ، وعواصف البدو المخربة يدفعها الفقر ، وليس كتاريخ العراق دليلاً على صدق هذه القالة : فتاريخه كله من قديم الزمان حتى نهاية القرن التاسع عشر صراع بين الدول القوية على امتلاك أراضيه ، ومحاولات من القبائل المتبعية للأغارة عليه والاستثمار بخيره وأرزاقه ، مما جعل ماضيه كله سلسلة طويلة من الحروب والوقائع والغارات ، لا يكاد ينحمد اوارها أو يسكن تيارها ، وجعل أراضيه ميداناً سهلاً يتوافد عليه الغزاة من كل ناحية ويقصدونه من كل صوب .

العراق

طبيعة بلاد العراق

ذلك أن العراق واحة موفورة الارزاق والثمرات في وسط بواد وهضاب يغشاها الفقر وتشح فيها الخيرات ، فأصبحت أراضيه - من فجر التاريخ - متجه الفرس في الشرق وفريسة بدو العرب في الغرب وقبلة الأكراد والجركس والآراك والآرمن من الشمال ، وقراصنة البحر الهندي وخليج فارس من الجنوب ، ومن هنا كان من الطبيعي أن تتوالى الغارات والغزوات على هذه البلاد بسبب وبغير سبب. وأن نجد أهلها مشغولين في غالب أيامهم بمدافعة الأعداء ومغالبة الغاصبين، حتى لا يكادون يجدون فسحة من الهدوء يعنون فيها بشئون أنفسهم ومرافق بلادهم. فاذا ذكرنا أن العراق بلد زراعى يحتاج إلى الهدوء والاستقرار حتى تزكو ثماره وتورف زروعه وتوثق خيرها المأمول ، أدركنا أثر ذلك الحال في تاريخه ، وعرفنا السبب في أن الرخاء لم يشمل هذه البلاد إلا في فترات وجيزة جداً ، ولو قد كان كل جيرانه وغزاته قوما متحضرين على شئ من المعرفة بقيمة ما يلقون في نواحيه من مظاهر العمران ومعالم الحضارة عند أقبالهم منا أصاب البلاد على أيديهم شر كبير ، فأما وهم في الغالب طغاة جفاة لا يطلبون في العراق غير الغنيمة الوافرة والنهب الشديد فقد كانت نتيجة ذلك حرمان أهل العراق من خيرات بلادهم ؛ وزاد في أثر هذا الوضع الجغرافى على تاريخ العراق ان العناصر التى تجاوره - من كل الجهات - عناصر حربية شديدة لاتكف عن الحرب والغزو والنزاع على أرضه فيما بينها مما لم يدع له فرصة للراحة أبدا .

العراق من الوجهة
الجغرافية

وليس العراق - بمعناه الحديث - وحدة جغرافية متسقة تسودها ظروف جغرافية واحدة ، بل إنه ينقسم بوضوح إلى ثلاثة أقاليم متميزة: إقليم جبلى شمالى فى أعالي دجلة والفرات وهضبة كردستان . ثم

اقليم خصيب زراعي في الوسط ، ثم اقليم جنوبي يختلط فيه الجذب
بالخصب وتسوده روح بحرية ، ويتأثر تأثراً ظاهراً بيلاد العرب الواقعة
إلى غربه. وهذا التقسيم واضح الاثر في كل أدوار تاريخ العراق ، فهو
الذي قسمه في القديم الى بابل وأشور وكلدنيا وفي الحديث إلى الموصل
والعراق والبصرة ، وهو الذي حال بين أهله وبين تكوين وحدة
متميزة من الناحية السياسية أو الاجتماعية ، وأضعف سكانه عن مقاومة
الفاحين وجعله فريسة سهلة لمن طلت نواحيه منهم .

تأثر العراق بجوار
إيران

وقد كان تاريخ العراق من قديم الزمان متأثراً بجيرته لايران ،
لأن شعب إيران دائم النشاط متجدد الجهود لا يسكن له جهد ولا
ينقطع له توفز ونهوض ، تتوالى على حكومته الاسرات المجيدة ويأق
تاريخه بالملوك ذوى البأس والاعلام من ذوى العبقرية والنبوغ . فلم
يكن للعراق بدعمن أن يكون دائم التأثير بما يقوم في هضاب إيران من
مظاهر القوة ومعالم الحضارة ، فلا يكاد يعتلى عرش إيران شاه قادر
حتى نجده في العراق بعد حين ، ولا يكاد يجد في إيران لون من
الحضارة حتى نجد له ظلاً ملحوظاً في العراق . وأعان على ذلك أن
الطبيعة لم ترزق العراق حدوداً حاجزة تحميه شر الغزاة والمهاجمين بل
جعلته قريب المثال سهل المدرك ، فلا يكاد الإنسان يخلص من هضاب
إيران حتى ينحدر انحداراً هيناً سريعاً إلى سهل العراق الخصيب ،
ومن هنا ليس بغريب أن نجد العراق نفسه مركزاً للكثير من الدول
الفارسية العظيمة ، وأن نجد كثيراً من عواصم إيران القديمة على دجلة مثل
كثفون وأسوس وماإلهما ، وأن نجد أرايانيين كانوا يعتبرون العراق
جزءاً من بلادهم في فترات كثيرة من التاريخ ، وظلوا يرون ذلك حتى
غلبهم الأتراك العثمانيون عليه ووضعوا حداً فاصلاً بين العراق وإيران

يبدأ تأثير العراق بما يليه شرقاً من البلاد لا يقل عن تأثيره بأيران التي تقع إلى غربه ، فالصلات بين الجزيرة العراقية والشام قديمة ترجع إلى دخولهما معا في دولة السلوقيين التي سبقت الاسلام بقليل . ثم جاء الاسلام فطوى العراق في المجموعة الاسلامية وأضفى عليه لونا ظاهرا من العروبة والاسلام ، إذ أخذت قبائل العرب تهاجر إلى سهول العراق وتنشئ فيها البلاد . حتى أصبح العراق بعد قليل من الزمن بلادا عربية صرفة بل مركزا رئيسيا من مراكز السياسة والحضارة الاسلامية ، ومن ذلك الحين بدأ العراق تاريخه المجيد وظل على ذلك ظل الاسلام ، وأخذ في الظهور على مسرح السياسة الاسلامية ليكون قطبها ومركزها في الحضارة والسياسة طوال العصر الوسيط وظل على ذلك حتى انتقلت منه الزعامة إلى مصر في أوائل أيام الحروب الصليبية أي حين انتقل مركز الجبهة الاسلامية من الموصل بشمال العراق إلى مصر بانتقال زعامة الكتلة الاسلامية من نور الدين محمود صاحب الموصل إلى صلاح الدين الأيوبي صاحب مصر حوالي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي . (أواخر السادس الهجري) .

العراق حد فاصل
بين الفرس والعرب

لهذا نجد العراق حدا فاصلا بين الفرس الآريين في المشرق والعرب الساميين في المغرب : على بساطه يجتمع الجنسَان أصحابا حيناً وأعداء حيناً ، يتعاونان تارة ويحتربان تارة أخرى ، فكان العراق ميدان النزاع بين الفرس والعرب على السيادة والسلطان في الدولة الاسلامية وكانت نواحيه مجال الصراع بين شيعة الفرس وسنية العرب والأتراك ، وقد استمر هذا الصراع بشقيه السياسي والمذهبي زمانا طويلا ، وانهى باضعاف الفريقين معا ، وظهور عنصر جديد على مسرح السياسة العراقية ، استبد بالامر من دون العرب والفرس معا ، وهو العنصر التركي الذي بدأ يسود العراق ويصرف أموره من أوائل القرن الثالث

الهجرى ، ومن هنا شهد العراق معركة حامية بين العرب والفرس والأتراك ، كان من أولى نتائجها خروج العرب من الميدان في زمن مبكر جدا ، وارتدادهم إلى جزيرتهم وعودتهم إلى حال البداوة الأولى والترحال الذى أخرجهم الاسلام منه ؛ وظل العنصران الآخران يتنازعا النصر والغلب زمانا طويلا ، وقد أيقظ الصراع في فارس روحها وبعث في نفسها الحياة ، فطاولت مطاولة لم يستطعها الأتراك ، فبدأ الفرس يظهرون عليهم ويسودونهم — معنويا أولا ثم ماديا — وأعان على ذلك أن الحروب الصليبية شغلت الأتراك من أوائل القرن العاشر الميلادى ، فاستنفذت ميادين الشام وآسيا الصغرى التفاتهم كله بل انتهت أيامهم في العراق بانتقال زعامة الكتلة الاسلامية من نور الدين آخر ملوك الدولة السلجوقية في الموصل إلى صلاح الدين أول سلاطين الأيوبيين في مصر ، ومن ثم أخذ الفرس يستعيدون قوتهم في العراق شيئا فشيئا ، فمن أوائل القرن العاشر الهجرى كان اسماعيل الصفوى يعمل جادا في انشاء قصرية إيرانية جديدة تستنقذها من نير المغول الذين أثقلوا عليها زمانا طويلا ، فلم يزل يناجز حتى استطاع أن يتغلب على بابر ملك المغول حوالى سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م) ، ومن ذلك الحين بدأ تاريخ الدولة الصفوية المجيد ، الذى كان من أول نتائجه عود العراق إلى احضان فارس .

وقد استمر العراق في ظل الفرس بعد ذلك زمانا طويلا ، وأغلب الظن أن هذه الصحبة الطويلة خلفت في نفوس الفرس شعورا خاصا نحو الجزيرة العراقية ، فأصبحوا يحسون أنها جزء من وطنهم الايراني ، وأعان على ذلك أن العراق كان يضم كثيرا من الأماكن الشيعية المقدسة ، ففيه النجف التى تضم قبر على كرم الله وجهه وفيه كربلاء مزار الشيعيين من كل صوب ، وفيه كذلك قبور الكثير من أولياء الشيعة رصالحهم من

مزارت الشيعة في
العراق

أمثال موسى الخادم ومحمد تقى ، وبهذا تطور الاحساس المذهبي شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح رأياً سياسياً ، وزاد ذلك الشعور حدة عداوة السنة والشيعة أو عداوة ماغرب العراق لما شرقه ، فأصبح الفرس يرون في السيادة على العراق لونا من الدين والوطنية معا ، وأصبح الاستيلاء عليه قطباً من أقطاب السياسة الفارسية في مختلف الأوقات والأزمان .

الفتح العثماني يبدأ
عصرًا جديدًا في
العراق

وفي أوائل القرن السادس عشر الميلادي دخل العراق في حوزة الأتراك العثمانيين ، فكان ذلك إيذاناً ببدء عهد جديد في تاريخه ، لأن سلطان الأتراك السنيين في العراق كان كفيلاً بأن يبعد عنه التأثير الفارسي الشيعي إلى حين ، وأن يقيم فيه منار السنة من جديد . بل إن سليمان القانوني كان يشعر بأن فتحه العراق فيه شيء من الجهاد الديني لأن فيه انصافاً للسنة ، ولهذا عني أشد العناية بأن يحدد قبر أبي حنيفة النعمان — وإن لم يخل بالعناية على مراكر الشيعة في النجف وكر بلاء وغيرهما — وكذلك كان السنيون من عرب العراق يشعرون بهذا ، ويعتبرون الفاتح التركي مخلصاً لهم وفسارع شيخ القبائل العربية — الذي كان يحكم البصرة خاضعاً خضوعاً ظاهرياً للشاه — فأرسل ابنه راشد بمفاتيح البلد وبعث معه رسائل فياضة بالولاء إلى السلطان^(١) وبهذا بدأت السنة تنفّس من جديد بعد أن طال سكونها وخمولها طوال الحقب التي كانت السيادة فيها للفرس الشيعيين .

العراق في حكم
الأتراك

يبدأ أن العراق في ظل الأتراك العثمانيين لم يكن أسعد حظاً مما كان في ظل الفرس الصفويين ، إذ لم يلبث أهله أن نظروا بعين السخط إلى هؤلاء الأتراك الذين كانوا يرسلون اليهم كل عام خصياً أو عبداً يأخذونهم

(1) Stephen Hemsley Longrigg; « Four centuries of Modern Iraq (oxford, 1925) P. 25 »

بطاعته على الحق والباطل معا ، ولم يكد الاتراك يبدون الحكم بنظامهم المعروف حتى بدأت النفوس تتغير ، وأظهرت العلاقات المتبادلة الفرق العظيم بين عقلية الجنسيتين أي - العرب والترك - : لأن العرب - بماضيهم الطويل في حياة الصحراء وقلة صبرهم وكثرة تحولهم - أصعب الشعوب حكما ، ولم تكن العقلية التركية - التي لا تتخيل وتعوزها المرونة - لتطبق منهم هذا العنف ، بل كان مجرد ظهور الأتراك في العراق - بطبيعته ولغته التركيتين - أمرا غريبا غير مألوف في نظر العرب وسمعتهم^(١) ولا حاجة بنا إلا الإشارة إلى مساوي الحكم التركي التي سبق بيانها والتي لازمتها في كل زمان ومكان . لأن أحوال العراق الخاصة كانت كفيلا وحدها بأن تجعل الحاكم والمحكوم على طرفي نقيض ، وأن توجب الخلاف بين الفريقين وتملا النفوس بأسباب الخصومة والكراهية من الجانبين ، ذلك أن العراق يضم عددا عظيما من غلاة الشيعة فاستخطم تشجع القبائل العربية السنية وإقبالها إلى أطراف البلاد وبدوها الاستقرار فيها ، وعرفوا أن هذه القبائل لا تقبل إلا في رعاية السلطان التركي السني فزاد استخطم عليه وانطوت نفوسهم على اللدد والالام ، وكذلك كان الاتراك لا يشعرون نحو هذه البلاد بمودة ولا بحب ، لأن الذين كانوا يرسلون منهم للحكم في العراق كانوا يعتبرون ذلك نفيًا وعقوبة ، وبعد العراق عن مركز الخلافة من ناحية ولبرودة شماله وحر جنوبه ووعورة مسالكه وانتشار الأوبئة فيه من ناحية أخرى ، ثم لصعوبة حكمه بعد ذلك ، إذ كان جل سكانه قبائل يصعب قيادها ويصعب ردها إلى الطاعة لكثرة تنقلها ومحافظتها على النظم القبلية التي تغل يد الحاكم عن السيطرة على البلاد .

وزاد الحكم العثماني بلاء أت الفرس والترك كلاهما جعل الاستيلاء على العراق رمزا لسيادتهما وتفوقهما ، فجعلوا يحتربان عليه

تناقض الفرس
والأتراك على
العراق

ويتنافسان على أرضه بشتى الأساليب حتى « كانت الظاهرة السائدة لهذا القرن (السادس عشر) هي العداوة - التي كادت أن لا تهدأ - بين الامبراطورية العثمانية وفارس ، وهي حالة أثرت في أهل العراق وحامياته تأثيراً يصعب تقديره ، فإذا كانت قد أثرت في زيادة تيار الحجاج إلى المزارات وفي تنشيط التجارة المتبادلة مع أصفهان وتبريز من جهة فقد استدعت كذلك تدفق الانكشارية ورجال الاقطاع ليشتروا في الحروب في الشمال من جهة أخرى ، فكان الطلب يشتد على الحبوب وسوائم الحمل ، وأصبح الرعب من هجمة تكون على أسوار المدينة ، ومن وثوب أمراء الاكراد الضعاف ، واستقبال سفير فارسي في طريقه إلى البوسفور أصبحت هذه كلها من الاحداث العادية في العراق في تلك الأيام (١) وأصبحت البلاد معرضة بين الحين والحين للقتال بين الفرس والترک وما يسيه ذلك من الخسائر في المدن والمزارع وموارد الرزق . لأن الفرس لم يكفوا عن أن يروعوا البلاد وأهلها بغزواتهم وغاراتهم السريعة ، ينهبون فيها ويأسرون في غير رحمة ولا هوادة ، فإذا اضفنا إلى ذلك إهمال الحكم العثماني لإصلاح ماعسى أن يتلف من مرافق البلاد وعيون خيرها بهذه الخصومة الثائرة ولتصورنا كيف أصبح العراق ضحية لمطامع السلاطين واهواء الشاهات ، وكيف اضمحل أمره ، وتحولت هذه البلاد - التي كانت درة القيصريّة الاسلاميّة في أوجها - إلى قفار يباب يعيش الفقر في أنحائها ويسودها الجوع وتفتك بها الأمراض والأوبئة من كل صنف ولون .

ظهور البرتغاليين
في الخليج الفارسي

وشهد القرن السادس عشر قوة جديدة تستأذن لتظهر على مسرح السياسة العراقيّة ، قوة ليست إسلاميّة ولا شرقيّة ، وإنما هي طليعة أوروبا الناهضة التي بدأت تسير أشرعتها في بحار الهند وتنشر أعلامها في مياهها تمهيداً للسيادة على أراضيها بعد ذلك . كان البرتغاليون قد

وصلوا الهند في أوائل القرن السادس عشر، ثم جذبتهم مصادد اللؤلؤ ومتاجر العراق وفارس فتقدموا في الخليج الفارسي صعوداً حتى أدركوا جزائر البحرين وأسسوا قلعة حصينة عند هرمز سنة ١٥٠٧، ثم أخذ تجار البندقية وجنوه يخترقون العراق إلى الشمال، ومن ثم يعرجون إلى الشام، فكانوا بذلك أول من رسم هذا الطريق الجديد إلى الهند، الذي سيصبح مدار السياسة الدولية في العراق بعد قليل من الزمان.

الصراع بين العرب
والبرتغاليين

وكان تجار العرب يسودون بحار الهند وخليج فارس حتى ذلك الحين، وكانت مياه هذا الخليج في طاعة السلطان العثماني اسماً، ولهذا لم يلبث الترك أن أنكروا على البرتغاليين هذا التدخل ونهضوا لرد عاديتهم لأن البرتغاليين لم يكتفوا بقلعة هرمز بل أخذ رائدهم البوكرك Albuquerque ينشئ سلسلة من المراكز التجارية على شاطئ خليج فارس. ولكن الصراع لم يبدأ بين الجانبين إلا بعد أن استولى الأتراك على مصر ونزلت سفنهم البحر الأحمر واتجهت إلى الخليج الفارسي، فروعها ما وجدت من مؤسسات البرتغاليين ودأبهم على نشر سلطانهم في هذه النواحي، ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين على أثر اعتداء بعض البرتغاليين على بعض قرى العراق الواقعة على جاني شط العرب واستنجدوا حاكم القطيف بالأتراك، فعجل القبطان التركي مراد بك بانجاده، ولكنه لم يلبث أن ارتد إلى البصرة منهزماً، واستمر العداء بين الجانبين متصلاً، وكان بديهيّاً أن يكتب النصر في هذه المعركة للبرتغاليين لتفوقهم على الترك والمسلمين عامة في شؤون البحار، فانهزم قباطنة الترك واحداً بعد واحد: ارتد يرى بك ومراد بك وعلى شلي بالهزيمة تباعاً، وحاول الأتراك أن يقضوا على مراكز البرتغاليين في البر فلم يوفقوا كذلك، لأن أمراء الولايات المحيطة بخليج فارس كانوا يجنون من تجارة البرتغال ربحاً طيباً، وكان لا يرضيهم أن

الأتراك يظلمون
العرب

الامارات العربية
تظاهر البرتغاليين

انتصار البرتغاليين

ينقطع عنهم هذا الرزق فظاهروا البرتغاليين على الأتراك ، بما انتهى
بانسحاب هؤلاء من مياه خليج فارس وتركهم البرتغاليين يسودونه
وينشرون ألويتهم فيه . وتلك خطوة عظيمة الخطر والأهمية على
بساطة ظاهرها ويسر حدوثها فاتها اليوم انتصار بسيط ، وفوز بتجارة
قليلة من الحرير واللؤلؤ في خليج فارس ، ولكنها في الغد حصر
لأمم الشرق واقفال لسبيل البحر في وجهها ، فهي على بساطتها نذير
بسيادة الغرب على بحار الشرق وايدان بما سيكون لهذه السيادة
البحرية من الأثر الحاسم في مستقبل الشعوب الشرقية ، وهو أثر يفوق
التفوق البري بكثير .

نظام الحكم العثماني
في العراق

لم يبدل الأتراك جهداً خاصاً في تنظيم أمور العراق تنظيمياً يتفق
وأحواله الخاصة ، ولم يلتفتوا إلى أحواله الزراعية ويتعهدوها بالرعاية
والإصلاح ، بل انصرفوا إلى إرهاب البلاد بالمغارم والجبايات ، وشغلهم
كيد الفرس عن كيد البرتغاليين ، فمضت حكومة البلاد على عواهنها .
وكانت الحالة المعنوية والفكرية قد انحطت في هذه البلاد منذ أمد بعيد ،
فلم يعد للفن أو الأدب فيها ذكر — وهي من قبل منار العلوم والفنون
والحضارة بل زهرة الحضارة الشرقية — فلم يعد العلم تحفيظ القرآن ،
وندر الكتّابون أو انعدموا ، وتهدمت عمائر بغداد واجتاحها الغارات
والفيضانات والأوبئة حتى أصبحت مرا كز العلم والفن والثقافة
إطلالاً عافية ورسوماً جافية .

ولاية الترك

لم يكن الباشا مطلق السلطان في شؤون البلاد ، بل كان عليه رقباء
من قبل السلطان — كما هي العادة — ورقباء من أهل البلاد ، فكانت
يده مغلولة في رقابة هذين ، إذ كان قاضي القضاة المعين من قبل السلطان
يراقبه ولا يعفيه من اللوم إذا جنح للعصيان ، وكان الدفتردار وأعوانه

يشرفون على أموال البلاد ويقدمون حسابهم في القسطنطينية ، وكان للرعية أن تشكو للسلطان رأساً ما يسيئها من حاكمها ، وكان على الباشا أن يجمع مجلس أعيان البلاد بين الحين والحين ، وكان للسلطان إلى ذلك مندوبون من لدنه يشرفون على راحة التجار وأمنهم في البصرة وحلب وغيرها من العواصم ، وإزاء هذا كله أخذ سلطان الولاية الرسميين في الضعف شيئاً فشيئاً وانتقلت من أيديهم القوة إلى الانكشارية مع الأيام . لأن هؤلاء الآخرين كانوا أداة التنفيذ التي لا يستغنى عنها صاحب السلطان سواء أكان الوالي أم سواء ، فكانوا يد صاحب السلطة في مختلف الحالات والتارات ، ومن هنا كان شعورهم بقوتهم وسعيهم للاستئثار بالسلطة وتصريف الأمور على ما يهوون ، وأعانهم على ذلك ميل الدولة إلى تبديل الحكام واستعدادها لقبول وشايات (صغار الجند والموظفين . وبهذا سادت البلاد شرذمة من المتبطلين الجاهلين وساء أمر العراق بين جشع الباشا إلى الغنى وجنوح الانكشارية للاستبداد والطغيان .

وكان نظام الاقطاع العثماني سارياً في العراق ، أي أن السلطان كان يمنح أجزاء من أرضه اقطاعات خاصة لأصفيائه على أن يؤدوا له نظير ذلك خدمات حربية وقت الزوم . وقد كان في هذا النظام فائدة نسبية للسلطان وأزلم يكن فيها شيء من الخير للبلاد المقطعة ، لأنها كانت تجعل من الحاكم العثماني العام مشرفاً على أصحاب الاقطاعيات أي على موردى الجند ، فكان معظم اجتهاده إلى الاكثار من الجند الذين يرسلون من ولايته إلى الميادين التي يحارب فيها السلطان ، في هذه الناحية كان الحاكم يوجه جهده ويبدل فيه وسعه وينسى كل ماعداه من مصالح

نظام الاقطاع
في العراق

الولاية . ولم يكن السلطان يطلب اليه أكثر من ذلك أول الأمر لحاجته المستمرة للجند لكثرة الحروب والفتوح . ولكن الحال لم يدم على ذلك طويلا إذ أخذ أصحاب الاقطاعات يقصرون في تقديم الجنود لأن السلطان لم يعد يهب الاقطاعات للقادرين من رجاله بل للمحبين اليه وأصحاب لهوه ومجونه وشرابه منهم ، وأزاء هذا أخذ الوالي يعمل هذا الواجب ، واكتفى بالاهتمام بجمع المال للسلطان . وكلما ضعفت السلطة المركزية كلما جنح الولاية إلى الوثوب والاستقلال وأعانهم على ذلك بعد العراق عن الدولة وتقاوس السلاطين عن الحروب وإيثارهم العافية ، وبهذا تحول الباشا العثماني بعد قليل إلى حاكم مستقل في الواقع لا تربطه بسلطانه إلا أوهى الصلات والأسباب

وكان وجود إيران إلى جانب العراق مقربا للباشاوات على الثورة فارس تفسد ولاه الترك والخروج على السلطان . لأن صدر الشاه كان مفتوحا دائما يرحب بكل خارج على السلطان ، ومن هنا كثر خروج الباشاوات في العراق ، وجنوحهم للعصيان : نلح هذا بوضوح في وثوب بكر الصوباشي واستدعائه الفرس لعونه على السلطان في أوائل القرن السابع عشر ، ولو لم يكن السلطان مراد الرابع قد خف للقضاء على بكر وثورته لخرج العراق عن يد السلاطين جملة من ذلك الحين . بيد أننا نلاحظ أن أحوال البلاد مالت إلى الهدوء والاستقرار بعض الشيء بعد أن استعادها مراد في الأشهر الأخيرة من سنة ١٦٣٨ والشهرين الأولين من سنة ١٦٣٩ م ، فقد كانت حملة مراد بعيدة الأثر في نفوس الفرس لما أبداه السلطان وجنوده فيهم من الاخلاص والقدرة والقوة ، فكف الشاهات عن مساعدتهم في العراق وأخذ الباشاوات يتعاقبون عليه يتلو بعضهم بعضا ، يحرون على « روتين » لا يعود على البلاد أو أهلها منه خير قليل أو كثير .

بدء استقرار القبائل
في العراق

في ظل هذا الهدوء النسبي أخذ سكان البلاد ينتظمون
ويستقرون، وجعلت القبائل تتحرك إلى مواضعها التي سئمت عليها إلى
القرن التاسع عشر، فظهرت قبائل جديدة في بعض المواضع وغلبت
قبائل أخرى غيرها على مواضع جديدة، وأخذ كل يستقر في مركزه
الجديد ويستمسك به، وبهذا بدأ استقرار الناس وتركزهم في مواضعهم
بعد طول ترحل، وهذا الاستقرار هو الأساس الذي كان لابد منه حتى
تبدأ البلاد في النهوض الصحيح، لأن تقلب الناس على المواضع وعدم
استقرارهم في مكان بعينه كفيل بأن يمنعهم من العمل الثابت المنتج وخلق
بأن يحرم البلاد الجهد الصالح. بل أخذت القبائل الصغيرة تتقارب
لتتحد وتكون وحدات كبيرة ففي أواخر هذا القرن استقرت قبيلة شعب
في عريستان بعد أن بارحت منازلها الأولى في قبان، وأخذت في
مستقرها الجديد تزاول زراعة الأرض وتستصلح ما أمكنها من الأرض.
واستقر بنو مالك والأجواد وبنو سعيد وأخذت صروف
الأيام تعصف بهم نحو الحرب تارة والأمان تارة أخرى حتى اتلفوا
آخر الأمر بعد حوادث طويلة تحت راية آل شيب، وسادوا
أقاليم العراق الأدنى وأهله باسم المتفق، وفي هذا القرن أيضا أقبل
بنو شمر من نجد يقودهم شيخهم فارس، ومازالوا في مدافعة أعدائهم
حتى استقر لهم الأمر في النهاية على غرب العراق من أعلاه إلى حدود الجزيرة،
وفي هذه السنوات تم استقرار بنو لام في أواسط دجلة فأصبحوا من ذلك
الحين حاجزا بين العراق وبين آل لورستان واستقروا في تلك النواحي
زمانا طويلا. ولم يحدث ذلك في الشرق والغرب فقط بل إلى تلك
الفترة ترجع أوليات أسرة البابان المعروفة في شمال العراق، وكان
أصلهم أكرادا وأخذوا يمتدون رويدا من كويسنجق إلى إقليم
شهربازار حتى غزوا إقليم أردلان في أواخر القرن السابع عشر،

آل شيب المتفق
شمر

بنو لام

البابان

وشجعهم السلطان على ذلك وأقر أميرهم سليمان بك في ولاية كركوك
فجعل عاصمته من ذلك الحين في قره جولان

الولاية

أخذ الباشاوات يتلو بعضهم بعضاً دون أن يكون لذلك أثر ظاهر
في شئون البلاد أو رأى في اصلاحها، وإن غلب على أكثرهم التقى
والميل للخير، ولكننا نلاحظ انهم كانوا يقلون في الاقتدار والفضيلة
شيئاً فشيئاً بحيث نجد كل باشا جديد أقل من القديم قدرة وخلقا، فبعد
حسن باشا الصغير وقره مصطفى ومرضى وغيرهم بدأت دلائل
الضعف تظهر في حكم محمد باشا الأيضر وعمر باشا الذي لم يفعل أكثر
من تعمير بعض الأضرحة، وهكذا حتى نصل إلى المجاعة في عهد حسن
باشا، فلاغرو أن أخذت أحوال البلاد تسوء ونواحيها تتفرق من جديد
فاستقل شمال العراق أو كاد، وخرجت البصرة عن طاعة الباشاوات
ونشطت الدعاية الفارسية، فأخذ خلاف الشيعة والسنة يظهر من جديد
وبدا بوضوح أن الصراع بين فارس وتركيا على أرض العراق عائد
بغير ريب ليقضى على الآثار القليلة التي تنجت عن فترة الاستقرار
للقصيرة الماضية

طلائع الأوروبيين
تدخل العراق

في تلك الأثناء كانت طلائع الأوروبيين قد تشجعت وأخذت
ترتاد العراق بعد أن انفتح بابه على مصراعيه من خليج فارس ومن
ناحية الشام، فأخذ السائحون يرتادون نواحيه ويردون على البصرة
وبغداد، وتحدثنا النصوص عن سائحين فرنسيين اقبلوا على العراق
من سنة ١٦٤٩ م، بل تشجع البرتغاليون فدخل بغداد راهب من
رهبانهم اليسوعيين سنة ١٦٦٦، وأنشأ الفرنسيون كنيسة فيها في
سنة ١٦٤٨، واستقر تجار بنادقة وجنويون في بغداد والبصرة لتنظيم
التجارة، وبذلك بدأت بغداد تتصل بالعالم من جديد فعرفها العالم
الحديث، ووصفها السائح الفرنسي تافرينيه بقوله: «حامية المدينة مكونة

بغداد كما وصفها
تافرينيه

من ثلاثمائة انكشارى يقودهم أغا ، ويحكم المدينة باشا من طبقة الوزراء . عادة ، وداره على شاطئ النهر ذات مظهر جميل . وتحت تصرفه على الدوام ستمائة أو سبعمائة فارس ولهم - أى للباشوات - علاوة على ذلك طائفة أخرى من الفرسان يسمون الجنجوا ليلي أى الشجعان يقودهم أغوان . ويوجد منهم عادة حوالى الآلاف الثلاثة فى المدينة وما يحيط بها ، ومفاتيح أبواب البلد ومفتاح القنطرة فى عهد أغا آخر تحت يده نحو مائتى انكشارى ، وهناك أيضا ستمائة من المشاة يقودهم أغا آخر وحوالى ستون مدفعا كان يقودهم إذ ذاك (سنة ١٦١٢) رجل مختصر يسمونه السنيور ميخائيل ، أصله من مواليد كندى ثم أصبح تركيا ، وكان قد وضع نفسه فى خدمة السلطان حين حاصر بغداد سنة ١٦٣٨ ... ، أما حكومة بغداد المدينة فلا يقوم بها غير قاض يقوم بكل شئ . ، وربما قام بمهمة المفتى يساعده شيخ الاسلام أو الفقردار الذى يجمع أموال السلطان ، وفى المدينة مساجد خمسة منها اثنان حسنا البناء تزينهما قباب مغطاة بالقاشانى المدهون بمختلف الألوان . وبالمدينة كذلك عشرة فنادق سيئة البناء على الجملة ، عدا اثنين يجد النازل فيهما بعض الراحة ، والمدينة على العموم سيئة البناء ، وليس من جميل بها خلا الاسواق وجميعها مسقوف ، وبغير ذلك ما كان التجار ليتحملوا الحرارة - ولا بد كذلك من أن ترطب شوارع هذه الاسواق بالغسل بالماء ثلاث أو أربع مرات فى اليوم - وقد خصص لهذا نفر من الفقراء تدفع الخزانة العامة أجورهم . والمدينة ملأى بالتجارة ، ولكنها ليست كما كانت فى يد ملك فارس ، لأن التركى حين استولى عليها قتل معظم سراد التجار ، ثم ان المدينة ملتقى الناس من شتى الجهات ، ولست أدري إن كان ذلك للتجارة أو لشئون العبادة ... وعلى هذا فلا مفر لكل من يريد الذهاب إلى مكة بطريق البر من

أن يمر ببغداد حيث يضطر كل حاج إلى دفع قروش أربعة للباشا (١) وهو وصف لعل الخطيب البغدادي كان ينكره أشد الإنكار لو شأت الأيام أن تراه ببغداد العزيزة بعد أن مال بها الزمان واتتبتها غواشي الحداث ، وللاحظ القاري انتباه السائح الفرنسي إلى قوة المدينة الحربية ، وتدقيقه في تقدير جندها وأسوارها وحاميتها ، مما يدل على أنه لم يكن مجرد سائح تسيل به الأباطح وتلقى به النوى في حيث تريد ، وإنما كان يسبر قوة البلاد ودرجة مقاومتها ، وقد لاحظ القاري كذلك اهتمامه بتجارة البلد ومواردها وأسواقها ، مما يدل على أنه كان مهتماً بذلك بل ربما كانت التجارة همه الأول .

وكان شمال العراق وجنوبه قد استقلا عن بغداد أوكادا ، فأما الشمال - الموصل - فقد أخذت العلاقات بينه وبين بغداد تضعف من أوائل القرن السابع عشر حتى انتهت إلى الانقطاع في أواخره ، فكان إلى الموصل في كركوك لا يتصل بالوالي في بغداد إلا فيما ندر ، وأخذت قبائل الشمال تنتقل إلى المواضع التي مستقر فيها آخر الأمر . وكانت ولاية الموصل فقيرة لقلة الخير واضطراب الأحوال فيها ، لكثرة نزاع الأجناس في نواحيها ، فأخذت متاجرها وصادراتها إلى ديار بكر وحلب تقل شيئاً فشيئاً حتى انعدم تصدير الحرير الموصلية المعروف (الموسلين) ، وتهددت الولاية غارات اليزيدية من سنجار وغارات الأكراد من التلال ، وغارات الجراد ونوازل البدو من كل صوب ، وأعان على ذلك ضعف الباشاوات الذين ولوا شئونهم خلال القرن السابع عشر وجلهم من رتبة الميرمران ، بيد أن أهل الولاية كانوا على جانب من القدرة مكنهم من شغل مركز الباشوية في مناسبات عدة ، فشغلها منهم محمد

(1) J, B, Tavernier; The six voyages of Tavernier (الترجمة الانجليزية : لندن ١٦٧٨) ص ٨٦ . وقد قام تافرنير برحلاته الست في العراق بين

سنتي ١٦٣٨ ، ١٦٦٣

أمين والزينى باشا سنة ١٩٧٤ وقادون على سنة ١٦٨٣، وكانت النواحي التي تلى الموصل شمالا وغربا نهبا لنزاع الشيعيين والسنيين ولغارات القبائل المتبدية . وإلى شمال ذلك تقوم عمادية وهي مدينة متوسطة البناء . مستقلة بعض الاستقلال ، وقد مكن لها وقوعها على طريق التجارة من بعض الجاه ، ومثلها في ذلك كويستجق وغيرهما من مدن الشمال ، التي كانت تقوم شبه حاجز بين العراق وفارس وبين كردستان وما يليها من القبائل المتبدية في الشمال .

وأما الجنوب — البصرة — فقد كانت الأحوال جديدة فيه بأن تتجه اتجاهها فريدا ، لأن قرب البصرة من بلاد العرب وكثرة إقبال هؤلاء اليها جعل الميول فيها تتجه وجهة عدائية للأتراك . وكان موقع الولاية على البحر جديراً بأن يجعل أهلها أرفه حالا وأبعد عن الحضيض الذي هوى اليه شمال العراق ووسطه ، وكان بعدها عن الدولة كفيلا كذلك بأن يزهد الأتراك في الإصرار على امتلاكها ، ومن ثم أخذت المدينة طريقها الى حال قرية من الاستقلال بزعامه أمير من سرة البلاد هو إفراسياب الذي اشترى حرية ولايته بالمال ، وأصبح مطلق اليد يفعل ما يريد . ولولم يفعل إفراسياب ذلك لخرجت الولاية عن سلطة الأتراك عن سبيل أخرى ، لأن العداء كان مستحكما بين أهل البلاد من العرب والحامية التركية ، إذ أن أحدهما ما كان يطبق للآخر صعبة ولا طاعة (١) وكان إفراسياب من أصل عربي ، وله عند أهل البلاد مقام ، فاستطاع أن يجمع جندا يعز بهم ، ولكنه ظل بعد استقلاله يحفظ للسلطان خضوعا ظاهريا ، فأبقى له الخطبة وبعث اليه بالطاعة ، وأخذ يمد لواءه شيئا فشيئا حتى أصبحت نواحي شط العرب كلها داخلة في زمامه .

وكانت الأحوال قد تغيرت تغيراً ظاهرا في خليج فارس خلال

انفصال البصرة

إفراسياب

بدء اضطلال نفوذ البرتغال في خليج فارس

القرن السادس عشر ؛ إذ كان سلطان البرتغال الذي تتبعنا نموه قد أخذ في الاضمحلال ، لأن البرتغال نفسها دخلت في طاعة الأسبان حوالى ستين عاماً ابتداء من أواخر القرن السادس عشر ، وكانت قسوة رجالها على أهل خليج فارس وجزائره قد أثارت عليهم سخط الأهلين وجعلتهم يتربصون بهم الدوائر ، فلم يكادوا يلحون اضطراب قواهم وقلة ما يصلهم من الامدادات من بلادهم حتى صارحوا سفن البرتغال بالعداء ، وأغلق كثير منهم موانيه في وجوها ، وأخذوا يمنعون عن البرتغاليين متاجرهم مما أثر في تجارتهم تأثيراً ظاهراً .

الانجليز يدخلون
الخليج

وكانت أنظار الدول الأوروبية الأخرى قد اتجهت نحو الخليج ، فأرسل الانجليز بعض بحارتهم من أمثال الدرد Eldred ونيوبرى Newbrry وقش Fitch ليستطلعوا أحوال الخليج والجزيرة العراقية ، ولم تلبث شركة الهند أن أرسلت رسلاً يجوسون الشواطئ ويسبرون أغوار المياه ، وكذلك فعل الهولنديون بعد حين ؛ ولنضف إلى ذلك أن ملوك فارس كانوا ساخطين على البرتغاليين ، فما زالوا يناجزونهم حتى أخرجوهم من جزائر البحرين في أول القرن السابع عشر ، ثم أخذوا يعدون العدة لخراجهم من هرمز ، فعجل البرتغاليون باحتلال الميناء الجديد الذى كان الفرس قد أنشأوه بعد خروج هرمز من يدهم وهو بندر عباس ، ولكن سلطانهم على بندر عباس لم يدم طويلاً ، إذ استطاع الفرس سنة ١٦١٤ أن يجلووا البرتغاليين عنه ويستردوه . (١) هنالك عجل الانجليز لينتھزوا الفرصة والبرتغاليون فى ضعف من أمرهم لا يملكون لهم دفعاً ، فأرسلت شركة الهند الشرقية سفينتها المسماة « جيمس » فألقت مراسيها فى يشك وأخذت تحاول الدخول فى سوق الحرير ، وبدأ مندوبوها يرأسلون الشاه للحصول منه على احتكار هذه التجارة ، وانتهى الأمر بينهما فى حدود سنة ١٦٧٠ إلى اتفاق

الحرب بين الانجليز
والبرتغاليين

جعل تجارة الحرير بيد الانجليز وغصبها من البرتغال ، ومن ذلك الحين بدأت أهمية يشك في الظهور حتى كادت تأخذ مكانه هرمز . ثم أخذ الانجليز يعدون العدة ليهاجموا معاقل التجارة البرتغالية ، فهاجموا القشم ثم أخذوا يستعدون لمهاجمة هرمز نفسها من أوائل سنة ١٦٢٢ ، وهاجمت البلد حامية فارسية فاحتلتها ، وأخذت تهاجم حصنها فامتنع عليها . وكان الهولنديون قد أقبلوا إذذاك وأنشأوا لأنفسهم مصنعا في هرمز ، وجعلوا مركز أعمالهم في مسقط ، فماكادوا يجدون الانجليز والفرس يهاجمون البرتغاليين حتى سارعوا بدلون دلوهم ، فاشترى كوامع الحليفين في مهاجمة البرتغال واستمر القتال حول هذا المعقل زمنا طويلا خسر المتحاربون خسارة جمة بسبب ذلك .

فارس تحول الاستيلاء
على البصرة

يبد أن زوال سلطان البرتغاليين وعودة سلطان فارس على الخليج لم يكن خيرا للبصرة ، إذ تطلعت أنظار الشاه إلى هذا البلد الذي يؤثر في تجارة بندر عباس تأثيرا ظاهرا ، وكان إفراسياب إلى ذلك يصادق البرتغاليين ويأويهم ويعلم الطاعة لسلطان الاستانة ، فكان ذلك سببا كافيا يبرر القضاء عليه في نظر الشاه ، ومن ثم أصدر هذا أوامره إلى والي شيراز بمهاجمة البصرة وإرغام أميرها على خلع طاعة الخليفة والدخول في طاعة الشاه ، وأن يجعل الخطبة باسمه ويسلك عملته برسمه ، فأبى إفراسياب أن يجيب الشاه إلى شيء من ذلك ، ومن ثم أرسلت حملة لتأديبه . فاستنجد إفراسياب بالبرتغاليين فأنجدوه بسفنهم ، وبهذا تمكن من أن يرد الفرس عن قبان بعد أن سقطت في يدهم ششتر ، وفي تلك الأثناء توفي إفراسياب الكبير وخلفه على البصرة ابنه علي باشا . فبدأ يستعد لمقاومة الهجوم الفارسي المنتظر ، ويبدو أن طول عهد آل إفراسياب بحكم البلاد كان قد أنشأ بينهم وبين الأهالي صلة وودا ، فأسرع أهل البصرة وأحايشها لنجدة علي باشا ، ومد البرتغاليون يد العون ، وتقدم علي باشا بقواته إلى القورننه وعسكر فيها ، وجعل يترقب أعداءه لينعهم من العبور ،

ولكن الانتظار لم يطل به حتى فوجئ بأمر غريب وهو ارتداد الفرس على أعقابهم وانسحابهم من الميدان قبل أن تطلق رصاصة واحدة . وبهذا تنفست البصرة وأميرها الصعداء ، أن كتبت لها النجاة من هذه الغزوة التي تهددتها بكل أذى . وقد كان لهذا الانتصار الهين أجمل الوقع عند الدولة العثمانية ورجالها ، فتسارعوا إلى منح علي باشا رتبة الباشوية وخلع عليه السلطان الخلع في سنة ١٦٢٥ ، ومن ذلك الحين أخذت البصرة طريقها إلى القوة والازدهار حتى أصبح بلاط أميرها يضارع بلاط الرشيد في سالف الأزمان (١) . ولم تبخل الأيام بشاعر يتغنى هذا العز الوارف الطارىء ، فأرسلت الشيخ عبد العلي الرحمة يرسل الشعر فيما يبصر ويسمع ، ويضيف إلى عقد الأدب العربي بضع حبات من الخرز الرخيص !

الانجليز والهولنديون
يرثون البرتغاليين

أما في الخليج فقد تقاسم الهولنديون والانجليز تراث البرتغاليين ، وشاطرهم في ذلك تجار عمان ، ولم يشترك الفرس والترك معهم لأنهم لم يسهموا في تجارة البحر بنصيب . وحاول البرتغاليون أن يتحصنوا في مسقط عاصمة عمان ، وأن يعدوا هناك عدة صالحة لاستعادة هرمز ، ولكن الفرس عجلوا بالاستنجد بالانجليز للقضاء عليهم وإخراجهم من مسقط ، ومن ثم تضععت قوتهم من جديد فسقط معقلهم صحرار في يد حامية عثمانية حوالي سنة ١٦٤٣ ، وسلمت مسقط نفسها بعد ذلك بقليل ، واستمر البرتغاليون يقاومون بعد ذلك زمنا طويلا ولكن الفرس والانجليز والعثمانيين لم يكفوا عن مهاجمتهم للقضاء عليهم ، مما انتهى بهم إلى الانسحاب من خليج فارس تماما في ختام القرن السابع عشر .

شركة الهند

وكان طبيعياً أن يشتد ساعد شركة الهند في خليج فارس بعد انسحاب البرتغال ، فأنشأت مصنعا في بندر عباس وفرعين له في شیراز

وأصفهان وسيطرت على تجارة الحرير ، وقاسمهما الهولنديون هذا
الربح ، وكانوا أمهر من البرتغاليين وأكيس ، فسهل عليهم كسب ود
الشاه ، وبهذا حصلوا منه على امتيازات جديدة ، فأثار ذلك مخاوف
الانجليز وحسدهم ، وبدأت العلاقات تفتر بينهما إن لم تتجه وجهة
عدائية ، واستمر نجم الهولنديين في صعود طوال القرن السابع عشر .
لهذه الأسباب كلها لم تتأثر البصرة بما حدث في بغداد أثناء ذلك ،
فلم يدخلها الفرس كما دخلوا بغداد ولم تتأثر بتجديد قانون الامتيازات
الذي منحه السلطان سنة ١٦٦١ ، واستمرت تحكم أقاليمها بسلطان ظاهر ،
وتصدر من متاجرها ، وتتخذ من السياسات ما يكفل لها السلامة من أذى
الفرس أو البرتغاليين أو الانجليز أو الهولنديين . ولكن طول الحكم أبطر علماً
باشا فيما يظهر فقال إلى شى من العسف في معاملة رعاياه ؛ على هذا يدل استنجد
نفر من تجار البصرة بحكومة بغداد حوالى منتصف ذلك القرن ، وكانت أسرة
افراسياب لا تستند إلى سند قوى من اعراب الایالة ، وكان شيوخ القبائل
يرون فيها وليدة الظروف ، ويحسدونها لما أدركت من الثروة والسلطان ،
فجعلت نفوسهم تحذهم بخلع طاعتها ، ومن ثم اتجهت همه الباشاوات
في بغداد إلى استردادها ، فوجه اليها موسى باشا حملة صغيرة حوالى
منتصف القرن السابع عشر ؛ ولكن المدينة استمرت مزدهرة رغم
ذلك إلى أواخر ذلك القرن ، وانتعشت أحوالها وسادها الرخاء ،
ووصفها الرحالة الفرنسى تافرنيه — الذى قدمنا وصفه لبغداد —

بقوله : « وقد وصل أمير البصرة أسبابه بكثير من الشعوب الغريبة ،
ولهذا تجد ترحيباً إلى أتيتها ، وتسود المدينة الحرية ويشيع فيها نظام
يمكنك من السرى طول الليل فى شوارعها دون أن ينالك أذى ؛ ويأخذ
الهولنديون التوابل منها كل عام ، وكذلك يأخذ الانجليز الفلفل وبعض
البهار ، وأما البرتغاليون فلا تجارة لهم هناك على الإطلاق . ويحضر
الهنود اليها النيلج والقلقوط وشتى صنوف البضائع ، وعلى الجملة فى
المدينة تجار من كل حدب وصوب : من القسطنطينية وأزمير وحلب

البصرة خلال القرن
السابع عشر

قصره كارآما تافرنيه

ودمشق والقاهرة وسائر أنحاء تركيا، يقبلون اليها ليشتروا التجارة الواردة من الهند . ومن هناك يحملونها على ظهور صغار الجمال التي يشترونها من هناك أيضا — إذ يجلبها العرب إلى هناك ليبيعوها — أما أولئك الذين يأتون من ديار بكر والموصل وبغداد والجزيرة وآشور فينقلون متاجرهم في مياه دجلة فيكلفهم ذلك عناء ونفقة . والضرائب في البصرة تبلغ حوالى الخمسة فى المائة من قيمة البضاعة ، ولكنك غالبا ماتلقى من عطف الأمير أو رجال الجمر ك ما يعفك من بعض النفقة فلا تدفع إلا نحو أربعة فى المائة . . وأمير البصرة من القدرة بحيث يربح فى العام نحو ثلاثة الملايين من الجنيهات ، وموارد دخله الهامة أربعة : المال والخيول والجمال والتمور ، ولكن معظم ثروته من هذه الأخيرة (١) .

ولاية الترك يحاولون
استعادة البصرة

يبدأ أن هذه الحال من الاستقلال لم تدم غير قليل . لأن أمراء بغداد ما كانوا ليطبقوا السكوت على خروج البصرة من أيديهم مع ما هم عليه من الثراء واتساع الجاه ووفرة الغلة . فبدأت نفوسهم تهوى اليها ، ولم يلبث النزاع أن دب بين أميرها حسين باشا ووالى بغداد ، فاستطارت الحرب وطال أمدها حتى مل الجانبان ، فبدءا مفاوضات طال أمرها ، واستقر الرأى أخيرا على أن تبقى حكومة البلد فى أسرة افراسياب على أن لا يقوم بالأمر حسين باشا بل افراسياب ابنه ، وأن تصبح البلد خاضعة اسميا للسلطان فيخطب باسمه على منابرها وتدفع الجزية له من خزائنها .

القضاء على استقلال

وتلك حال لا تدوم . فلا بد أن تصطدم مصالح الأسرة الحاكمة بمصلحة السلطان الأعلى ، أو لا بد أن يخلق باشاوات بغداد تصادما من هذا النوع حتى يخلصوا من آل افراسياب جملة . وقد وقع هذا بالفعل بعد ذلك بقليل ، ودخل جنود السلطان البلد بخيانة أحد أقارب افراسياب المسمى يحيى ، وبهذا انمحي من الوجود استقلال البصرة وعادت ولاية خاملة ككل نواحي الدولة سواء بسواء فى أواخر النصف الثانى من القرن السابع عشر ، ومن ذلك الحين انفتح بابها لمساكن الأتراك وعسف الولاية ومنافسة الشاهات .

(1) Tavernier ; Op, Cit P, 89 عن Longrigg P, 110 .

جريت علي تاريخ العراق عوامل جديدة خلال القرن الثامن عشر ، عوامل أخذت تخرج به عن هذا الجول وتكيف تاريخه تكييفاً جديداً يختلف اختلافاً سيراً جداً عما شهدنا منه خلال القرنين المنقضين ، فلا زال الخلاف بين تركيا وفارس محورا من محاور تاريخ العراق ولكنه لم يعد الآن نزاعاً خالصاً بين الشاهات والسلاطين ، وإنما دخلت فيه عناصر جديدة كالأفغان والروس ، ولم يعد الصفويون هم أصحاب الشأن في فارس وإنما حل محلهم حكام جدد بعضهم أفغان وبعضهم فرس افشار ، لأن فارس تضعضعت وهاجمها الأعداء من كل ناحية ، فلم يعد العراق وآله يخشون من ناحيتها شراً ولا تأثيراً ، ولهذا أخذ الرخاء يسود شئون العراق فبدأت أحواله تتحسن من نواح شتى ، فلم يعد جهد حكامه منصرفاً إلى مناجزة الفرس واثقاء شرهم ، وإنما أصبح في إمكانهم أن ينصرفوا لشئون ولايتهم وأن يعنوا بها بعض العناية . كذلك هدأت الأحوال في خليج فارس حيناً فأمنت البصرة طول الكفاح والصراع ، وأخذت تستدرك بعض مافاتها في سنوات النزاع العنيف بين الترك والفرس والهولنديين والبرتغال والانجليز . وعلى الجملة اطمأنت أحوال العراق بعض الشيء خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر . وانفتح باب الإصلاح والعمل لخير البلاد .

بيد أن شيئاً من ذلك الإصلاح لم يتم ، فلا الباشاوات التفتوا لإصلاح شئون ولايتهم ، ولا أهل البلاد اتهموا الفرصة للأخذ بيد قطرهم ، وإنما شغل الأولون بتثبيت أقدامهم في البلاد ، حتى استطاع أجدهم - حسن باشا - أن يجعل مقاليد البلاد في أيديه وأسرته بحيث لم تخرج الولاية عنهم من أوائل القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر أي من ولاية حسن باشا إلى ولاية داود باشا (١) إذ ظل

حسن باشا يشي
حكومة وراثية
بالعراق

الحكم في أقارب حسن ثم انتقل إلى المقرين من خدم الأسرة واتباعها . وأما الآخرون - الأهلون - فقد أخذت قبائلهم تحترق وتتصارع للاستيلاء على أحسن المواقع في البلاد ، فدخل بنو لام في صراع طويل مع امارة حويزة المجاورة لهم ، وأخذ بنو جف و بلباس يتنقلون بين فارس والعراق لا يستقرون على أمر ، وروعت قبائل وسط الجزيرة غزوات وغارات من إخوانهم في الصحراء ، وثار القبائل الكبرى من أمثال شمر والمتفق وبهذا لم تسكن الأمور داخل العراق أو على حدوده السكون الذي يمكن من العمل لاصلاح نواحيه ، فظل الإهمال يشمل مرافقه . غير أننا نلاحظ أن القبائل كانت في طريقها إلى الاستقرار في نواحي البلاد : هذا الاستقرار الذي يمكنها من العناية بشئون الري والزراعة ، فتورة المتفق إنما كانت في أساسها نزاعاً على حق الزراعة في جزائر الفرات ، مما يدل على أن هذه القبائل بدأت تحرص على الزراعة وترى لنفسها الحق في ملكية ما يدها من أرض ، ولم تعد تعتبر نفسها غزوية لاعلاقة لها بالبلاد وأهلها .

ونلاحظ كذلك أن عامل البلاد في هذه السنوات الأولى - حسن باشا - كان رجلاً على كثير من الاقتدار ، وأنه عمل كثيراً لما فيه خير البلاد ، فقد أعان القبائل على الاستقرار بحفر بعض الترع ، وحرص على أن لا يمس الشعور الديني لأحد من السنة أو الشيعة ، ولم يحاول كذلك أن يخرج على السلطان ، فظلت أمور العراق تسير في رعايته سيراً طبيعياً عاد على البلاد وأهلها بالخير .

غير أن هذا السكون لم يطل أمده . إذ لم تلبث حوادث فارس أن ألقت على العراق ظلاً ثقيلاً ، وأخذت تستلفت اهتمام حكام العراق حتى شغلهم عن شئون البلاد جملة ، ثم لم تلبث الحرب أن ثارت فعادت

ثورة القبائل العربية .

حسن باشا

الأمور سيرتها القديمة وغرق العراق في شئون فارس وحروبها ، وبهذا قطعت على العراق هذه الفرصة القصيرة من الهدوء والاستقرار .

ففي خلال العشرة الثالثة من القرن الثامن عشر قام في جبال أفغانستان القاتح المعروف محمود خان وهاجم فارس واستطاع أن يمزق جيوش الصفويين ويحكم البلاد ويشتت البيت الصفوي في كل ناحية ، وبهذا زالت من الوجود هذه الأسرة التي ظلت تحكم فارس وما حولها ثلاثة قرون ونصف ، وانفتح باب فارس للغزوات من كل ناحية فأخذ جيرانها يتقدمون في أرضها ويتقسمونها : وبدأ الصراع بين الروس والآتراك والأفغان والفرس أنفسهم على ولايات الشمال في جورجيا وداغستان ، وولايات الغرب المتاخمة للعراق ، واستولى الآتراك على الولايات المجاورة للعراق مثل كرمان شاه واردلان ولورستان وهمدان ، وظهر جلياً أن الحرب واقعة بين الأفغان والآتراك . على هذه الولايات

نهضة أفغانستان
محمود خان

استمر الصراع بين القوى الأفغانية والتركية على أرض فارس زماناً طويلاً ، استعمل الجانبان فيه كل ماملكا من فنون الدعاية السياسية والدينية ، وأظهر فيه أشرف خان الأفغانى قدرة طيبة في شئون السياسة ، فجعل يثبت بين قبائل الأكراد التابعين للدولة دعاية واسعة النطاق ، قام بها نفر من العلماء السنيين مما انتهى بانحياز الجانب الأكبر منهم إلى جانبه في ساعة الحرج ، وكانت نتيجة ذلك انتصاره على الآتراك انتصاراً أعقبه العفو عن كل من وقع في يده من أسراهم ، مما مكن له من نفوس أهل السنة في العراق نفسه . واتتهى الأمر بين الجانبين بمعاودة جعلت فارس قسمة بين الترك والأفغان فأصبحت همدان وكرمان شاه واردلان ولورستان حصة السلطان ، وأصبح أشرف خان أميراً على ما بقى من بلاد فارس على أن يختص السلطان بالولا .

الحرب بين الأفغان
والترك

نادر قول

يد أن الفرس لم يطبقوا الإقامة على هذه الحال ، وبدأت نواحي فارس تعج بالرغبة في التخلص من ربة الأجانب وطرد الغاصبين من الشرق والغرب على السواء ، فلم يكذب ينقض على تحالف الأتراك والأفغان زمان طويل حتى أقبل من أقصى البلد رجل يسعى بالجند والجاه ، وتسامع الغاصبان بظهور نادر قولي في خراسان ومسيره نحو الجنوب ليلقي أعداء بلاده . تقدم نادر بمجموعه فشقت قوى الأفغان ، وأعاد سلطان الصفويين ، ثم اتجه إلى الغرب ليستخلص الولايات التي بيد الأتراك ، فلم يزل يغالبهم حتى تمكن آخر الأمر من إرغامهم على الانسحاب ، فردوا كل ما كانوا غصبوه من أرض فارس وعادوا إلى الحدود التي كانت بينهم وبينها سنة ١٧٣١ .

العراق أثناء الحرب

نادر يهدد العراق

هذا الصراع العنيف بين الترك والأفغان يصور لنا حال العراق خلال سنوات الفتنة أي في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ويؤكد لنا أن مصالحه وشئونه أهملت كل الإهمال من جانب الولاة وقد كان يرجى أن تعود الأمور إلى مجاريها في العراق بعد أن انتهى الصراع على أرض فارس وعادت البلاد إلى أصحابها ؛ ولكن صروف الأيام أبت على العراق ذلك ، إذ أن نهوض فارس من جديد وعودتها إلى القوة على يد نادر شاه كان معناه عودة النزاع بين الفرس والترك على أرض العراق ، كأنما كتب على هذه البلاد أن تكون قربانا مضحى على أي الحالات في هذه الأزمان . إذ أين للبلاد الهدوء والاطمئنان الذي يمكن أهلها من العناية بمرافق بلادهم مادام نادر قولي يصر الإصرار كله على أن تفتح له أبواب العراق يلجها كما شاء لزيارة قبور الأولياء والصالحين في النجف وكر بلاه ، أنهم مضطرون أن ينفقوا ماملسكوا من جهد ومال في الاستعداد للقاء هذا الفارسي العنيد ورده عن ولايتهم ، بل إن حاكم البلاد كان خليقا أن يجتهد في العدة حتى يتجاوز بها طاقة العراق نفسه ليدفع الغزاة التي قيل إن نادرا كان يتأهب لاجتياح البلاد

نادر يغزو العراق

فيها على رأس مائة ألف مقاتل - وماذا يبقى من الخير في هذا القطر
المسكين بعد هذه الغزوات المتكررة وطول الاستعداد للحرب والقتال،
لا بد أن تنحط حاله الاقتصادية ويفسد الكثير من نواحيه وتزداد
الاحوال فيه سوء : لقد استمر نادر يهدد البلاد بالغزو المخرب سنوات،
طويلة ، وتقدم بالفعل وحاصر بغداد حصارا شديدا أصابها منه بلاء
بالغ ، ولبت على الاسوار يجمع أهلها ويستخر منهم بارسال البطيخ
اليهم وهم في غمرات الجهد والعطش حتى كادت البلد تسقط في يده ،
لو لا أن كتبت لها السلامة على يدى القائد التركي المعروف بعثمان
طبل أى - الأعرج - بعد صراع طويل مع نادر ، تخلله ما يكون عادة بين
للتحاريين المسلمين من تناكر فكه وتمايثل مضحك يطرب له القادة
في حين يموت الجند وأهل البلاد ، وانصرف نادر عن العراق آخر الأمر
بعد معركة حامية دامت تسع ساعات سويا ايلي فيها الانكشاريون
بلاء طيبا ، انصرف عن بغداد ليحل ضيفا ثقيلا على مدائن الشمال
كتفليس واريقان وجنجاه وما اليها ، وليهزم الأتراك فيها هزيمة
ساحقة يموت فيها قائدهم عبد الله كبريلي

حصار بغداد

وهكذا غرق العراق كله - شماله وجنوبه - في الحروب والمنازعات
والاضطرابات زمانا طويلا ، ولم يحسم النزاع الا في السابع عشر من اكتوبر
سنة ١٧٣٦ بمعاهدة حلت فيها مشاكل العقيدة واعادت كلامن الجانبين إلى
حدوده الأولى بعد ثلاثة عشر عاما من الحرب والصراع ، فسد فيها كل شئ ، في
العراق وشمل الاضطراب القبائل فأخذت تنتقل بسرعة من ناحية
لأخرى ، وعاشت في شبه استقلال لا يكاد الوالى يجد متسعا من
الوقت ليردها إلى الطاعة . وكانت تلك الحروب والقلاقل فرصة
طية للقوى الأوروبية ، فأخذت مصالحها وأعمالها تنمو في البصرة
نموا خطرا والباشا في شغل عنها بحرب الأفغان تارة والفرس تارة
أخرى ، فأخذت اقدام شركة الهند الشرقية تثبت في أرض البصرة

معاهدة سنة
١٧٣٦ بين الفرس
والأتراك

الأتوريون يتهذون
فرصة الحرب

وتردّد عمالها في نواحي البلاد، وأصبح مصنعها في البصرة مؤسسة دائمة على رغم، ما كان رجالها يقاسون من رداة الجو ومساءات الحكام، ففي هذه السنوات. يذكر تاريخ الشركة نسبة عالية من الوفيات من موظفيها في العراق؛ ولكنه يؤكد كذلك أن قدم الشركة ثبتت نتيجة لذلك الصبر والجلد، وأخذ عمالها يتدخلون في شئون البلاد السياسية ويناصرون فريقاً على فريق كما حدث في سنوات ١٧٢٧ و ١٧٢٨، وكذلك انتعش مصنع الهولنديين انتعاشاً مكنهم من الاستمرار إلى سنة ١٧٥٢.

وكان طبعياً أن تؤدي هذه الحالة إلى تفكك وحدة البلاد وانفصال أجزائها، وقد كان الساعون لذلك نفر من ذوي البأس في الأقاليم والنواحي وطائفة من رؤساء القبائل، وقد رأينا كيف استقل آل أفراسياب بالبصرة، وبقي أن نعرف أن هذه الفترة شهدت ظهور أسرة الجليلي في الموصل واستبداها بأمره وتمكنها من الاستقلال به بجهود منشئها حسن باشا (١٧٣٠)، الذي استطاع أن يورث ولايته أبناءه، ومضى أفراد الأسرة يتوارثون ولاية الموصل حتى منتصف القرن التاسع عشر. كذلك انقطعت الصلة بين بغداد وولاية بابان في الشمال الشرقي، إذ استطاع والياها القويان خانة باشا وبكر باشا أن يستقلا بشئونها ويقطعا الأسباب التي كانت تصلها بالحكومة المركزية.

وفي أواخر هذا القرن بدأ سلطان المعاليك يظهر في العراق؛ وتاريخهم في هذا القطر وسموم إلى القوة والسلطان فيه شديد الشبه بسيلهم إلى القوة والظهور في مصر، فقد بدأ أمرهم في العراق خدماً وحرساً وعمالا في القصر؛ كان يوثق بهم صغاراً من تفلّيس وجورجيا، ويربون في البلاط أو المعسكرات بعناية ظاهرة، ثم توكل إليهم بعض وظائف.

بدء ظهور المعاليك
الجرس

القصر والحكومة ، ومن ثم يأخذون طريقهم إلى الوظائف الكبرى بفضل ما كان لهم من اقتدار ومواهب وما كانوا يبدون من الاخلاص لسادتهم وحسن الاستعداد للعمل ، وعلى مر الايام كثر عددهم ، ولم يقتصر استخدامهم على الباشا نفسه بل أقبل عليهم كبار العمال والحكام حتى صارت بغداد تضم منهم عدداً طيباً ، وأخذ الباشوات والحكام يثقون فيهم ويعهدون إليهم بالوظائف الهامة في بيوتهم ونواحي الادارة ، بل كان بعضهم يزوج بملوكه ابنته ، وبذلك أصبحوا ساعد الولاة الآمنين في إدارة البلاد وحكمها ، وتطلعت نفوسهم إلى الاستئثار بالسلطة كلما زاد مركز الولاة ضعفاً . ومن هنا يسهل علينا تصور السيل التي وصل بها هؤلاء الكرج (أو الجركس أو كولة من كما كانوا يسمون بالتركية) إلى منصب الولاية نفسه . ففي أواخر أيام أحمد باشا بدأ أحد هؤلاء المماليك يظهر ويبدى تفوقاً ملحوظاً في شئون الحكم والادارة ، فتولى منصب الكية الذي يلي الباشا نفسه ، واشتد على البدو والخارجين على السلطان حتى أحبه الناس ووضعوا فيه ثقتهم ، ولما اشتد ساعده زوجه أحمد باشا ابنته عديله هانم ، ومن ثم خطا إلى منصب الولاية بعد موت أحمد باشا حوالي سنة ١٧٤٥ ، وعلى الرغم من أن السلطان لم يقر هذا التعيين — وسارع بنقل سليمان إلى ولاية أضنة بعد قليل — ظل أهل البلاد ومن فيها من جند الأتراك ينظرون اليه نظرم إلى الرجل الوحيد الذي كان يستطيع أن يقر العدل والأمن بينهم ، فبدوا يشعرون بحاجتهم الجديد ويشغبون عليه حتى وجد نفسه مضطراً آخر الأمر إلى التسليم لسليمان باشا الذي عاد من أضنة ودخل بغداد دخول الظافر دون إذن السلطان ، ولم يلبث السلطان أن أقر تعيينه فأصبح أول حكام العراق من المماليك .

سليمان باشا اول
ممالك العراق

أظهر سليمان باشا حزمًا وقدرًا ، وأنفق وقته كله في شئون ولايته وأكثر من العسس بالليل في نواحيها حتى أطلق عليه لقب «أبوليلي» ،

أبوليلي

واستقامت شئون البلاد في ولايته حتى أتت وانزى الحكومة التركية في العراق في أوجها على أيامه ، فقد كان رجلا ماهرا قويا نهازا للفرص خيرا بشئون البلاد (١) ، واستمر يحكم البلاد ويصرف شئونها باقتدار مدى اثني عشر عاما . وكان لزوجته عديله هانم من السلطان شىء عظيم ، فقد كانت تتدخل في شئون الإدارة وتكيد للحكام وتأتى من الأمر ما تريد بجرأة ظاهرة أثارت عجب الناس في بغداد وغيرها ، وكانت لها طرائف لا تخلو من غرابة كتكوينها هيئة منتظمة من تابعاتها والباسين شارات معينة من الحرير . وكان الرجل من المهارة بحيث لم تثر أعماله هذه السخط والحق في القسطنطينية ، فظل يصرف الأمر على حسن الظن والولاء من الباب العالي ، بل قد استحق تقدير السلطان في أخريات أيامه أى سنة ١٧٥٢ ، إذ أرسلت إليه خلعة سنوية من الفرو ، هذا على الرغم من أنه لم يكن يرسل إلى مركز الخلافة مالا ، إذ أنه كان دائم الادعاء بأن حملاته ونفقاته تضى على ماتغله ولايته .

الاستكثار من
الجرس المالك في
العراق

وفي حكومة أبى لى ازداد استخدام الكرج المالك في وظائف الحكومة ببغداد ، واتجهت العناية إلى تعليمهم واعدادهم لكبار الوظائف والأعمال ، أنشأ سليمان هيئة من فتيان الكرج دربت تدريباً منتظماً على شئون الحرب والإدارة ، فكانوا يعلمون القراءة والكتابة وركوب الخيل والسباحة ، ومن ثم يرقون إلى مرتبة الجريكلى التى تؤهلهم لمناصب قيادة فرق الجند ، وبهذا استطاع أبو لى أن يشغل بالاً كراج كل وظائف الجيش والإدارة ، مما شل نشاط الأتراك والبغداديين أنفسهم ؛ وبدأ التحاسد والعداء يشتد بين الجانبين ، لأن أباً لى قصر كبريات المناصب على هؤلاء الممالك ، وبهذه الهيئة الجديدة استطاع الرجل أن يخضع البلاد كلها من جزائر البحرين إلى ولايات الشمال ، وترك البلاد عند موته في الرابع عشر من مايو سنة ١٧٦٢ على حال طيبة من الهدوء .

والتوحد والرخاء ، بل أن جيرانه من الفرس كانوا يخشونه ويرهبون جانبه ويتقربون اليه بالهدايا الطيبة تخافة أن يهيم بهم أو يسير جحافلهم نحوهم بيد أن الدولة ما كانت لتطبق هذه الحال من الاستقلال الذي

يتمتع به المماليك في حكم العراق ، لأن رجالها كانوا يتخوفون الحكم الأقوياء وإن أقاموا على الطاعة وأحسنوا في ولاياتهم ، لا يشفع لهم الاجتهاد ولا الاقتدار ولا بذل المال ، لأن أفرادهم بالأمر يعد جريمة وحده ، ثم إن حكم المماليك في العراق لم يكن خيرا خالصا ، لأنه حرم الدولة مما كان يرسل اليها من أمواله ، وحرم أهل البلاد والأتراك كذلك من الوظائف وجعل الحكومة وقفا على هذه الطائفة الغريبة التي كانت تشتد على الناس بالابتداء يوما فيوم ، هذا الى أن حكام العراق من المماليك أنفقوا جهدهم كله في الحروب والغارات ، ولم تكن كل ضرباتهم توجه الى أجنب أو غزاة وإنما الى قبائل من أهل البلاد ، ففي حكم أبي ليلي وعمر باشا قاست قبائل المتفق والاكراذ والباباز ويلات شتى من حروبهما وحملاتهما ، وإذا بقي من اهتمام المماليك شئ بعد ذلك فقد انصرف في مناورات لأقائدة للبلاد منها بين أبي ليلي ومماليكه أو بين خلفائه وزوجه عديله هانم ، فجعلت نواحي البلاد تتحرك بالسخط عليهم وتتوجه الرجا الى القسطنطينية للقضاء عليهم ، لأن استمرارهم في الحكم كان معناه اذلال طوائف البلاد وكلها والاستئثار بخيرها ، فكان هذا دافعا لرجال الدولة الى التعجيل بالعمل للقضاء عليهم .

الدولة العلية توجس خيفة من سلطان المماليك

وإذا كان الأتراك قد شغلوا عن شؤون العراق أيام أبي ليلي لما حاربهم من حرب الروس أو النمساويين ، فقد فرغوا من هذه المشاغل بعد معاهدة كتشك كينارجي سنة ١٧٧٤ وأصبح في استطاعتهم أن يشرعوا في العمل للقضاء على استقلال المماليك في العراق ، فخطوا

الأتراك يبدون العمل للقضاء على المماليك

مصطفى باشا

بجسير حملة الى العراق يقودها مصطفى باشا والى المرة ووالى شهرزور
وسليمان الجليل صاحب الموصل لينتقم من أبي ليلى لما نزل به من
الاذى على يديه ، وصحبهم كذلك عبد الله باشا الطويل والى ديار
بكر ، وكان معهم أمر بنقل عمر باشا إلى ديار بكر واحلال مصطفى باشا
محله . وإنما أخذوا معهم هذه القوات كلها لأنهم توقعوا ألا يمثل
عمر لأمر السلطان فاستعدوا ليأخذوه بالقوة إذا مال إلى العصيان ،
والغالب أن الرجل ما كان ينوى عصيانا ، لأنه عجل بالامثال
الأمر وخرج من المدينة في طريقه إلى ديار بكر مزوداً بما استطاع
حمله من الأموال . ولكن مصطفى باشا لم يرضه هذا التسليم الهين
الذى لا يكسبه فخراً ولا ذكراً ، فهاجم معسكر عمر على غرة واضطره
إلى الاسراع بالهرب ، وهو لا يدري السبب في هذا العدوان السيء ،
ويبدو أن المفاجأة أذهلته عن نفسه فوقع من على حصانه فدقت عنقه
ومات . ومن غريب الأمر أن مصطفى نفسه لم يكد يدخل بغداد حتى
شغل عما أتى من أجله ، وانصرف إلى اللهو والعبث في هذه الأسابيع
التي كان أولو الأمر في القسطنطينية ينتظرون فيها نتيجة مسعاه بشوق
شديد ، فلم تكد تنتهي إليهم أخبار عبثه وتضييعه حتى عجلوا بعزله
وتولية عبدى باشا والى كوتاهية شئون العراق ، فتقدم نحو بغداد ، ولم
يكد يقاربها حتى فر أمامه مصطفى باشا مسرعاً حيث لقي حتفه على يد
رجال السلطان في ديار بكر ، وماهى إلا أسابيع حتى كانت رأسه في طريقها
إلى القسطنطينية . وقد حاول عبدى باشا أن يستخلص الأمور من
بقايا الماليك فلم يستطع ، إذ كان أحد هؤلاء الماليك — عبد الله باشا —
قد استطاع في سنوات الاضطراب أن يجمع زمام السلطة بين يديه ،
عما اضطر السلطان إلى تعيينه في ولاية العراق ، وبهذا أرغم
السلطان مرة أخرى على اقرار الماليك في حكومة هذه البلاد ، ولكن

عبدى باشا

رجاله لم يكفوا بعد ذلك عن الكيد لولاية العراق بشتى الأساليب مما أغرق البلاد كلها في الحروب والمنازعات، وصرف جهدها إلى مناورات لاخير وراءها ولا غناء فيها ، فساءت أحوالها وجعلت تخطو نحو القرن التاسع عشر في حال من السوء والاضطراب والتفرق لم تعهد عليها في أحلك أيام الفوضى في العصور الوسطى .

استقلال العراق
عن الدولة

هذا ، ولم يكن حال العراق بدعاً بين ولايات الدولة إذ ذاك ، ففي هذا الحين كانت منازعات الدروز والموارنة في الشام على أشدها ، ولم يكن للدولة أى سلطان على جبال لبنان وحموران ، ونواحي البلقان ، وكانت سلطتها قد انعدمت أو كادت في الأيروس وولاشيا وملداقيا وكانت بذور الثورة قد أخذت تنمو وتشتد في الجبل الأسود وكذلك كان الحال مع عماليك مصر وأسرة الجزائر في عكا والوهابيين في بلاد العرب ، أى أن العراق كان — كغيره من ولايات الدولة — في شبه استقلال عنها ، يصرف أموره عماليكه الجركس على ما يهوون ويريدون . وقد كانت هذه الحال ملائمة كل الملائمة لنمو المصالح الأجنبية في العراق فاشتد ساعد وكالة شركة الهند واتسعت تجارتها في الصوف والمعادن ، وتحولت وكالة إنجلترا في البصرة إلى قنصلية رسمية ، وأخذ تجار ايطاليون يحيطون رحالهم ويستولون على أسواق البلاد . وقد كان ضعف الحكومة المركزية ، وخروجها عن طاعة السلطان مؤدياً إلى تفرق النواحي عنها وخلعها الطاعة فعلاً ، فتحدث رجال الأقاليم وشيوخ القبائل بالثورة عليها ، وكان هذا حافزاً للأوروبيين على التدخل في نواحي البلاد وممكناً لهم من شئونهم التجارية : فمن ذلك الحين بدأت السياسات الأوروبية تلتفت نحو العراق وتحاول الاستفادة من ظروفه ، وربما نشأت في ذلك الحين فكرة سيطرة الانجليز عليه ، لأن نهره العظيم كانا يكوّنان طريقاً مائياً صالحاً للهند عن سبيل البحر الأبيض والشام ، وإنما يصح هذا الفرض لأن الأسطول الانجليزي كان قد بدأ

يتبين أهمية عكا في ذلك الحين ، وكانت العلاقات بين الانجائز والجزار آخذة في الصعود في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر .

تقدير ممالك العراق

يبد أننا لا ينبغي أن نغبط ممالك العراق حقهم ، فليس من العدل في شيء أن نقرنهم إلى ممالك مصر مثلاً ، لأنهم — أي ممالك العراق — كانوا على كثير من الخلق الطيب وحسن التبصر والقدرة على سياسة الأمور والاخلاص في الالتفات إلى شئون الحكم ، فعلى الرغم من أن كل الظروف كانت مواتية لهؤلاء الممالك للخروج عن طاعة الدولة صراحة ، فقد ظل الكثيرون منهم على الطاعة ولم يقطعوا الخطبة أو يطردوا عمال الباشا إلا في مناسبات قليلة جداً . ولم يخلع باشوات الممالك طاعة السلطان في وقت من الأوقات، بل استمرت طاعة السلطان معترفاً بها في ولاياتهم في الخطبة والسكة والمراسلات الدائمة والهدايا القليلة والآثورة غير المنتظمة، في هذه الأشياء كان إعلان الطاعة تاماً ، وكذلك كان هذا الولاء يظهر فيما كان يحدث من مسير جند السلطان جنبا إلى جنب مع حرس الباشا الكرجي ؛ وفي هذه الناحية لا يقل باشوات الممالك اخلاصاً عن أي حاكم آخر من الذين اخضعوا البلاد للاستانة (١) كذلك اجتهد هؤلاء الباشوات في حماية البلاد من الفرس والوهابيين، واقتدروا على الدفاع عنها من هذين العدوين ، ولولا جهد باشوات الممالك لضاعت البلاد بينهما. وكان ممالك العراق يدا واحدة ينظمون الأمور فيما بينهم، ولم يكونوا يتصارعون أو يكيد بعضهم لبعض الكيد الذي أخذ الأمور على ممالك مصر، واستطاعوا أن يسوسوا الأمور بحكمة أرغمت السلطان على احترامهم والتسليم لهم ، حتى لقد كان السلطان لا ينظر للعراق في أيام ولاية الممالك من أمثال سليمان الكبير أو داود باشا إلا على أنه جار محترم لا ولاية خاضعة ، وكذلك كان أهل الاستانة أنفسهم ينظرون (٢) . ولم يكن

(1) Longrigg, Op. Cit P. 199

(2) Ibid P.100

هؤلاء الممالك بحامدين ولا مشغولين بالغرور كما كان الحال مع ممالك مصر ، وانما سنجد أنهم كانوا يحاولون أن يعيشوا في عصرهم كلما استبانوا من قوة الغرب وصلاحيه أساليبه أشياء جديدة ، فلم يجمدوا جمود ممالك مصر ، ولم يقفوا من الحضارة الاوروبية موقف العدو الجاهل الذي يعاديا لانه لا يفهمها ولا يقبل عليها لانه يخاف مجرد تجريبها. وكلما تقدمت بهم الايام ازدادت قدرتهم على الحكم وازداد سلطانهم على البلاد ، ومن هنا بلغت قوتهم أوجها في عهد آخر اثنين منهم وهما سليمان الكبير وداود باشا اللذان حكما العراق بنجاح من أواخر القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر ، فلنقف عند حكمهما وقفة قصيرة لتعرف أحوال العراق في شيء من الدقة والتفصيل خلال هذه السنوات الحاسمة التي اشتد الصراع فيها بين الشرق والغرب .

سليمان وداود

كان سليمان مملوكا ممتازا ، يشهد بذلك معاصروه من المسلمين والاوروبيين على السواء : فيشهدوا فور دجوز بانه كان نموذجا لطيفا للبasha التركي ، . وكان في مظهره معاني كثيرة من التعقل والانسانية . وكان ممتازا في كل فنون الحرب والألعاب حتى ليضارع محترفيها ، وكان مخلصا وذا حمية في ممارسة شئون دينه وعقيدته ، وكان رحما بالقدر الذي يُسمح به لتركي أن يكونه مع قوم تعتبرهم آية من آيات دينه كفارا ، وكان دقيقا مقتصدا في نفقاته حتى لقد رمى بالبخل ، ولكنه لم يكن يتأخر — عند ما يرى بلده في خطر — عن أن يخرج شيئا فشيئا عما كان قد جمعه وعنده ، وكان بلاطه فاخرا وقصره شديد الشبه بقصور كبار الحكام ، وقد لقي في أول أيامه عوناً وعظماً من الانجليز

سليمان بويوة

فلا زال يذكّر ذلك إلى أواخر أيامه» (١) ويصفه الإيطالي سستيني بأنه كان رجلاً جميلاً ، ذا طبيعة مرحة صريحة ، وهو شجاع جداً (٢) ويؤكد أوليفيه الفرنسي انه « كان مهتماً بمراعاة الطبقات المنكودة ، وكان يمنع كبار ضباطه من أن يرتكبوا المظالم ، ولم يكن لبيع أعمال الاستبداد ، ولم يسمح للعرب بأن يروّعوا الملاحة في النهرين ، وعاون التجارة وحماها بما ملكت يمينه ، وكسب تقدير رجال الحرب بما كان له من شجاعة ، وقد حبيه إلى الناس ما أذاع في بغداد من الأمن وما بسط في ربوعها من الطمأنينة بما ألهمه اللسان بالدعاء لحكومته (٣) وهكذا استطاع هذا الرجل القادر أن يقر الأمور في جانب العدل والرخاء مدى ثلاثين سنة في العراق . وقد أعانه على ذلك أن الممالك استطاعوا أن يحوزوا الولاية والباشوية معا ، فلم يكن بينهم وبين الدولة عدا . في الظاهر على الأقل . كما كانت الحال مع ممالك مصر الذين شغلهم نزاع ولاية الدولة عن كل خير ، ودفعهم إلى الأذى والاستبداد دفعا ، وكان سبباً آخر الأمر . في القضاء عليهم قبل أن يضعف أندايم في العراق بنحو أربعين سنة .

على رغم هذه القدرة كلها كان سليمان لا يكاد يقتدر على ضبط الأمور إلا بالجهد والنصب ، فقد كانت سعايات القرم لا تكف تثير عليه ولايات المشرق وتبعث عليه الفتنة في شتى النواحي ، وكانت مناورات الوهابيين تقلق البلاد وتروّعها ولا تكاد تترك للرجل فرصة الهدوء والسلام ، وكانت مساومات الأحكام الماضية ثقيلة الوطأة على

(١) رواء Brydges عن Harfard jones

A Brief History of the Wahauby P. P. 190-1 في
Sestini, voyage de Constantinople à Bassora en (٢)
1781 P. 163

G. A. Olivier, Voyage dans l'Empire Ottoman (٣)
l'Egypte et la Perse. IV P.P. 350-2

الولاية مما عاقه عن النهوض بها إلى الحد الذي كان يستطيع ، لو لم تكن البلاد مهدمة من أثر الاضطرابات والأمراض الماضية . كذلك كان أهل العراق ينظرون في شيء من الحسد لهذه الحكومة التي استبدت بالأمركه من دونهم ولم تك تدع لهم منه شيئاً ، ولو لم يكن سليمان قد اشتد في الرقابة عليهم لاستطاعوا أن يخلصوا منه ومن أتباعه . ولعل الضعف لم يباحق سليمان إلا من ناحية عوزة الدائم لجند مخلصين ، فقد كان جند الجركس آخذين في القلة مع الأيام ، وكان الباشا مضطراً إلى الاعتماد على الانكشارية ، فكان على دوام الخوف والحذر منهم ، واشتد سليمان كذلك مع قبائل العرب مما اضطر قبائل عُبَيْد وشمر إلى الأذعان بالطاعة له ، وملأ نفوس رجالهما منه حفيظة وضغنا ، ولم يقصر الوالي في مضايقة ارسال الجنود إلى وسط العراق لرد الخزائل إلى الطاعة حتى تمكن من ذلك بعد جهد جهيد . وزاد الأمر عليه حرجاً هجوم الوهابيين الذي روعه خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن عشر : أي أن الرجل قضى أيامه في الحرب وما يتصل بها ، ما بين حرب العابثين من أهل البلاد وكفاح المعتدين من جيرانها في الشرق والغرب .

الوهابيون

بدأ الوهابيون غاراتهم الشديدة على غرب العراق قبيل سنة ١٧٩٠م أي أن العراق كان وجهتهم الأولى بعد أن استقر لهم الأمر في نجد وشرعوا في الامتداد الخارجي ونشر دعوتهم خارج نطاق الجزيرة ، فتلقت قبائل العرب العراقية في المتفق وظافر وغيرهما هجوم الوهابيين الأول ، وما هو إلا قليل حتى أخذ يتسرب إلى مدائن العراق وعواصمه دعاة وهايون يخطبون على المنابر لنشر دعوتهم واجتذاب الناس إلى مبدتهم ، ولم يكن هؤلاء الدعاة ليقصروا في انتقاد الخليفة وولائه ورجال الدين ، فلقيت دعوتهم القبول من الكثيرين في قلب العراق نفسه ، وانهاled على سراياهم الغازية سبل المتطوعين ما بين مقتنع بآراء الوهابية ،

ومنتهز فرصة الانضمام الى جيوشها للفوز بالفتنة والاسلاب ، ومن هنا نفر أهل العراق المستقرون — سنة وشيعة — من هذا الغزو المفاجيء ولم يرجوا به . استمرت نواحي العراق الغربية تقاسى من حملات الوهابيين المروعة دون أن تخف قوات الوالى لردّها أو تخايصها من شرها ، وزاد الامر خطورة أن الوهابيين جعلوا يرصدون قوافل الحج ويهاجمونها في غير رحمة أو هوادة ، وعبثاً حاول شريف مكة أن يلفت السلطان إلى الخطر ، فلم يزد هذا الأخير على أن استحث واليه في بغداد على النهوض للجزيرة للقضاء عليهم ، وكلما تقدمت السنون كلما اشتد هجوم الوهابيين ، واصرارهم على أذى من يقع تحت يدهم من أهل البلاد ، وأخيراً نهض سليمان باشا — بعد أن أعيته الحيلة في الوهابيين — وأخذ يستعد لإرسال حملة قوية لتقر الأمور في الغرب ، وسارت الحملة المنتظرة في حدود سنة ١٨٠٠ ، فلم تقم بأمر ولم تلق قتالا ذا خطر بل اتفق الجانبان على أن يؤمن الحج وتخلي الحسا

غزو الوهابيين للعراق

تخريب كربلاء

يد أن الأمور عادت إلى ما كانت عليه بعد قليل ، اذ قامت جيوش الوهابيين في ربيع سنة ١٨٠١ بأخطر ما قامت به نحو العراق من غزوات ، فهاجمت كربلاء مركز الشيعة ونهبتها نهياً ذريعاً « ففي مساء ٢ أبريل انتشر بين أهل كربلاء الخوف من اقتراب قوات الوهابيين من المدينة ، وكان معظم أهلها يحجّون إلى النجف إذ ذاك ، فتسارع من بقي منهم إلى أبواب المدينة يطلبون الفرار . وكان عدد الوهابيين نحو ستة آلاف راكب وأربعمئة فارس ، فترجلوا على مقربة من المدينة وضربوا خيامهم بظاهرها وقسموا قواهم إلى فرق ثلاثة ، واجتمعوا في خان قريب ، ثم أخذوا يهاجمون البلد من أقرب أبوابها اليهم ، واستطاعوا أن ينفذوا إلى داخلها فأخذ ، أهلها — الذين ملكهم الرعب — يتفرقون في كل ناحية دون أن يقودهم أحد — واتجه المطهرون (أى

الوهايون) الأشداء إلى الأضرحة نفسها، وبدءوا عملهم عند قبر الحسين ،
فتزعوا قضبانته وأكسبته ومراياه الكبرى ، ثم أخذوا ينتزعون — في
عنف بالغ — كل ما وجدوا في المكان من هدايا الباشوات والأمراء
وملوك فارس : من الحوائط والسقوف الموشاة بالذهب وحوامل
المصابيح وغالي الطنافس والمعلقات وقوابل النحاس والأبواب المرصعة
بالجوهر النفيس ، وقتلوا في حرم القبر نفسه حوالي الخمسين شخصاً
وخمسمائة آخرين في صحن الضريح ، ومضى المهاجمون يقتلون في شوارع
البلدة بغير حساب ، واستباحوا حرمة الدور ، ولم يبقوا حدثاً أو امرأة
من الأذى الشديد أو الأسر المحزن بحيث بلغ عدد الموتى على تقدير
البعض نحو الألف والخمسة آلاف على تقدير البعض الآخر (١)

آل سليمان باشا

وكان هذا آخر ما حدث في عهد سليمان باشا ، إذ كانت قدمه
تقارب القبر في صيف سنة ١٨٠٢ ، وكان آخر ما فعله ان سعى سعياً
حثيثاً لكي يسلم الأمور من بعده لأحد أتباعه - أحمد باشا - وكان
من المماليك أيضاً ، وقد نفس آخرون على أحمد ذلك الاختيار وبدأ
صراع على الولاية في آخر أيام سليمان ، فشهد طلائعته وجفناه يهبطان رويداً
رويداً ليحجبا عن عينيه نور الحياة في أغسطس سنة ١٨٠٢ ؛ وهكذا
أغمض الرجل عينيه على مثل ما فتحهما عليه قبل ذلك بثمانين سنة مليئة
بالحرب والنشاط والعمل الصالح ؛ إذ يذكر له المؤرخون إلى جانب
حروبه بناء مدرسة في مدينة السلمانية وإنشاء فروع لها وإصلاح مساجد
القبانية وفاضل والخلفاء ، وتعيينه المدرسين فيها كلها ، وقد كسابة مسجد
أبي حنيفة بالذهب وابتنى سوقاً وخاناً بسرائجين وبنى دالي عباس
وشارمان ورسم أسوار منس دالي والحلة والبصرة وأعاد تأسيس دار
الصناعة في كوت والبصرة وجصائن وأصلح جسر تارين وحصن الزبير
وماردين واسكى بالموصل وابتنى منازل للناس في الاسكندرية وكر بلاه

وسعى في حفر قناة الهندية التي تسقى النجف ، وغير ذلك من الاعمال التي أفادت البلاد وبقى أثرها فيها زماناً طويلاً .

خوف أهل البلاد
من الوهابيين

استمر خطر الوهابيين ماثلاً يهدد أهل العراق وينذرهم كل عام بالغزو الشديد ، فأخذ أهل البلاد يتحصنون منهم ويتخذون الأسوار والحاميات لردهم حتى استطاعوا أن يأمنوا شرهم بعد جهد ، وعلى رغم هذا فقد أقاموا على الخوف منهم ، حتى لقد روى سائح فرنسي أن الناس لا يتحدثون في بغداد إلا عن الوهابيين (١) مما يدل على انتشار الرعب من جانبهم وحاجة أهل العراق في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر إلى من يؤمنهم في بلادهم ، وكانوا على الحق فيما تخوفوا إذ كان الزمان زمان منازعات لا نهاية لها بين الفرس والمماليك مما أضاع على البلاد كل ما كسبته من الخير في لحظات الأمان في حكم سليمان بويوق (الكبير) وزاد الأمر بلاء عودة الخطر الفارسي إلى الظهور حوالى سنة ١٨٠٦ واضطرار الباشوات إلى الالتفاف نحو الغرب من جديد مما استنفد جهدهم وصرفهم عن خطر الوهابيين ، إذ اضطر أحمد باشا إلى المسير إلى كرمان شاه للقاء الفرس الذين كانوا يتأهبون للوثوب . ولو قد وجدت البلاد إذ ذاك حاكماً قديراً لكان الخطب ولأحسن الناس بعض الأمان ، ولكن أمورها وقعت حوالى سنة ١٨١٤ إلى صبي صغير سيطرت عليه أمه ومستشاروها ، وهم الدفردار داود أفندي وصديق لاقية له ومضحك (٢) فأخذت الأحوال تسوء والاضطراب يعم والخطر يزداد اقتراباً وشدة ، إذ أخذ المقربون إلى أم ذلك الصبي يجتهدون في الوصول إلى مسند الولاية في بغداد

(1) Longrigg; Op. Cit P. 302

(2) Ibid. P. 234

حتى تمكن الدقردار داوود افندى من ذلك بعدمنازعات طويلة بينه وبين
الفرس وأولى الشأن في القسطنطينية ومنافسيه الذي لا عد لهم ولا حصر
في العراق نفسه

داود باشا

لا نزاع في أن داود باشا يعد أعظم من حكم العراق من المماليك — بل
هو أعظم حكماءه على الإطلاق إلى ما قبل أيام مدحت باشا — وهو كرجى
من أهل تقيس دخل بغداد حوالي سنة ١٧٨٠ ودخل خدمة سليمان
باشا فأحببه وقربه ، فمزال يتقلب في خدمته حتى وصل في أواخر أيامه
إلى منصب الدقردار — أى صاحب خراج البلاد — واشترك في المعركة
التي دارت بعد وفاة سليمان على الولاية حتى فاز بها على ماروينا .
ولم يمتز حكمه بقدرة ظاهرة ولا بنبوغ يستلفت النظر ولكنه أقر
الأمن في البلاد واستطاع أن يخلص بها من كثير مما كان قد ألم بها في
في سنوات الاضطراب الماضية ، وهو الذي أشرف على أمورها في
السنوات الحاسمة المليئة بالأحداث والتطورات التي مرت بها خلال
النصف الأول من القرن التاسع عشر ، في أيامه بدأت مظالم الانجليز
والروس تظهر في العراق ، فكان عليه أن يفسد تدبيرهم ليخلص بيلاذه
من شباكهم

مظالم الروس
في العراق

وكانت أنظار الروس قد بدأت تتجه نحو العراق لما رأوا من توفيق
الانجليز فيه واستحوذهم على أسواقه وتهيئتهم السبيل لاستعماله طريقا
للهند ، فتقدموا — لا ليفوزوا من خير العراق — بل ليكيدوا للانجليز
فيه . فبدؤا بتشجيع رجال الحكومة المتنافسين للوصول إلى الولاية
وانزاعها من ذلك الصبي ، فكان ذلك التنازع والتحاسد والكيد
من جملة ما أصاب البلاد من نكبات وهي تتقلّى فوق نيران القلق
والرعب من الغزو الخارجي والنهب الذريع ، واشتدت سعايات
الفرس بين ولاية الأقاليم في العراق فكان من نتائجها خروج

والى أرضروم على داود والانضمام لفارس ومعاونة عباس
مرزا على غزو إقليم البابان فى شمال غرب العراق ، وهى
مناورة كادت تنتهى بوقوع العراق كله فى يد الفرس ، إذ
استطاعوا أن يتقدموا حتى بلغوا حجب على مسيرة يوم واحد
من بغداد ، ولولا أن سئم الفرس أنفسهم استمرار الحصار وطلبوا
الصلح لوقعت بغداد فى يدهم ، وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت منطقة
السلامية شبه خاضعة لهم وأعطيت لتابع من اتباعهم

بلاطدلوود

استقرت الأمور بعد ذلك لداود وهذأت. فأخذت البلاد تنتعش ويعود
إليها رخاؤها ، وكان الرجل على كثير من المواهب والاقدار ، وكان
بلاطه زاهراً يضارع بلاط الخليفة نفسه ، يقوم على خدمته خدم من الجركس
فى أجل الحل والثياب ، ويحضر مجلسه العلماء وصفوة رجال الدين
فيناقشهم فى أمور العقيدة مناقشة تنتهى بهم إلى الاقتناع برأيه فى كثير
من الأحيان ، وكان ولاية العراق التابعون له فى البصرة وكركوك
وماردين يرهبونه ويخافونه ، وكذلك كان موظفوه واتباعه يسوسون
الأمور بأمانة خوفاً منه . وكان الكهية (منصب يعادل رئيس الوزراء)
والمحاسبون (يشبهون المستشارين ومن بينهم باب العرب مثل القبائل
العربية) وأعضاء الديوان والدفتردار وأمين سر المجلس ورئيس
الوصفاء وكبار المديرين ورؤساء المصالح وكبار الأغوات يقومون
على خدمته الشخصية : كل موكل بعمل خاص على مثل ما كان كبار
الملوك يعملون ، إذ كان الإشراف يقومون على خدمة مليكهم
ويتنافسون فى الحصول على شرف حمل الدواة أو المروحة أو تقديم
الماء أو المعاونة على اللباس ، فكان رجال الحكومة وسروات العراق
يتقاسمون خدمة أميرهم داود ويتنافسون فى ذلك ، فكان منهم
حارس الثياب وعامل القهوة ومقدم الحلوى والمشرف على ركوب

الأمير وصاحب البُسْط وحارس ماء الاغتسال وعامل ماء الشرب وحامل الشوبك وحامل الراية وغير هؤلاء من أصحاب الوظائف التي لا توجد إلا في قصور العوالم والخلفاء، هذا وكان للرجل حرس جر كسي كبير ازداد قوة ونظاما بعناية سليمان وداود، وقد جلب له هذا الأخير المعلمين الأوربيين فأصبح حياة حرية لها خطرهما، وكذلك كانت للبasha قوة عظيمة من الانكشارية والطبجية واللاوند من أهل البلاد، بحيث لا نخطئ إذا قلنا إن داوداً كان يحيا حياة قرية جدا من حياة الخليفة نفسه.

نظم الضرائب

وكانت أموال البasha تجمع من أنحاء البلاد على يد محصلين يرسلون من قبله إلى مختلف النواحي: بعضهم يلتزم ضرائب ناحيته وبعضهم يجمع لحساب البasha، وكانت الضرائب مقدرة على النواحي جملة وعلى بعض الموارد فرادى: فكان الأهليون يدفعون مالا إذا سقوا زرعهم أو عبروا جسراً أو مروا ببضاعة أو نزلوا سوقاً أو أكتروا مراكباً، مما كان يرهق الناس ويثقل عليهم في أحيان كثيرة، فكانوا يتوجهون بالشكوى إلى حكومة الاستانة نفسها للاعتصام بها من أذى الجباة الذين كانوا لا يحملون إلى خزانة بغداد كل ما يجمعون إلا في النادر.

ويبدو أن الرجل لم يكن يفهم مهمة الحاكم على الوجه الذي كان ينبغي أن تفهم عليه في عصره— في أوائل القرن التاسع عشر — فقد انقضت الأيام التي كان قصارى جهد الحاكم منصفاً فيها إلى الشائبة والصائفة ومناقشة العلماء والتندر مع الندماء وإنفاق الوقت بين المجان والجواري، تاركا أمور الناس إلى الخدم والاتباع والملتزمين، ولم يعد الحاكم ليشكر على « هبات اللجين وعنق العبيد » كما يقولون، وإنما كانت الأيام تتطلب من الرجل — على أقل تقدير — لوناً آخر من الحكم، يُمكن البلاد من أن تفتن إلى ما كان يحاك حولها من كيد

جمود داود
في أول ايامه

وتدبير من جانب الروس والانجليز والقوى الأوروبية الأخرى على وجه العموم .

المطامع الأوروبية
في العراق

كانت الأعين الأوروبية قد أخذت تتركز نحو العراق وتتضح قوايتها فيه منذ مطلع القرن التاسع عشر ، فلدينا مذكرات ثلاثين سائحاً زاروا البلاد في ذلك الحين ، وهؤلاء ليسوا إلا جزءاً يسيراً ممن زاروا العراق في هذه الأيام مقبلين من أوروبا والهند ، فمن سنة ١٨٠٠ كان نفر من الرهبان الكرملين الفرنسيين قد حطوا في بغداد ، ونزلوا كذلك رجل مالي يوناني ، وأقام بعض تجار البنادقة في الموصل وجعلوا يستقبلون ضباطاً من شركة الهند في مرورهم بالبلاد من ناحية إلى ناحية . وكان فرسان التار لا ينقطع لهم سير بين القسطنطينية وبغداد يحملون تقارير القناصل والباشا نفسه ، وكان بريد شركة الهند يمضي بانتظام من بغداد إلى حلب عن طريق الصحراء . وكان ملاحو الهند يحملون إلى البصرة الأقمشة الحريرية والمخملات من فرنسا والأقمشة الانجليزية ، ومعادن ألمانيا وبضائنها وزجاج فينا وبوهيميا والسكر من أمريكا ،^(١) ونشط رجال الدين الفرنسيون والاطالبون ، وأخذوا يتناولون بعض أعمال السياسة التي تهم بلادهم : كما قام راهب فرنسي بأعمال القنصلية لدولته ، وهكذا أخذت المصالح الأوروبية تشتد في العراق ، لا يعوقها إلا بعض العدوان عليها من البدو أو من أهل البلاد بين الحين والحين . وكانت للفرنسيين الكفة الراجحة من حسن ظن الباشا ، فأولاهم ثقته كما أولاهم إياها كل حكام الشرق في تلك الأيام ، فكان منهم مدبرو جيشه وأطبائوه .

شركة الهند الشرقية

أما شركة الهند فقد أفادت من هذه الظروف كلها ، وعاونت

الممالك على الاستقلال بتقديم السلاح لهم ، لأن هذا الاستقلال يمكن لها من تثبيت أقدامها في البلاد وتصريف متاجرها في نواحيها ، واستعمال أنهارها للبواخر من غير أن تلقى اعتراضاً من الأتراك بل أخذ القنصل الانجليزي يتوسط للحكام لدى الباب العالي إذا وقع بين أحدهم وبين الدولة جفاء ، مما جعل للقنصل مركزاً ممتازاً ، وكذلك كان قنصل البصرة يؤدي خدمات سياسية ذات خطر لحكامها ، فربما توسط لاقرار الأمور بين واليها وبين حاكم مسقط أو الكويت أو غيرهما من صغار أمراء المسلمين الخاضعين لأشراف الانجليز البحري ، وهكذا أخذت قدم الانجليز تثبت في البلاد وسلطانهم يقوى ، فتحوّلت وكالة الشركة في بغداد إلى مركز ثابت يقيم فيه مندوب دائم ، ثم تحوّلت الوظيفة بعد ذلك إلى قنصلية دائمة سنة ١٨٠٢ . ومن هنا بدأ العراق وحكامه يحسون خطر الانجليز ، وأثر قرب العراق من الهند ، وكان قناصل الانجليز وسفراؤهم إلى بلاط العجم يمرون ببغداد بأبهة ظاهرة تثير الخوف في نفوس العراقيين ، وزاد الأمر خطراً أن قنصلي البصرة وبغداد لم يكتفيا بمجرد الإقامة ، بل أصبح لهما حرس كبير من أهل البلاد ومن الهنود ، وبهذا أصبح جانب «الآلشي» الانجليزي مهابة يحترمه الباشا ويقيم له قدره ، وكان استقلال داود عن حكومة القسطنطينية

مؤثرة الانجليز في العراق

ممكناً للانجليز من الانفراد بحكومة العراق وزيادة سلطانهم فيها ، ففي السنوات التي اشتبك فيها الانجليز مع الأتراك في الحرب في أوروبا من سنة ١٨٠٧ إلى ١٨٠٩ كانت العلاقة كأصفي ماتكون بين الباشا في بغداد والانجليز في الهند ، كأن عامل العراق أمير مستقل له سياسة مختلفة عن سياسة الدولة المركزية ، ولم يفتن داود إلى مطامع الانجليز في بلاده ولا إلى ما كانوا ينتوونه نحوها ، ففضى بأنهم وثق فيهم ولا يكاد يوجس من جانبهم خيفة ولا شراً

نبات دم لانهلير

وحوالي سنة ١٧٠٨ تولى وكالة الانجليز في العراق كلود ريتش
 جيمس ريتش Claudius James Ritch وكان على جانب عظيم من
 المهارة والاقتدار، فجعل يعمل على تقوية النفوذ الانجليزي في العراق حتى
 وفق إلى أن يجعل دار القنصلية مركز السياسة في العراق ، فكان
 يتوافد إليها كبار القوم وسرورات البلاد، ويجتمعون فيها لدراسة أحوالها
 أو للتشاور فيما بينهم من الشئون، ولهذا أصبحت بغداد مركزاً للسياسة
 الانجليزية في العراق وبلاد العرب وكل البلاد التركية الآسيوية، وأخذت
 تحل محل البصرة . ومضى ريتش يقوى النفوذ الانجليزي حتى أوجس
 داود ومن معه خيفة من مراميه، وبدءوا يتحدثون بالشكوى منه ويتساءلون
 عما يريد بالعراق بعد هذه الجهود كلها ، ومن هنا أخذت العلاقات تتوتر
 بين داود وريتش يوماً فيوماً حتى أصبحت عداوة مكشوفة ، فسارع الباشا
 سنة ١٨٣٠ بالغاء كل الامتيازات الأجنبية في العراق وبغداد ،
 وأعقب ذلك بمضاغفة الضرائب على المتاجر الانجليزية وتهديد
 القنصلية نفسها وعمالها بالأذى ، وهكذا أخذت الأمور تتخرج بين
 الانجليز والباشا حتى صمم ريتش على أن ينقل القنصلية من بغداد إلى
 بمباى مؤقتاً ، فمنعه الباشا من ذلك وحاول القبض عليه ، وبلغ العداوة
 بين الجانبين مبلغاً جعل ريتش يستعد بمخدمه من الهنود لمقاومة كل اعتداء،
 وأحاط دار القنصلية بالجند والهجانة ، واستمر الحرج قائماً زمناً طويلاً
 وريتش شبه سجين في دار القنصلية في بغداد، حتى تدخلت حكومة الهند
 وسفير الآستانة في الأمر فدخل سبيله سنة ١٨٢١ ، ولم تلبث علاقات
 الود ان عادت بين الباشا والقنصل

أسباب اغتنام الانجليز
 بالعراق

لماذا كان الانجليز يبدلون هذا الجهد كله لتثبيت أقدامهم في العراق ؟
 واضح جداً أنهم لم يصيبوا إذ ذاك من أرباح التجارة فيه ما يبرر هذا
 السعي الحثيث ، وواضح كذلك أن أحوال البلاد لم تكن تنبئ عن

رخاء مقبل يساوى جهد التدخل فى شئونها وتكاليف حماية قنصلياتها بالجند والاتباع اويسد نفقات الكاشفين والباحثين الانجليز الذين كانوا يتوافدون الى العراق زرافات ووحدانا فى هذه الايام ويقومون بابحاث مائية او علمية تكلف الحكومة او الشركات او الهيئات العلمية الانجليزية جهدا كثيرا وأموالا جسيمة. فلم يبق إلا أن الانجليز كانوا يهتمون بأمر العراق لأنه طريق ميسور إلى الهند، إذ تستطيع السفن الكبرى أن تنتقل بين الهند وشط العرب، وتستطيع السفن الصغرى أن تنقل المتاجر إلى أعلى دجلة والفرات، ومن ثم تحمل المتاجر على الجمال إلى حلب ومن حلب إلى البحر الأبيض - إلى عكاشلا، هكذا رسم الانجليز طريقا جديدا إلى الهند، وأنشأوا يبدلون الجهد من ذلك الحين للاستيلاء عليه وتأمينه، ولهذا شرعوا يبعثون بعوثهم الاستكشافية الرسمية لدراسة مياه دجلة والفرات وتقدير مدى صلاحيتها للسفن والملاحة التجارية. ويرجع هذا الاهتمام بالعراق إلى زمان الحملة الفرنسية على مصر، إذ أقفل الفرنسيون طريق الشام والعراق فاضطر الانجليز إلى استعمال طريق الشام والعراق، وظل هذا طريقهم إلى الهند بالفعل طوال إقامة الفرنسيين بمصر، ثم انصرفوا عنه حيناً بعد خروج الفرنسيين من هذا البلد. ولكنهم عادوا إلى الاهتمام به حين نهض محمد علي وأشرف على طريق مصر وأخذ يستغله لحسابه ويرقب الانجليز فيه، ففى خلال العشرة الثالثة من القرن التاسع عشر بدا للانجليز أن نهضة مصر خطر على طريق السويس، فبدأوا يحاربون نهضتها من ناحية ويبحثون لأنفسهم عن طريق جديدة من ناحية أخرى، ولهذا نشطوا نشاطاً بالغاً فى حرب محمد علي على ماسبق يابه، ثم أخذوا يرسلون بعوثهم الاستكشافية بقيادة الكولونيل كسنى Chesney وأرمزبى Ormsby واليوت Elliot وبلوس لينش Bloss Lynch وغسيرم من المغامرين

الاستعماريين الذين عرفوا العلاقة بين الهند والعراق فخفروا اليه
يفامرون بجهودهم وأرواحهم محاولين كشف طرقه وامواه
وسبر غورها .

حكومة الهند توجه
نظرا الانجليز الى العراق

حركة الاستكشاف

كسني

وكانت حكومات الهند هي صاحبة فكرة طريق العراق وصاحبة
الفضل الأول فيما بذل الانجليز من جهد في ذلك الصدد ، وأعانتها
شركة الهند بمالها وضباطها وسفنها ، ففضى الانجليز في ذلك بجهد
متصل وعزم يبعث على الاعجاب . وكان أول دعاة هذا الطريق
وأكثر الانجليز اهتماما به هو الكولونيل فرانسس . ر . كسني الذي
تشجع في العمل حين مد له اللورد بليرستون يده وحين ثارت في البرلمان
الانجليزى ثورة تحبذ طريق العراق وتدعو اليه . بدء كسني عمله بأن
قدم نفسه لخدمة الامبراطورية في استكشاف طريق العراق بدون
مقابل ، وذلك لأنه وجد شركة الهند والحكومة الانجليزية تختلفان
في تعيين من يتحمل نفقات الاستكشاف ، وشرع الرجل في بعثته
الاستكشافية مع خمسين من صغار الضباط بحماس بالغ في أواخر
سنة ١٨٣٦ . وحصل على تصريح بالعمل في وادي دجلة والفرات . بوساطة
اللورد بنسبي الذي كان لا يخمد له جهد في هذه الأيام للقضاء على
محمد علي - ومن هنا شرع محمد علي هو الآخر يكيد لكسني وبعثته
ويضع العرافيل في سبيله ، وكان للبعثة سفينتان بخاريتان إحداهما ودجلة
Tigris والأخرى الفرات Euphrates فمضتا في العمل حتى غرقت
إحداهما أثر عاصفة رملية في حوض الفرات . ومضت البعثة في
عملها فلم تسلم كذلك من كيد الفرنسيين ، إذ كان الرحالة الفرنسي
فوتانييه إذ ذاك يحوس خلال العراق ويخيف أهله من مطامع الانجليز
ومساعيهم (١) مما جعل مهمة البعثة صعبة لا يكاد يبدو من وراءها فلاح

(١) وكان الفرنسيون أيضا يواصلون الجهد لتثبيت اقدامهم في العراق وغيره من البلاد الاسلامية

مما انتهى بالرجل وبعثته إلى العودة إلى إنجلترا في حال أشبه ماتكون
بالحبة الكاملة سنة ١٨٣٧

الانجليز يعادون
المالك

وقد كان الانجليز يرضون عن ممالك العراق طالما كان هؤلاء
لهم معوانا على ما يطلبون في البلاد من وفرة السلطان وتأمين السيل ،
فاما وقد بداهم أن لا أمان هؤلاء الممالك ، وأن بقاءهم في البلاد خليق
أن يوجد لهم الصعوبات ، فقد بدءوا يتغيرون عليهم ويرون ان
نجاح مشاريعهم يقتضى القضاء على داود وحزبه ، ومن ثم بدءوا
ينقلبون عليهم ويلتمسون السبل لمعاونة السلطان عليهم وإخراج العراق
من أيديهم ، وقد زاد الانجليز اصرارا على هذا الرأي حين وجدوا
أن قيام الممالك في العراق لايسهل لهم الكشف ولا يمكن لهم من
القيام باختباراتهم الخاصة بطريق الهند .

اضمحلال الممالك

وكان ممالك العراق أنفسهم في طريق الضعف والانحلال ،
لأن ورود الجركس الصغار كان قد انقطع أو كاد من موارد
الأصلية في جورجيا ، وكانت الدولة قد نشطت إذ ذاك في
القضاء على الانكشارية ، فقل عددهم في الجيش العراقي قلة
أضعفت جانبه ، وبهذا حرم المالك من القوتين اللتين كانوا

ومن هنا كان نزاعهم مع الانجليز في هذه النواحي بعد ان اتصر عليهم هؤلاء في الهند الانتصار الحاسم
المعروف، أنظر

Victor Fontanier (1) Voyages en Orient, Fntrepris
par ordre du gouvernement Francais de l'année 1829
(2 vols, Paris, 1829)

(2) Voyage dans l'Inde et le Golfe Persique,
par l'Egypte et la Mer Rouge 2 parts en 3. vols;
(Paris 1844—1846)

يعتمدون عليها. وذلك في اللحظة التي ظهر جلياً أنهم - أي المماليك - مقدمون فيها على صراع أخير مع الدولة نفسها. وكان المماليك إلى ذلك يعيشون في غير عصرهم ولا يكادون يبذلون جهداً في التمشي مع الأيام فيما تمشي بأهلها إليه، فقد كان داود وأتباعه على جهل تام بشؤون العالم الخارجي لا يعلمون عنه إلا ما ينبئهم به بعض السائحين ورجال السلك السياسي، وكان معظمهم لا يعرف مكان العراق على الخريطة ولا موضعه من الدولة المركزية، فكيف يعيش هؤلاء بين قوم كانوا قد انتهوا في ذلك الحين إلى رسم كل شبر في أرض العراق وقياس كل ذراع من مياه النهرين وتقدير كل ملمح يمكن أن ينتج من التجارة فيه، نعم لم يبد داود وأصحابه جموداً نحو الإصلاح والتقدم، ولكنهم كانوا لا يفهمون عصرهم حق فهمه ولا يبذلون الجهد اللازم لفهم ذلك العصر والتمشي مع أبنائه، فقد جلب داود المدربين الفرنسيين لجيشه والأطباء الانجليز لجنده، ولكن ذلك كان للمظهر لا للحقيقة، أي لا قناع الاوروبيين والسلطان بأنه يسغي للتقدم، ولو قد ترك له الخيار لارتد مسرعاً؛ وحالٌ مثل هذه لا يد لها أن تزول، خصوصاً وقد بدأ سلاطين آل عثمان جهادهم للإصلاح، وأرادوا أن يطبقوا إصلاحاتهم على نواحي الدولة كلها ومنها العراق.

لهذا أرسل السلطان في أواخر صيف سنة ١٨٢٦ أوامر مشددة بالقضاء على الانكشاريين في العراق على نفس الأسلوب الذي قضى عليهم به في تركيا، فوقف الباشا حيال ذلك الأمر في حيرة كبرى، لأن هؤلاء الانكشاريين كانوا مخلصين له على أي حال، يتفعمونه في شؤون الحرب ولا يكاد يجد عنهم عوضاً إذا هو أجهز عليهم دفعة واحدة، ومن هنا خطرت له فكرة غريبة تدل دلالة واضحة على مدى فهمه للإصلاح والأساليب الحديثة، فاستقدم فرق جيشه من مرا كزها على

القضاء على الانكشارية
في العراق

أسوار بغداد إلى قصره ، وأوقف فرقتين منها بالمدافع في مكان مرتفع مشرف على الساحة التي اصطف الانكشاريون فيها والمدافع مصلة عليهم . ثم قرى المرسوم الملكي بصوت مرتفع ، فتلقوه باستغراب وتكذيب ، ثم نهض الباشا ، والدموع في عينه — حسرة على مصير الانكشارية سند الاسلام القديم الحصين — فأمر بأن ينضموا جميعهم إلى الفرق الجديدة التي ستحل محلهم ، وهنا — ومن غير عنف أو ضجيج ، ومن غير تغيير القائد — قلب كل حندي من جنود النقابات قلبقة إلى لباس رأس من الطراز الحديث ، وسجل اسمه في الفرق النظامية (الجديدة) . ثم سمع الجميع طلقات الفرع تجلجل من المدافع التي كانت قد وضعت لغرض آخر — إذا استدعى الأمر ، وهكذا تم الإصلاح وتم الانقلاب الحديث . . . تغيير في المظهر وتحايل على الحقيقة وفرار مضحك منها ، هكذا فهم داود الأمر واطمأن إلى أنه نفذ أوامر السلطان . . حين غير اسم الانكشارية إلى النظامية واستبدل القلب بلباس رأس جديد ؛ إن هذا وحده ليدلنا أصدق الدلالة على عقلية داود وأصحابه وفهمهم لمسائل عصرهم وإدراكهم لمرامي سلطاهم محمود الثاني .

ثم أعقب داود ذلك بأمر مظهرى آخر ، فاستدعى المسيو ديفو Deveau الفرنسي لتدريب الجيش العراقي تدريباً حديثاً ، واستشار المقيم الانجليزى الماجور تايلور في أمور شتى ، وطلب كذلك طبيباً انجليزياً من بمباى لعلاج وعلاج جنده ، واشترى سلاحاً جديداً لآلاف من الجند ، وطلب ثلاث سفن كبرى ومقادير عظيمة من الذخائر . فأبى الانجليز عليه ذلك حذراً من أن يشتد به ساعده . ويبدو أن داودا فهم بعد زمن معنى الإصلاح وفائدته وأحس خطر الجرد الذي

داود يعمل
على الإصلاح

كان يصر عليه فبدأ يتجه وجهة جديدة؛ ومصادق هذا ما ذكره السائح
الانجليزي المستر A. N. Groves من أن « كل شيء في بغداد ينحونحو
التأثر بأوروبا ، وهذه الرغبة في اتخاذ الأساليب والاصلاحات
الأوروبية لا تقتصر على الناحية الحربية بل تتناول نواح أخرى أكثر أهمية،
فللباشا رغبة في أن يدخل الملاحة البخارية في هذين الهريين الجميلين . وفي
الحقيقة أني أحس أن الله يقدر لهذا الشعب تغيرات عظيمة (١)، ونشط داود
في الأمر نشاطاً يدعو إلى الإعجاب، فبذل همه بعيدة في افتتاح المصانع
وجلب الآلات من جنيف ، واستقدم بستانياً من اليونان، وأخذ
يتحدث عن طريق الهند ويتسأل عن مرامي المستكشفين من ضباط
الانجليز ، وأخذ الرجل يفيء بأنه صائر إلى القوة والتحضر حتماً ،
لأنه إذا كان يهتم للظهر وحده اليوم ولا يصل بفكره إلى اعماق معاني
الاصلاح ، فلا بد أن يعرف ذلك غداً، لأن نصحاء من الفرنسيين
واليونان لم يقصروا في بسط كل شيء أمام ناظريه بسطاً واضحاً جلياً .
وذلك ما كان الانجليز يحافزون أن يكون .. فهذا داود يوشك
أن يشتد ساعده ويقفل أبوابه في وجه المصالح الأوروبية، وهم في أشد
الحاجة إلى اضعاف العراق . حتى يخلو لهم الجو فيه، وحتى تصبح سكة
الهند عن طريقه آمنة لأرقيب عليهم فيها ؛ ومن ثم بدأت مخاوفهم من
داود تنشأ وتقوى ، وشاركهم الأتراك في هذا القلق — وربما أعانوا
عليه — ومن هنا أخذت الدولة تنظر لاستقلال العراق نظر الخائف
غير المطمئن، وبدأت تفكر في القضاء عليه ، حتى استقر عزمها على
الشروع فيه ، وندبت لذلك صادق افندي — أحد رجالها السياسيين —
للذهاب إلى العراق وإعلان داود باشا بالخلع .

نحوف الانجليز
من داود

(1) Rev. A. N. Groves; Journal of a residence in
Baghdad

وصل صادق أفندي حدود العراق وخطا في أرضه فكانما خطت معه الرزايا والويلات من كل جانب ، فقد كان مقدمه نذيرا للعراق وأهله بسنوات عجاف من المرض والمجاعة والحرب الأهلية والفيضانات لم يسبق لها مثيل الا في مصر الفاطمية أيام خليفته المستنصر المنكود ، ذلك ان داودا لم يكذب يعرف ما انطوى عليه صادق من خلعه وحل جنوده ، حتى ثارت ثائرتة ودبر مع اتباعه الخلاص من أمره ، فم لهم ذلك وخنقوه ولما يتم في بغداد أياما عشرة ، وخطرت اسطبول بانه مات بالكولرا ، فلم تجز الحيلة على رجال الدولة وبيتوا لدواد في انفسهم أشد الجزاء ، ولكنهم لم يستطيعوا فعل شي . في الحال ، لاشتغالهم بالتزاع مع صاحب مصر محمد علي إذ ذاك ، وكذلك ابى رجال الدولة ان ينهضوا للملاقاة داود - حذرا من قوته وخوفا من بطشه ، فمضوا يشترطون على السلطان ما يقبلون من ثمن للقيام بهذه المهمة ، حتى رست « المناقصة » آخر الأمر على الحاج محمد علي رضا باشا الذي قبل ان يقوم بالأمر لقاء ستة آلاف كيس .

نزل علي رضا حابا في مستهل سنة ١٨٣١ ، وهناك أقام وأرسل احد رسله — قاسم أفندي — الى داود يأمره بالتسليم طواعية ، كانما خاف ان يمضى اليه بنفسه . ثم تحرك من حلب على مهل فلم يكذب يمضى غير قليل حتى ترامت اليه أنباء روعته وأوقفته في مكانه ، ذلك أن طاعونا حادا كان يطرق أبواب العراق اذ ذاك ، ويتسلل الى بلدانه من الشمال مسابقا الجند في شدة وعنف لم يسمع بهما احد قبل ذلك ، فلم يكذب يحل ابريل من العام حتى كان الوباء قد نزل ببغداد ، وأخذ يقتال أهلها ويتفاقم بينهم بدرجة بعثت الرعب في النفوس ، فكان يموت منه في الأيام الاولى مائة وخمسون في اليوم ، ثم اشتدت وطأة الوباء في الأيام الاخيرة من الشهر حتى مات في نصفه الثاني سبعة آلاف ، وضاعف المرض

الشروع في القضاء على المالك

على رضا

تلكات العراق

١ - الوباء

قوته بعد قليل حتى ارتفع عدد الوفيات في اليوم الواحد إلى خمسة آلاف ، وهنا خيم على دار السلام سكون الموت وشملت هبة الرعب وانتابها فزع شامل ، ومضى الناس لاهمّ لهم إلا تجهيز موتاهم للدفن وتجهيز أنفسهم للمرض ، ووقفت الأعمال فلم يبق سقاء ولا عامل في متجر ولا في طريق ، حتى لقد طلب داود قارباً فلم يجد نوتياً يقوده ، وغصت الشوارع بالأطفال الذين شردهم الوباء وأتى على آلهم فأصبحوا لا يجدون مأوى ولا طعاماً ، وبعد قليل كف الناس عن دفن الموتى فأصبحت جثثهم ملقاة في الطرق تعيث فيها الكلاب بمرأى من البقية الباقية من السكان الذين انهك المرض قواهم ؛ ومضت الحال على ذلك حيناً ، ثم أقبلت النذر تنذر أهل العراق بشر جديد ، كأن الولايات لم يكفها عدو مهاجم ووباء متفاقم ، فأقبلت مياه دجلة تراحم ! نيل !

فقد شهدت العشرة الأخيرة من إبريل سنة ١٨٣١ مياه دجلة ترتفع كأنما ضاق صدره بآلام قومه ، ففاض منه الماء واندفعت فأنغروا ببغداد وطفى في شوارعها وحصر أهلها حصراً شديداً ، كأنما أقبل عوناً للمرض عليهم ، وأخذت أسوار المدينة تنهار أمام الماء ، وتداعى بنيان القلعة ثم اندفعت الأمواه في المدينة تكسح المساكن بالآلاف ، وتحمل معها جثث المرضى أمسكهم المرض عن الفرار ، وتهدمت أسوار زرائب الباشا فخرجت خيله بالملئات شاردة ، ومضت تضرب في الشوارع وقد روعها الأمر والماء يغمرها إلى بطونها ، وانهارت دعائم مخازن القمح فانفتحت على أبوابها وهكذا أشرفت الولايات في ختام إبريل سنة ١٨٣١ على مدينة الرشيد وهي تعاني سكرات الموت ، وقد أكل الوباء أهلها وأكل الماء بنيانها ، ولم يبق فيها إلا وحشة الخراب وسكون الياب ، واستحال ما فيها إلى تراب يغطيه عباب !

٢ - الفيضان

تبق له المصائب شيئاً يستحق عناه مقاومة على رضا ، فليدخل قاسم المدينة من أى ناحية أراد ، فما هو بواجب مقاومة ولا ضيراً وليحمل البضاعة كلها ان وجد أنها تستحق عناه حملها ، ولكن آل داود وأصحابه لم يستطيعوا أن يسلبوا أنفسهم بعد أن بدا لهم ما بدا من شدة قاسم وجنده ومن معه من اعراب شمر وعجيل ، فمضوا إلى قاسم وحاصروه حصاراً شديداً حتى سلم لهم ؛ ثم لم يكد الماء ينحسر قليلاً حتى اندلعت النيران في قصر داود بجدة لا تجد من يخدمها ومضى لهيبها يضيء المدينة المظلمة ، وتنعكس أضواؤها المفزعة في مياه الفيضان فتزيد الأمر هولاً ؛ وهكذا احترق قصر داود العظيم ، وأنت النيران على ما فيه من طرائف وغوالي ، وجند قاسم يعيشون في البلد فساداً كأن الأمر لا يعنيههم ؛ فثار الناس بهم وهموا للدفاع عن داود ؛ ووصل على رضا بجيشه في هذه الاثناء ، فهم أهل بغداد وجند داود يردونه عن البلد ويمسكونه على أسوارها ، وهكذا قام الناس يكملون ما فات الوباء أن يصنعه ، وابتدأ صراع عنيف بين الجانبين ، صراع طال مداه عشرة أسابيع حتى نشبت حكومة الاستانة من توفيق على رضا فبعثت إليه تستقدمه وتصرفه عن بغداد ، ووجد الرجل أن الارتداد عن المدينة محال ، لأن جنده لا رصون على الالتفاف حوله إلا على أمل الغنيمة في بغداد ، فأقام على الحصار ، ووجد داود كذلك أن البقاء على هذه الحال لا يطاق ، وكان منذ حين مريضاً يستعز به الداء فلا يملك من الأمر شيئاً ففهم آخر الأمر على التسليم ، فتوضاً وصلى الصبح ومضى يده الأعباء إلى القلعة وطرق أبوابها وطلب أن يسلم نفسه ، فلم تفتح له الأبواب فمضى إلى دار قريبة فدخلها ، ولبث حتى جاءه الجند في اليوم التالي يلقون القبض عليه ، وأخذوه إلى مجلس رضا حيث تبادل الرجلان التحايا

وشرباً القهوة سويًا ، ومضى المنادون يعلنون الأمان في شوارع البلدة التي لم تبق نكبات الدهر منها إلا حطاما .

عزل داود

وارسل داود بعد ذلك إلى أوروبا ، فدخل القسطنطينية وهو لا يدري لنفسه مصيرا ، ثم نفى بعد ذلك إلى بروسة مع أسرته حيث بقى نحو عام ، وأرادت المقادير أن تكتب في حياة الرجل صفحة جديدة ، فاستبقاه رجال الدولة على أمل الاستفادة منه في الأزمات العصيبة التي أحاطت بالدولة إذ ذاك ، وتعافى الرجل من مرضه المثبت وأقبل على العمل من جديد فأقيم واليا للبروسية ، ثم عين رئيساً لمجلس الدولة في الأستانة ، ثم نقل حوالي سنة ١٨٣٩ إلى ولاية أنقرة ثم إلى بروسة ، ثم كان ختام حياته جديراً بمكانته وماضيه ، إذ رضى عنه السلطان عبد المجيد وقدره ، فأقامه حارس الحرمين الشريفين بالمدينة المنورة وهناك قضى الرجل السنوات الثلاثة الباقية من عمره الطويل إلى جانب الحرم الشريف يستعرض هذه الحياة الطويلة الحافلة بالاحداث والمجد والويلات ، حتى وافاه أجله سنة ١٨٥١

نهاية الممالك
في العراق

وكان موت داود إيذاً بنهاية ممالك العراق ، كانت قيادتهم قد صارت إلى أحد اتباع داود وهو صالح بك ، فلم يكد المقام يستقر بعلي رضا في العراق حتى دعا الممالك إلى داره التي نزل فيها ، وهناك حصرهم حصراً عنيفاً وأطلق عليهم جنوده الألبان ، فاشتدوا عليهم حتى افترسهم عن آخرهم - حتى صالح بك نفسه ألقى من على حصانه وديس بسنابك الخيل - ووزعت في الناس أوامر السلطان بالقضاء على الممالك في كل مكان ، فتبعهم الناس حتى لم يعد لهم أثر هو بهذا تم القضاء على هذه الفئة التي كان وجودها آخر ما بقي من دلائل العصور الوسطى في العراق ،

مذبحة الممالك

ورأت بغداد مارأته القاهرة والاستانة قبل ذلك بسنوات

بهذا جرت الأمور في العراق على نحو يخالف ما جرت عليه في غيره من بلاد الاسلام في ذلك الحين ، فقد رأينا كل أجزاء الدولة العثمانية في مطلع القرن التاسع عشر خاضعة لسلطان الدولة ، ووجدناها في منتصفه خارجة على ذلك السلطان وقد بدأت شعوبها تتخذ سبيلها نحو الاستقلال وأنبات قومياتها بالنشوء والميلاد ، هكذا رأينا مصر والشام والبلقان وغيرها ، فاما العراق فقد كان مستقلا عن سلطان الدولة في مطلع القرن التاسع عشر فاذا به داخلا في سلطانها سنة ١٨٣٩ ، وإذا بسلطان الاتراك يزداد فيه ظهوراً كلما تقدمت به الأيام في القرن التاسع عشر ، فحوالي سنة ١٨٠٠ كانت بغداد والبصرة وكر كوك وحلب في يد حكام لا يعرفون للدولة طاعة ولا سلطاناً ، وكانت ولايات الحدود كهمدان وبابان وشهر زور والموصل تحت سلطان رؤساء عشائر أكثر استقلالاً وبعداً عن سلطان الدولة ، وأما في سنة ١٨٥٠ ، فأتنا نجد ايلات العراق الأربعة مجموعة إلى لواء الباشا التركي المعين من قبل القسطنطينية ، يحكمها بسلطان ظاهر ونية صادقة لا خضاعاً للدولة تماماً ، وكلما تقدمت السنوات كلما ازداد العراق خضوعاً وطاعة ، وظهرت عليه دلائل سيطرة الدولة العثمانية ، بحيث لا نخطئ إذا قلنا ان العراق كان أكثر أجزاء الدولة العثمانية خضوعاً للسلطان وطاعة للدولة العثمانية إلى قيل الحرب الكبرى .

سلطان الاتراك يستد في العراق

يبد أن ذلك كان خيراً للعراق لاضيراً عليه ، لعدة أسباب : أولها أن «الشعب العراقي» لم يكن قد نشأ أوقوى في ذلك الحين ، بل كانت البلاد مطمئن كل مغامر وهدف كل طامع ، وأملًا يتراوح بين القرنين

العراق يستفيد من عودته إلى حظيرة الدولة

١- ضعف لروح
المنوية في البلاد
اذ ذلك

والعرب والترك ، وغنيمة تنظر اليها روسيا وانجلترا بمجشع لا يخفى ، وقد رأينا كيف كان ضعف سلطان الأتراك على هذه البلاد مضيراً لها في السنوات الماضية ، وجاعلاً إياها ميداناً تحترب فيه هذه الدول وتتنازع على السلطان فيه ، من غير أن يكون في ذلك خير العراق أو فائدة ، بل عاد ذلك عليه بالضرر البالغ والخراب المتواتر والشقاء الذي لا ينتهى ، ولو قد بقى العراق على حاله من شبه الاستقلال والخروج عن طاعة الدولة للقى من صنوف الأذى شيئاً كثيراً ، لأن النزاع بين الدول سيشتد خلال القرن التاسع عشر شدة لا تعرف هوادة ، فكان

٢- دخول الأتراك
في طاعة الدولة بحية
من مطامع المول

نزاعها على العراق سيتضاعف ، ومن ثم يزداد به الأذى والضرر ، أما دخوله في كيان الدولة من جديد فقد آمنه ونقى عنه الأخطار ، وثانى هذه الأسباب أن الدولة العثمانية بدأت تصبح من حوالى منتصف القرن التاسع عشر عضواً في المجموعة الأوروبية ، أى دولة محترمة لا تجرؤ دولة أخرى على الاعتداء على شيء من زمامها ، فكان دخول العراق في كيان الدولة من جديد ضماناً له من أى مطمع من دول أوروبا ، فاستفاد العراق من مركز تركيا بعد مؤتمر باريس وغداً استقلاله ، فضمونا لا تجرؤ دولة أوروبية على الاعتداء عليه في هذه

٣- فقر العراق
وضعفه اذذاك

الفترة التى لم تسلم دولة ضعيفة خلالها من الاعتداء والأذى . وثالث هذه الأمور أن العراق كان إذذاك ضعيفاً فقيراً لا قبل له بتكاليف نفسه ، وقد كان محتاجاً في ذلك الحين إلى المال الكثير والنفقة البالغة لشئون الرى والمواصلات والأمن والتعمير والتجارة والدفاع وما إلى ذلك ، فكيف كان العراق يحصل على المال اللازم لذلك كله ولم يكن تابعاً لدولة قوية بعض الشيء ، غنية بعض الغنى ، تقوم عنه ببعض ما يعجز عنه من التكاليف والنفقات ، وتلك حسنة من حسنات الامبراطوريات الكبرى وفضيلة من فضائل الانضمام اليها ، فان

مزايا الانضمام
للإمبراطوريات
الكبرى

الدويلات الضعيفة الصغيرة تفيد الفائدة كلها من الانضمام إلى الإمبراطوريات ذات القوة والحول ، وتضعف ويضطرب حالها إذا انفردت بنفسها وأريدت على أن تقوم بتفقات نفسها ، وهذا أمر نلاحظه إذا قارنا حال الأمم التي كانت داخلة في زمام الإمبراطورية النمساوية أيام الإمبراطورية وبعدها ، فلاحظ أن « الإمبراطورية الرومانية المقدسة » كانت أقدر على القيام بالمشاريع الكبرى في المواصلات والدفاع والحكومة والتجارة من هذه الدويلات الصغيرة ، وأن التماسا مثلا كانت أحسن حالا وارغد عيشا في ظل الإمبراطورية منها في هذه الحال التي هي عليها اليوم ، وكذلك المجر وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا وعامة الدويلات التي تفرعت عن الإمبراطورية النمساوية القديمة ، فدخول العراق في حظيرة الدولة فتح له الاعتمادات المالية الكبرى ، ومكنه من الاستفادة من ميزانية تربو على ميزانيته أضعافا مضاعفة ، وجعله في حماية جيوش كبرى وأتاح له الاستفادة من خبرة رجال نوى كفاية وقدرة لم تكن متوفرة في العراق في ذلك الحين ، ورابع هذه الأسباب أن البلاد كانت في ذلك الحين في أشد الحاجة إلى الاستقرار والهدوء حتى تستريح من عناء الأزمات الماضية وويلاتها ، ولو قد تركت لشأنها لظلت قبائلها تضطرب في نواحيها وتحترب فيما بينهما فتزداد ضعفاً وتزداد البلاد سوء ، فأما هذا الحكم القوي فقد أمسك القبائل عن الكيد والحرب وأثبتها في أرضها فالتفتت إلى الزراعة ، وكان في التفاتها هذا بعثا جديدا للعراق ، لأن العراق قطر زراعي يحيا بالزراعة كمصر سواء بسواء وخامس هذه الأسباب أيضاً أن هذا الحكم القوي قد عمل — كما سنرى — على قتل النزعات الانفصالية التي كانت قائمة في نفوس القبائل والعشائر ، إذ أن كلا من هذه القبائل كان قد طال بها الاستقلال في ناحيتها ومضت

عـ. البلاد في حاجة إلى
الهدوء والاستقرار

هـ. القضاء على نزعات
القبائل والعشائر في
الانفصال

لا تحفل إلا بالانفصال بناحيتهما ، ومعنى هذا تفرق وحدة البلاد في السنوات التي كان ضروريا لها أن تتحد فيها ، فكان الحكم العثماني ضربة قاضية على النزعات الاستقلالية ، إذ أنه أخضع نواحيه كلها ليد واحدة ، بدأت وحدة العراق في الظهور وأحس رؤساء العشائر — للمرة الأولى — وبهذا أهم أعضاء في بدن واحد وبدأت تنشأ في قلوب هؤلاء الزعماء مشاعر الحب للوطن الواحد الجديد ، وأعان على ذلك أن الأتراك لم يتركوا العراق مقسماً إلى أربع إمارات كما كان بل ، أخذوا ينحرون نحو توحيده وجمعه كله إلى لواء واحد

إلى تلك الأسباب ترجع أهمية السنوات التي انقضت بين زوال المماليك وعودة العراق لحكم الأتراك ، فهي سنوات الحضارة للشعب العراقي على ما فيها من مساوي وعيوب ، لأن رعاية الأب خير للصبي من تركه للحوادث ترعاه وهو بعد حدث لا يميز ولا يشعر بنفسه : أيأ كانت حالة الأب ومهما بلغ الصبي من الحصافة والتوقد والذكاء ويزيدنا تأكداً من أهميتها أن المطامع الأوروبية — الانجليزية على وجه الخصوص — كانت قد اتضحت وأخذت شكلاً خطيراً جداً في هذه السنوات ، ففي ذلك الحين تم لبعوث الانجليز كشف النهرين ودراسة مائتيهما ، ورسم المصورات لهما ولبلاذ العراق عامة ، وأعقب ذلك تسير سفن منتظمة بخارية في النهرين واستعمالها في النقل من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر ، فلم يفتن عمال الأتراك لذلك ولولم ينشطوا للقضاء عليه بمناقسته تارة وبالاشتداد على الشركات الانجليزية تارة أخرى ، لأصبحت هذه الخطوط الملاحية قيدا يقيد العراق ويخنقه كما أصبحت قناة السويس في مصر بعد ذلك ، كذلك كانت التجارة الانجليزية قد بدأت تنتظم وتوسع في البلاد اتساعاً استتبع اهتماماً سياسياً من جانب الانجليز ، فلم يكن العراق تابعا للأتراك في ذلك الحين

توحيد العراق ادوليا

نشاط الانجليز
في البلاد

السفن البخارية
في النهرين

نشاط التجارة
الانجليزية في العراق

لا بتلعه الانجليز على هيئة كما ابتلعوا الهندو بلو خستان عن هذا الطريق
لا عن غيره ، وكانت تلك السنوات كذلك سنوات النزاع الحاسم بين
الروس والانجليز على فارس ، وكان هذا هو المصير الذي ينتظر العراق
لو لم يكن في رعاية خليفة آل عثمان ، وهكذا : كلما انقضى عام اتضح
للأوروبيين جانب من جوانب الخير الذي يفوزون به لو كان العراق
تابعاً لهم ، فيزداد بذلك تعلقهم به وسعيهم للاستئثار بأرضه ، وسنرى
ذلك واضحاً في زيادة الاهتمام بمشاريع سكة الحديد وبعوث الكشف
العلمي التي أخذت في هذه السنوات تتوافد إلى العراق للتنقيب عن آثار
الحضارة القديمة فيه ، كل تلك أسباب أخرجت العراق من عزلته
وجعلت تضعه شيئاً فشيئاً في مجرى التيارات الخطرة التي كانت تعصف
بالسياسة الدولية في هذه السنوات ، وما كان قدراً على المنازعة ولا
المساجلة وهو بعد يخطو نحو حياة جديدة ، فكان في انتسابه إلى الدولة
العثمانية إذ ذاك رعاية له وحفظاً على نحو من الانحاء.

البعث العلمية
في العراق

العراق يخرج من
عزله

كذلك كانت العلائق بين فارس والعراق تسوء رويداً رويداً في
هذه السنوات ، لأن أسباب النزاع والبغضاء القديمة بين الأتراك والفرس
لا زالت قائمة ، ومن ثم لازال خطر غزو الفرس للعراق قائماً ، ذلك
أن القبائل المتبدية كانت لا تفتأ تنقل بين أرض فارس والعراق ، تسبب
بهذا مشاكلاً لا نهاية لها ، وتوجد أسباباً للنزاع كل يوم ، وكانت
الحقوق التي يدعيها الفرس في الأماكن المقدسة في جنوب العراق
موضع النزاع بين الفرس والأتراك وسيئاً دائماً في التحرش والعداء ،
وكذلك كان تجار فارس يلقون من الأذى شيئاً كثيراً من باشوات
العراق ، فكان هذا يثير الشاه ويحفزه إلى التفكير في الانتقام
من الترك بضربهم في العراق ، وزاد ذلك العداء حدة ما كان الولاية
العثمانية يفعلونه من إيواء الخارجين على طاعة الشاه في بغداد ، وكان

سوء العلائق
بين فارس والبيعة العلمية

الحيان إلى ذلك لا يكفان عن النزاع على بعض بلدان الحدود التي يسكنها ترك و فرس أو فرس وعرب ، كبعدة المحمرة التي هاجمها على رضا سنة ١٨٣٧ ، فطلب الشاة تعويضا عما نتج عن ذلك من الخسائر ، ولا زال الموقف بين الجانبين دقيقا ينذر بالشر حتى اتفقا في معاهدة أرضروم الثانية سنة ١٨٤٧ على أن تبقى المحمرة في زمام فارس ، وأعقب ذلك تأليف لجنة من الفرس والترك والانجليز والروس لتقرير الحدود بين البلدين ، فلم تنته إلى حل صريح للسألة بسبب مطامع الجانبين واصرارهما على الخلاف ، وأعقب ذلك نشاط الانجليز والروس في رسم خرائط للمناطق بين العراق وفارس مما انتهى بأقرار الحالة وتحديد الحدود بعض الشيء في اتفاق عقد سنة ١٨٦٩ استقرت به الأمور في موضعها إلى حين .

وكانت المصالح الانجليزية في العراق قد تطورت تطورا استتبع تطور مركز الانجليز في العراق من الانجليز سياسة جديدة فيها من الخطر على مستقبل البلاد السياسي الشيء الكثير ، فبينما كان القنصل التجاري الانجليزي في العراق لا يطلب في القرن الثامن عشر غير مراعاة الامتيازات وكف الاعتداء عن الرسل والتجار ، أصبح المقيم الانجليزي في القرن التاسع عشر راعياً لشركات ملاحية كبرى ذوات رؤوس أموال ضخمة ، وحارساً لخطوط تلغرافية بذل الانجليز الأموال في إقامتها ، وأصبحت الدول الكبرى تعول على قيامها وسلامتها في شئون امبراطورياتها في الشرق مما يلي العراق ، وكان كذلك قد أصبح مشرفا على هيآت علمية فيها فيها طائفة من العلماء تتبع المجالس العلمية في أوروبا جهودهم بيقظة واهتمام عظيمين ، وكان مسئولوا إلى ذلك عن عسدد عديد من المؤسسات الخيرية كالمدارس والمستشفيات (١) ، وبلغت آخر أصبحت

له في العراق مصالح معينة يرعاها ويحرسها ، ولم تكن دولته كذلك أقل منه حرصا على ذلك ، وكلما انقضى يوم زادت هذه المصالح الانجليزية في العراق خطورة ، وجعلت الانجليز يقشبون بأرضه ويفكرون في أسلوب يؤدي بهم إلى الاستيلاء عليه ، ومن هنا تغيرت السياسة الانجليزية نحو العراق تطورا خطرا جديرا بالملاحظة اتجهت همه ولاية الأتراك وموظفيهم إلى تقوية الحكومة المركزية والقضاء على كل سلطة منافسة أو معادية لها ، فانصرفت عنايتهم كلها إلى القضاء على رؤساء العشائر ومن اليهم من قوى السلطان النافذ القديم في بعض مدائن الحدود ، ومن هنا لم يجد الباشوات متسعا من الوقت لادخال الأنظمة والاصلاحات الأوروبية في البلاد ، وربما كان أقوى أسباب ذلك أنهم لم يكونوا يفهمون هذه الاصلاحات أو يقدرونها قدرها ، ومن ثم لم نجدهم يشرعون في تعليم أهل البلاد تعليما حديثاً ، ولم يشرعوا في إنشاء مصانع جديدة ، ولم يفكروا في إدخال الأساليب الصحية الحديثة كما فعل محمد علي في مصر مثلاً ، ومن ثم سارت حركة الاصلاح في العراق سيرا بطيئاً جداً في المدة التي انقضت بين ولاية علي رضا وقدم مدحت باشا: الذي بدأ العمل المنتج الاصلاحى في سنة ١٨٦٨ ، بل لم يبدأ الولاية في تنفيذ إصلاحات محمود الثانى وعبد المجيد إلا في عهد نجيب باشا أى بعد سنوات طويلة من القضاء على دولة المماليك . ولم يبد في نواحي العراق من معالم التجديد إلا وجود طبقة منتظمة من الأندية الموظفين يتولون شئون الإدارة ويرتدون الملابس الأوروبية ، وربما كانوا أكثر فهما من غيرهم للحضارة الحديثة وأكثر تقديراً لها . وذلك مأخذ عظيم يؤخذ على الترك في ذلك الحين ، فلم يكن من الانصاف في حق بلد كالعراق أن يهمل الاصلاح فيه هذا الإهمال المغيب في تلك الفترة التي كانت

تقوية الحكومة
المركزية

بطء حركة الاصلاح

الدول تعدو فيها نحو التحضر بالحضارة الغربية عدوا .

والسبب في ذلك راجع إلى تصور ولاية الأتراك عن فهم الحضارة الأوروبية وفي جهلهم لواجباتهم حيال البلد الذي وكلت اليهم أموره، فعلى رضا نفسه لم يكن على شيء من القدرة في الحكم أو الإخلاص في عمله، فظلت البلاد على اضطرابها في عهده حتى ولى أمورها نجيب باشا سنة ١٨٤٢، فكان أقدر منه وأوسع فهما، وصرف همه إلى مقاومة النفوذ الأجنبي في البلاد، ثم أعقبه بعد قليل محمد رشيد باشا الملقب بجزليكي فكان خيراً من سابقه، وكان حكمه أعود على العراق بالخير، وصرف همه إلى مقاومة مفسد الموظفين فأخذهم بالشدة وعنى عناية شديدة بإنشاء قوات الري في العراق، وأعقبه باشوات آخرون لا يكاد التاريخ يذكر لهم شيئاً ذا أثر (١)

على رضا

نجيب باشا

محمد رشيد باشا

القضاء على آل الجليلي في الموصل

أما الذي استنفد جهد الولاة واستغرق اهتمامهم فقد كان توحيد البلاد والقضاء على كل منافس لسلطة الخليفة العليا، وذلك أجل ما قدم الأتراك للعراق من الخدمات، فقد اشتد الباشوات في القضاء على النزعة الاستقلالية التي كان يقويها في الموصل آل الجليلي، وتمكن محمد باشا الملقب بانجه بيرقدار من القضاء على سلطانهم في حدود سنة ١٨٣٥، فعاد الموصل جزءاً من العراق لا يفصل عنه تارة إلى ديار بكر وتارة أخرى إلى فارس، وكان شمالي العراق مقسماً إلى اقطاعيات تنفرد فيها بالحكم بيوت قديمة جعلت منه دويلات منفصلة عن العراق، فنشط الباشوات في القضاء على هذه البيوت واحداً فواحداً، حتى قضوا عليها في ماردين وشروان وبردست وسرشي وأربل وما إليها . كذلك كان جنوب العراق

(١) هم مصطفى نوري باشا (١٨٥٩) وأحمد توفيق باشا (١٨٦٠) وثاق باشا (١٨٦١) وفتح الدين باشا، ولم يحس أحد من هؤلاء حاجة البلاد، فظل إصلاح العراق مرهوناً بإرغال قادر حتى صارت الأمور سنة ١٨٦٨ إلى مدحت باشا أبي العراق الحديث

طعمة لبعض ذوى السلطة من رجال العشائر ، فلم يزل على رضا ومن تلاه يواترون الحملات والجهود حتى قضوا على كل آمال مشايخ النجف و كربلاء وغيرهما في الاستقلال ، وعاد جنوب العراق إلى الطاعة والاتحاد .

علاج مشكلة القبائل

فاذا أصبح العراق وحدة سياسية معينة الحدود والتخوم ، فقد نشط الولاية في علاج مسألة القبائل التي كانت لا تستقر في ناحية واحدة ، ولا تمكن أهل البلاد من مباشرة الزراعة وما إليها من وسائل الرزق المنتظم الذي يمهّد للنهوض ، فكانت هذه القبائل تمنع الحكومة من إقرار الأمن وتعوق المواصلات وتأبى الخضوع لأوامر الحكومة المركزية ، فلم يكن من الميسور القيام بأى إصلاح أو إحداث أى تقدم مادامت هذه القبائل على حالها من الاستقلال والعصيان والاستعلاء ، وكان خليقاً بالولاية أن ينهضوا لردها إلى الطاعة ، بيد أنهم أخطأوا في السبيل التي سلكوها لعلاج هذه الحال ، فقد لجأوا للقوة وحدها فأثاروا الحفائظ ولأوا القلوب ضغناً ، وكان أولى بهم أن يتعدوا عن كل أذى أو عنف ، فهؤلاء الرؤساء قوم لهم مكانهم ولهم « حقوقهم » التي كسبوها بمرور الزمن ، وكانوا خير أهل البلاد وذوى الكلمة المسموعة في النواحي والأقاليم ، ولم يكن إقرارهم يأتى عن سبيل السيف بل عن تمهيد طريق الزراعة لهم ، كان على الحاكم أن يتوجه إليهم بالنصح فيقول لهم « كفوا عن العيش على هذا النسق ، وعيشوا على الأسلوب الأحسن الذي سنمكن لكم منه » ولم يكن الحل الصحيح للمشكلة القبلية الدائمة هدم القبائل عن طريق الضربات الدامية بل تمهيد حياة جديدة لرجالها يقبلونها ويفضلونها ، وكان حل المعضلة التي صادفت نامقاً ونجيباً هو أن يقولوا لرؤساء العشائر « أقروا قبائلكم في الأرض ، وعاونوا رجالكم على أن يرووا أرضهم بالقنوات ، آمنوهم على ما بأيديهم ، ولا تفرضوا عليهم إلا الضرائب الحقيقية العادلة ولا

خطأ ولاية الترك

في سياستهم مع العشائر

تسمحوا لأحد أن يعدو على أرضهم ، وكافقوا المحسن مكافأة طيبة
وخذوا المسيء أخذاً ينفعه» (١)، فأما الشدة والعنف ، وموالاة الحملات
والبعوث فلم تكن له من نتيجة إلا تفريق القلوب وإقامة الثارات بين
القبائل وبعضها ، وبينها وبين الحكومة المركزية ، وقد حدث ذلك
بالفعل نتيجة لحروب نجيب باشا وشدة وسعاياته بين القبائل وبعضها ،
وإنما هدأت الأحوال بعض الهدوء حين اهتم جزليكي بإنشاء القنوات
للزراعة ، فانصرفت القبائل إلى الزرع ووجدت أنه أعود عليها بالخير
من مناجزة الحكومة ، فسارت إلى الطاعة دون حرب أو سعاية ؛ في
هذه الناحية فشل الحكم العثماني فشلاً أضر بالبلاد وعاقها عن المضي
في مدارج التقدم والحضارة .

هكذا مضى العمال يخطون خبط عشواء في سياسة البلاد ،
فأفسدوا باليسار ما أصلحوه باليمين ، وربما أحسن أحدهم فأفسد
خليفته عمله . ومضت البلاد في بطي السلفاة في طريق الرخاء
والاستقرار الذي هو الخطرة الأولى للتقدم . إذ لا يتاح للناس أن ينظروا
إلى الحضارة والسمو إلى شأوها إلا بعد أن يقرأوا في منازلهم وتهدا
أحوالهم ويسكنوا إلى أرزاقهم .

بنة كنى في
العراق

في ذلك الحين كانت الدول والشركات الأوروبية وحكومة الهند
وشركتها تواتر الجهد في التوغل في العراق وتمهيد نواحيه لطريق
الهند ، فبينما كان أهل البلاد يضربون بمجاديفهم الثقيلة ليتنقلوا بين
ضفتي دجلة والفرات كان كنى وأصحابه يبحرون عباب النهرين
بسفينتيهم البخاريتين « دجلة والفرات » ويمسحون شطآنهما
ويسبرون مياههما ويقدرون صلاحيتهما للملاحة ، لا تثنيهم عاصفة
هوجاء تغرق إحدى سفنهم وتقتل نفرا منهم ، ولا يعوقهم ركود

(1) Longrigg; Op. Cit, P, 289

الماء في مستنقعات الملوم ، حتى انتهى بهم الأمر إلى بعض الاطمئنان إلى إمكان الملاحة التجارية في النهرين ، وبعد ذلك بسنوات قليلة — حوالي سنة ١٨٣٩ — انتهى بلوس لينش من بحوثه وأنشأ شركته الملاحية ، واستقدم سفناً تقوم بالنقل النهري المنتظم في دجلة والفرات ، وأخذ يمد الطريق لجعل النهرين جزءاً من طريق دائم بين الهند وإنجلترا ، وبدأ في مفاوضة تجار الانجليز في الهند وإنجلترا لإنشاء ذلك الطريق معتمداً على نتائج الابحاث العظيمة التي قام بها استعمار يون مغامرون من أمثال فيلكس Felix وجونز Jones ، سلبى Selby وكولنجوود Collingwood وبوشر Bewcher ومن إليهم . حتى تمكن من إنشاء شركة بلغ من نجاحها أن استلقت أعمالها التفات رشيد باشا جزليكي ، فاهتم بمعارضتها بالشدة حيناً وبإنشاء شركة ملاحية أخرى برؤوس أموال عراقية تارة أخرى ، وقد وفق جزليكي توفيقاً طيباً فيما أراد ، واشترى سفينتين من بلجيكا هما « البصرة » و « بغداد » ومضى يعمل بهما في النقل للحكومة والتجار بنجاح أقلق الانجليز ، فمضوا يستعدون عليه السلطات في الاستانة ، ولم يمنعه ذلك من المضي في طريقه بنجاح شجع خليفته نامق باشا على شراء ثلاث سفن لمنافسة السفن الانجليزية بها ، واستمرت سفن العراقيين « الموصل » و « الفرات » و « الرصافة » تنقل صاعدة هابطة في النهرين زماناً طويلاً .

بلوس لينش ينشئ
شركة ملاحية
في العراق

الوالي التركي يعمل
على ابعاد الشركة
الانجليزية

شركة ملاحية من
الاتراك واهل
بلاد

وفي ذلك الحين أيضاً كان المهندسون الأوروبيون يطيلون النظر إلى العراق وأرضه لتصميم إنشاء سكة برية بين الخليج الفارسي والبحر الأبيض ، هذا التأمل الذي كانت ثمرة سكة حديد بغداد بعد ذلك بسنوات . وكان تواتر الاضطراب واضطراب الأزمات قد صرف الناس تماماً عن التفكير في التجارة أو طرقها فأنعدمت السبل

مشاريع السكك
الحديدية

بين المدن وبعضها ، وخلت المدن نفسها من الشوارع الصالحة لمسير العربات ، فكانت حركة التجارة في شبه ركود تبعاً لذلك ، وكانت الصلة بين أقسام العراق وبعضها : بين شماله وجنوبه شبه منعدمة ، فكان ذلك من أسباب تفرق البلاد وعدم شعور أهلها بروح الوحدة ، فكان من خير العراق أن نظر إليه الأوروبيون كطريق صالح للهند لأن ذلك بعثهم على العمل لشق الطرق في البلاد من الشمال إلى الجنوب — من البصرة إلى حلب — وإلى التفكير في الوسائل التي يمكنهم

سوء المواصلات
في العراق

مشروع
دي برتريس

بها الانتقال من حلب للشام أو لبلاد الدولة العثمانية ، أي للتفكير في الوسائل التي تقطع وحدة العراق وتصله بالعالم الخارجي صلة منتظمة ، وكان أول من فكر في ذلك رجل فرنسي هو السكونت دي برتريس Comte de Perthéris الذي قطع الطريق من دمشق إلى بغداد ، ثم وضع مشروعا لطريق منتظم للعربات بين البلدين ، وقد لقي مشروعه التقدير من التجار في الشام والعراق ومن رؤساء القبائل الذين مر بهم ، لأن الطريق الجديد كان يصلهم بالعالم ويعود عليهم بالربح الوفير ولكنه أثار مخاوف نافع باشا الذي قدر في نفسه وجود علاقة بين بواخر شركة لينش — التي تقطع النهرين من البصرة إلى بغداد وحلب —

وهذا المشروع الذي يكمل الطريق إلى البحر الأبيض ، فخاف مغبة هذا التدخل والترصيم ، واشفق كثيراً من اتصال الأوروبيين برجال القبائل ونشوء العلاقات بين الفريقين ، فعمل على إحباط المشروع حتى تمكن من ذلك حوالي سنة ١٨٦٥ . وكان أناس آخرون يفكرون

مشروع خط حديدي
من كاليه إلى بكيين
مارا بالعراق

في إنشاء الخطوط الحديدية في العراق ، فوضع أحد التجار الأيرلنديين مشروع سكة حديدية عظمى من كاليه إلى بكيين مارة بالعراق ، وهو مشروع خيالي لم ينته إلى شيء ، ولكنه فتح طريق التفكير في إنشاء السكك الحديدية بالعراق لايصال الشرق بالغرب ، وإنما أغرى

الأوروبيين بالبدء بالتفكير في إنشاء الحلقة التي تمر بالعراق سهولة أرضه وإمكان مد الخطوط الحديدية فيها ، وخلق معظم الطريق — من البصرة (أو القرنة) إلى بغداد — من المرتفعات أو الأرض الصلبة التي تعسر مد الخطوط الحديدية ، ولهذا تتابع المهندسون إلى العراق يبحثون الوسائل التي تؤدي إلى تحقيق ذلك الأمر ، ففي سنة ١٨٤٣ وضع Alexander Campbell مشروع سكة حديدية بهذا الفرات ، وشجعت شركة الهند على وضع الخرائط اللازمة لذلك ، ثم تبعه John Right سنة ١٨٤٩ فاتم ترسيم المشروع ، ولكنه لم يوفق إلى البدء في العمل ، وكذلك الدكتور J. B. Thomson الذي توفي في الأسبانية حوالي سنة ١٨٥١ ، وبعد ذلك بقليل دعا W. P. Andrew إلى تكوين شركة للحصول على رأس المال اللازم ، ودعا كبار المستكشفين في أرض العراق للعمل معه على تنفيذ ذلك المشروع ، فاجتمع إليه لينش وكسني وما كنيل ووضع الجميع خطة معقولة بمكنة التنفيذ لطريق يصل خليج فارس بالبحر الأبيض ، وقد أثار المشروع حماس بلرستون وتأييد سترايتفورد كاتنج ولكنه — أي اندرو — لم يجد المال اللازم ، فلم يتم منه إلا حوالي الثمانين ميلاً بين سلوقية ونهر الفرات ، واكتفى المشتركون بالاعتماد على البواخر للنقل بين أعلى الفرات والخليج ، واستمرت الجهود متصلة في هذه الناحية حتى أنشئت قناة السويس فلم يجد الانجليز داعياً إلى موالاة الجهود في العراق مادامت القناة الجديدة قد فتحت لهم طريقاً مائياً سهلاً للهند ، ومن هنا أرجى التفكير في مشاريع سكة الحديد والمواصلات في العراق .

كامبل يضم مشروع
خط حديدى بهذا
الفرات

اندرو يعمل
لتأليف شركة لهذا
الغرض

إنشاء قناة السويس
يصرف نظراً لانجليز
عن التفكير في
المواصلات بالعراق

يد أن ذلك لم يمنع التفكير في إنشاء خط تلغرافى يقطع العراق من الشمال إلى الجنوب ، وقد فضل الانجليز تسيير الخط عن ذلك

خط تلغراف

الطريق — لا عن طريق مصر — لأنهم قدروا أن الدولة العثمانية لا بد
مشاركة معهم في نفقات إقامته لما يعود عليها من المنافع إذا تم واتصلت
البصرة بالاستانة بخط تلغرافي ، لأن ذلك يعينها على الحكم ويوجد
لها طريقاً سريعاً للاتصال بولاياتها ، ولكن الأتراك تخوفوا مشاريع
الانجليز في أول الأمر ، ولم يمدوا يداً لمعاونتها ، لأن مشروع الانجليز
كان يرمى إلى مد أسلاك بحرية Cables تحت الماء من الهند إلى البصرة
وفي مياه الفرات إلى بغداد ثم على سطح الأرض إلى الاستانة : لاحظ
الأتراك أن ذلك الخط يراد به الاتصال بالهند فتخوفوا ما قد ينتج
عنه بعد ذلك . ولم يدخر الانجليز وسعاً في مواصلة المسعى حتى تم
الاتفاق بينهم وبين الأتراك حوالي سنة ١٨٦١ على أن يقوم
المهندسون الانجليز بإنشاء الخط لحساب الأتراك وحدهم ، وبهذا
أنشئ الخط التلغرافي من الاستانة إلى بغداد حوالي ذلك الوقت .
واستمرت جهود الانجليز في ذلك السبيل حتى أضافوا إلى الخط فقرة
جديدة وصلته إلى خانقين جنوبي بغداد سنة ١٨٦٣ ، ومن ثم اتصل
تلغراف العراق بخط فارس التلغرافي وتم إيصاله بخط الخليج
الفارسي والهند ، وهكذا لم ينقض هذا القرن حتى كانت شبكة
تلغرافية قد وصلت نواحي العراق كلها وربطت البلاد الرئيسية جميعها
وهل كانت شبكة التلغراف إلا إبدانا بشبكة أخرى يدبر الصائد
الأوروبي ، القاءها على العراق لصيده جملة ، وهل يقنع الأوروبيون
من هذا البلد الجميل بتلك الحصة القليلة ، أتتسى أوروبا خصب العراق
ومعادنه وتجارته وما يعود عليها من الربح إذا هي أتمت الاستيلاء
عليه ؟ .. لقد وضع الانجليز خرائط دقيقة لأرضه واتقنوا ترسيمها ،
وأقام منهم قنصل عظيم الشأن في بغداد ونائبون عنه في مدائن العراق
الكبرى ، وامتدت خطوطهم التلغرافية في كل ناحية فيه ، وأقبل بحاثهم

لاتراك يتخوفون
مراعى الانجليز

انشاء خط تلغرافي
من الاستانة الى
بغداد

شباك الانجليز
للعراق

إلى بلاده يبحثونها ويدققون في تأمل أحوالها ، وخف إلى بلاده المنقبون والباحثون يزبحون الستار عن حضارته الزاهية وازدهاره القديم ، فلم يبق لديهم شك في أن هذه البلاد كنز عظيم ينبغي المبادرة إلى الاستيلاء عليه ، وزادهم استمساكاً به قرب من الهند وضرورته لمواصلاتها ، لقد بان ذلك كله للانجليز واضحاً جلياً ، وعلينا نحن أن نعرف ماذا كان يدبر للعراق في لندن إذ ذاك ، وعلينا كذلك أن نلجس الغاية التي كانت البلاد ترمى إليها في هذه السنوات .

عجز الأتراك عن
حماية البلاد

وكان الأتراك يعرفون ذلك ويطوون أنفسهم على الخشية منه ، ولكن ما حيلة العاجز ؟ أنهم يبدلون الجهد في الاحتفاظ بكيانهم ولا يكادون يخرجون من حرب حتى يدخلوا في أخرى ، فأين لهم الفراغ لدراسة مشاريع العراق والعمل على استنقاذه من الشباك التي كانت تحاك حوله ، أين لهم القدرة على إحباط هذا الكيد والنجاة برعيته من المسببة الدائرة ؟ فلتطو تركيا نفسها على الخوف ، ولتكتف بأرجاء الواقعة ما أمكن الأرجاء ، حتى يرزقها الله بمدحت باشا الذي ترسله المقادير إلى العراق حوالي سنة ١٨٦٨ ليضع الأمور وضعا جديداً ، وليبدأ للبلاد عهداً جديداً من الحضارة ، ويمهد لهضة العراق الحديث .

مراجع عامة (١)

١ - مراجع عربية وتركية وفارسية

ابن إياس

بدائع الزهور في وقائع الدهور (بولاق ١٣١١ هـ)

ابن خلدون :

العبر وديوان المبتدا والخبر (بولاق ١٢٨٤ هـ)

ابن عساكر :

تاريخ دمشق مخطوط بدار الكتب الملكية

ابن واصل (٧٢٥ هـ)

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (مخطوط بدار الكتب بالقاهرة)

أحمد بن إبراهيم الصابوني

تاريخ حماه (حماه ١٣٣٢ هـ)

أحمد فارس الشدياق

الحوادث التاريخية والوقائع الدولية

أسكندر بك ابكار يوس

المناقب الابراهيمية والمآثر الخديوية (حص ١٩١٠)

أسكندر بيج تركمان

فارس تاريخ عالم أراي عباسي (طبع حجر في طهران سنة ١٣١٤ هـ)

أمين بن حسن الحلواني المدني - المتوفى سنة ١٨٤٤ م

مطالع السعود

طُبع في بمباي سنة ١٣١٣ م (طبع حجر) وهو مختصر للتاريخ الذي وضعه الشيخ عثمان بن سند البصري، الذي يبدأ أحداثه سنة ١١٨٨ هـ (١٧٨٤ م) وهي سنة ميلاد داوود

(١) لم نقصر هنا على إيراد المراجع التي اعتمدنا عليها في كتابة هذا الكتاب ، وإنما حرصنا على أن نضع أمام القارئ تبنا وافيا من المراجع التي تناول الكلام على الشرق الاسلامي وعلاقته بالغرب في الفترة التي قبلنا دراستها .

باشا، ويتهى سنة ١١٤٢هـ (١٨٢٦ م) . وقد روى الحلواني في مطالع السعود الحوادث إلى سنة ١٨٣١ ميلادية ، و اعتمد على دوحة الوزراء في اجزاء كثيرة من كتابه انستاس الكرملي (الاب) :

خلاصة تاريخ العراق : طبع البصرة سنة ١٩١٩ م
موجز مختصر جدا لتاريخ العراق من القديم إلى الحديث مع اشارات معترضة عن أحوال البلاد . وقد اعتمد اعتمادا شديدا على « غاية المرام » الذي سيرد ذكره أيوب صبري :

تاريخ وهايان (استامبول ١٢٩٦)
باز رستم :

تاريخ الأمير بشير الشهابي (مخطوط بمكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت تحت رقم ٣٨٤٧٨)

الجبerty :

عجائب الآثار في التراجم والأخبار (القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .)

جورجي زيدان

تاريخ التمدن الاسلامي (القاهرة ١٩٢٥)

جورجي زيدان :

تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر (مجلدان . القاهرة ١٩٠٢)

حافظ وهبه

جزيرة العرب في القرن العشرين (القاهرة ١٩٣٥)

حروب الإيرانيين :

مخطوط كتب في بغداد حوالي سنة ١٨٨٠ م . ويتناول تاريخ العراق من سنة ١٧٢١ م إلى سنة ١٧٤٦ م وقد اعتمد على دوحة الوزراء كثيرا

حسن توفيق افندي

حوادث ولاية الموصل سنة ١٣٢٥ هـ

بالتركية ، ويجد القارىء فيه تفاصيل وافية لحصار بغداد على يد نادرشاه (سنة

١٧٤٣ م) وولاية انجه ير قدار (١٨٣٥ - ١٨٤٣) وفيه جدول شامل لولاية الموصل من سنة ١٠٠٠ هـ الى حياة المؤلف

حسين ليب

تاريخ الاتراك العثمانيين : (٣ اجزاء القاهرة ٣٣٥١)

حنا ابو راشد :

تاريخ جبل الدروز (القاهرة ١٩٢٥)

حوادث ولاية بغداد سنة ١٢٢٢ هـ (١٩٠٤ م)

بالتركية وفيه ثبت واف . كام بغداد ابتداء من سنة ١٦٣٩ م . وسنوات حكمهم

خيرت افندى :

رياض الكتبا وحياض الادبا (بولاق ١٢٤١ هـ ، ١٨٢٥ م)

داوود بركات :

ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا (القاهرة ١٩٣٢)

درى افندى

دورى افندى سفار تنامه سى :

مخطوط بالتركية . وقد ترجمة M. Petits de la Croix وطبعه فى باريس

سنة ١٧٣٩ م .

رسول حاوى افندى

دوحة الوزراء :

مطبوع ومخطوط وكلاهما نادر ، الفه صاحبه بالتركية للوالى داوود باشا بين

سنتى ١٨٢٧ - ١٨٢٨ - وطبع فى بغداد سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م) بعناية مرزا

محمد بكير التفليسى ، وهو تكملة لكتاب نظامى زاده الآف الذكر ، ويتناول تاريخ

العراق من سنة ١١٨٨ م الى سنة ١٨٢١ م

رشيد بن على الحنبلى :

مثير الوجد فى معرفة انساب ملوك نجد (فى نسب آل سعود ، وبه فذلكة عن

تاريخهم حتى عام ١٢٩١ هـ . مخطوط فى حيازة المؤلف

سليمان بك بن حاجي طالب
بغداد كوله من حكومتك تشكيله اقراضنه دائر رسالة
أى تاريخ نشوء حكومة الممالك في بغداد وسقوطهم
كتاب صغير يتناول الحوادث في العراق بين سنتي ١٧٤٩ - ١٨٣١ وقد ألفه
سليمان بك بن حاجي طالب كيه ، واختفى تحت اسم مستعار - وتوجد منه ثلاث
أوراق نسخ مخطوطة في بغداد، ونسخة في القاهرة وأخرى في الآستانه

سليمان بك بن حاجي طالب كيه

مرآة الزورا :

يتناول تاريخ العراق من منتصف القرن الثامن عشر تقريبا الى منتصف ولاية
علي رضا باشا ، توجد منه نسخة خطية ، يرجح انها مسودة ، اما النسخة المنقحة فيظن
انها ضاعت اثناء نفي المؤلف .

سليمان صايغ :

تاريخ الموصل : طبع القاهرة سنة ١٩٢٤

ليس فيه من جديد ، وهو كثير الشبه « بحوادث ولاي العراق » الالف الذكر ،
والكتابان يعتمدان كل الاعتماد على مخطوط عربي عنوانه « منهل الاولياء » لمحمد
بن افندي العمرى . ويتناول تاريخ الموصل

سليمان بك عز الدين :

ابراهيم باشا في سوريا
بيروت ١٩٢٩

سيد ابراهيم فصيح

عنوان المجد في احوال بغداد وبصره ونجد

ملاحظات وصفية وجغرافية وتاريخية وتسييسية عن بغداد والبصرة وأهلها : ثم

تأليفه سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٣٦ م)

شانيزاده

الاجزاء الاربعة الاولى

تاريخ

شفيق غربال :

الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١
(القاهرة ١٩٣٢)

الامير صالح بن يحيى بن الحسين — من علماء القرن التاسع الهجرى
تاريخ بيروت وأخبار الامراء المبحثرين من بني المغرب (بيروت ١٩٠٢)
الشيخ طنوس الشدياق :

أخبار الأعيان في جبل لبنان (بيروت ١٨٥٩)

الفريق طه الهاشمى

مفصل جغرافية العراق (بغداد ١٩٣٠)

عبد الرحمن الرافعى بك

تاريخ الحركة القومية ، وتطور نظام الحكم في مصر ثلاثة مجلدات . القاهرة
١٩٢٩ — ١٩٣٠

عبد الرحمن بن عبدالله السويدي : حديقة الوزراء (١٧٢٢ - ١٨٠٥ م)
تاريخ مفصل للوالين احمد باشا ، وحسن باشا ولا توجد الآن الا نسخته المختصرة
التي قام بها سليمان أفندى الداخل عن نسخة أصلية بمكتبة حكمت الله بن عصمت الله
أفندى في استامبول

عبد الواحد بن الشيخ عبد الله باشعيان

زبدة التواريخ :

في ستة عشر مجلدا . مخطوط . يتناول تاريخ الخلافة في بغداد وتاريخ البصرة و
ويلم باطراف طويلة من تاريخ الدولة العثمانية وأخبار الحجاز ، وقد أورد المؤلف
فيه فقرات طويلة من مؤلفات أخرى كطالع السعود ، وانفرد بأخبار كثيرة
وتحقيقات فريدة

عثمان بن عبد الله

عنوان المجد في تاريخ نجد :

راجعه وصححه عبد العزيز المانع النجدى وسليمان الدخيل ، وطبعاه في بغداد

[مطبعة شبندر . بغداد ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م)]

سیدی علی رئیس :

مرآة الممالیک ، ترجمه للانجليزية A. Vambóy بعنوان

Travels and adventures of the Turkish admiral

Sidi Ali Reis

London, Luzac, 1899

ونشره في لندن سنة ١٨٩٩ . وقد نشرته مكتبة «اقدام» بالتركية (الاستانة ١٣١٣هـ)

علي ظريف الاعظمي البغدادي

تاريخ الدول الفارسية في العراق (بغداد ١٣٦٤ هـ)

رحلة العياشي قاس سنة ١٣٠٦ هـ : مجلدان

العيني : (٨٥٥ هـ)

عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان مخطوط بدار الكتب بالقاهرة

فتح الله بن علوان الكعبي

زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر : (١٦٤٥ — ١٦٢٦٥)

تاريخ قصير لحسن باشا والي البصرة بين سنتي ١٦٤٥ — ١٦٦٥ . طبع في

بغداد سنة ١٩٢٤ وقد استعمله : Mignon في كتابه

History of Modern Bassora

كشط الرداء وغسل الران في زيارة العراق — (مخطوط في

Cambridge Univ. Libraray

مرتضى افندي نظمي زاده (١١٠٠ هـ ، ١٦٨٨ م

كلشن بخلفاء

بالتركية ، تناول تاريخ الدولة الاسلامية من تأسيس بغداد الى سنة ١١٣٠ هـ

(١٧١٧ م ، طبع في استامبول سنة ١٧٣٠ ، والنسخ المطبوعة نادرة الآن . يوجد ،

منه اربع نسخ مخطوطة في مكتبة المتحف البريطاني

المحيي — تقي الدين بن داوود :

خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر : (٤ اجزاء القاهرة ١٢٨٤ هـ)

محمد ابن بسام الشميني

الدور الفاخر في اخبار العرب الاواخر :

يتضمن وصفا وبيانا عن قبائل العرب العراقية واحوالها الى حوالى سنة ١٨١٨ م .

محمد البتنوني :

الرحلة الحجازية (القاهرة ١٣٢٩ هـ ، ص ٨٧ وما بعدها)

محمد رفعت :

تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة (القاهرة ١٩٣٤)

محمد رفعت : محمد علي والخلافة : مجلة المقتطف مجلد ٦٣ ص ٢٥٩ الى ٢٦٣

محمدرأغب بن محمود بن هاشم بن الصباح الحلبي

أعلام النبلاء بتاريخ حلب لشهباء : ٧ اجزاء . حلب ١٩١٣-١٩١٦

محمد بن سليمان الرحبي :

بهجة الاخوان في ذكر الوزير سليمان

يتضمن تاريخ سليمان باشا والي البصرة

محمد فريد بك

البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية (القاهرة ١٣٠٨ هـ)

محمد فريد وجدى :

المدنية والاسلام (الطبعة الثانية القاهرة ١٩٠٤)

محمد كرد علي :

الحكومة المصرية في الشام (المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٤٣ هـ .

محمد كرد علي :

خطط الشام (ستة مجلدات . دمشق ١٩٢٥-١٩٢٨)

المرادى :

سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر

الأنبار اسطفان الدويهي

تاريخ الطائفة المارونية (بيروت ١٨٩٠)

الآب مرتين اليسوعي

تاريخ لبنان ، تعريب رشيد الخوري الشرتوني (بيروت ١٨٨٩)

ميخائيل الدمشقي :

تاريخ حوادث الشام ولبنان من ١١٩٧ — ١٢٥٧ هـ (بيروت ١٩١٢)
ميخائيل مشاقة :

الجواب على اقترح الاحجاب

(مخطوط في مكتبة الجامعة الامريكية بيروت رقم ٤٨٥٣٢
نعوم مغنغب

تاريخ الأمير حيدر الشهابي (القاهرة ١٩٠٠)

نوفل نوفل

كشف اللثام عن الحكم والاحكام في إقليم مصر وبر الشام .

مخطوط في مكتبة الجامعة الامريكية في بيروت تحت رقم ٦٠٧٧

ياسين العمرى بن خير الله العمرى الموصلى (١٧٣٤ م)
غاية المرام :

مخطوط يضم معلومات طيبة عن جغرافية البلاد وقبائلها ورجالها وفيه تاريخ
لبغداد الى سنة ١٨٠٥ م ، وحوادث السنوات الخمسة الاخيرة منه مرتبه فيه ترتيبا
وافيا له قيمة كبيرة

غرائب الأثر :

مخطوط يورد نفس الحوادث الواردة في « غاية المرام » بأسلوب آخر ويستمر
في رواية الاخبار حتى سنة ٨١١ م .

ب - مراجع افرنجية

اولا : مراجع تمهد لدراسة تاريخ الشرق الادنى ، وتصف ظروفه الجغرافية واحواله الاجتماعية وعناصر سكانه وأديابهم ، وتشرح الظواهر الهامة في تاريخه : وتسرد بإيجاز تاريخ اضمحلال الدول الاسلامية وتبين مواطن الضعف فيها ، وتتناول الكلام على الدول التي كانت قائمة في الشرق الأدنى في اوائل العصر الحديث كالعثمانية والصنوية والمغولية والممالك غير ذلك ، والدول الشرقية غير الاسلامة التي كان لها تأثير في تاريخه كالدولة البيزنطية ، وبعضها يتناول وصف محاولات الاوروبيين الاولى في الشرق : كقصة الانجليز في الهند ، وحربهم مع الفرنسيين ، وتاريخ البرتغاليين في الشرق . وتتناول كذلك وصف الرحلات الهامة ذات القيمة العلمية التاريخية - التي قام بها بعض مغامري الاوروبيين في البلاد الشرقية في اوائل العصر الحديث :

Anon,

Progress and Present Position of Russia in the East
(London 1836)

Anold, Porf. Sir Thomas W :

The Caliphate

Baron ed Tott,

Memoires sur les Turcs et les Tartares (Paris 1794)

Barrault, Emile

Occident et Orient, Etudes Politiques, Morales,
Religieuses, pendant 1533-1834, (Paris, 1835)

Beazly, Charles Raymond

Dawn of Modern Geography

(3 vols. 1897 — 1906)

Birch W. DE G.

Commentaries of Alfonso Dalboquerque

(Hakluyt Society, London 1875, 4 Vols,)

B. F. O. P. H. ,

The Rise of Islam and the Pan Islamic Movement

The Foreign Policy of Austria-Hungary

British Parliamentary Papers

The Correspondance Relative to the Affairs of the
Levant (London 1833 – 1841)

British Foreign Office Peace Handbooks

France in the Levant

Brocchi, G. B. :

Giornale delle Osservazioni Fatte ne Viagge in
Egitto, nella Siria e nella Nubia
(5 vols. Bassano, 1841 – 1843)

Bruce, J.

Annals of the Honourable East India Company
(3 vols. London, 1810)

Cacilia, Leonàrdo Di S. :

Viaggi in Palestina, Persia, Mesopotamia
(Rome, 1753 — 1757.)

Cahun, Leon :

Introduction à l'Histoire de l'Asie: Turcs et Mongols,
des Origines à 1405 (Paris, 1896)

The Cambridge Modern History :

Vol X: Chapters VI , XVII :

Vol. XI : Chapters IX , XI , XXII

Vol. XII : Chapter XIV

Capper, T. :

Observations on the Passage to India (London, 1785)

Courtney of Penwith, Lord (editor) :

Nationalism and War in the Near East (by a
Diplomatist)

Czaplica :

The Turks of Central Asia

Damas, M. La :

The Portuguese and Turks in the Indian Ocean in the Sixteenth Century (Journal of the Royal Asiatic Society : January, 1921)

Danvers, F.E. :

Portuguese in India (London, 2 vols. 1894)

Darcy, Jean :

Cent Années de Rivalité Coloniale (Paris 1904)

Davis, William Stearns :

A short History of the Near East [New York, 1931]

Diehl :

Byzance, Grandeur et Decadence

Histoire de l'Empire Byzantin

Un Ancien Diplamat,

Le Régime des Capitulations (Paris 1898)

Dupré, Adrien :

Voyage en Perse Fait dans les Années 1807-9, en Traversant l'Anatolie et le Mesopotamie (Paris, 1819)

Epstein, Mordecai :

Early History of the Levant Company (London 1908)

Fontanier, Victor :

Voyages en Orient, Entrepris par Ordre du Gouvernement Français de l'année 1821 à l'année 1829

(2 vols Paris 1829)

Grant, A. J. and Tempeley, Harold :

Europe in the Nineteenth Century (1789 — 1914)
(London, 1929).

Guinet :

La Turquie d'Asie

Heyd,

Histoire de la Commerce Française dans le Levant

Hogarth. David, George,

Nearer East (1902)

Howarth, Sir Henry Hoyle ,

History of the Mongols. (3 vols. 1876—1888)

Hoskins, Holford Lancaster:

British Routes to India (New York, 1928)

Houry, C B :

De l'Intervention Européenne en Orient et de son
Influence sur la Civilisation des Musulmans et sur la
Condition Sociale des Chrétiens d'Asie. (Paris, 1840)

Huntington :

The Pulse of Asia

Lavis et Rambaud :

Histoire Generale:

Vol. X, chapters VI, XXVI

Vol. XI, chapters XI, XV

Vol. XII, chapters XII, XIII, XIV, XV

Faucher, Leon :

La Question d'Orient d'après les Documents Anglais,
{Revue des Deux Mondes, 1841, IV, 261—289, 410-454,
517 —561}

Milherbe, Raoul :

L'Orient de 1718 à 1845: Histoire, Politique,
Religion, Mœurs. (2 vols, Paris, 1846)

Mills, S B. :

The Portuguese in Eastern Arabia and in the Persian
Gulf (Administration Report for 1884 —1885)

Masson, Paul :

Histoire du Commerce Français dans le Levant au
Dixhuitième Siècle.

Malleson, Colonel :

Les Français et les Anglais dans l'Inde

Michaud, Joseph François et J. Poujoulat :

Correspondance d'Orient. [7 vols. Paris, 1833-1835.]

Miller :

The Latins in the Levant

Miller :

Essays on the Latin Orient.

Muir, Sir William :

The Caliphate (London, 1891)

Mouradja D' Ohsson :

Des Peuples du Caucase. (1828)

Olivier, G. A. :

Voyage dans l'Empire Ottoman, l'Egypte et le Perse
(Paris IX)

Parsons, A. :

Travels in Asia and Africa (London 1808)

Peisker :

The Asiatic Back-Ground

(Cambridge Med. Hist vol I)

Peisker,

The Expansion of the Slavs.

Pingaud, Leonce :

Choiseul Gouffier, la France en Orient sous
Louis XVI

Pococke R.

A Description of the East (London 1743)

Pradt, Dom De :

Du Système Permanent de l'Europe à l'égard de
la Russie et des Affaires d'Orient (Paris 1827)

Rabbath, le Pere Antoine :

Documents Inédits pour Servir à l'Histoire du
Christianisme en Orient,
(2 vols. Beirut 1910)

Rabbath, Tournebize :

L'Histoire du Christianisme en Orient

Rawlinson, Sir. H. :

England and Russia in the East (2nd éd. 1875)

Ronciere, Charles de La :

Histoire de la Marine Française

Steen de Jehay

De la Situation Légale des Sujets non Musulmans
Sykes, Sir. M. :

Through Five Turkish Provinces (London, 1900)

Temperley, Harold :

England and the Near East - the Crimea

(London, 1936)

Thevenot, M. D. :

Relation d'un Voyage fait au Levant (Paris 1665)

Valentia, George, Viscount :

Voyages and Travels to India, Ceylon, the Red Sea,
Abyssinia, and Egypt in the Years 1802, 1803, 1804
and 1806 (London 1809 — 3 vols.)

Volney :

Voyage en Syrie et en Egypte.

Whiteway, R. E. :

Rise of the Portuguese Power in India

(London, 1893)

Gusav Weil :

Geschichte der Chalifen (1846 — 1861)

Yule, Sir Henry :

The Book of Marco Polo (2 vols, 1903)

ثانياً -- تاريخ المسألة الشرقية

Ancel ,

Manuel Historique de la Question d'Orient.

D'Argyll, Duc :

The Eastern Question — 1856 — 1876,
(London, 1881)

Bertrand, P. :

Tallyrand, l'Autriche et la Question d'Orient en 1805
(Revue Historique, 1889)

British Foreign Office Peace Handbooksj :

The Eastern Question

Chirol, Sir Valentine :

Middle Eastern Question (1903)

Documents Diplomatiques Rulatifs à la Question
d'Orient (Paris, 1842)

Driault, Edouard :

La Politique Orientale de Napoléon, Sebastiani et
Gardane (Paris, 1904)

Driault, E. :

La Question d'Orient depuis ses Origines Jusqu' à
la Paix de Sévres-1920 (8d. Ed., Paris 1921)

Guichen, Vicomte de :

La Crise d'Orient de 1839 à 1841 et l'Europe
(Paris, 1921)

Hasenclever, Adolph :

Die Orientalische Frage in den Jahren 1838-1841.
(Leipzig, 1941)

Holland :

The European Concert in the Eastern Question

Mariott, J. A. R. :

The Eastern Question: An Historical Study in
the European Diplomacy (Oxford, 1917)

Poignant, G.

Questions Diplomatiques et Coloniales, XXVI

Rodkey, F. S. :

The Turco—Egyptian Question in the Relations of
England, France and Russia, 1832—1841

(Urbana, Ill., 1924)

Ross :

Opinions of the European Press on the Eastern
Question

Sorel, A. :

La question d' Orient au XVIII siècle

(Paris, 1902)

Vandal, A. :

Napoléon et Alexandre 1er

(3 vols., Paris 1891—1896)

Zimmerman, Alfred:

Kolonialpolitic

(Leipzig 1905)

ثالثا — الدولة العثمانية — الى صالح باريس سنة ١٨٥٨

Allen, W. E.

The Turks in Europe

Bélin,

Du Régime des Fiefs Militaires

(Journal Asiatique ; 6eme Série XV)

Bélin.

Fetouas Relatifs à la Condition des Zimmis .

British Admiralty Publications :

Handbook Of Turkey in Europe.

British Foreign Office Peace Handbooks : Anatolia

— — — — — : Turkey

Brown :

Foreigners in Turkey.

Coquelle, P. :

La Mission de Sebastiani à Constantinople en 1801
(Rev. d'Hist. Diplomatique. 1903)

Creasy, Sir. E. :

History of the Attoman Turks.

Czartoryski, A. Prince :

Memoirs (2 vols. Paris, 1827)

Denis, Juchereau de St :

Histoire de l'Empire Ottoman (4 vols. Paris, 1844)

Eliot, Sir Charles. E. :

Turkey in Europe.

Dominian, L. :

The Frontiers of Language and Nationality in
Europe.

Eversley, Lord :

The Turkish Empire, its Growth and Decay.

Freemen, E. A.

The Ottomen Power in Europe (London 1977)

Gibb,

History of Ottoman Poetry

Gibbons,

The Foundation of the Ottoman Empire.

Gorianow, S.

Le Bosphore et les Dardanelles (Paris 1910)

Gourdon,

Les Négociations du Congrès de Paris.

Hammer

Histoire de la Porte Ottoman.

Hertslet, Lewis :

Complete Collection of the Treaties and Conventions
and Reciprocal Regulations between Great Britain and
Foreign Powers as far as they Relate to Commerce and
Navigation (24. Vol London)

Jonquière A. de la :

Histoire de l'Empire Ottoman

(Rev. ed., 2 vols. Paris 1914)

Jarga :

Geschichte des Osmanischen Reiches (Gotha. 1908)

Heinrich Kuntze :

Die Dardanellenfrage. Ein Völker-Rechtliche Studie

(Rostock. 1909)

Lamartine :

Histoire de la Turquie

Lavallée Th. :

Histoire de l'Empire Ottoman

Libyer,

The Government of the Ottoman Empire.

Luke:

Cyprus under the Turks.

Miller, William

The Ottoman Empire and its Successors,

1801—1922

(Cambridge, 1923)

Mac Forlane, Charles:

Constantinople in 1827

(London, 1829)

Michaud, Louis Gabriel :

Mahmoud II, Biographie.

Biographie Universelle, vol. 72, 340—352

Mischeff, P. H:

La Mer Noire et les Détroits de Constantinople

Moltke, Helmuth Von :

Briefe über Zustände und Begebenheiten in der
Turkei au dem Jahren 1835 bis 1839

(Berlin, 1841)

Mouraxveiff :

Les Russes sur le Bosphore en 1833

(Moscou. 1869)

Nesselrode, Comte Charles de :

Lettres et Papiers du Chancelier Comte de
Nesselrode, 1760—1856 (11 vols, Paris, 1904)

المجلدان السابع والثامن

Nicomède, J:

Une lettre écrite a S. E. M. Le Marquis de
Villeneuve (voir Hammer, XIV. 514 ff. and XIII. 14.)

يتناول وصف الحرب التي وقعت بين فارس وتركيا في صيف سنة ١٧٣٣

Nouradoungian, Gabriel :

Recueil d'Actes Internationaux de l'Empire Ottoman.

(2 vols, Paris, 1900)

D' Ohsson,

Tobteau General de l'Empire Ottoman

(18th Century)

Otter, M. :

Voyage en Turquie et en Perse.

(Paris, 1748)

رحلة من مندالي إلى بغداد إلى البصرة بين سنتي ١٧٤١ : ١٧٤٣

ثم من الموصل إلى ديار بكر وهو كتاب هام جدا

Pinon, René :

L'Europe et l'Empire Ottoman.

(Paris, 1809)

Poole, Lane S :

The Story of Turkey.

Poole, Lane S. :

Stattford Canning, Viscount de Redclyffe

(2 vols. London 1888)

Puryear, Vernon John :

England, Russia and the Straits Question (1844 -
1856.) (Berkeley, 1931.)

Rousset, Camille:

La guerre de Crimée

Rycaut,

The Present State of the Ottoman Empire

(17th Century)

Sax, L. Von :

Geschichte des Mochtverfalls der Tuerkei.

Schevill, Ferdinand :

The History of the Balkan Peninsula from the
Earliest Times to the Present Day (New York, 1922)

Testa, Le Baron, de :

Recueil des Traités de la Porte Ottomane, avec les
Puissances Etrangères depuis le Premier Traité Conclu en

1536.. jusqu' à nos Jours (6 vols. Paris 1864)

Thornton. T. :

The Present State of Turkey (2 vols. London, 1820)

Toynbee:

The Western Question in Greece and Turkey
(London, 1923)

St. Denys. Le Baron Juchereau :

Histoire de l'Empire Ottoman depuis 1792 Jusqu'en
1844 (4 vols, Paris, 1844)

Urquhart. David :

Turkey and its Resources: Its Municipal Organization
and Free Trade.. etc. (London, 1833)

— Le Sultan et le Pacha d'Egypte (Paris, 1839)

— La Crise de France devant les Quatres Puissances.
(Paris, 1840)

— The Lebanon : a History and Diary, (2 vols. London,
1860)

Vandal, Albert

Une Ambassade Française en Orient, la Mission du
Marquis de Villeneuve

Zinkeisen, John Willhelm :

Geschichte des Osmanischen Reichs in Europa.
(7 Vols. Gotha, 1840 — 1863)

رابعاً : مصر (من قبيل الحملة الفرنسية الى سنة ١٨٤١)

D'aubigné,

Vie de Klèber (Paris. 1880)

Baldwin George, :

Political recollections relative to Egypt. Containing
observations on its Government under the Mamelukes, its
Geographical Position, its Intrincic and extrincic Resources,

its Relative Importance to England and to France, and
its Dangers to England in the possession of France
(London 1801)

Becker, Martha F.:

Dèsaix (Paris. 1852)

Berterand :

Campagnes d’Egypte et de Syrie

Berthier. A. :

La Relation des Campagnes du General Bonaparte
en Syrie et en Egypte (Paris. an VIII)

Berton. Le Comte de :

Essai Sur l’Etat Politique des Provinces de l’Empire
Ottoman Administrees par Mehemed Ali.
(Paris. 1839)

Besumée. Hassan :

Egypt under Mohammed Aly Pasha.

(London. 1838)

Bonapartès Letters :

The French Expédition into Syria. Comprising
General Bonapartes Letters. (2 n. d. éd. London, 1799)

Bowring. John :

Report on Egypt and Candia...etc (London, 1840)

Breton :

L’Egypte et la Syrie (6 vols. Paris. 1841)

Bridier. L. :

Une Famille française, les de Lesseps

(Paris, 1906)

Bruce, James :

Travels to Discover the Source of the Nile in the
Years 1768—1773. (5 vols., Edinburgh 1790)

Cadalvene, Ed. de, et Beuvery, de :

L'Egypte et la Turquie de 1829 à 1836

(2 vols. Paris, 1836)

Cameron, D. A. :

Egypt in the Nineteenth Century (London 1898)

Capper, James :

Abservations on the Passage to India through
Egypt and across the Great Desert (London 1784)

Cargill, William :

Mohemed Aly, Lord Palmerston: Russia and France

(London 1840)

Carré, Jean — Marie :

Voyageurs et Ecrivains en Egypte de la fin de la
Domination Turque à l'Inauguration du Canal de Suez,

(2 vols. Caire, 1932)

Cattaui, Joseph — Edmond :

Histoire des Rapports de l'Egypte avec la Sublime
Porte. (du XVIIIe Siècle á 1841), Paris, 1919

Cattaui, René,

Le Règne de Mohamed Ali d'après les Archives
Russes en Egypte, Tome Premier, Rapports Consulaires
de 1819 à 1833. (Société Royale de Géographie d'Egypte)

(Caire 1931)

Chanut,

Campagnes de Bonaparte en Egypte (3 vols. Paris. 1811

Chuquet, A.

Quatre Généraux de la Revolution : Kleber, Hoche
Desaix, Mancau.

(4 Series. Paris 1911)

Clot—Bey, A. B. :

Aperçu Général Sur l'Eypte (2 vols. Paris 1840)

Delprech, Comeiras :

Considerations sur la possibilité, l'intérêt et les
Moyens qu'aurait la France de rouvrir l'ancienne route du
commerce de l'Inde (Paris, an VI)

Denon, D V.

Voyages. (2 vols. Paris, 1802)

Denv, Jean:

Sommaire des Archives Turques du Caire
(Société Royale de Géographie d'Egypte) (Caire, 1930)

Description de l'Egypte, ou Recueil des Observations
et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant
l'Expédition de l'armée française, publié par les ordres
de Napoléon le Grand (10 vols. Paris 1809—1822)

Dodwell, Henry:

The founder of Modern Egypt. A Study of Mohammad
Ali (Cambridge, 1931)

Driault, Edouard,

La Formation de l'Empire de Mohamed Aly de
l'Arabie au Soudan (1814—1823) Correspondance des
consuls de France en Egypte (Caire, 1923)

Driault, Edouard;

Mohammed Aly et Napoléon
(1807—1814) (Caire, 1925)

Driault, Edouard :

Précis de l'Histoire d'Egypte (Mohamed Ali et
Ibrahim) (Caire, 1931)

Douin, George :

- Angleterre et l'Egypte. 2 vols
(Société Royale de Géographie d'Egypte)
(Caire, 1928 — 1930)
- La Mission du Baron de Boislecomte, l'Egypte et
la Syrie en 1833 (Caire, 1927)
- Mohamed Ali et l'Expédition d'Alger
(Société Royale de Géographie d'Egypte (Caire, 1930)
- Une Mission Militaire Française auprès de Mohamed
Aly etc.
(Société Royale de Géographie d'Egypte)
(Cairo 1923)

Durrien :

Lettres sur la campagne d'Egypte
(Carnets Historiques, 1899)

Lieut-Col. Fitzclarence :

Journal of a route accross India through Egypt to
England in 1817—1818 (London 1819)

Fontanier, Victor :

Vayage dans l'Inde et le Golfe Persique, par l'Egypte
et la Mer-Rouge (2 parts in 3 vols, Paris 1844-1846)

C. De Freycinet :

La Question d'Egypte

Froment, D. :

Du Commerce des Europeens avec les Indes par la
Mer Rouge. (Paris, an VII)

Gallaway, John Alexander:

Observations on the proposed improvements in
the Overland Route via Egypt, with remarks on the
Ship Canal, the Boulac Canal, and the Suez-Railboard
(London, 1844)

Ghorbal, Shafik

The Beginnings of the Egyptian Question and the
Rise of Mehemet Aly (London 1928)

Gore, Montague :

Some Remarks on the Foreign Relations of England
at the Present Crisis. (London, 1838)

Gottheil :

Zimmis and Moslems in Egypt

Gouin, Edouard :

L'Egypte au XIX Siècle : Histoire militaire, et
politique, anecdotique et pittoresque de Mèhémet- Ali,
Ibrahim Posha, Soliman Pasha, (Colonel, Sève,)
(Paris, 1847)

Guichen, Vicomte de :

La Crise d'Orient de 1839 à 1841 et l'Europe
(Paris, 1841)

Hamont, P. N. :

L'Egypte sous Mehemet- Ali, Population, Gouvernement,
Institutions Publiques, Industrie, Agriculture.
(2 vols, Paris, 1843)

Hilaire, E. G. St.:

Lettres Ecrites d'Egypte (Paris 1901)

De la Jonquiére,

L'Expédition d'Egypte (5 vols. Paris, 1900)

Kleber,

Rapport fait au Gouvernement français des évènements

depuis, el-Arish

(Caire, 1800)

Martin,

Histoire de l'Expédition d'Egypte (Paris, 1821)

Lieut. Mascall, :

Plan of the harbour and road of Suez from a survey of Mascall 1777 with some additions by lieutenant Harvey (London 1772)

Mengin, Fèlix :

Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed-Aly (2 vols Paris 1823)

Neurthe, Boulay de la :

La Directoire et l'Expédition d'Egypte (Paris 1885)

J. F. Miot :

Mémoires pour servir à l'histoire des expéditions en Egypte et en Syrie (Paris, 1804)

Mouriez, P.

Histoire de Mehemet Ali (3 vols ; Paris, 1858)

Nahoum, Haim Effendi :

Recueil de Firmans Impériale Ottomans adressés aux Valis et aux Khédives d'Egypte 1006 — 1322 H. (1597 — 1904) (Caire, 1934)

Napoléon I,

Campagne d'Egypte .

أُمِّيَّتْ فِي سَنَتِ هَيْلَانَةِ، وَهِيَ تَكُونُ الْمَجْلَدَاتِ ٢٩ ، ٣٠ مِنْ مَرَاثِلَاتِ نَابِلْيُون

المَعْرُوفَةُ بِاسْمِ Correspondence

Norry, Ch. :

Relation de l'Expédition d'Egypte

(Paris, an VII)

Paton,

History of the Egyptian Revolution

(2 vols. London, 1863)

Politis, Athanase, :

Le Conflit Turco-Egyptien 1838-1841 et les dernières années du règne de Mohamed Aly, d'après les documents diplomatiques Grecs (Caire 1931)

Olberg, E. Von :

Geschichte des Krieges zwischen Mehemed Ali und der Ottomanischen Porte in Syrien und Kleinasien den Jahren 1831—1833. Berlin 1837

Palmerston, Lord :

Letter of.. adressed to Sir John Cam Hobhouse on the Turko-Egyptian affair

مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني تحت رقم 36471; f. 211.

Payre, R. :

L' Expédition d'Egypte (Paris, 1890)

Philips, Walter Alison :

Mehemet Ali; Cambridge Modern History. vol X
P. P. 545 — 572

Planat, Jules :

Histoire de la Rêgénération de l'Egypte (Paris, 1830)

Prokesch – Osten, Count Anton :

— Erinnerungen aus Aegypten und Klein—Asien; (3 vols
Wien, 1829 — 1891)

— Mehemet Ali Vize – König von Aegypten. aus meinem Tagebuche, 1826—1841 (Wien, 1909)

Rebaud وآخرون

L'Histoire scientifique et militaire de l'Expédition d'Egypte (12 vols. Paris, 1830—1836)

Reynier. J. L. E.:

L'Egypte après Heliopolis (1802 — 1826)

ترجمت الى الانجليزية ونشرت في لندن سنة ١٨٠٢

Roy, J. J. E. :

Les Français en Egypte, ou Souvenirs des
Campagnes d'Egypte et de la Syrie, par un officier de
l'expédition (Tours, 1855)

W. Robinson,

Suez Harbour, surveyed by Captain W. Robinson
(London 1782)

Rod Key, Frederick Stanley ;

The Turco- Egyptian question in the relations of
England, France and Russia, 1832 — 1841 (Urbana' 1924)

Rousseau,

Kleber et Menou en Egypte (Paris 1900)

Roux, Francois Charles :

— L'Angleterre, l'Isthme de Suez et l'Egypte au XVIIe
Siècle (Paris, 1922)

— Les Origines de l'Expédition d'Egypte et les Echelles
de Syrie et de Palestine au dixhuitième siècle
(Paris, 1910)

Rustum, Asad Jibrail :

The Struggle of Mohammed Ali Pasha with Sultan
Mahmoud II and some of its Geographical aspects.
(Beirut, 1926)

Sabry, Mohammed :

L'Empire Egyptien sous Mohamed Ali et la Question
d'Orient, 1811 — 1849, Egypte, Arabie, Soudan, Morée,
Crète, Syrie, Palsetine. (Paris, 1930)

Sammarco, Angelo :

— Il Regno di Mohammed Ali nei Documenti Diplomatici Italiani inediti :

— vol. VIII —

Genesi e Primo Svolgimento della Crisi Egiziana
Orientale (Rome, 1931)

— vol IX

La Presa di San Giovanni d'Acrida (Rome, 1932)

Savary :

Lettres sur l'Egypte (Paris, 1786)

Talamas, George Bey :

Recueil de la Correspondance de Mohamed Ali,
Khedive d'Egypte. (du 1^{er}. Avril 1807 au 12 Juillet, 1848)
(Le Caire, 1931)

Vandal :

Louis XIV et l'Egypte (Paris, Picard, 1830)

Vansleb :

The Present State of Egypt (17th. Century)

Volney :

Oeuvres (Paris 1838)

Waghorn, Thomas :

Egypt as it is in 1837 (London, 1837)

Sir. Robert. T. Wilson :

History of the British Expédition to Egypt
(London, 1803)

David Urquhart :

Le Sultan et le Pasha d'Egypte (London 1859)

Vaulabelle, Achille de :

Histoire Moderne de l'Egypte

(2 vols. Paris, 1836)

W. H. Yates :

The Modern History and Condition of Egypt

(2 vols. London, 1843)

خامساً : بلاد العرب

British Admiralty Publications :

Handbook of Arabia

Brydges H. J. :

A Brief History of the Wahaby

(London, 1834)

Y. J. Burchhardt :

Notes on the Bedowins and Wahaubys

(London, 1831)

Corancez :

Histoire des Wahhabis depuis leur origine jusqu'à
la fin de 1809

(Paris, 1810)

C. M. Doughty :

Travels in Arabia Deserta (Cambridge, 1881)

Hogarth, David George :

The Penetration of Arabia : a record of the devel-
opment of Western knowledge concerning the Arabian
peninsula

(N. Y. 1904)

Capt. F. M. Hunter :

An account of the British settelement of Aden in
Arabia

(London 1877)

Snouck Hurgrony :

Mekka

(vol. 1. La Hague 1888)

C. Neibuhr :

Voyage en Arabie et en d'autres pays circonvoisins
(Amsterdam, 1776)

J. B. Rousseau,

Note sur les Wahhabis

Sadlier,

The Diary of a Journey across Arabia during the
Year 1816 (Bonbay 1899)

سادسا : الشام الى حوالى منتصف القرن التاسع عشر

Ainsworth, W. F. :

Ibrahim Pasha in Syria (Colborn's New Monthly
Magazine) (vol .77, 348 f. f.)

D'Avieux,

Memoires, (9 vols. Paris, 1735)

Barker, F. :

Memoir on Syria (London, 1845)

Barker, E. B. B. :

Syria and Egypt under the last five Sultans of
Turkey (2 vols, London, 1876)

Berton, J. de, :

Les Chrétiens d'Orient et les Reformes du Sultan.
(Correspondant, 25 mai, 25 auot, 1856)

Bertrand, General Henri G., Comte :

Campagnes d'Egypte et de Syria (2 vols. Paris, 1847)

Besson, Le Père Joseph :

La Syrie et la Terre Sainte au XVIIe siècle.
(Poitiers, Oudin, 1862)

Bore, Eugène :

Question des Lieux Saints. (Paris, 1850)

Bowring, John :

Report on the Commercial Statistics of Syria
(London, 1840)

— The Syrian Question. (London, 1840)

Buckingham, F. S. :

Travels in Palestine. (London, 1821)

Burckhardt, John Lewis

Travels in Syria and the Holy Land (London, 1832)

Cahuet, Albéric :

La Question d'Orient dans l'Histoire Contemporaine
(Paris' 1905)

Cadalvene, E. de et Barrault, E. :

Deux années de l'histoire d'Orient (1839 - 40)
faisant suite à l'histoire de la guerre de Mehemed Ali
en Syrie et en Asie Mineure. (Paris 1840)

Castaing, Aphonse :

La Syria, les Druses et les Maronites (Paris, 1860)

Churchill :

The Druzes and the Maronites under the Turkish
rule from 1840 — 1866

Cressaté Comte S. M. de :

La Syrie Française (Paris 1918)

Cuinet,

Syrie, Liban et Palestine

Djuvara, T. G. :

Cents projets de partage de la Turquie (Paris, 1915)

Douin, George :

La Première Guerre de Syrie

(2 vols. Caire, 1931)

Draperon, Lud. :

Le Grand dessein secret de Louis XIV Contre
l'Empire Ottoman en 1688

(Revue de Géographie, t. I et II, 1877)

R. Dussaud :

Histoire et Religion des Nosairis

(Paris, 1900)

Jouplain, M. :

La Question du Liban

(Paris, 1908)

H. Lammenis :

La Syrie. Précis Historique

(2 vols. Beirout, 1921)

Laurent, Achille :

Relation Historique des affaires de Syrie depuis
1830 jusqu'en 1842. Statistique du Mont-Liban et
procédure dirigée en 1840 contre les Juifs de Damas.

(2 vols. Paris, 1846)

E. Lockroy :

Ahmed le Boucher, la Syrie et l'Egypte au dix-
huitième siècle.

(Paris 1888)

Mariti, (Abbé-Jiovanni) :

Histoire de l'état present de Jerusalem. Publiée
par le R. P. Laorty-Hadji

(Paris, 1853)

P. Masson :

Eléments d'une Bibliographie Française de la Syrie
[dans le Congrès Français de la Syrie]

(Paris, 1919)

Paul Masson :

Histoire du Commerce Français dans le Levant au
Dixseptième Siècle (Paris, 1896)

Murad, (Mgr. Nicolas) :

Notice historique sur l'origine de la Nation Maronite
et sur ses rapports avec la France, sur la Nation Druse
et sur les diverses populations du Mont-Liban.
(Paris, 1844)

Napier, Admiral Sir Charles :

The War in Syria (2 vols., London, 1842)

Paton, A. A. :

The Modern Syrians (London, 1844)

Perrier, Ferdinand :

La Syrie sous le Gouvernement de Méhémet,
Ali jusqu'en 1840. (Paris 1842)

Perron, Anquetil du :

Legislation Orientale (Amsterdam, 1778)

Poujoulat, J. J. :

La France et la Russie à Constantinople.

La Question des Lieux Saints. (Paris, 1853)

Relazioni dei Consoli Veneti Nella Siria

(ed. Berchet, Venise, 1866)

Ristelhueber :

Les Traditions Françaises au Liban

Rustom, A. J. :

— Les Campagnes d'Ibrahim Pasha en Syrie et en
Asie Mineure. (2 fasc. Caire, 1927—1938)

— Le Liban à l'époque des Emirs Chihab

(3 vols., Beirut, 1933)

— Materials for a Corpus of Arabic Documents
Relating to the History of Syria under Mehemet Ali
(vols I — V Beirut, 1930 — 1934)

— The Royal archives of Egypt and the Origins of
the Egyptian Expédition to Syria (Beirut, 1936)

Saint-Pierre, Puget de :

Histoire des Druses—peuple du Liban—avec des notes
(Paris, 1762)

Segur — Dujseryan :

La Syrie et les Bedouins sous l'administration
Turque (Revue des Deux Mondes, 15 mars, 15 avril, 1855)

Verney et Dambmann

Les puissances étrangères dans le Levant en Syrie
et en Palestine (Paris, 1900)

Volney,

Voyage en Syrie et en Egypte en 1783 — 1785
(Paris 1787)

سادسا العراق (الى سنة ١٨٦٨)

W. F. Ainsworth,

Personal Narrative of the Euphrates Expedition
(2 vols London 1888)

W. F. Ainsworth,

Researches in Assyria, Babylonia and Chaldaea,
(London, 1838)

Andrew, W. P.

Memoir on the Euphrates Valley route to India
(London 1837)

Anon ,

Account of the Siege of Mosul by Nadir Shah

ترجمة لمخطوط بالتركية بالمتحف البريطاني

Anon :

Travels of Sir Anthony, sir Robert and Sir Thomas
Sherely

من حلب الى بغداد الى كاسفين عن طريق الفرات — لندن ١٨٢٥

Blunt, Lady Anne :

Bedouin Tribes of the Euphrates (London 1879)

B. F. O. P. H.

Armenia and Kurdistan

Auliya Chelebi,:

Travels of (Stambul, 1314 H)

رحلة في فارس وكردستان وبغداد والبصرة

F. R. Chesney,

The Expedition for the survey of The rivers Euphrates
and Tigris (London, 1850)

F. R. Chesney

Narrative of the Euphrates Expedition
(London 1868)

F. R. Chesney

Reports on the Navigaion of the Euphrates,
Submitted to the Government by——(London,1833)

M. Chiha,

La Province de Baghdad (Caire, 1900)

مذكرات ايطالي اقام في بغداد خلال القرن التاسع عشر . . وهي ذات قيمة

تاريخية

Coke, Richard :

Bagdad : the City of Peace (London, 1927)

V. Fontanier :

Voyage dans l'Inde et dans la Golfe Persique
(Paris 1844)

Fraser, J. B. :

Memorandum on the present condition of the
Pashalic of Baghdad (London, 1834)

J. B. Fraser :

Travels in Kurdistan and Mesopotamia
(London , 1840)

Dr. A. Grant :

The Nestorians (London. 1841)

Rev. A. N. Groves :

Journal of a Residence in Baghdad
(London, 1832)

Huart, Clement :

Histoire de Baghdad dans les Temps Modernes
(Paris, éd. Laroux, 1901)

تاریخ علی موثوق فیہ للعراق الی سنة ، ١٨٣١ م.

Haji Khalifa :

Jihan Nama (Const. A. H. 1245)

سائح ترکی زار العراق فی ولایة خسرو باشا

H. G. Keppel,

Travels in Babylonia, Assyria. Media and Scythia in
1826 (London. 1827)

Layard, A. H. :

Nineveh and Balylon

Longrigg, Hemsley Stephen :

Four Centuries of Modern Iraq.

Oxford, 1925)

H. F. B. Lynch:

Armenia : Travels and Studies (2 vols London 1903)

R. Mignon :

Travels in Chaldaea (London 1829)

فيه تعليق على [زاد المسافر] في الصفحات ٢٦٩ — ٢٨٦

R. P. Philippe :

Voyage d'Orient (Lyon, 1652)

رحلة راهب كرملي فرنسي من حلب إلى بغداد إلى البصرة إلى فارس حوالى

سنة ١٦٣٢ م.

M. H. Pognon,

Chronique syriaque relative au siège de Mossul
par les Persans

ترجمة لمخطوط سرياني عن هذا الموضوع . عثر عليه في كنيسة تل قوش على
مقربة من الموصل . ويظن أن المخطوط كتب سنة ١٦٤٦

Lane Poole :

Life of General F. R. Chesney

Sir. R. K. Parker:

Travels in Georgia, Persia, Armenia, ancient
Babylonia (London, 1822)

J. L. Rousseau :

Description du Pachalik de Baghdad (Paris, 1809)

J. B. Rousseau :

Voyage de Bagdad à Alep. (Paris 1899)

Sestini,

Voyage de Constantinople à Bassora en 1781
(Paris, l'an VI)

W. F. Sinclair and D. Ferguson :

The Travels of Pedro Teixeira

سائح برتغالي : من خليج فارس إلى البصرة إلى كربلاء والنجف إلى عانة

Rev. Horatio Southgate :

Narrative of a tour through Armenia, Kurdistan,
Persia and Mesopotamia (2. vols. New York)

J. B. Tavernier :

The Six Voyages of Tavernier through Turkey into
Asia

ساح تافرنيه في الشرق الاوسط بين سنوات ١٦٣٨ ، ١٦٤٤ ، ١٦٦٣

Antonio Teneyro :

Itinerario de . . . (Lisbon, 1829)

M. O. Thevenot :

Suite d'un Voyage de . . . (Amsterdam, 1727)

رحلة الى البصرة والحسا والقطيف

J. R. Wellsted :

Travels to the City of the Caliphs, Along the
Shores of the Persian Gulf and the Mediterranean.

(2 vols. London 1840)

سابعاً : فارس وأفغانستان وتركستان (الى حوالي منتصف القرن التاسع عشر)

Browne, Edward Granville :

Abridged translation of the History of Tabaristan
(London, 1905)

Brydges, Sir. H. G. :

The Dynasty of the Kajars (London. 1834)

Sir Alexander Burnes :

Cabool, being a personal narrative of a journey to
and residence in that city in the years 1836. 1837. 1838
(London 1845)

Sir Alexander Burnes,

Travels in Bokhara . . and narrative of a voyage on
the Indus from the sea to Lahore in the years 1831—1832
1833 (London 1834)

F. Charmoy,

Cheref Namah

أحسن طبعة أوروبية موجودة لكتاب « سفر نامه » عن تاريخ الأكراد
سنة مجلدات (باريس ١٨٦٠ — ١٨٧٥)

Conolly, Lieut. Arthur :

Journey to the North of India, Through Russia,
Persia and Aphaganistan
(2 ed. Rev. 2 vols. London 1838)

Gurzon, Hon George N. :

Persia and the Persian question

H. M. Durand

Nadir Shah

(London, 1908)

Eastwick, E. B. :

The Gulistan of Sadi

(London, 1852)

Franklin, W. :

Observations^m made on a tour from Bengal to Persia
in 1786 . 7 (London, 1790)

Freyer, Dr. :

—A new account of East India and Persia, 1672
— 1881 (London 1688)

Gardane, Le Gle- Alfred de :

Mission du Général Gardane en Perse, sous le
(٢٨)

Premier Empire. Documents historiques. . (Paris 1865)

Hanway, Jonas :

Historical account of British Trade over the Caspian
(4 vols. London, 1753)

Heude, W. :

A voyage up the Persian Gulf (London, 1816)

Ives, Dr. E.:

A Journey from Persia to England (London 1773)

Jackson, A. V. William :

Persia, Past and Present (New York, 1906)

Jones, William :

History of the life of Nadir Shah, King of Persia
(London, 1773)

Koye, Sir John William :

History of the war in Afghanistan (2 vols. 1851)

Krusinski,

History of the Revolution of Persia

ترجمة عن الروسية الأب Cerceau ونشره في لندن سنة ١٧٢٨ م. ويتناول
تاريخ فارس في الفترة التي احتلها الافغان خلالها

Lord Curzon of Kedleston, :

Persia and the Persian question
(2 vols, 1892)

Layard, A. H.

Early adventures in Persia, Susiana and Balylonia
(London 1887)

Malcolm, Sir John :

History of Persia (1829)

Markham, Sir Clements B. :

General sketch of the History of Persia (1874)

Rawlinson H. C. :

England and Russia in the East.

C. J. Rich :

Narrative of a residence in Koordistan

Stirling, E. :

On the political state of the countries between
Persia and India (London 1835)

Sykes, Lieut Colonel. P. M. :

— A History of Persia (2 vols. London, 1915)

— Ten Thousand miles in Persia (London 1902)

Watson, Robert Grant :

History of Persia (1866)

William Ainger Wigram & Edgar. T. A. Wigram :

Cradle of Mankind (London, 1914)

Wood, Lieut John :

A Personal narrative of a journey to the source
of the river Oxus . . in the years 1836 — 1837

(London 1841)

ثامنا المغرب : طرابلس وتونس والجزائر ومراكش (الى حوالى

سنة ١٨٣٥)

Gal. Du Barail :

Mes Souvenirs (3 vols. 1894—1896)

G. Bapst :

Le Maréchal Canrobert, souvenirs d'un siècle
(4 vols. 1898—1901)

R. Basset :

Documents musulmans sur le siège d'Alger par
Charles Quint. (1541)

(Dans: Bulletin de la Société de Géographie d'Alger
et de l'Afrique du Nord, (1890. P. P. 172—214)

Card, Rouard De :

Bibliographie des ouvrages relatifs à la Berbérie
au XVII et XVIII siècles, (1911 et Suppl. 1917)

Carrot, H.

Histoire général de l'Algérie (Alger, 1910)

Charles. P. de Castellane, :

Souvenirs de la vie militaire en Afrique (1852)

Delphin,

Histoire des Pashas d'Alger de 1515 — 1745

ds. Journal Asiatique, 1922, I, p. p.
162 — 233

G. Douin,

Mohamed Aly et l'Expédition d'Alger (1829 — 1830)
(Le Caire, 1930)

G. Esquer,

Les Commencements d'un Empire, la prise d'Alger
(1830) (2^e éd. 1923)

H. De. Grammont,

Histoire d'Alger sous la domination Turque 1516-1830
(Paris 1887)

Grammont,

Relations entre la France et la Regence d'Alger au
XVII^e Siècle (4 vols. Alger 1879 — 1885)

P. Grandchamp :

Documents Relatifs aux Corsaires Tunisiens

(2 Octobre 1777 — 4 Mai 1824)

(Tunis, 1925)

S. Gsell, G. Marçais, G. Yver

Histoire de l'Algérie (II^e éd. 1927)

Lacharrière, Ladriet De :

Un Essai de pénétration pacifique en Algérie

de Rev Hist. Dipl. 1909. P. P. 240 — 270

H. Lorin

L'Afrique du Nord; Tunisie — Maroc

(Paris, 1908)

Martimprey, Gal,

Souvenirs d'un officier d'état-major. Histoire de
l'établissement de la domination française dans la
province d'Oran, 1830 à 1846

Monchicourt,

Episodes de la carrière tunisienne de Dragut,
avec un preambule sur :

l'Insécurité en Méditerranée durant l'été de 1550

(Tunis, 1918)

Ch. Monchicourt,

Documents historiques sur la Tunisie

(Paris 1929)

Nettement,

Histoire de la Conquête d'Alger (1856)

Playfair,

The scourge of Christendom; annals of British
relations with Algiers prior to the French conquest

(London, 1884)

Y. Pignon,

L'Esclavage en Tunisie de 1590 à 1620.

ds. Revue Tunisienne, 1930. P. P. 18-37

E. de la Primaudaie,

Documents inédits sur l'histoire de l'occupation
espagnole en Afrique (Alger, 1875-1877)

L. Rinn,

Le Royaume d'Alger sous le dernier Dey

(Alger, 1900)

C. Rousset.

— La Conquête d'alger, (Avec atlas 1879)

— l'Algérie de 1830 à 1840 (2 vols. 1887)

— La Conquête de l'Algérie (1841 — 1847)

(2 vols. 1889)

A. Rousseau,

Annales tunisiennes ou aperçu historique sur la
Regence de Tunis. (Paris, 1864)

Sander — Rang et Denis

Fondation de la Regence d'Alger, histoire des
Barbarousses: chronique arabe du XVI e siècle
(1837. 2 vols)

Th. Shaw,

Travels and observations relating to several parts of
Barbary and the Levant (Oxford, 1738)

Laugier De Tassy,

Histoire du Royaume d'Alger, avec l'état présent de
son gouvernement (Amsterdam, 1725)

Auxzoux, A. :

La Mission de Sebastiani a Tripoli (Revue des
Etudes Napolioniennes 1919)

تاسعاً : ألبانيا

British Foreign Office Peace Handbooks : Albania

C. A. Chekrezi,

Albania, Past and Present

E. Legrand

Bibliographie Albanaise

من القرن الخامس عشر الى سنة ١٩٠٠

W. Peacock

Albania, the foundling State of Europe

عاشراً : البلقان (والثورة اليونانية بصفة خاصة)

G. F. Abot, (editor) :

Greece in Evolution : (Studies prepared under
the auspices of the French League for the defence of
Hellenism.)

G. Finlay :

History of Greece. (7 vols. ed Tozer)

Gaston Isambert :

L'indépendance Grecque et l'Europe

W. Miller :

The Balkans

W. A. Phillips :

The War of Greek Independence (1821-1833)

Pouqueville :

Histoire de la régénération de la Grèce— 4 vols.

L. Sargeant :

Greece in the Nineteenth Century

كشاف

الانابكة : ٣٠	ابن تيمية : ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠
الأتراك (والعثمانيون وآل عثمان) :	ابن خلدون : ١٦٤ ، ١٧٤ ، ١٩٠
١٠٤١ ، ١٥١٧ ، ١٩٢٣ ، ٢٨٢٩ ، ٢٩٠	ابن سينا : ١٩
٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤	ابن شحنة : ١٣٦ ، ١٣٧
٤٦ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٢	ابن عربي (محي الدين) : ١٨٩
٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣	ابن منجب الصيرفي : ١٩
٨٦ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٣	ابراهيم باشا (ابن محمد علي) :
١٠٣ ، ١٠٧ ، ١١٥ ، ١٣١ ، ١٣٣	١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢١٠ ، ٢٠٨ ، ٢٢٢
١٣٣ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥	٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٥
١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٥ ، ١٩٥	٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩
٢٠٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧	ابراهيم بك : ٥٧ ، ٦٨ ، ١١١ ، ١١٩
٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥	١٦٨
٢٩٥ ، ٣٢٢ ، ٣٣١ ، ٣٤٦	الابراهيمية (قناة) : ١٦٠
٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٣٦٦ ، ٣٧٣	ابردن (اللورد) : ٢٨٤
٣٧٣ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٩١	ابسلتي - اسكندر : ٢٠٥ ، ٢٠٩
٣٩١ ، ٣٩٦	ابسلتي - دمترى : ٢٠٩
الآثار الباقية (كتاب) : ١٩	ابو حنيفة النعمان : ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٦٠
اجرا : ١٠	ابو الذهب : ٦٨ ، ٢٦٨ ، ٣٢٧
الاجواد : ٣٣٤	ابو زناك : ٣١٤
احمد باشا (والي العراق) : ٣٥٠	أبو سعيد ابن أبي الخير الشاعر : ١٩
٣٦٠	أبو عبد الله محمد بن الحسن الحفصي
احمد باشا (والي مصر) : ١١٨ ، ١١٩	٢٩٥
١٢٤	أبو العلاء : ١٤
احمد توفيق باشا : ٣٨٥	أبو قير : ٦٠ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦
احمد كبرلي : ٤٧	ابو ليلى : ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٢
	ايروس : ٩٣ ، ٣٥٢

الاصلاح في تركيا : ٢٤٥ ، ٢٤١
 الاصلاح الديني : ١٨٨
 الاطلسي (المحيط) : ٣٠٥ ، ٥٠
 اطنه : ٢٢٨ ، ٢٦٩ ، ٣٥٠
 اغا المحلة : ٣٠٨
 الاغريق : ٣٤
 الاغوات : ٢٩٩ ، ٢٩٨
 افارقه : ٢٩٧
 افراسياب : ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢
 ٣٤٩ ، ٣٤٣
 افريقية : ١٥ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ١٩٦
 ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٣٤٤
 افشا : ٢٨
 افغانستان : ١٠ ، ٣٢ ، ٣٠ ، ٥١ ، ٥٠
 ٣٤٨ ، ٣٤٧ ، ٣٤٦
 آق قيون لو : ١٩
 الاقطاع العثماني : ٣٣٢
 اكسموث : ٣١٠
 اكس لاشايل : ٣٠٩
 اكراد : ٣٣٤ ، ٣٢٩ ، ٣٥٢ ، ٣٤٦
 ٣٣٧ ، ٣٣٣
 البانيا (والالبانيون) : ٧٤ ، ١٠٩
 ١٢٥ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١١٦
 ١٣٤ ، ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨
 ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٧٥ ، ١٩٨
 ٢٠٠ ، ٢٣٦ ، ٢٧٧
 البوكر ك : ٣٠ ، ٤٣ ، ٢٣٠
 الالتزام (في الشام) : ٢٦٥
 الدرد : ٢٣٩

٦١٠٢ ، ٨٥ ، ٨٤ ، ٨٤ ، ٧٤
 ١٦٢ ، ١٦٠ ، ١٤٥ ، ١٢٧
 ١٧٦ ، ٢١٢ ، ٣٦٠
 اسكي : ٣٦٠
 الاسلام : ١٣ ، ١٢ ، ٩ ، ٨ ، ٧ ، ٥
 ٢٨ ، ٢٩ ، ٢٧ ، ٢٢ ، ١٥
 ٦٧ ، ٥٢ ، ٤٥ ، ٤٢ ، ٤١
 ١٩١ ، ١٠٧ ، ٩٤ ، ٧٥
 ٢٤٤ ، ٢٤٢ ، ٢١٦ ، ١٩٣
 ٢٩٧ ، ٢٩٠ ، ٢٧٩ ، ٢٦٤
 ٣٧٢ ، ٣٢٥
 اسماعيل (الخدوي) : ٢٠١ ، ٩١ ، ٩٠
 اسماعيل اغا : ١١٨
 اسماعيل جوده : ١٣٦
 اسماعيل الصفوي : ٣٠ ، ٢٨ ، ٢٠ ، ١٩
 ٣٢٦ ، ٣٢٢ ، ٣١
 اسماعيل القرمطي : ١٩
 آسيا : ٣ ، ٥ ، ٤٠ ، ١٠ ، ٢٩ ، ٣٩
 ١٥٦ ، ٤٩
 آسيا الصغرى : ٨٤ ، ٣١ ، ٢٩ ، ١٨ ، ١٥
 ٢٨٨ ، ٢٢٧ ، ٢١٥ ، ١٣٣
 آسيا الوسطى : ٤٩ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٣٠
 اسوان : ٢٧ ، ٢٣
 اسوج : ٣٠٥
 اسوس : ٣٢٤
 اسيوط : ١٠١
 اشرف خان الافغاني : ٢٤٦
 اشور : ٢٤٣ ، ٣٢٤ ، ٤
 اصفهان : ٥١ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٣٠ ، ٢١
 ٣٤٢ ، ٣٢٩

١٧٢٠ ١٧١٠ ١٧٠٠ ١٦٩٠

١٧٤٠ ١٧٦٠ ١٨٠٠ ١٩٥٠

١٩٧٠ ٢٠٦٠ ٢٠٧٠ ٢٠٩٠

٢١٠٠ ٢١١٠ ٢١٢٠ ٢١٨٠

٢١٩٠ ٢٢١٠ ٢٢٢٠ ٢٢٦٠

٢١٤٠ ٢٢٥٠ ٢٢٧٠ ٢٢٨٠

٢٢٣٠ ٢٣٤٠ ٢٣٥٠ ٢٣٩٠

٢٤٠٠ ٢٤٤٠ ٢٦١٠ ٢٦٨٠

٢٣٢٠ ٢٧٦٠ ٢٧٧٠ ٢٧٨٠

٢٨١٠ ٢٨٣٠ ٢٨٤٠ ٢٨٥٠

٢٨٦٠ ٢٨٨٠ ٢٨٩٠ ٢٩٣٠

٣٠١٠ ٣٠٢٠ ٣٠٤٠ ٣٠٥٠

٣٠٩٠ ٣٣٠٠ ٣٣٩٠ ٣٤٠٠

٣٤١٠ ٣٤٨٠ ٣٥٤٠ ٣٥٥٠

٣٦٢٠ ٣٦٥٠ ٣٦٦٠ ٣٦٨٠

٣٦٩٠ ٣٧٠٠ ٣٧٩٠ ٣٨١٠

٣٨٢٠ ٣٨٤٠ ٣٨٨٠ ٣٩١٠

٣٨٥٠

الاندلس : ١٥٠ ١٦٠ ١٩٠ ٢٦٤٠

٢٨٩٠ ٢٩١٠ ٢٩٣٠ ٢٩٧٠

الانقليد : ٣١٨

اقرة : ٧٧

الانكشارية : ٣٢٠ ٣٣٠ ٣٤٠ ٣٦٠

١٠٩٠ ١١٦٠ ١١٩٠ ١٧٦٠

١٧٧٠ ١٧٨٠ ٢١٦٠ ٢٥٠٠

٢٤٧٠ ٢٦٥٠ ٢٩٦٠ ٢٩٨٠

٣٢٩٠ ٣٣٢٠ ٣٣٦٠ ٣٥٨٠

٣٦٤٠ ٣٧٠٠ ٣٧٢٠

الالشي (الفصل) : ٣٦٦

الالشي : ٥٦٠ ١١٢٠ ١٢٠٠ ١٢٢٠

١٢٨٠ ١٣٢٠ ١٤٠٠ ١٤١٠

اليوت : ٣٨٦

الكسندر بول (السير) : ١١٤٠ ١٢٠٠

المانيا (والالمانيون) : ٩١٠ ٢٣٦٠

٢٨٣٠ ٣٠٥٠ ٣٦٥٠ ٣٠٥٠

الميدا : ٤٣

امبابه : ٥٤٠ ٥٩٠

الامبراطورية الرومانية المقدسة : ٣٨٠

الامبراطورية العثمانية : (انظر تركيا)

امبراطورية عربية : ٢٣٥٠

الامتيازات : ٤٦٠ ٣٠٣٠ ٢٤٢٠

أم درمان : ٦٣

الامراء المقدمون : ٣٠

أمريكا : ٣٦٠ ٤٣٠ ٥٤٠ ٢٨٣٠

٣٠٢٠ ٣٠٥٠ ٣٦٥٠

الامير (الشيخ) : ١٠٠

أميان (صلح) : ٨٧

الاناضول : ١٨٠ ١٦٥٠ ٢٥٢٠

استوني شيرلي : ٢١

انجلترا (والانجليز والدولة البريطانية) :

١٨٠ ٢٦٠ ٣٨٠ ٤١٠ ٥١٠

٥٣٠ ٥٤٠ ٦٣٠ ٧٠٠ ٧١٠

٧٧٠ ٧٩٠ ٨٠٠ ٨٢٠ ٨٣٠

٨٧٠ ٨٨٠ ٩١٠ ٩١٠ ١١٣٠

١٢٠٠ ١٢١٠ ١٢٢٠ ١٢٦٠

١٣٢٠ ١٤٧٠ ١٤٨٠ ١٥٤٠

١٥٥٠ ١٥٦٠ ١٥٧٠ ١٥٨٠

٣١٢، ٢٢٥، ٢٢٤
باريس: ٦٩، ٧٠، ٢٢٣، ٢٨٩،
٣٧٩، ٣٢١، ٣١٦، ٣١٣، ٣٠١
بافيا ٤٥
باي: ٢٩٧
بايزيد: ٢٠، ٢٨، ٢٤، ٣٠، ٢٩٥، ٤٥٠، ٣٠
بت: ٨٧، ٧٠
پترودى لاغال: ٢١
براج: ٢١
برتريس (الكونت دى): ٣٨٩
بحتر: ٢٩، ٣٠
البحر الأبيض المتوسط: ٣، ٤، ١٦،
٨٢، ٧٤، ٧١، ٤٤، ٤٢، ٤١
٨٢، ٨٥، ٨٨، ١١٠، ١٢٠،
١٥٦، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٦،
٢٠٧، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٥،
٢٢٦، ٢٢٩، ٢٧٦، ٢٧٧،
٢٨٩، ٢٩٢، ٢٩٥، ٣٠١،
٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٥٤،
٣٦٨، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠،
البحر الأحمر: ٢٣، ٢٧، ٤٣، ٤٤، ٧٩،
٨١، ١٢٠، ١٥٧، ١٦٥،
١٩٦، ١٩٧، ٢٤٤، ٣٣٠،
البحر الأسود: ١٠، ٤٨، ٤٩،
١٧٩، ٢١٧، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٥،
بحر قزوين: ٣٩
البحر الهندي: ٣٢٣
البحيرة (مديرية): ٨٠، ١١٠، ١٤١

انكونا: ٢٢٧
انكرمان: ٢٨٨
الاتورى الشاعر: ١٩
الاهرام: ٧٩
أوبرت دوبوايه: ٧٦
أوراخ زيب: ٥٢٢
اوسترلتز: ١٧٦
اولياريوس: ٣١
أوليفيه: ٢٥٧
ايران: (أنظر فارس)
إيطاليا: ٣١، ٧٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٩٢،
٣٠١، ٣٠٣، ٣١٤، ٣٥٤
الأيونيون: ٢٣، ٣٠، ٢٢٦
أوثن: ٦٠
الأيونيان (جزائر): ٧٤

ب

بابان (ولاية): ٣٣٤، ٣٤٩، ٣٥٢،
٣٦٢، ٢٦٢
بابر: ٣٠، ٣٢٦
الباب العالي: ٨٨، ١١٤، ١٢٠،
١٢٦، ٢٦٩، ٢٨٩، ٣٢٤، ٣٥١
بابل: ٣٢٤
البابوية: ٢٨
بارسياني: ٢٣، ٢٥، ٢٧
باركر (الأستاذ ارنست): ٣٨
باركر (قنصل إنجلترا): ١٦٢، ١٦٥

بخاري : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٩
 بندر (موقعة) : ١٣٠ ، ١٩٣
 بندر الجمالي : ٩٤
 بندر ونافارو : ٢٩٥
 برادست : ٣٨٥
 برام (برمن) : ٣٠٥
 البربر : ١٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٥
 ببروسا الاول : ٢٩٥
 ببروسا الثاني : ٢٩٦
 بربون : ٣٦
 البرتغال : ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤
 ٤٦ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٢٢٥ ، ٢٩٠
 ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ ، ٣٠٥
 ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٤
 ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٢
 برتير : ٣١٩
 برتوليه : ٨٠
 البرديسي : ٥٧ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٩
 ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٣٢
 برست : ٨٥
 بريزدوس Presidios : ٢٩٠
 برقوق : ٢٢
 البروتستنتيه : ٣٦ ، ٣٨ ، ٢٨٢
 البروث : (نهر) ٢٨٦
 بروسه : ٣٧٧
 بروسيا : ٢١٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦
 بروفانس : ٣١٦
 بروكش اوستن : ٢١٠

برومير : ٨٤
 بروي (الاميرال) : ٨٥
 برويز : ٨٢
 بريم : ١٧٥
 بساروقنز : ٢٤١
 البستيون : ٣٠٢ ، ٣٠٦
 بسكره : ٣٠٠
 بسوان اوغلو : ٢٠٣
 بسمرك : ٢٠٥
 بشير جنبلاط : ٢٧٠ ، ٢٧٣
 بشير الثاني : ٢٦٩ ، ٢٧٠
 بشير شهاب : ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤
 البصره : ١٩٧ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠
 ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠
 ٢٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٨
 ٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦٥
 ٣٦٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩
 ٣٩١
 بطرس الاكبر : ٤٩ ، ١٧٩
 بغداد : ١٩٢٠ ، ٢٤٠ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠
 ٣٣ ، ٥١ ، ٩٣ ، ١٩٧ ، ٢٢٣
 ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢
 ٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢
 ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢
 ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٢
 ٢٦٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٠ ، ٣٧٦
 ٢٧٨ ، ٢٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١

بنات : ٤٩	بكر : ٢٣٦
بندر عباس : ٥١ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠	بكر الصوباشي : ٢٣ ، ٢٤٩
بندشيري : ٣٤١ ، ٥٣ ، ٥٤	البكري : (يعقوب كوهين) : ١٤ ، ٥٣
البندقية : ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٤ ، ٤٤٤	٣٢١ ، ٣١٥
٣٦٥ ، ٣٣٥ ، ٣٣٠ ، ٤٤٩ ، ٤٨٤ ، ٤٦	بكين : ٣٩ ، ٣٨٩
بنسني : ١٦٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤	بلاسي : ٤٥٤ ، ٤٥٥
٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٦٩	بلا كلافا : ٢٨٨
البنغاله : ٥٤	بلباس : ٣٤٥
بنك الدولة العثمانية : ٢٥٥	بلجيكا : ٢١٧ ، ١٨٨
بنو اسرائيل : ٤	بلخ : ٥١
بواتيه : ١٣٠	البلطيق : ٤٩
بوالكمت (البارون) : ٢٢٤	بلغاريا : ٨٥
بورمون : ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨	بلغراد : ٤٥ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٧١
بوسفور : ٣٢٩	البلقان : ١٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٦٠ ، ١٨٧
البوستة : ٣٧٧	١٨٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢٠٩
بوشار : ٩٣	٢١٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٥٤
بوغوص بك : ١٦٣ ، ١٧١	٣١٨ ، ٢٨٥
بولنده : ٤٦ و ٤٨	بلوس لينش : ٣٦٨ ، ٣٨٨
بولنياك : ٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣١٨	بلرستون : ٦٣ ، ٨٩ ، ١٤٧ ، ١٥٦
بولو (آل) : ٣٩	١٧٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٢٩
بونابرت (٦٨) ، (وانظر نابليون)	٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤
بوته : ٣١٨	٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٧٦
بوهيمية : ٣٦٥	٣٦٩ ، ٣٩٠
بوشر : ٣٨٨	بليار (جزائر) : ٣٠١
البويهيون : ٢٠	البلية : ٣١٧ ، ٣١٨
يانكي : ٢٧٣	بليك : ٣٠٥
بيرس : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥	بماي : ٥٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٧٢
بيت المقدس : ٣١ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٦٧ و ٢٢٨	

١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٧٤ ، ١٧٣

١٨٦ ، ١٨٥ ، ١٨١ ، ١٧٩

٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ١٩٩ ، ١٩٢ ، ١٩٠

٢١٥ ، ٢١٥ ، ٢١٤ ، ٢٠٧

٢١٩ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦

٢٤٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٢٩

٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٣

٢٧٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٥٧ ، ٢٠٥

٢٨١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٢ ، ١٧٨

٢٩٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٣

٢٨٩ ، ٢٨٦ ، ٢٠٦ ، ٢٩٦

٣٧٩ ، ١٣٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤١ ، ٣٣٥

٣٩٢ ، ٣٩١ ، ٣٨٩ ، ٣٨٢

تفليس : ١٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٦٢

تقى الدين باشا : ٣٨٥

تلزت : ١٧٥

تمسك : ٤٩

ترمويل : ٢٠٩

التنظيمات الخيرية : ٢٥٩

تنوخ : ٢٧٢ ، ٢٩٩

تود لين : ٢٨٧

توماس موروسيني : ٤٨

تومسن : ٣٩

تولوز (اسرة) : ٤٣

تونس : ٤٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٧

٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١

٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣١٠

تيطرى : ٢٩٦

٢٨٣ و ٢٨١

اليرقدار مصطفى : ١٧٧

بيروت : ٢٢٠ ، ٢١٥ ، ٢٠٨ ، ٣١٤ ، ٣٠٤ ، ٢٩

البيرونى : ١٩

بيرى بك : ٤٤ ، ٣٣٠

بيزنطة : ٢٠٤ ، ٢٠

بيزه : ٣١

ت

تافرنيه : ٣٣٥ و ٢٤٢

تاليران : ١٢٥ ، ١١٢ ، ٨٧ ، ٧٧ ، ٣٤

١٢٧ ، ١٧٥ ، ٣١٤ ، ٣١٥

تامسفار : ٤٩

تابلور : ٣٧٢

تبريز : ٣٩ ، ٣٢٩

التار : ٣٦٥ ، ٣٣ ، ٣٠

تشارتوريسكى : ١٧٤

تغلب : ٢٩

تشيكوسلوفاكيا : ٣٨٠

تراقيا : ٤٩

تركستان : ١٧٩ ، ٤٩ ، ١٠

التركان : ٣٠ ، ٢٢

تركيا (والدولة العثمانية) : ٤ ، ٢٥ ، ٢٨

٣٠ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠

٥١ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٧٠

٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧

٧٩ ، ١١٠ ، ١٢١ ، ١٥٥

١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٧٠

تيمورلنك : ٢٥

تيز : ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٧٨

ث

الثعالب : ٢٩٥

ثورة أغسطس سنة ١٧٨٩ : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠

الثقافة السكسونية : ٩١

الثقافة الفارسية : ١٩

الثقافة الفرنسية : ٩٠

الثقافة اللاتينية : ٩١

ثورات البلقان : ٢٠٣ ، ٢٠٥

ثورة الشام : ٢٧٨

الثورة الفرنسية : ٢٠٥

الثورة اليونانية : ٢٠٩ ، ٢١١

ج

جاردان : ١٨٠

جاوة : ١٠

جيب : ٣٧٨

الجبرتي : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٦٧

١٢٢ ، ١١٨ ، ١٠٨ ، ٩٨ ، ٦٨

١٥٢ ، ١٤١

الجل الاسود : ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٥٤

جبل البروز : ٢٧١ ، ٢٧٢

ججارات : ٤٤

جدة : ١٣٤ ، ١٩٦

الجركس : ٣٢٣ ، ٣٠٥

جروفز : ٢٧٣

الجزار باتا : ٨٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤

٢٥٢ ، ٢٦٨ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦

الجزائر : ٤٧ ، ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٨٧

٢٢٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦

٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٢٠

جزائر البحرين : ٣٣٠ ، ٣٣٩ ، ٣٥١

الجريكلي : ٣٥١

جزليكي : ٢٥٨ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨

الجزيرة العراقية : ٧ ، ١٥٨ ، ١٩٠

جزيرة العرب : ٢٤٢ ، ٢٧٨ ، ٢٣٤

٣٤٣

جستاف ادولف : ٣٨

جف (بنو) : ٣٤٥

جقق : ٢٨

جل بابا : ٤٩

جلاباد : ٥١

جلخانه : ٢٥٨

جلينو : ٣١٢

الجليلي (اسرة) : ٢٦٧ ، ٣٤٩ ، ٣٨٥

الجمعية العمومية (في فرنسا) : ٧٥ ، ٧٦

الجمعية التشريعية (» ») : ٧٥ ، ٧٦

جنلاط (اسرة) : ٢٧٢

جنجاه : ٢٤٨

الجنجوا ليلي : ٢٣٦

جنوا (والجنويون) : ٢٩ ، ٣١٦ ، ٣٠٣

٩٩٠ ، ٣٣٥

الجنينه (قصر) : ٣٠٨

جوان كاتو : ٣٠٨ ، ٣٠٩

جوتارد (سان) : ٤٧

خسرو : ١١٧ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٣١

٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٢٥٥ ، ٢٧١

الخط الشريف : ١٧٧ ، ٢٥٧

الخطيب البغدادي : ٣٣٧

الحلقاء (مسجد) : ٢٦٠

الخليج الفارسي : ٤٤ ، ٥١ ، ١٥٧ ،

١٩٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣١ ، ٣٢٨ ،

٣٤٠ ، ٣٤٨ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨ ،

٢٨٨ ، ٢٩١ ،

خوارزم - ١٨

خورشيد باشا : ١٠٥ ، ١٢٤ ، ١٣٣

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ٢٠٣ ،

٢٠٩

خير الدين : ٢٩٦ ، ٣٠٣

« د »

الدار البيضاء : ١٠

داغستان : ٢٤٦

دالي عباس : ٣٦٠

الدانوب : ٢١٤ ، ٢٨١

داود : ٣٤٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٦

٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠

٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ،

٣٧٥ ، ٣٧٦

الداي : ٢٠٠

دائرة العمران : ٣ ، ١٦

دائرة المعارف الاسلامية : ١٨٩

الدجلة : ٥١ ، ٣٢٣ ، ٣٤٣ ، ٣٦٨ ،

٣٦٩ ، ٣٧٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨

الحضارة المصرية القديمة : ٤

الحضارة اليونانية : ١٨٠ ، ١٨٠ ، ٦

حكومة الادارة (في فرنسا) : ٧٣ ،

٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ،

حكومة الجمهورية الفرنسية : ٧٤

حلب : ٢١٥ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩

٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٦٥

٣٦٨ ، ٣٧٤ ، ٣٨٩

حلقا : ٢٠٣

الحلة : ٣٦٠

الحمدانيون : ١٩

الحمة الايطالية : ٧٧

الحمة الفرنسية : ٦٠ ، ٧٦ ، ٥٧٨ ، ٨٠

٨١ ، ٩٢ ، ١٠٧ ، ١٠١ ، ١١١

٢٥٠ ، ٢٦٨ ، ٣٦٨

الحمد : ١٢٢

حموده باشا : ٢٩٩

حوران : ٣٥٤ ، ٣٧٢

حويزه : ٣٤٥

« خ »

الخازندار : ٣٠٨

خاقين : ٢٩١

خانات فارس : ٤٠ ، ٥١

خانة باشا : ٣٤٩

خراسان : ٣٤٧

الخرطوم : ٢٠٣

الخرزايل : ٣٥٨

١٨١ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٥
 ١٩٨ ، ٢٣٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٨
 ٢٧٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧
 ديار بكر : ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٥٣ ، ٣٨٥
 الديا : ٣٥
 ديتالنسكي : ١٧٤
 الديركتوار : ٢٤٩
 ديزيه : ٨٦ ، ٥٨
 دى قارن : ٢٢٦
 ديقال : ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦
 ديفو : ٣٧٢
 ديو : ٤٤
 الديوان (فى الجزائر) : ٢٩٧ ، ٣٦٣

— ر —

راجلان : ٢٨٧
 رأس الحيمة : ١٩٧
 رأس الرجاء الصالح : ٤٢ ، ٧٦ ، ٧٨
 راشد (امير البصرة) : ٣٢٧
 الرافضى (الأستاذ عبد الرحمن) : ١٢٠
 ١٢٨
 راعند لل : ٢٩
 الرجل المريض : ٦٤
 رشيد : ١٤٢
 رشيد محمد : ١٢٣ ، ١٥٢ ، ١٥٣
 ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧
 ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢
 ٢٦٣

الدرعية : ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٨
 دوباييه (سفير فرنسا فى تركيا) : ٧٧
 دوبريه : ٢١٩
 الدروز : ٢٤٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٢ ، ٣٥٤
 دروقى : ١٥٤ ، ١٩٩ ، ٣١٢
 درويش باشا : ٢٥٩
 درويه درلون : ٣١٩
 دره بك : ٢٤٧
 دريو : ٧٢ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٢١٤ ، ٢٢٧
 الدفتر داد : ٢٠١ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣
 الدكن : ٥٢
 الدلاه : ١٠٩
 دلسبس : ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٥
 ١٢٦ ، ١٢٧
 دلماشيا : ٤٨ ، ٨٧
 دلمى : ٤٤٤ ، ٤٥٠ ، ٥٠١ ، ٥٤
 دمشق : ٨٣ ، ١٨ ، ٢١٥ ، ٢٩٧ ، ٢٦٥
 ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٩
 ٢٨٠
 دمنهور : ١٤١
 دمور : ٦٠
 دمياط : ١١٩ ، ١٤٣
 دقلة : ٨٠
 دوتى ثوار : ٨٢
 دودويل : ١٦٩ ، ١٧٢ ، ٢٠٩
 النبوة الاسلامية : ٢٠ ، ٢٧ ، ٥١
 ٥٥ ، ٧٣ ، ١٠٢ ، ١٧٢

٣٦٢ ، ٣٥٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٤

٣٨٢ ، ٣٧٩ ، ٣٦٥

الروم الارثوذكس : ٢٨٢

روما : ١١٣

الروملي : ٢٢٠

ريتر : ٣٠٤

ريدان : ٢٨٨

الريس (في المغرب) : ٣١٢ ، ٢٩٧

الرئيس افندي : ٢٥١

الرين : ٢٣٦

ز

الزاب : ٣٠٠

الزير : ٣١٧

زته : ٤٨

الزيانية (الدولة) : ٢٩٦

الزبي باشا : ٣٣٨

زينب البكرية : ١٠٦

س

السادات : ٩٧ ، ١٠٠

سادليه : ١٩٨

سافاري دوق رافيجو : ٣١٩

سانت ميلير : ٨٠

سان جوقارد : ٢٩ ، ٥٤

الرشيد (هارون) : ٣٨٠ ، ٣٤١ ، ٣٧٥

الرضا : ٣٨٨

رضا باشا : ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٧

رفعت باشا : ٢٥٦

الرق : ٢٥٨

الرهبان الفرنسيسكان : ٣٩

الرهبان الكرمليون : ٢٦٥

روبرت كلايف : ٥٤

الرومان (والدولة الرومانية) : ٢٠ ،

٣٤ ، ٢١

الدولة الرومانية المقدسة : ١٤

رودس : ٤٥

الروسيا : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٧٠ ، ٧٢

٧٧ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ١٤٨ ، ١٥٦

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٩٢

٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩

٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٧

٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤

٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤

٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢

٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٥

٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦

٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤

٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩

سليمان بك : ٣٢٥
 سليمان باشا : ١٥٩ ، ٢٥٢
 سليمان القانوني : ٤٨ ، ٢١ ، ٤٩ ، ٦١ ،
 ٧٤ ، ٢٠٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ ، ٣٢٧
 سليمان الحلبي : ٨٦
 سليمان باشا والي العراق : ٣٥١ ،
 ٣٥٨ ، ٣٥٧ ، ٣٥٦ ، ٣٥٥
 ٢٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥
 السليمانية : ٣٦٠
 سليمان الجملي : ٨
 السلاجقة : ٨ ، ١٠ ، ١٥ ، ٢٥ ،
 ١١٥ ، ١١٦
 السلوقيون : ١٢٥
 سلوقية : ٢٩٠
 سمرقند : ١٠ ، ٣٣ ، ٥٣
 سمبسون : ٣٨٧
 السمرة : ٣٦٥
 سنجار : ٣٣٧
 السند : ٥١
 السنوسية : ١٩٤
 السنة : ١٩ ، ٢١٨ ، ٢٤٥ ، ٢٥٨
 السوبات : ٢٠٢
 سويسكي : ٤٨
 سورات : ١٩٧
 سورل : ٧٢

سنت جون : ٢٢٨
 سان مارتان : ٢٥٣
 سانسون نابليون : ٣٠٢ ، ٣٠٣
 سياستبول : ٢٨٨ ، ٢٨٦
 سبته : ٣٣٥
 سبستيانى : ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٣٤
 سبو : ٣٠٩
 ستوارت : ١٢٠ ، ١٢١
 سراجين : ٣٦٠
 ستراتفور ددكف : ٢١١ ، ٢٢٥ ،
 ٢٣١ ، ٢٨٥ ، ٣٩٠
 سيدنى سمث : ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦
 سردينيا : ٣٠٥
 سرشمى : ٣٨٥
 سستينى : ٣٦٧
 سكة حديد الحجاز : ٣٨٨
 سعيد (بنو) : ٣٨٤
 سلاميس : ١٣٠
 سلايك : ١٤١
 سلبى : ٣٨٨
 سلبيريا : ٢١٤
 سليم الفاتح : ٤٤
 سليم الثالث : ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،
 ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦
 سليم افندى : ٢٠٢

٢٥٩، ٢٥٠، ٢٣٧، ٢٣٥، ٢٢٧

٢٦٨، ٢٦٧، ٢٦٦، ٢٦٥

٢٢٥، ٢٩٠، ٢٧٠، ٢٦٩

٣٦٨، ٣٥٤، ٣٢٥، ٣٢٠

٢٨٩، ٣٧٨

شامبوليون : ٩٢

شبتشي : ٢٥١

شبراخيت : ٧٩، ٥٩

آل شبيب : ١٢٤

الشركس : ٢٠

الشرق الأدنى : ١٠، ١١، ٧، ٦، ٥

٢٢٢

الشرق الاسلامي : ١٠، ٢٦، ٤١، ٤٦

٩١، ٧٠، ٦٤، ٦٢، ٥٥

٢٣١، ٢٣٠، ١٨٠، ٩٢

شركة الهند : ٣٤٨، ٣٤١، ٣٣٩

٢٥٤، ٢٦٦، ٢٦٩

شارلكان : ٤٥، ٣٨

شروان : ٢٨٥

الشرقاوى (الشيخ) : ١٤٣

شريف الحجاز : ١٦٩، ١٩٥

شستر : ٢٤٠

شط العرب : ٢٣٠

شعب (قبيلة) : ٢٣٤

شعويه : ٥٠، ٣٨

السودان : ١٦٥، ١٦١، ١٥٧، ٩٦

١٩٨، ١٩٦، ١٩٥، ١٧٢

٢٠٢، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٩

٢٠٣

سولت : ٢٢٥، ٢٢٢، ٢١١، ١٩٦

٢٢٧

السويد : ٧١، ٤٩

السويس : ١٧٢، ٨١، ٧٦، ٤٤

٢٩٠، ٢٨١، ٢٦٨، ١٩٦

سيريا : ٤٩

سیدی فرج : ٢١٧

سيريل لوكاريس : ٢١٥

سيلزيا : ٢٠٥

سير : ٢١٨

ش

شارمان : ٢٦٠

شارل العاشر : ٢١٨، ٢١١

الشام : ١١٤، ١٠، ١٦، ٢٢

٤٣، ٣٣، ٢٨، ٢٥، ٢٤، ٢٣

٨٤، ٨٢، ٧٥، ٧٣، ٧١، ٦٣

١٢٣، ١١١، ١٠٢، ٩١، ٨٦

١٥٨، ١٥٧، ١٥٦، ١٥٤، ١٥٣

١٧٢، ١٧١، ١٦٩، ١٦٥

٢١٨، ٢١٧، ٢١٥، ٢٠٤

٢٢٨، ٢٢٣، ٢٢٢، ٢٢١

الصفويون : ٢٣ ، ٥٠ ، ٥١ ، ١٩٥

٢٢٧ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧

صلاح الدين : ١١٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٦

صقلية : ٨٣

صنعا : ١٩٦

الصليبيون : ٣٠ ، ٣٩ ، ٧٣ ، ٢٠٨

٢٣١

صيدا : ٢٦٨

الصين : ٤٠

ض

ظاهر العمر : ٢٦٧ ، ٢٦٨

ط

طاهر باشا : ١٠٩ ، ١١٧ ، ١١٨ ،

١٢٤ ، ٣١٢

الطان (جريدة) : ٢٣٥

طبرقة : ٣٠٣

طرابزون : ٢٦٤

طرابلس : ١٧٦

طنطا : ١٤٤

طوسون : ١٩٣

طولون : ٤٥ ، ٣١٧

طيه : ٩٣

ع

عباس (الشاه) : ٥٠ ، ٥١

عباس مرزا : ٣٦٢

العباسيون : ٥٩

شفيق غريال : ٦٨ ، ١١٠ ، ١١٤

١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٧٤

شمبوليون : ٨١

شمر (بنو) : ٣٣٤ ، ٣٤٥ ، ٣٧٦

شندر ناجور : ٥٤

شندی : ٢٠١

شهاب (آل) : ٢٧٢ ، ٣٧٢

شهر زور : ٣٥٢ ، ٣٧٨

الشهامة : ١٤

شيعة : ١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨

٣٤٥ ، ٣٥٩

شيراز : ٣٤٠ ، ٣٤١

شيخ الاسلام : ٢٢٦

ص

صادق اغا : ١٢١

صادق افندي : ٢٨٢ ، ٢٨٤

صاري عسكر : ١٠٦

صالح بك : ٢٧٧

الصالحية : ٨٠ ، ١٨٨

الصاوي (الشيخ) : ٢١٠

صبري (الدكتور محمد) : ١٦٨

صهار : ٣٤١

الصدر الأعظم : ٤٧

الصرب : ٤٥ ، ٢٠٧

الصعيد : ٨٠ ، ٨٦ ، ١١٠ ، ١٤١

صفد : ١٦٧

٢٧ ، ٢٣ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٦٤

١٥٧ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ١٩٣

١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٥ ، ٢٠٠

٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٩٥

٢٩٦ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦

٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠

٣٣٨ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦٦

٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣

عربستان : ٣٣٤

العراق : ١٠ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٣

٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٨٩ ، ٢٢٢

٣٩٠

عروج بن يعقوب : ٢٩٥ ، ٢٩٦

العريش : ٨٣ ، ٨٤

عجيل : ٣٧٦

عسكر : ٥٨

علي بن أبي طالب : ١٨٩

علي (الأغا) : ٢٩٩

علي قندي : ٢٤٩

علي خوجه : ٣١٠

علي الجزائرلي : ١٢٤

علي شلي : ٢٣٠

علي باشا : ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٧٨

علي بك : ٢٦٨

علي الكبير : ٦٨

علي رضا : ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣

العصر العباسي الثاني : ١٤

الخلافة العباسية : ٢٧

عبد الحميد : (السلطان) ٢٥٨

عبد العزيز : ٢٥٦ ، ٢٦٣

عبد القادر : ٣١٧ ، ٣١٩

عبد الله الجزار : ١٩٣ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩

٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣

٢٧٤

عبد الله باشا الطويل : ٣٥٣

عبد الله كبريلي : ٣٤٨

عبد العلي الرحمة : ٣٤١

عبد الحميد (السلطان) : ٢٥٢ ، ٢٥٦

٢٦٢ ، ٢٦٣

٣٨٤

عبد الواد (بنو) : ٢٩١

عبد الوهاب (محمد بن) : ١٩٤

عبدى باشا : ٣٥٣

عبد الله مينو : ٥٨

عثمان كتخدا : ٩٧

عثمان طبل : ٣٤٨

عثمان باشا البسني : ٢٠٣

عديلة هاتم : ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢

عدن : ١٥٧

عراي : ٦٢

العرب : ٣ ، ٨ ، ١١ ، ١٥ ، ٢٥

فلاديفستك : ٤٩	٥٧٠٠٥٦٠٥٣٠٤٩٠٤٧
فلورنس نيتهجيل : ٢٨٨	٧١٠٧٠٠٦٧٠٦٤٠٥٩٠٥٨
فوربس وشركاه : ١٩٥	٧٧٠٧٦٠٧٤٠٧٣٠٧٢
فلكس منجان : ١٤٠	٠٨٢٠٠٨٢٠٠٨٠٠٧٩
فلكس (المكتشف بالعراق) : ٢٨٨	٩٠٠٨٩٠٠٨٨٠٠٨٦
فكشتين : ١٨٠	١٠٢٠١٠٠٠٠٩٨٠٩٦٠٩١
القور : ٢٠٣	١٠٧٠١٠٦٠١٠٤٠١٠٣
فواريل : ٣١٩	١١٤٠١١٣٠١١٢٠١١٠
فورييه : ٨٠	١٣٠٠١٢٧٠١٢٦٠١٢١
فوتانييه (فكتور) : ٣٦٩	١٤٨٠١٤٧٠١٣٨٠١٣٢
الفونج : ٢٠٣	١٥٩٠١٥٨٠١٥٧٠١٥٦
فولني . ٧٥٠٧٤	١٧٤٠١٨١٠١٧٣٠١٦٩
فريد لند : ١٨٠	٢٠٧٠٢٠٦٠١٩٢٠١٠٨
فينا : ٤٨٠٤٧٠٤٦٠٤٣٠٢٩	٢٢٤٠٢٢٨٠٢٢٦٠٢١٩
٤٩٠٤٩	٢٣٦٠٢٣٤٠٢٣٣٠٢٣٢٣٠
فيليب : ٢٣٧٠٢٣٥	٢٥٧٠٢٤٤٠٢٢٩٠٢٣٨
فيليف : ٨٢٠٧٦٠٧٢٠٧١	٢٨٠٠٢٧٤٠٢٧٣٠٢٦٥
فيليو : ٨٤	٢٩١٠٢٨٨٠٢٨٤٠٢٨٣
الفيوي (الشيخ) : ١٠٠	٣٠٣٠٣٠٢٠٣٠١٠٢٩٢
« ق »	٣٠٩٠٣٠٨٠٣٠٦٠٣٠٥
قاسم اقتدى : ٣٧٦٠٣٧٤	٣١٣٠٣١٢٠٣١١٠٣١٠
القاهرة : ٢٠ : ٨١٠٨٠٠٧١٠٧٠	٣١٨٠٣١٦٠٣١٥٠٣١٤
٠١٠٨٠٠٩٥٠٠٩٣٠٠٨٦	٣١٩
٠١٢٢٠٠١١٩٠٠١١٧٠٠١١١	فروتيراس : ٢٩١
٠١٧٦٠٠١٦٨٠٠١٣٦٠٠١٣٣	فروود : ٢٩٢
٠٢٧١٠٠٢٣٣٠٠٢١١٠٠١٩٣	فلسطين : ٧١٠١٥٥٠٠٢٢٥
٣٧٨	٢٢٧

قصر روسيا : ١١٣ ، ٢٢٩	قاضي التضاه : ٣٣١
القيروان : ٩٣	قانون : ٣٣٨
ك	القانون الفرنسي : ٩٠
	قبان : ٣٣٤
كابود سترياس : ٢٠٧	القباية : ٣٦٠
الكاييتيون : ٣٠	قبطان باشا : ٣٤٦
كابلن : ٣١٠	القيقول : ٢٦٥
الكاثوليك : ٢٨٢ ، ٢٨١ ، ٣٨ ، ٢٦	قره جورج : ٢٠٧
كارلوروستي : ٥٩	قره جولان : ٣٣٥
كارلوفز : ٢٤١ ، ٤٩	قره مصطفى : ٣٣٥
الكارييه (الجزائر) : ٤٠	قزوين (بحر) : ١٧٩ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ١٠
كاريكال : ٥٤	القسطنطينية (انظر الاستانة)
كازر : ٢٨٨	القشيم : ٣٤٠
كاليكوت : ٤٣	القصبه (قصر) : ٣٠٨
كامبل (اسكندر) : ٣٩٠	قطز : ٣٤
كامبل (بترك) : ٢٢٥ ، ١٧٨ ، ١٦٩	القطيف : ٣٣٠
كامبل (وليم) : ١٧٢	قلعة القاهرة : ١٦٠ ، ١٤٩ ، ١٣٥
كاليه : ٣٧٩	القناطر الخيرية : ١٦٠
كانروبرت : ٢٨٧	قنال السويس : ٩١
كبرال : ٤٣	قندهار : ٥١
كبريلي (أسرة) : ٢٤٢	القرم : ٣٩
الكتاب المقدس : ١٨٩	القرغيز : ٤٩ ، ١٠
كثرين الثانية : ٢١٤	القوقاز : ٢٨٨ ، ٢١٤ ، ٥٢ ، ٥١
كتزفون (طيشفون) : ٢٢٤	قونية : ٢٢٢ ، ١٧١ ، ١٤٥
كتشك كينارجي : ٢٨٢ ، ٢٤١ ، ٥٤	٢٢٦ ، ٢٢٣
٣٥٢	القورنة : ٣٤٠

كمتشكا : ٤٩
 الكنج (نر) : ٥٢
 كنجليك (الكسندر) : ٦٠
 كنجوود : ٣٨٨
 كندی : ٣٢٦
 الكنيسة اللاتينية في بكين : ٣٩
 الكنيسة : ٣٠٤
 الكنية : ٣٥٠ ، ٢٦٣
 كوت : ٣٦٠
 كوتاهيه : ٢٢٣ ، ٣٥٣
 كوريس : ٢٠٦
 كوستي : ١٦٤
 كوشليه : ١٥٨
 الكوايرا : ٣٧٤
 كولومب : ٤٠
 كوله من : ٣٥٠
 كوتية : ٨٠ ، ٨١ ، ٩٢
 الكويت : ٣٦٦
 كويستجق : ٢٣٨ ، ٢٣٤

ل

لا برتنير : ٣١٦
 لاتين (ولائنية) : ٤٦ ، ٧١ ، ٢٧٢
 لافوتين : ٣٣
 لام (نو) : ٣٣٤ ، ٢٤٥
 لامرتين : ٢٣٥ ، ٢٣٦
 لاهور : ٥١
 لاوند : ١٦٤

كتنى بك : ٢٤٦ ، ٢٤٢
 كدرنجن : ٢١٣
 كراستوفسك : ٤٩
 كربلاء : ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٧ ، ٣٥٩
 ٣٨٦ ، ٣٦٠
 الكرج : ٣٥٠ ، ٣٥١ . وانظر عماليك
 العراق .
 كردستان : ٣٢٣ ، ٣٢٨
 كركوك : ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٧٨
 كرمان : ٥١
 كرمشاه : ٣٤٦ ، ٣٦١
 كريت : ٤٨ ، ٨٢ ، ١٦٥
 كسوف : ٤٥
 كسني (الكابتن) : ١٥٨ ، ٣٦٩ ، ٣٨٧
 ٣٩٠
 كشران : ٢٠٨
 الكشف الامريكي : ٣٨
 الكشف الاسوي : ٣٩
 الكعبة : ١٦٩
 كليز : ٣٠٦
 كلديا : ٣٢٤
 كلفن : ٢٠٥
 كلكتا : ٥٤
 كلوديوس جيمس رتش : ٣٦٧
 كلوزل : ٢١٨ ، ٢١٩
 كليز : ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٢ ، ١٠٧
 الكاليون : ٢٤٣ ، ٢٥٤
 كيو فورميو : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧
 كبالوك : ٣٩

ما فرو كرو داتس : ٢٠٩
 مترنيخ : ٢٦٢ ، ٢٦١ ، ٢١٠ ، ٧٠
 متلين (جزيرة) : ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٩٥
 المتني : ١٩ ، ١٤
 المجر : ٤٨ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٣٢ ، ٢٩
 ٣٠٨ ، ٢٤١ ، ٤٩
 مجرد (نهر) : ٣٠١
 مجلس أعيان البلاد : ٣٣٢
 مجلس الشورى : ٢٩٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧
 مجلس نواب في تركيا : ٢٥٤
 مجلس النواب البريطاني : ٦٣
 المجمع الفرنسي : ٤٣ ، ٧٥
 المجموعة الأوروبية : ٣٧٩
 محمد أمين : ٣٣٨
 محمد باشا الأبيض : ٣٣٥
 محمد باشا : ٢٨٥
 محمد تقى : ٣٢٧
 محمد رشيد باشا : ٣٨٥
 محمد بن سعود : ١٩٠
 محمد بن شنب : ١٨٩
 محمد بن عبد الوهاب : ١٨٩ ، ١٩٠
 محمد رفعت : ٩٣ ، ٧٨
 محمد الرابع : ٤٧
 محمد علي : ٨٩ ، ٧٩ ، ٧٠ ، ٦٣ ، ٥٧ ، ٢٩
 ١١٣ ، ١٠٩ ، ١٠٧ ، ٩٨ ، ٩١
 ١١٩ ، ١١٨ ، ١١٧ ، ١١٦
 ١٢٦ ، ١٢٤ ، ١٢٢ ، ١٢٠

لبنان : ٢٦٧ ، ٢٢١ ، ٢١٨ ، ٩٢
 ٢٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩
 ٣٦٩ ، ٣٥٤ ، ٢٨٢
 لندن : ١٢١ ، ١٢٠ ، ٨١ ، ٧٠
 ٢٥٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ٢١٨
 ٣٩٢
 لويس التاسع : ٢٩١ ، ٧٤
 لويس الرابع عشر : ٣٠٤ ، ٢٧٢ ، ٤٧
 لوى فيليب : ٢٢٤
 لورستان : ٣٤٦ ، ٢٣٤
 لوزيانا : ٧٦
 لياتو : ٤٣ ، ٤١ ، ٢٩
 لير : ٩٢
 لينتز : ٧٤ ، ٤٧
 ليفانت : ٢١٦
 ليفورنيا : ٣١٤
 لينان : ١٥٩
 ليون : ٣٠٣

م

مارتن لوثر : ١٨٩
 مارتنيك : ٣١٦
 ماردن : ٣٨٥ ، ٢٦٠
 مارمون : ٣١٣
 ما كنيل : ٣٩٠
 مالطة : ١٢١ ، ٢٩
 مالك (نبو) : ٣٣٤

محمود خان : ٣٤٦	١٣١ ، ١٣٠ ، ١٢٩ ، ١٢٧
مخا : ١٧٩	١٣٧ ، ١٣٦ ، ١٣٥ ، ١٣٣
مدحت باشا : ٣٤٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥	١٤٢ ، ١٤١ ، ١٤٠ ، ١٣٩
٣٩٢	١٤٦ ، ١٤٥ ، ١٤٤ ، ١٤٣
مدراس : ٥٤	١٥٠ ، ١٤٩ ، ١٤٨ ، ١٤٧
مدرسة المعلمين بباريس : ٧٦ ، ٧٥	١٥٦ ، ١٥٥ ، ١٥٤ ، ١٥٣
المدينة : ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٩٣ ، ٢٧٧	١٦١ ، ١٦٠ ، ١٥٩ ، ١٥٧
مراد (الباب) : ٢٩٩	١٦٦ ، ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٢
مراد الثاني : ٣٢ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٨	١٧١ ، ١٧٠ ، ١٦٩ ، ١٦٧
مراد بك : ٨٦ ، ١٠٠ ، ٢٣٠	١٧٩ ، ١٧٧ ، ١٧٣ ، ١٧٢
مراد الرابع : ٥١ ، ٣٣٣	١٩٣ ، ١٩٢ ، ١٨٧ ، ١٨١
مرضى باشا : ٢٣٥	١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٩٥
المرقة : ٣٥٣	٢٤٢ ، ٢٣٨ ، ٢٠٠ ، ١٩٩
مرسلها : ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦	٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٠ ، ٢٤٦
مرلبره : ٣٠٥	٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٣ ، ٢٥٥
المسألة السورية : ٢٢١	٣١١ ، ٣١٠ ، ٢٧٩ ، ٢٧١
المسألة الشرقية : ٤٧ ، ٤٩ ، ٦٢	٣٨٤ ، ٣٦٩ ، ٣٦٨ ، ٣١٤
٢١٩	محمد علي رضا باشا : ٣٧٤
المسألة المصرية : ٧٠ ، ٨٧ ، ١١٠	محمد فريد أبو حديد : ١٣١
٢١٧ ، ١٧٤ ، ١٢١	المحمرة : ٣٨٣
مست : ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٦	محمود الثاني : ٢٠٩ ، ٢١٥ ، ٢١٦
١٩٨	٢٥٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٠
مستغانم : ٢١٩	٣٨٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧١ ، ٢٦٩
المستنصر : ٣٧٤	محمود شاكر : ١٤
مسقط : ٢٤ ، ١٩٧ ، ٣٣٦ ، ٣٤١	محمود القورى : ١٥
مسولنجى : ٢١٠	المحمودية (قناة) : ١٦٠
المسيحية : ٨ ، ١٣٠ ، ٢٥١ ، ٢٧٩	المحيط الهندى : ١٧٩
٢٨٠	

١٥٢ ، ١٦٣ ، ١٧٥ ، ٢٥٠
 ٢٦٦
 مالك العراق : ٣٢١ ، ٢٤٩ ، ٣٥٠
 ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٣٥٥
 ٢٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧١
 ٢٨١ ، ٢٨٤
 المتفق : ٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٣٥٢ ، ٣٥٨
 منج (أسرة) : ٤٠
 منجان : ١٢٢
 مندالي : ٣٦٠
 منشيكوف : ٢٨٥ ، ٢٨٦
 المنصورة : ٧٤
 المهدي : ١٠٠
 المهدي : ١٩٤
 الموارثة : ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٥٤ ، ٢٦٥
 ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٢
 المورة : ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٨٢
 ١٦٢
 مونغ : ٨٠ ، ٩٢
 الموحدون : ١٩



نابليون : ٣٧ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧٢
 ٧٣ : ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٣
 ٨٥ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٠٢
 ١٣٠ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٧٥
 ١٧٦ ، ٢٦٨ ، ٣٢٤ ، ٣١٧
 ناير : ٢٣٧
 نادر شاه : ٣٤٨

مشير العرض الهمايوني : ٢٦٥
 مصر : في معظم صحائف الكتاب
 تقريبا
 مصطفى باشا : ٣٥٣
 مصطفى الثاني : ١٣٩
 مصطفى نوري باشا : ٣٨٥
 معن : ٢٧٢
 معهد القاهرة : ٩٢
 المقول : ١٠ : ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ٥٢
 ٣٢٦
 المغرب : ١٦ ، ٢٩٠ ، ٣٢٢
 المقنط : ١٤
 مقدونيا : ٧٤
 مكة : ٢٦ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٩٣
 ٢١٥ ، ٢٨٨ ، ٣٦٦ ، ٣٥٩
 ملاكوف : ٢٨٨
 الملايو : ٧١
 ملبورن : ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨
 ملك التاريخ (لوى فيليب) : ٢٣٦
 ملداقيا : ٢٦٨ ، ٢٥٤
 الممالك : ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٤
 ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٧
 ٧٩ : ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ٩٥
 ٩٨ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥
 ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣
 ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩
 ١٢٠ ، ١٢٧ ، ١٢٨
 ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٥٠

هنكاو : ٣٩
هولنده (والهولنديون) : ٢٢٥ ، ٤١
٢٤٩ ، ٢٤٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤
الهيلينيون (الحركة الهيلينية) : ٦ ،
٢٠٨

— و —

واترلو : ٣١٧ ، ٢٣٥
وستفاليا (معاهدة) : ٣٦
وليم كاميل : ١٧٢
الوهايون : ١٦٨ ، ١٦١ ، ١٤٩ ،
١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٩٢ ، ١٧٥
٣٠٨ ، ٣٥٦ ، ٣٥٥ ، ٣٥٤
٣٦١ ، ٣٦٠ ، ٣٥٩
وهران : ٣١٨ ، ٣٠٩
ويلسن (الكابتن) : ١١٣

ي

اليابان : ١٦٦ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٣٦٢
يامي : ٢٤١
يشك : ٢٣٩
يعقوب (الجنرال) : ٦٨
اليهود : ٦ ، ٦٠ ، ٢٧٥ ، ٣٠٠
يوجين (الأمير) : ٤٨
اليونان : ٥٠ ، ٦٢ ، ٧٧ ، ١٣٠ ،
٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٦ ، ٢٠٤
٢٤٩ ، ٢١٤ ، ٢١٢ ، ٢١٠
٢٧٢ ، ٢٥٠

غافرين : ٢٢٧ ، ٢١٣ ، ٢١٢
غامق باشا : ٣٨٨
تيقولا (قصر روسيا) : ٢١٢ ،
٢٢٩ ، ٢٢٤
النجف : ٣٨٦
النسطوريون : ٧٩
نسلرو : ٢٣٤
النمسا والنمساويون : ٤٩ ، ٤٧ ، ٤٦ ،
٢١٩ ، ٢٠٦ ، ١٧٥ ، ٧٠
٣٨٠ ، ٢٣٦
تويوزل : ٤٩
النيل : ٨٢ ، ٧

ه

هابسبرج (آل) : ٤٥ ، ٣٦
هارفورد جوتز : ٣٥١
هايدو (المؤرخ) : ٣٠١
هريت (المسبو) : ٢٤٩
هرمز : ٣٤١ ، ٢٣٠ ، ٤٤
الهند : ٥٠ ، ٤٥ ، ٤٣ ، ٤١ ، ١٥ ،
٨٦ ، ٦٠ ، ٥٥ ، ٥٣ ، ٥٢
١٥٧ ، ١٥٦ ، ٩٠ ، ٧٨
٢٠٣ ، ١٧٢ ، ١٦٣ ، ١٥٨
٢٢٩ ، ٢٠٢ ، ٢٢٩ ، ٢١٨
٣٧٠ ، ٣٦٩ ، ٣٦٦ ، ٢٢٠
٣٩٠ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٣٧٣
٣٩٢ ، ٢٩١
هنكار اسكسكي : ٢٧٤ ، ٢٢٢

ص	س	خطا	صواب
٤	١٩	أصلية	أصلية
٧	١٠	الفاتحون	ليسوا هم الغزاة الفاتحين
١٤	٣	نمى	نما
١٥	٢١	التورى	التزوى
٢٦		السطر الاخير : المسلح	الملح
٤١	١٤	امم الاسلام	امم الاسلام الشرقية
٤٣	٥	يصلون	يصلوا
٤٧	١٩	بدأ	بدء
٤٨	١٩	الواحدة بعد الاخرى	الواحد بعد الاخر
٥٠		الحامش فارس الصفوين	فارس . الصفويون
٥٤	١٢	مراكزا	مراكز
٥٥	٢	توشك تسقط تركيا	توشك تركيا
٦٢	٨	عن عرابى	من عرابى
٦٧	٨	لا تكاد تقاس بها	لا يكاد يقاس بها
٦٩	٣	خزرة	ضرورة
٧٧	١٧	لائقاز	لائقاز
٧٧	٢١	توافقوا	توافقوا
٧٨	٢٢	محتاجون	محتاجوا
٨٣	٨	استقلال	استقلال
٨٤	١	أميرابا	اميرالا
٨٤	١٧	١٧٨٩	١٧٩٩
٨٧	١٠	ثم اخراج	وتم اخراج
٩٢	٢٣	insuti	institut
٩٨	٨	فياخذون	فياخذوا
٩٩	٢٣	انها	انما
١٠٠	٩	شكواه الشعب	شكواه
١٢٠	٨	تقتضى	تقتضى
١٢٠	١٤	contrairio	contraire
١٢٠	٢١	co dite	conduite
١٤٠	١٥	اذا	اذ
١٤٣	٣	استخدم الى	استخدم على
١٤٣	٨	حقيقا	حقيقا
١٤٦	١٧	محمد عليا	محمد عليا

ص	س	خطأ	صواب
١٥٣	١٩	شيدا	تبيد
١٥٦	١٤	انذرو	انذروا
١٥٦	١٥	هذا الشكاوى	هذه الشكاوى
١٥٦	١٦	محمد طيا	محمد عليا
١٦٠	٢٢	والقفاط	والقناطر
١٦٠	٢٣	نى	ونى
١٦٣	٢٢	وعيدا	عيد
١٧١	ماشى	Afficiel	officiel
١٨٠	٢٠	تد	بد
١٨٦	١	سبيا بأن	بأن سبيا
١٩١	٧	اتقصافة	اتقصالية
٢٠٣	١٩	ثارات	ثورات
٢٠٦	١٤	غير القوة	خير القوة
٢١٢	٢٣	١٨٢٠	١٨٣٠
٢١٨	٦	الصالح	الصالح
٢٢٤	١٦	الامل	الامد
٢٣٥	١٠	بلرستون	يلرستون
٢٣٦	٣	مقاله	عقاله
٢٤٩	١٣	فيخرج	يتخرج
٢٤٩	١٥	سلجان	سليما
٢٥٠	٢٣	الازمان	الازمات
٢٥٦	١٧	الرى	الراى
٢٦٥	١٧	الايات	إيالات
٢٧١	٢٣	يؤددوا	يؤدوا
٢٨٥	١٧	المقرين	المقرين
٢٨٧	١٨	مطيه	مهيئة
٢٨٩	٧	المساة	المسلواة
٢٩١	الحامش	سقوط الاسلام	سقوط الاندلس
٢٩٢	٢٠	جنحوا	جنحوا
٢٩٣	١١	ولها نتائجها	وتائجها
٢٩٣	الحامش	مهاجرو الغرب	مهاجرو الاندلس
٢٩٣	١	وقد كانت	وقد كانت

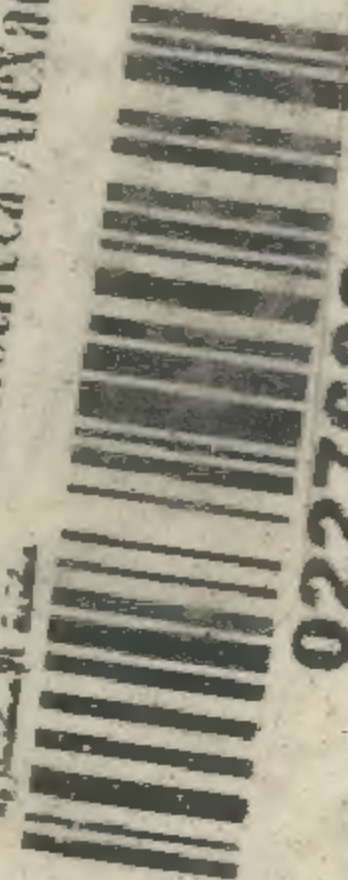
صواب	خطأ	س	ص
في ظل الاسلام	ظل الاسلام	٩	٢٢٥
أوجها	أوجها	١٩	٢٢٩
راجل	راكب	٢٠	٢٥٩
لهذا وأنهم	ولهذا أنهم	٥	٢٨١



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران



مكتبة الإسكندرية
Bibliotheca Alexandrina



0227682